

الكاتب الأكثر مبيعا وفقا لجريدة نيويورك تايمز

لظالما
تفوقت روايات
الرجل الرمادي
على جميع روايات
الإثارة الأخرى
براد ثور

MARK
GREANEY

مارك
غريني

ON TARGET

الهدف

رواية من روايات الرجل الرمادي
A GRAY MAN NOVEL



المترجم مارك أمجد

الهدف

غريني، مارك.

الهدف : رواية / مارك غريني.

ترجمة: مارك أمجد.

القاهرة: كيان للنشر والتوزيع، 2025.

540 صفحة، 20 سم.

تدمك: 978-977-820-265-6

١- القصة الأمريكية.

أ- مارك أمجد (مترجم)

ب- العنوان: 823

رقم الإيداع: 32512 / 2024

الطبعة الأولى: يناير 2025.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

-

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

ع ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم

هاتف أرضي: **0235918808**

هاتف محمول: **201000405450+ – 201001872290+**

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين.

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الهدف

مارك غريني
ترجمة: مارك أمجد

في مديح الرواية وكاتبها

"من المحتمل ألا يكون هناك فهد في إقليم "سيرنغيتي" يُمكنه تحريك غزال بصورةٍ أسرع مما يفعله "مارك غريني" في روايته بـ "الرجل الرمادي": لقد نجح غريني في إحكام خطوط روايته بشكلٍ شيقٍ ومثيرٍ كأنه هو نفسه قاتل مأجور، كتبها كأنه الرجل الرمادي بنفسه الذي يحترق طوال الأحداث كفتيلٍ متأهبٍ للانفجار وسط مجموعة من القتلة المُدرَّبين، متنقلاً بين براغ وزيورخ وباريس، ركّز "غريني" على الأرسقراطيين الفرنسيين الذين خانوه، وكتب روايته بنعومةٍ كملمس الفولاذ، بطلها حقيقي بمعنى الكلمة، وواخز مثل السلك الشائك".

ديفيد ستون، مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعاً

وصاحب رواية "The Skorbion Directive"

"حافظ الكتاب على إيقاعه الصعب والسريع والثابت، وهذا بالضبط ما ينبغي أن يكون عليه العمل المثير الناجح".

لي تشايلد، مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعاً

وصاحب رواية "Gone Tomorrow"

"عمل مُفعم بإثارةٍ شديدةٍ لم تتوقف طوال 464 صفحة، بالإضافة إلى خبرة غريني بالأسلحة والتكتيكات على أساسٍ خيالي، مما أحيا أسلوبه في الحكيم المُطعم بتفاصيل يهواها مُدمنو الإثارة. بالنسبة للقراء الذين يبحثون عن عملٍ مليء بأحداثٍ متلاحقة؛ أقول لهم: هذا الكتاب هو تذكرتكم للعالم الذي تنشُدونه".

مجلة "شيكاغو صن تايمز".

"هذه الرواية صفحاتها سكاكين مصقولة حادة ولا ترحم. شخصية الرجل الرمادي التي ابتكرها مارك غريني هي "جيسون بورن" الألفية الجديدة. لم يسبق أن قدّم قاتل مأجور مُميتٍ وحقيقي إلى هذا الحد. إن قراءة هذا الكتاب أشبهت بتلقي طلقةٍ في الصدر".

جيمس رولينز، مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعاً

وصاحب كتاب "The Doomsday Key"

"خذ الجاسوس الخيالي جيسون بورن، وضخّ الميثامفيتامين في أوردته، ثم هزه بقوة، وستحصل على وصفيةٍ لتحضير "كورت جنترى"؛ بطل رواية الرجل الرمادي... إن "جنترى" آلة قتل فعّالة ومُفعمّة بالحيوية والكفاءة، وسرعان ما سيجد القارئ أن "بورن" مُجرّد شخصٍ مُبلّ بالمقارنة به. إن كتابة "جرينى" خلاصة".

صحيفة "The Memphis Commercial Appeal"

"من الصفحات الأولى، يتطير الرصاص وتتراكم الجثث في مذبحةٍ متكاملة، وطوال العمل المثير يحافظ البطل على قانونه الأخلاقي الخاص مع بقاء دوافع الأشرار غامضةً دوماً، بالطبع سيعقد القراء مقارنات بين

تحفة "مارك غريني" و"جيمس بورن"، ولكن سيظل للرجل الرمادي تفرُّده، نهاية الرواية تبحث عن تكملةٍ تامة، لكنه في الوقت ذاته من الصعب الحفاظ على القوة التي بدأ بها غريني".

موقع "بوك ليست"

"عمل تشويقي سريع ومُمتع... بقدرات لا تُصدَّق للبقاء على قيد الحياة وسط مواجهات الرجل الرمادي لفرق القتلة وفخاخهم المدمرة، مع هتاف القارئ لهذا البطل غير المتوقع. المعارك السينمائية وحيل الهروب بسيطة لكن حبكتها مُماسكة ومُرضية وسط تفاصيل اختارها غريني بعناية لإظهار الجانب الجيّد من "كورت جن تري" مقابل جشع ومنافسة أعدائه".

مجلة Publishers Weekly

الإهداء

إلى عمّتي دوروثي غريني
شكراً لك على كل الحب والدعم
وآسف على أي كلمة سيئة

شكر وتقدير

جزيل الشكر والتقدير لكارين ماير، وجون وواندا أندرسون، وديفين جريني، وميريا ليدزما، وتري وكريستين جريني، وجون وكاري إيكولز، ونيكول روبرتس، وديفيد وسوزان ليزلي، وكريس وميشيل بوركي، وبوب هيذرنتون، وأبريل آدامز، ودانا ونانسي آدمز، وجيف وستيفاني ستوفال وكيث كليغورن وجيني كرافت.

شكرًا أيضًا لسفيتلانا جانيا، وجافين سميث، وجيمس، وريبيكا بيغر، وجاي جيسون، وألان ويب، وبول جوميز، وبقية فريق الدعم في معهد "الاستجابة التكتيكية" في "كامدن، تينيسي".

لكم جميعًا أوجه شكري بعدما قدمتم كل مساعداتكم لأحقق عملي على أكمل وجه، إن ما قُمتم به يفوق تخيلكم ولن تُوفيه أي كلمات امتنان مني.

أودّ أيضًا شكر محرري الدعوى "توم كوجلان" ووكيلتي الأدبية "سكوت ميللر"، يا رفاق كنتم وستظلون الأفضل على الإطلاق.

افتتاحية

فوق البحر الأيرلندي حلقت السُّحب رماديةً داكنةً وكثيفةً، بينما هواء الصباح الرطب يُهفّف فوق القاتل الثابت بقدميه على مُقدمة سفينة الصيد الخشبية، تُحَوِّطها أسراب النوارس الصاخبة وهي لا تزال على بُعد أميالٍ من حافة الشاطئ. والآن وقد أبحرت داخل الميناء؛ احتشدت أسراب من النوارس فوقها وحولها فارشةً أجنتها البيضاء تزيح بها الضباب، يتردّد نعيقها ويُرفرف فوق المياه كأنما لتُعلن وصول القاتل للساحل الأيرلندي، لكن تحذيراتهما سرعان ما تبخّرت في الهواء.

رست السفينة في الميناء قبيل الساعة الثامنة صباحًا، قفز القاتل من سطحها للرصيف البحري دون إلقاء نظرةٍ على عضوي الطاقم الاثنین، كما أنه لمدة ثلاث ساعات متواصلة لم يتبادل كلمةً واحدة معها منذ التقطته سفينة "لوشين" البالغ طولها أربعين قدمًا من سفينة شحن ليتوانية من قلب المياه الدولية. بقي مرتكزًا على مقدمة المركب يتفحص من حوله البحر الهائج مُرتديًا معطفًا أسودًا غطاء رأس حماه من المطر والرذاذ المالح الذي يقذفه الموج بين الحين والآخر، والأهم من كل هذا أنه حجبه عن النظرات الفضولية للابن وأبيه اللذين يملكان القارب. أما بقية الطاقم فقد لزموا أماكنهم في قمرة القيادة يتبعون التعليمات الصارمة، إذ تم إعلامهم أنهم سيلتقطون راكبًا وسيتجنّبون أي احتكاكٍ به حتى إعادته لميناء "هوث" شمال "دبلن"، وبعد توصيل ذلك الراكب الغريب، كان عليهم الاستمتاع بصرف مكافأتهم وكتّان كل ما حدث طوال رحلتهم.

سار القاتل عبر القرية الساحلية واشترى من محطة القطار الصغيرة تذكرة لمحطة "كونولي" في وسط "دبلن"، كانت أمامه نصف ساعة فقط ليُنجز مهمة القتل المُحددة، نزل سلاّم المحطة واصلاً للحنانة التي في الطابق السفليّ واسمها "الصرخة اللعينة" هناك حيث يقدمون إفطارًا أيرلنديًا كاملاً لصيادي الميناء، عَجَّ المكان الضيق برجال يلتهمون أطباق البيض والتفانق والفاصولياء المطبوخة مع كئوس بيرة "جينيس" السوداء كالخبر. عرف القاتل كيف يندمج في محيطٍ غير مألوف؛ همهم وأوماً ليُخفي لهجته الأجنبية عمّن حوله وطلب مثل ما طلبوه وحاول بقدر المُستطاع تقليدهم في سلوكياتهم ليتماهى معهم، التهم طعامه وتجرّع بيرته قبل مغادرة "الصرخة اللعينة" ليلحق بقطاره.

وبعد نصف ساعة سار عبر "دبلن"، كان قد ارتدى لحيته البنية الكثيفة المزيفة وقبعة زرقاء صوفية ثقيلة تتدلّى على أذنيه وتُغطي جبهته، ووشاحًا مُحكم الإغلاق حول عنقه، ومعطفًا أزرق داكنًا دفس فيه يديه بقفازيّها ليحميها من لسعة الهواء البارد. علّق على كتفه حقيبةً مصنوعة من الكنفاه تتأرجح مع خطواته، اتجه جنوبًا مُبتعدًا عن محطة القطار، ثم انعطف يمينًا عند رصيف نهر "ليفي" وسار بحذاءه، وعندئذٍ بدأ مطر شديد في الهطول مُغرِقًا معطفه.

لكن القاتل مضى في طريقه.

من البداية تطلّع للانتهاء من هذه المهمة، فلم يكن مرتاحًا سواء أثناء رحلته بالبحر، ولا الآن وسط حشود كل هؤلاء الناس الذين تكاثروا كلما اقترب من شارع "أوكونيل".

لكن القصة كلها أساسها رجل يعيش هنا في "دبلن" قد قرّر شخص ذو مال ونفوذ محوّه من الوجود. وقد أتى "كورت جن تري" ليتفقّد ذلك بنفسه ويُنجزه، إذا رأى أن الأمر يستحق، وفق معايير الخاصة.

اشترى من الصيدلية علبة من أقراص "أسيتامينوفين⁽¹⁾" وزجاجة مياه، لقد أصيب قبل بضعة أشهر برصاصة في فخذه وجرح سكين في أمعائه، لكن الألم قلَّ تدريجياً بمرور الأسبوع. لأجسامنا البشرية قدرة مذهلة على الاستشفاء، وهي للغرابة أعظم بكثير من قدراتنا العقلية. في الفترة الأخيرة اعتمد "كورت" إلى حدِّ الإدمان على الحبوب والحقن، مثل: "فيكودين" و"أوكسيكودون" و"ديميرول" و"ديلوديد". واضطرب جراح في "نيس"، وهو بالمناسبة صديق مُقرب، على إمداده بكلِّ الجرعات المطلوبة منذ أجرى عملياته لتنظيف وعلاج جرح بطنه، كاد "جنترى" ينفجر من فرط الحبوب التي تعاطاها بشكل يومي، لكنه على أي حال ترك كل أدويته وراءه قبل صعوده على سفينة الشحن بشكل إجباري، لقد مرَّ أسبوع الآن على آخر مرة تعاطاها فيها، وشعر كأن جسمه يمرُّ بعملية طرد سموم مريرة تجعله في إعياء وبؤس شديدين وبشكلٍ متواصل طوال الليل والنهار.

نظرياً لا يُعتبر "الأسيتامينوفين" بديلاً لأي مُخدر آخر قوي معروف، لكن كل المسألة أن عقله وجد راحةً في روتين ابتلاع هذه الأقراص.

بعد مغادرته للقارب بثلاث ساعات، حجز لنفسه في فندقٍ اقتصادي يُديره صيني يقع في زقاق ضيق قُبالة شارع "بارنيل" على بُعد نصف ميل شمال النهر. كانت غرفته المؤجَّرة في الفندق مظلمة وجوَّها رطب تفوح فيها رائحة الشحوم والعفن؛ أغلب الظن أن تلك الرائحة الكريهة آتية من مطعم يقع أسفل الفندق بطابقين يضحها عبر فتحات التهوية. وعلى الرغم من هطول المطر بثباتٍ إلا أنه فشل في إزالة الأوساخ الزيتية التي غطَّت زجاج النافذة من الداخل.

استلقى "جنترى" على مرتبة سرير الفندق المترهلة حتى شعر بظهره يكاد يلتصق بالأواح السرير، وحدَّق في السقف وسط تشويش من أفكاره المتلاطمة؛ لقد كان على متن مركب لأكثر من أسبوع، وبالتالي لا يزال جسمه يشعر بتأوُّجٍ صعوداً وهبوطاً حتى في سكونه، وهو شيء منطقي بعدما اعتاد على حركة الأمواج. استغرق ساعاتٍ ليستغرق في النوم، بينما المطر البارد لا يتوقَّف عن الهطول على لوح النافذة المهشَّم بجواره.

بعد الظهيرة، جلس في المطعم الصيني في الفندق الصغير، وأكل مكرونة مع لحم الخنزير، واستخدم هاتفاً محمولاً اشتراه من المتجر للدخول إلى الإنترنت، تصفح موقعاً سياحياً يُنظم رحلات لـ "الأورال"، أدخل رمز الدخول لقسم الموظفين وبواسطة كلمة مرورٍ أخرى تمكن من الدخول إلى حلقة مُغلقة مع مُتصل آخر. كتب على هاتفه بإبهامه بينما يشرب عصير البرتقال الفاتر.

"أنا هنا!"

بعد بضع ثوانٍ أضاءت شاشة كورت بإشعار يُعلمه أن الضيف ردّ عليه بالفعل.
"في بانكوك، على ما أعتقد؟"

كانت هذه هي الشفرة السرية المتفق عليها بينه وبين الضيف بشكلٍ مسبق، بعدها اطمأن جن تري وتأكد أنه يُحدّث الشخص المضبوط.
"لا، سنغافورة".

كتبها بشكل خاطئ، و فقط من خلال الغلطة الإملائية اكتمل التأكد من هوية "جن تري"، إذ كان هذا أيضًا مُنفقًا عليه ضمن أكواد التواصل.
"هل كانت رحلة لطيفة يا صديقي؟"

جاء الرد، وقرأه جن تري وهو يقضم من فطيرة لحم مقلية مُشبعة بالزيوت تمامًا مثل نافذة الغرفة المُتسخة.
حاول ألا يُدير عينيه في سخط. كي لا تبدو عليه أي حركة غريبة أمام الكاميرا التي ترصد أقل حركةٍ منه للضيف مُحدّثه.

لم تكن رحلة لطيفة، ولم يكن "جريجور إيفانوفيتش سيدورينكو" صديقًا لجن تري. كورت أصلًا شخص ليس لديه أي أصدقاء، وبصعوبةٍ شديدة يثق في الناس، فكيف سيُصادق واحدًا مثل "سيدورينكو" أو "سيد" الوغد الروسي البغيض الذي يُدير في "سان بطرسبورغ" منظمةً للمقامرة غير الشرعية والدعارة وتجارة المخدرات وتحريك القنلة المأجورين، و فقط ... بدافع اليأس وافق كورت جن تري "الرجل الرمادي" أن يعمل تحت إمرة ذلك الروسي اللعين.

ظاهريًا، كان الاثنان في نفس مجال العمل القذر، لكن "جريجور سيدورينكو" لم يكن يُشبه "دونالد فيتزوري" الرئيس القديم للرجل الرمادي. فقد كان السير "دونالد" مديره وراعِيه منذ طرده جهاز الـ "سي آي إيه" خارج الولايات المتحدة مع حُكم بالحرق والإعدام رميًا بالرصاص. في ذلك الوقت استقبله فيتزوري وعرض عليه مهام خطيرة لكن عظيمة، ضد أوغادٍ فاسدين يستحقون الموت، ودفع له أجرًا عادلًا مقابل عمله، بل واستأجره مرةً لحماية عائلته. لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ ساءت أمور فيتزوري حتى انقلب عليه، وحتى لو افترضنا أنه فداه بروحه فجن تري لم يُعد يثق لا به ولا بأي شخصٍ آخر، وكانت هذه نتيجة منطقية سيصل إليها أي إنسان عاقل بعد تواجده داخل هذا الميدان الدموي.

كان "سيد" حثالة، بل هو على رأس الملاعين، لكن نقطة قوّته أنه معروف في المجال، ومن البداية أدرك "كورت" أنه لا يُمكنه الوثوق بشخصٍ يتمتع بمثل هذه الشخصية الثعبانية وبالتالي لن يثق في أي كلمةٍ منه أو اتفاقٍ معه، لكنه في الوقت ذاته يستطيع "سيد" الوصول لعقودٍ ربحية جيدة من وراء العمل لصالحه، ومن البداية وافق الروسي على اشتراط "جن تري" عدم التورط ضد أي أشخاصٍ يُعتبرون، وفقًا للمعايير العامة الطبيعية، صالحين أو على الأقل يميلون للجانب الجيد من الحيات الأخلاقي.
وهو ما قاد كورت إلى هنا في أيرلندا.

كانت رحلته هذه إلى "دبلن" أولى عملياته لصالح "سيد"، قرأ الملف الذي يحوي كل بيانات الهدف، وتحركاته، وميوله، وماضيه البشع، ثم وافق على المهمة، وفاوض على الإنترنت بشأن الأجر المنخفض المعروض عليه، وفي النهاية قبل على مَضَض.

كان كورت بحاجةٍ دومًا للعمل، صحيح أن توقّفه وجروحه وأدويته تساعد على ارتخائه، لكنه في النهاية رجل من طرازٍ فريد بحيث لا يقبل أبدًا أن يصير رخوًا ولا ساكنًا.

حفظ كورت في ذاكرته المعلومات المهمة المتعلقة بالهدف، وهي الإجراءات اللازمة قبل أي عملية يقوم بها عادةً لصالح أي عميل:

الاسم: دوجال سلاتري.

العمر: أربعة وخمسون عامًا.

الجنسية: أيرلندي.

الطول: مرتفع.

الوزن: بدين.

كان ملاكًا ماهرًا في شبابه لكنه لم يتجاوز دائرة المواهب المحلية المتوسطة المستوى، ثم وجد عملاً كحارس أمنٍ لأحد النوادي الليلية في "دبلن"، وشيئًا فشيئًا تفرغ للعمل لصالح تنظيماتٍ محلية تُشغّل مومسات بولنديات كسولات وتُجَارَ مخدرات أتراكًا، يزورهم ليُبرحهم ضربًا ويلقّنهم درسًا حين لا يُحقّقون حصص المبيعات التي يطلبها رؤسائهم، ثم نفذ عمليات قتل على مستوى صغير؛ من تلك النوعية التي تدور بين عصابةٍ وأخرى ولا شيء فيها يدعو للتباهي ولا البطولة، سافر بعدها لأمستردام وقضى وقتًا طويلًا في عملية هدفها التخلص من منافس رئيسه وسط وابلٍ من الرصاص بعدما لكم بقبضتيه القويتين وجهي حارسيه الشخصيين.

ومنذ هذه الحادثة، ارتقى للمرتبة الثانية في مجال القتل المأجورين، أعمال اغتيال لصالح بعض الحكومات في أنقرة، سردينيا، وكلكتا، وطاجيكستان. لاحظ كورت من الملف المدروس بعناية حول ضحيته أن هدفه المُقبِل لم يعمل أبدًا منفردًا ولم يكن العقل المُدبّر وراء أيٍّ من العمليات التي نفذها، وبشكل عام اتّسمت أعماله الإجرامية بشيءٍ من السموّ والرّفعة، لا على المستوى الأخلاقي، إذ قتل مُحققًا ورجل أعمال صالحًا وصحفيًا أو اثنين؛ وإنما على المستوى الدموي إذ إن جميع جرائمه، حتى لو لم تكن مُذهلة فنيًا، فقد اعترف كورت لنفسه أنها تمت على مستوى عالٍ من الكفاءة.

لكن آخر ضربة له كانت قبل ستّ سنوات، وكان شيئًا واضحًا لكورت وهو يقرأ الملف أن ملاحظات "سيد" عن "سلاتري" بعد تلك الفترة صارت أكثر ضعفًا، بعد العمل في المضاربات التجارية انتقل للعمل كعازف "درامز" في فرقة أيرلندية اعتادت تقديم عروضها لخمسة أيام أسبوعيًا في بار سياحي بدبلن. وهي المهنة التي دقّت المسمار الأخير في نعش سلاتري كقاتلٍ محترف.

سرح كورت وفكّر في أن هذه العملية قد تكون أكثر ما ارتكبه في حياته حيادية، قارن بينه وبين سلاتري فوجد أن كليهما قاتل، لكن هناك فرق كبير وهو أن كورت يُراجع ملفات ضحاياه جيدًا حتى يجد أعمالهم تجعلهم يستحقون القتل خارج إطار القانون، الأمر الذي لم يحرص على فعله سلاتري حين نفذ عملياته بهمجية لا تتناسب مع ما توصلت إليه البشرية اليوم من إنسانية وعدالة. ووفقًا لتحريات "سيد" يعمل سلاتري الآن لصالح منظمة إجرامية دولية إيطالية، وقد تكون ضحيته المقبلة عاهرة مُتمردة أو صاحب مطعم، وسبب القتل العجز عن دفع مبالغ الحماية المُستحقة لصالح المافيا.

فكّر كورت بينه وبين نفسه، إن قتل سلاتري لن يُقلل من جرعة الشر الساكنة في عالمنا، لكنه في الوقت نفسه لن يضرّ.

بمعنى آخر لن تضر أي إنسان آخر طالما ليس اسمه "دوجال سلاتري".
"مرحبًا! هل ما زلتَ هناك؟"

جاءته رسالة ضيفه إذ ترك "سيد" عاليًا منذ ثلاث دقائق. استجمع كورت تركيزه على المهمة وحملق في شاشة هاتفه.

"أنا هنا، كل شيء على ما يرام".

"كم من الوقت ستحتاج في رأيك لإنجاز المهمة؟"

"لا أعرف، أحتاج لتقييم الوضع الليلة، لا تقلق سأتعامل مع الهدف في أول فرصة مواتية".

"أنفهم ذلك، لكن لا تستغرق وقتًا طويلاً، لديّ أشياء أخرى تنتظر".

هناك دومًا "عمل"، عرف كورت ذلك، لكن معظم "الأعمال" تضمّنت عقودًا لم يكن ليُقبلها، شعر أنه لو ردّ على "سيدورينكو" سيدخل في جدالٍ عقيم؛ ففضل تجنّبهُ وردّ فقط بالإجابة التي ينتظرها أي رئيس من تابعيه.

"حسنًا".

"أنتظر منك أخبارًا جيدة، مع السلامة".

ودّع الرجل بالروسية، فخرج كورت من المحادثة وأغلق هاتفه ووضعهُ في جيب معطفه، أنهى وجبته ودفع ثمنها ثم غادر الفندق.

في وقتٍ متأخر من بعد الظهر، تجوّل في الأحياء المحيطة بشارع "جرافتون". أمضى ساعة كاملة يتأمل ملابس السكان المحليين وسلوكياتهم، محاولًا استيعاب كل ما تلقته عيناه. الأمر ليس صعبًا أبدًا على القتلة المحترفين؛ كانت دبلن مدينة عالمية مليئة بالبولنديين والروس والأتراك والصينيين واللاتينيين، وحفنة من الأيرلنديين هنا أو هناك. لم تكن هناك حوله أي سلوكيات أو نظرات شاذة توحى بأعمالٍ دعارةٍ أو أي شيء غير قانوني. دخل محل ملابس مستعملة في داوسون لين، وخرج بحقيبة. في حمام متجر آخر غير ملاسهُ مُرتديًا بنطلونًا أزرق وسترة بغطاء رأس وجاكييت أسود وحذاءً رياضيًا وقبعة زرقاء داكنة.

وبحلول الليل، تحولت هيئته لواحدٍ من الناس المحليين، يسير وسط الجموع بحيث لا يمكن تمييزه عن غيره. استغلّ الزحام وقام بإجراءٍ وقائي يقوم به عادة في مُفتتح عملياته بغرض التمويه، إذ استقل بعض القطارات وغادرها أكثر من مرة ليتأكد من أنه غير مُراقَب. فكَّر في أنه في هذه اللحظة هناك أشخاصٌ كثيرون حول العالم يريدونه ميتًا، لكن مَنْ يهتم حقًا إن كان "سلاتري" سيظل على قيد الحياة اليوم أم لا! حافظ على تركيزه لأجل عمليته، كان هدفه الثانوي هو قتل الأيرلندي؛ أما الأساسي فهو النجاة، كما هو الحال دومًا.

يحتاج أن يضع أمانه الشخصي على رأس أولوياته، هكذا ردّد لنفسه.

وبعد أن اطمأن إلى أنه غير مُراقَب، توجه إلى منطقة بار "تمبل" على الضفة الجنوبية لنهر "ليني". وفي الساعة العاشرة جلس في بار فندق "أوليفر سان جون جوجارتي"، وعلى الرغم من أنها كانت ليلة الأربعاء؛ إلا أن الحانة اكتظت بأمريكيين وأوروبيين وآسيويين، ربما الأيرلنديون الوحيدون هنا كانوا السُّقاة والفرقة الموسيقية.

طوال الأشهر القليلة الماضية، لم يتواجد كورت في حاناتٍ صاخبة أو أي نواذٍ ليلية مزدحمة، بقي في جنوب فرنسا قاطنًا في عُلّية كوخ مُتواضع في قرية صغيرة على سفح تلٍ صغير، ونادرًا ما غامر بالخروج إلى السوق لشراء الأساسيات من أغذية معلبة أو زجاجات مياه. وحتى زيارته القليلة لطبيبه في "نيس" كانت قليلة. كان ذلك في فصل الشتاء؛ والنوادي الليلية والمحلات التجارية في مُتنزّه "بروميناد دي أنجليه"، التي تنشط عادةً خلال مواسم السياحة، شبه مهجورة أو مغلقة، لطالما أحبّها كورت في هذه الحالة.

ولأنه يُحب الانفراد والمراقبة كان بار "أوليفر سان جون جوجارتي" بالنسبة له لعنة متكاملة؛ خاصةً حين حاولت فتاة البار التودّد له سائلةً إياه بتطفّل وفضول نسائي مريع عن اسمه ومكان سكنه، وبعدها حاولت امرأتان إنجليزيّتان أن تتجادبا معه أطراف الحديث، تجاهل محاولتهما جميعًا، ورشف من بيرته، ماسحًا المكان من حوله بعينيه، مُتمنيًا لو أن معه أربعة مليجرام من "الدليوديد" لیساعده على الاسترخاء ويسكّن ألمه الفظيع. أفاق وانتبه غاضبًا من تشبّته فأجبر نفسه على التركيز في مهمته.

في عالمنا هذا هناك نوعان فقط من الكائنات؛ الأغنام والذئاب، كان كورت ذئبًا ويعرف هذا عن نفسه. صحيح أنه ضعف قليلًا الفترة الماضية لكن الذئب يبقى ذئبًا مهما تعاقبت الأحداث والظروف، لم يفتحهُ يقينٌ حول هذا أكثر من لحظته الآنية في تلك الحانة، وهو مُحاط بحوالي مائة خروف. لا أحد وسطهم يبدو عليه أنه يُشكل خطرًا مثلما يبدو هو. لا أحد يهتم بتحديد مخارج المكان وهيئة الرجال الموجودين فيه ونوع زجاج نوافذه، لا أحد يلاحظ انخفاض مستوى الأمان بالفعل في الشارع أو درجة إنارة الزقاق الخلفي. لا أحد يراعي أين يجلس في البار بحيث لا تُعاكسه أي انعكاسات للمرايا أو تُشوِّش على تكوينه صورة تكتيكية كاملة للمكان وعناصره من حوله.

بمعنى آخر أكثر تفصيلاً؛ لم يكن بينهم من هو قادر على النجاة بنفسه إذا تأزّم الموقف في أي لحظة.

لم يكن بينهم مَنْ يملك خطة هروبٍ متى لزم الأمر أو سيناريو لقتل البقية إذا اضطر لينجو بحياته.

وصحيح أنه وسط حشدٍ من الخراف المسكينة الضعيفة، لكن هذا لا يمنع وجود ذئبٍ واحد آخر حوله، فوفقاً للتحريات المجموعة من قبل "سيد" لم يكن الضحية (عازف الدرامز) رجلاً سهلاً أو مُسالماً، هناك خمسة عازفين في الفرقة المحلية، وبما أن كورت ليس خبيراً في الموسيقى لم يهتم بمستواهم لكن ما بدا من ردود أفعال الحاضرين واندماجهم معهم أنهم لا بأس بهم. تأمل كورت أحد عازفي الفرقة بجسمه البدين وشعره الأبيض، يجلس على طرف المسرح يضرب على نوع من الطبول الأيرلندية القديمة، وقد بدا أنه يعزف بجدية، يخفض رأسه كأنه يمحص تفاصيل الموسيقى. بدأ لكورت موسيقياً في منتصف العمر، وأقل من متوسط عمر قاتل متسلسل، ربما مرّ وقت طويل على بدايته لعمله اليومي. وبجانبه، نفخ شابٌ نحيف في صفارة من الصفيح أمام ميكروفونه، ولعب عازفو الجيتار وغنّوا بانسجام حتى أشعلوا حماس قطع الأغنام أمامهم، لم يفهم كورت كل معاني الأغنية لكنه التقط أشياءً تتعلق بفتاة جميلة وحقل بطاطس وزوج تُوفي من فرط السكر.

أنهى كورت كأس بيرته وتوجّه للباب.

1 مُسكن للألم وخافض للحرارة.

ودّع "دوجال سلاتري" زملاءه في الفرقة في الحادية عشرة والنصف، ثم غطى شعره الأبيض الكثيف بقُبعة صوفية. غادر حانة "أوليفر سان جون جوجارتي" وطبّلته في شنطته الجلدية المعلقة على كتفه. كانت أمسية باردة، ولكنها صافية مثلها مثل ألف ليلة أخرى عزف فيها هنا، ومثل الليالي الماضية أيضًا، تمنى لو تجرّع نصف لتر من خمرته ليُصفي ذهنه في طريق عودته إلى شقته. كانت هناك عشرات الحانات على بُعد دقائق سيرًا على الأقدام، ولكن شقته تبعد ميلًا واحدًا على الجانب الآخر من محطة "بيرس". فعل ما يفعله كل ليلة؛ توجه لمكانه المعتاد ليشرب كأسًا.

سار بعرج، كانت لديه ركبة سيئة والأخرى أسوأ، لكن العرج بالاثنتين كان أمرًا غير واردٍ فأتكأ على أفضلهما حالًا، خاصةً أن جسمه الثقيل بدأ يترنح كنوع من أساليب مقاومة البرد.

استغرق الأيرلندي العجوز حوالي ثلاثين دقيقة ليصل إلى حانة "بادريك بيرس" التي سُميت على اسم القديس الكاثوليكي الأيرلندي الذي أعدمه البريطانيون في انتفاضة عيد الفصح عام 1916، كانت الحانة كاثوليكية في حالة من الجمال الغبي يُرثى لها، حيث زينت صور الانتفاضة المسلّحة نوافذ المكان وجدرانها. دخل دوجال إلى الحانة وهو يعرج، وضع معطفه في ركنٍ وتوجّه للبار ليحصل على كأسه من البيرة بعد أن صبّ من الصنبور.

عثر كورت جنترى على مدخل مُظلم فجلس هناك مستفيدًا من استراتيجية الموقع الذي يُمكنه من رصد الأنحاء حوله، والأهم أنه ظلّ مُراقبًا ضحيتته دون أن تنتبه لوجوده، مشى اليوم أكثر مما فعل طوال الأشهر الخوالي، شعر بألم في عضلات فخذيته وساقيه وأحسّ بلدغة في ساقه اليمنى حيث مزقت الرصاصة لحمه في ديسمبر الماضي. تمنى لو أن معه أي جرعة من مُسكن "الفيكودين" لكنه في الوقت ذاته يعرف أنه لا يمكن تناول هذه العقاقير المُخدّرة في ليالي العمل، لذا اكتفى بالجلوس والتحديث في باب الحانة، كانت ليلةً استطلاعية ليست إلا؛ عادة ما يكتفي في هذه المرحلة بمراقبة هدفه؛ مواقيته وتحركاته ولزماته لتحديد لحظة القنص المناسبة.

بدأت الحانة بمنظرها من الخارج صالونًا صغيرًا، دأب كورت على مُراقبة هدفه أمامه وهو يعدُّ كمّ الفرص التي اغتنمها دوجال ليأتي هنا ويجلس ويشرب فيها سواء بمفرده أو برفقة أحدهم، في دبلن هناك وفرة من الأماكن لكل فردٍ أكثر من أي بقعة أخرى في العالم، والأيرلنديون بشكل عام يحبّون حاناتهم لذا لم يتفاجأ كورت حين وجد نفسه يُضيّع وقتًا كبيرًا من مهمّته في مراقبة هدفه داخل حانة.

نهَضَ جنترى على قدميه بقوة، أراد تحريك عضلاته، لكن ذلك كان مؤلماً، شعر بحاجةٍ للحركة وللتبول، وكأنه شابٌ محلي عادي عَرَفَ من تلقاء ذاته أين عليه قضاء حاجته، توجه لزقاقٍ قريبٍ من حانة "بادريك" وأخفى نفسه في الظلام مُقْتَرِباً من الحائط بجوار صناديق القمامة، فكَّ حزامه لكنه سرعان ما أغلقه إذ لفت سمعه ضجيجٌ في آخر الزقاق على بُعد خمسين قدماً لرجالٍ خرجوا فجأة من باب أنزلت فتحته على العتمة المحيطة شعاع نورٍ مخلوطاً بجلبة آتية من الداخل، ثم عادوا من حيث أتوا دون أن ينتبهوا لوجود شخصٍ آخر على مقربةٍ منهم أوقفوه عن مواصلة تبؤله.

فهم كورت أنه الباب الخلفي للحانة، يبدو أنها أكبر مما تخيل. تبول على جدارٍ طوي ثم سار نحو الباب فتناهدت إليه أصوات خبط كرة البلياردو برأس عصاها، ممزوجة بهمهمة رواد الحانة التي لم يتبين منها شيئاً. ثم لاحظ أن هذا الزقاق يفضي لشارع جانبي، وتساءل إن كان سلاتري قد غادر بالفعل متخذاً هذا الطريق، لكنه استبعد في النهاية هذا السيناريو لعدم منطقيته.

اللعنة!

شعر جنترى أن عليه الاكتفاء بقدر مراقبته اليوم، والاستكمال غداً، أو ربما ستكون فكرة سديدة أن يتوجه الآن ويدخل الحانة ويتأكد بعينه أن هدفه لا يزال في الداخل. لكن تعريض نفسه للخطر داخل بار مزدحم بكل هؤلاء الرجال الأشداء سيكون في هذه الحالة أقل المخاطر المتوقعة، والرجل الرمادي عرف دوماً كيف يتماهى وسط الناس سواء في الشوارع أو داخل الأماكن المغلقة. دس رقبتة داخل سترته ليبدو أقصر قليلاً وولج الحانة من بابها الأمامي.

ما إن دخل جنترى حتى أدرك أنه حفر لنفسه بالخطأ قبره، كانت أصغر ممّا تخيل، تحتوي على منطقة حمام سباحة، سمع أصوات روادها قادمة من بابها الموصل والمكتوب عليه "للأعضاء فقط"، أما الصالة التي دخلها فكانت تحتوي فقط على ثلاث موائد وغُرَف صغيرة حميمية على طول الجدار، اتجه للبار وسحب كرسيّاً دون أن يلتفت يميناً أو يساراً، أخرج محفظته وحدّق مباشرة في الزجاجات المرصوصة خلف البارمان. شعر وكأن هناك حوالي عيون اثني عشر زبوناً مُسلّطة عليه، أحسّ بالتوتر وهو يتصاعد في جوّها، لم تكن مكاناً يرحّب بالغرباء، لكنه لم يكن يعرف بعد ما إن كان سلاتري في الغرفة معه أم لا.

اتّسمت الحانة وروّادها بالصرامة، وشعر كورت بذلك إذ ملاً الحقد الأجواء.

لم يكن هذا مكاناً للغرباء.

ألقي نظرةً على المرأة المواجهة له فوجد سلاتري ورفيقه يحملقون فيه عبر انعكاسها.

فكّر كورت أن الزحام حوله ليس في صالحه.

اصطدمت عيناه بلافتة أعلى البار مكتوب عليها "ممنوع الغناء" هذا ما ينقص الليلة فعلاً.

اللعنة!

حملق فيه البارمان من فوق جريدته، ثم أنزلها، ورفع حاجبيه الأحمرين كأنه بنظراته يستفهم منه عمّا يريد شربه، فطلب كورت كأساً من البيرة بها يُعادل نصف لتر.

أما سلاتري، فانهمك في حوارٍ شيق مع رفيقيه الشابين حول مباراة "رجبي"، ولأنه كان مُتعباً صميماً لإحدى فريقيهما استهواه الكلام معها، مع ذلك تتبعت عيناه الغريب منذ لحظة دخوله الحانة، خاصةً أن الوقت متأخر لأي زائرٍ ليطلب هذه الكمية من البيرة، فانتبه سلاتري وعدل جلسة رفيقيه على مائدته ليتمكن من رصد الضيف المريب.

وسرعان ما انتبه دوجال إلى زملائه على الطاولة.

في رأسه دقت أجراس عالية أعلى من أجراس كنيسة، شخصٌ غريب بما فيه الكفاية في حانته المفضلة ليلفت الأنظار له، تذكر أنه رآه في بار فندق "أوليفر"، علاوة على ذلك كان شاباً مناسباً لذوقه.

لم يكن محلياً، حتى لو حاول التنكر بذلك، وبينما جلس الرجل على مقعدٍ في الحانة، تأمَّله محاولاً إيجاد أي دليل إن كان يحمل تحت ملابسه أي سلاح، أي انبعاث مسدس أو سكين أعلى حزامه، لم يرَ دوجال شيئاً، لكن للأسف الجانب الأيمن من الضيف الغريب خفي عن الرؤية.

سمعه يطلب نصف لتر من البيرة، ولم يجد في صوته أي لهجة غريبة أو أجنبية، بل حتى إنه بدا أيرلندياً بعض الشيء، وإن كان صوته خفيضاً وناعماً.

أهو من الشرطة؟ الإنتربول؟ عرف دوجال جيداً أن أجهزة الشرطة على الأقل في ستة بلدان تؤدُّ وتبذل قصارى جهدها كي تعثر عليه وتكبَّله ساحةً إياه من جزيرته الآمنة، لكن لا، لم يبدُ هذا الرجل شرطياً، فقد بدت حياته مُرفهة عن هذا الشقاء. كما أنه يعرف كيف يطلب بيرته، عادةً الأجانب يشربونها بمجرد أن توضع أقداحها على البار، أما هذا الغريب فانتظر رغوتها حتى تستقر، هو يعرف ما يفعل ولديه عاداته المنمقة الأرستقراطية في أتفه التفاصيل فلا يتصرَّف بعشوائية ولا يبدو تابعاً لأي جهازٍ شرطيٍّ أو أمنيٍّ.

ألقي سلاتري نظرةً أخرى على الغريب في المرأة، نظرة عابرة لكن عاطفية، كأنه يستقطبه لا يُجذره. نظر الكل للغريب، وحدِّق هو فيهم بدوره قبل أن يعود بعينه للبارمان. وعلى عكس سلاتري لم يكن جورج الساقى سعيداً لرؤية غريب في حانته، لكنه قدَّم له البيرة المطلوبة وقبض ثمنها وعاد لقراءة جريدته.

انحنى سلاتري وتحدث لرفيقيه بوشوشة ودون أي ابتسامة: "ما رأيكم أيها السادة في قليل من الإثارة قبل الذهاب لأسرتكم؟"

لقد كُشف أمر كورت؛ وعرف هذا، جلس إلى الحانة مُحدِّقاً في كأس البيرة وتظاهر جسده بالاسترخاء، بينما دار عقله وراجع التكتيكات المناسبة للتعامل مع هذا العدد الكبير من الرجال الضخام المكتظة بهم حانة صغيرة لها مساحةٌ حافلةٌ مدرسية. ستكون هناك آلات حادة، لم يشك في هذا، وقبضات معدنية من تلك التي تُستخدَم في تهشيم الوجه، ورُبما حتى بنادق ثقيلة بأسورة مزدوجة خلف البار. حمل كورت مُسدساً من طراز "ماكاروف" الروسي في حزامه، لكن أيكفي هذا كسلاح لدفاعه عن نفسه وسط هذه المعمة؟ ربما مع استخدام كاتم الصوت المحمول في جيب معطفه يمكن أن يصير مُسدسه أداة قتلٍ فعالة،

لكنه في الوقت ذاته لا يمكنه الاعتماد على الرصاص عيار 380 خاصةً مع هذا الحشد البشري، كما بدت سعة مخزن الرصاصات الثماني غير كافية على الإطلاق بالنسبة لكتلة اللحم المتجمعة حوله في العُرفة، كما أن آلية الإطلاق كانت سيئة وغير فعالة. أجل، سيُحدث في أجسادهم بعض الثقوب، لكنهم إذا تكاثروا عليه بحماس وقوة سيكون كورت في خبر كان لا محالة.

رشف من كأس بيرته، الذي بدا وكأنه لا ينتهي مهما شرب منه، وأنه سيبقى بنفس كميته حتى بعد خروجه من البار وتوجّه للشارع المظلم، سمع سلاتري يهمس لرفيقه، ورغم ذلك لم ينظر للمرأة. من المؤكد أن سلاتري لاحظ وجوده السابق في فندق "أوليفر سان جون جوجارتي"؛ لكن الموقف الآن مختلف لأن رفيقه انخرط في المشكلة، يوجد سيناريو هان مُحتملان لا ثالث لهما؛ الجيد أن يُرسلها دوجال للشارع ليختبئ في الظلام ويُربّبا كميناً للرجل الرمادي فتدور المواجهة في الشارع، والسيء أن يتصرف سلاتري هنا والآن ويرمي غريب الحانة من النافذة فائزاً بمخزون بيرةٍ لمدة عام تكريماً لفعلته.

يا ابن العاهرة!

شتمه كورت في سره، لقد أراد التعافي في فرنسا، فماذا يفعل الآن بحقّ الجحيم هنا، كل ما يقوم به زائد عن حدّه، فعلاً زائد!

توقف كورت ولم يكن كأس بيرته قد فرغ، لكنه أدرك أن التوقيت سانح وذهبيّ في هذه اللحظة إذا أراد الخروج من هذه الحانة بصورةٍ يتحكم فيها بشكلٍ كامل، لا بد أن يفعلها الآن قبل تمكّن سلاتري من تنفيذ خطته أو إحكامها على الأقل، وقبل أن يتحرك كورت أنزل البارمان جريدته. سأله: "نصف لتر من البيرة كثير عليك، ألا توافقني الرأي؟"

لا بد أن الساقبي الستينيّ ذي الشعر الأحمر والصدر الضخم قد استشعر بحدسه التوتر القائم في جو الصالة بين سلاتري والغريب.

لم يُجبه كورت، وبدلاً من ذلك عدّل جلسته، وجمع أفكاره، وأخذ رشفة من بيرته، ثم قال: "الكأس أكبر مما توقّعت".

ظن أنه بدا لهم أيرلندياً، لكن لا، لم يعد متأكدًا.

نهض صاحباً هدفه وغادرا من الباب الأمامي، ثم أتى اثنان آخران من المائدة التي خلفه، فتعقّبها من خلال المرأة وهما يجلسان على يمينه ويساره أمام البار بحركةٍ فيها بعض التهديد.

وبأنفاسٍ مضمخة بالويسكي الأيرلندي والتبغ، سأله الرجل على يساره بلهجةٍ محلية: "من أين أنت؟" نظر كورت للأمام مباشرة، ثم ردّ غير مُهتم بالحفاظ على لهجته الأيرلندية: "أعمل على سفينة شحن تابعة لشركة (ميرسك)، رست ظهر اليوم، وسنُغادر في الصباح الباكر".

كرر الرجل الآخر سؤال زميله: "سألك من أين أنت؟" "أخبرتكَ بالفعل".

"لم أفهم! أوُلدت على متن سفينة الشحن، سؤالي معناه من أي بلدٍ أنت أيها الغبي؟"

"دعا الرجل يستمتع بكأسه!"

أتاه صوت سلاتري من ورائه وهو يسير بمشيته العرجاء نحو البار بينما عيونها على اتصالٍ مشحون في المرأة، ثم أضاف: "من الجيد دائماً رؤية وجهٍ جديد هنا يا عزيزي، وبالأخص المسافرين، لا تهتم لمُضايقتهم".
لم تُعجب كورت مناداته بعزيزي، وتخيّر لم يُناديه الكل بها في هذه البلدة!

بعد خمس دقائق كان كورت قد غادر الحانة بالفعل، تاركاً وراءه كل هؤلاء الأوغاد المتوجّسين من وجوده بينهم بعدما سبّب لهم حالة من القلق والريبة. ذهب سلاتري أولاً نافذاً من الرجلين اللذين عادا لمائدتهما دون التفوّه بكلمة أخرى، أما البارمان فلم يرفع عينيه عن جريدته طوال ذلك الوقت.

قطع كورت شارع "بيرس" متحرّكاً بخفّة في الظلام مئات الياردات تابعاً هدفه وهو يعرج بشنطة طبلته. الآن، تغيّر الوضع تماماً؛ خاصة بعد مجازفة كورت ودخوله الحانة من بابها الأمامي، ماذا كان عليه أن يفعل؟ لقد اضطرّ لمسح المكان بنفسه! يتمنى أن يفعلها على نحو أكثر هدوءاً لكن كالعادة وبالأخص في عملياته تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. كان هدفه مرعوباً يشعر بأن هناك شيئاً مريباً يدور حوله، أحسّ به كورت، والآن ستبدأ ضحيته في تحصين نفسها وبناء ميكانيزماتها الدفاعية، لا يتطلب الأمر قدراتٍ خارقة من أي شخصٍ ليحمي نفسه من مهاجم واحد، كل ما عليك فعله هو أن تتفادى الرصاص أو تجري لتختبئ في مكانٍ حصين. هذا بالنصّ هو المذكور في الصفحة الأولى من كتاب "كيف تتفادى الموت على يد قاتل متسلسل" ولم يكن لدى كورت أي شكّ أن هدفه اطلع عليه وحفظ بنوده لأجل ليلة كهذه.

عرف الرجل الرمادي أنه لو أراد إتمام عقده وقتله، فعليه أن يفعلها الليلة قبل الغد. انعطف سلاتري يميناً نحو البوابات الأمامية المفتوحة لمُجمّع سكني فقير، دون أن ينظر خلفه، ثم ركب سيارةً مكونة هناك. اقترب كورت في الظلام مُتجهّاً نحو فريسته التي تتوقع مجيئه، لكنه أمل ألا تكون مُستعدة كفاية له.

فجأة ظهر من خلف صندوق قمامة رجل في ملابس "رجبي" رياضية على بُعد خمسة وعشرين قدماً من كورت. وقف أمام جنترى، الذي سرعان ما تعرّف عليه، إنه أحد الرجلين المرافقين لسلاتري في الحانة، انتصب أمامه وأخرج من تحت بنطاله سلسلةً ثقيلة لوّح بها في وجهه مثل البندول.

"ماذا تفعل هنا بحق الجحيم، تتبع صديقي، أليس كذلك؟! ماذا تريد منه يا مخبول؟"

خرجت كلمات الرجل غالباً غير مفهومة بسبب لسانه المَعوج من سُكره، أو ربما طبيعة لهجته، لكن كورت لم يهتمّ لأنه لم يُنصت أساساً، بل ركّز كل انتباهه على صديق سلاتري الآخر الذي هو حتماً هنا حوله وسيظهر في أي لحظةٍ من ورائه بشكلٍ مُباغت وهمجي. فكّر كورت أنه خاض من قبل جولات عديدة ضد أهداف مُدرّبة بشكلٍ أكثر احترافيةً مُزوّدين بمُعَدّات أكثر تطوراً، أما موقفه الآن الذي وضعه وسط هؤلاء الحيوانات داخل حانةٍ صغيرة أو في أزقةٍ مُتنتة بالقمامة، اضطره للرجوع بذاكرته ليتأكد كيف عليه التصرف مع هذه الحماقة.

لم يكن يُهمُّ من أين أتيت، هناك شيء من اللغة العالمية لضرب الحمقى.

صاح الرجل ذو ملابس الرجبي هذه المرة بشيءٍ آخر بلهجةٍ غير مفهومة تمامًا، ثم استشعر كورت خطواتٍ خفيفةً قادمة خلفه لتقفز عليه. تظاهر بالنظر أمامه وأنه لم يكتشف بعدُ وجود مُهاجمه من الخلف، حتى آخر لحظةٍ مُمكنة. اقتربت منه الخطوات وتحرك كورت مثل البرق الخاطف من مكانه وبحركةٍ واحدةٍ انحنى إلى الأسفل ودار في الهواء مُتحركًا إلى الجانب. وبعد مرور خصمه بجانبه عدل وقفته وراه رجلًا أصلع في لباس رجبي بُرتقالي، يتحرك في ضبابية ويلوح بقضيب حديد تسليح مثنى، استقر في المساحة الفارغة التي وقف فيها جنترى قبل ثانية. ثقل الحديد والأرجحة نفسها بالإضافة إلى قوّة الرّجل الأيرلندي كل هذه العوامل دفعته في الهواء، استمرّ في التقدّم إلى الأمام لفترةٍ طويلة حتى بعد أن سجّل عقله أن هدفه قد تفادى ضربته. وقف كورت بسرعة والرّجل يُمّر من أمامه. استخدم يده اليسرى لتسديد لكمةٍ في الظلام انطلقت مثل طلقةٍ حتى استقرت في أذنه اليمنى فكسرت فكّه وأفقده وعيه.

ارتطم القضيب بالأرض، وتدحرج الرجل على الأرض مُستقرًا عند قدمي صاحبه. لم يتحرك وكشفت مصابيح الشارع وجهه الملطخ بالدم من إثر ارتطامه بالأسفلت الذي كحت جلده. واصل الآخر ذو لباس الرجبي الأسود أرجحة سلسلته بشكل مُमित حاميًا بها نفسه، بينما نظره لا يُفارق زميله مُتفقدًا حالته. سار كورت ناحيته بينما خصمه يلوح له بسلسلته. اندفعت السلسلة إلى الأمام.

لم يهتز كورت، أمسكها وجذبها مما أخلّ بتوازن خصمه وجذبه له حتى ألصقه به، ثم سدّد له لكمةً في حلقه أسقطته أرضًا وسببت له اختناقًا في مجرى الهواء. بدا الأمريكي مُسيطرًا على الموقف كلّ كأنه هو من ربّب لهما هذا الكمين وليس هما. انحنى على إحدى ضحيتيه، وقال: "رقم شقة سلاتري من فضلك! كُن متأكدًا أنني عادةً أطلب ما أريد مرةً واحدة فقط بعدها لا أستطيع التحكم في ردود أفعالي".

بعد مرور أربع دقائق، وبواسطة طرفِ كاتم صوت المسدس، دفع كورت باب شقة رقم (66) داخل مجمع "كوينز كورت" السكني. خلف كاتم الصوت امتدّ مسدس ماكاروف الروسي، وخلف المسدس وقف الرجل الرمادي. تاهّب كل الحواس، خاصة أن باب الشقة تُرك مفتوحًا، وهو ما يشي بأن ساكنها يعلم أن شخصًا ما قادمًا لأجله.

دخل جنترى غرفة المعيشة فوجدها مضاءةً بشكل جيد، تساءل في سرّه وبنظراته المُستكشفة عن موقع هدفه حتى وجد سلاتري يجلس خلف طاولة خشبية بسيطة في منتصف الغرفة الصغيرة، عليها زجاجة ويسكي أيرلندي وثلاثة كئوس، وكان قد غيرّ ملابسه وارتدى قميصًا أزرق على زي الرجبي الأسود المفكوك عند الياقة. ربما هو فريقه المُفضل!

تأمّله سلاتري لفترة، ثم قلب أحد الكئوس رأسًا على عقب. لقد توقّع وجود شخصين آخرين، لكنها مرميَّان في الشارع الآن. رفع دوجال كأسه نحوه، وقال بنبرة حميمية لا تتناسب مع خشونة الموقف: "ما

رأيك أن تشرب معي؟"

خرج صوته بشكلٍ عصبي خفيض، بينما ظلَّ كورت موجهًا مُسدسه نحو جيبين هدفه، قبل أن يقول:
"ارفع يديك بحيث أستطيع رؤيتهما".

امثل دوجال مُتسائلًا: "أقتلتها؟"

"مَن تقصد؟ شباب الرجبي؟ لا سيكونون بخير.. في النهاية".

أوماً سلاتري وهزَّ كتفيه، ثم سأله: "فضيتَ عليهما بسهولة، أليس كذلك؟"
"لم يكن الأمر مُتعبًا".

"لم يكونا ليواجه أي مُشكلة لو لم يستشيطا غضبًا. اجلس، لديّ ويسكي فاخر متأكد أنه سيعجبك".
بحواسٍ متأهبة فتش كورت بعينه في أرجاء المكان بحثًا عن أي تهديدات، وقد بدا هدفه مُستسلمًا للغاية
وقد أقلقه هذا، إذ ربا هو تكتيك خداعي ستعقبه ضربة مباغته من أي ناحية.
"شكرًا، لا أريد".

هزَّ الرجل الضخم كتفيه قائلاً: "إذن ربا ستسمح لي بكأسٍ أولاً".

لم ينتظر سلاتري إذن زائره، إذ سكب لنفسه كأسًا من زجاجة ويسكي أيرلندية مميزة من نوع "بشملز"،
تجرّعها على دفعة واحدة ثم أعاد ملاًها مجددًا بكلِّ برودٍ وهدوء.

انتقل كورت للنافذة، حدّق في الشارع متأملًا إيّاه وقد اكتنفه الظلام في تلك الساعة المتأخرة، حتى أتاه
صوت سلاتري مُتوجسًا "لا أحد قادم، لا تقلق، فقط الاثنان اللذان قابلتهما بالفعل، وحتى إن كانا قادرين
على المشي، فلن يسلكا هذا الطريق، صدّقني".

تفحص كورت الحمام والمطبخ وغرفة النوم، كانا وحدهما فعلاً في الشقة، أما الأيرلندي فجلس مواجهًا
الباب يتجرع كأسًا تلو الأخرى.
انتظر بصبر.

وعندما تراجع جنثري إلى الوراء، مدَّ له الهدف يده بالزجاجة مُتسائلًا "أمتأكد أنك لا تريد القليل؟ فلطالما
وجدته مُفيدًا عندما كُنْتُ أعمل".

هزَّ كورت رأسه، ورفع سلاحه. تحدّث سلاتري بسُرعة "انظر يا عزيزي، أعرف ما أتيتَ لفعله وأنتك
ستنجزه لا محالة. لقد عملتُ في نفس الوظيفة من قبل، وأعرف كيف يسير البروتوكول عندكم، لديّ شيءٌ
واحد فقط لأقوله لك، عندي ابن، أعتقد أنه في الثلاثين من عمره الآن ويعيش في جالواي".

"هل أبدو وكأني أهتم!"

"انتظري للنهية من فضلك، ابني لديه متلازمة داون، ولا يُمكنه الاعتناء بنفسه، أمّه مجرد عاهرة، كما أنها
ماتت بسبب جُرعة زائدة قبل عشرين عامًا تقريبًا، ووضعته عندها في دار رعايةٍ خاصّة، أنا كل ما يملكه هذا
الفتى في حياته".

"ولو! ما زلتُ لا أهتم".

"أردت فقط القول إني أرسل له مبلغاً شهرياً لأبقيه بعيداً عن رعاية الدولة".

سحب كورت مطرقة مُسدسه بإبهامه.

استمر دوجال في الثرثرة لكن بشكل أسرع "بدون المال اللازم سيُودعونه في رعاية الدولة، يا لها من فوضى لعينة! إنه عقابي في هذه الدنيا، يُمكنك أن تسلبني حياتي، لكن لم عليك أن تُجبر مسكيناً لا ذنب له على دفع ثمن كل هذا".

كل ما خطر في بال كورت أنه كان عليه وضع رصاصة في رأس هذا الأيرلندي اللعين بمجرد دخوله من باب الشقة.

"الجميع يترك شخصاً ما وراءه، لكنها ليست مشكلتي ولا يُمكنني مساعدتك".

"لا، لا يُمكنك مساعدتي، لكن يُمكنك مساعدته، كل ما أحججه هو أربع وعشرون ساعة فقط. يوم واحد لعين، وسأسطو على بنك أو مركز صرافة، أي عملية سريعة غير شريفة أتدبر منها المال اللازم له. لو أعرف أنك قادم الليلة لفعلتها، ولكن زيارتك مفاجأة لي، لقد كنتُ متوقفاً عن العمل لفترة طويلة. انظر! لن أفر منك، أحجج فقط أن أرسل المطلوب لمنزله في "جالواي" وبحلول ظهيرة الغد سأكون هنا مُستسلماً لك لتفعل بي ما تريد، أقسم لك بقبر أُمي أنك ستحصل على ثمن هذا اليوم الزائد في حياتي، أحجج فقط أن أعطي ابني المال اللازم ليُلبّي احتياجاته بعد رحيلي، أكلّمك بكل احترام وهدوء دون أي عنف أو صياح أو مكر. أي دليل أكبر من هذا أني لم أعد مقاتلاً ولا فارساً؟ لقد أخبرتك بكل شيء وليس لديّ ما أخفيه عنك، كل أُملي أن تقوم بالقرار الصائب وتسمح لي بتوفير حياة مستقرة له قبل اختفائي".

تكلم الرجل بحرقة، وكانت دموعه على وشك الانفجار من عينيه، لم يكن لدى كورت شك واحد في المائة أن القصة حقيقية.

ومع ذلك لم يتراجع بل رفع فوهة مُسدسه إلى مستوى عينيّ ضحيته.

قال: "أسف يا صاح، لكن هذا لن يحدث".

دمعت عيناه وتجرع كأسه دون أن يُعيد ملاًها هذه المرة. ثم قال: "حسناً، ظننتك رجلاً صالحاً له روح، وهذا خطئي. إذا كان نصيب الولد أن يُترك لرعاية الدولة، فلا بأس، أما أنا فعزائي الوحيد أن "سيد" يوماً ما سيرسل خلفك رجلاً ليقضي عليك".

أخفض كورت مُسدسه قليلاً، مُتسائلاً: "سيد"؟

أجابته: "نعم، أنت رجل سيد الجديد، أليس كذلك؟ وأنا رجله القديم، أودُّ إخبارك أنك ترى مُستقبلك الآن أمام عينيك يا عزيزي، ما رأيك في المفاجأة؟"

انعقد لسان كورت، فواصل الرجل ثرثرته وقد اتسعت عيناه المُبتلتان بالدموع: "هذه المهمة هي اختبارك في منظمته وفرصتك لاستبدال بك، ألم يُجربك بذلك؟ يبدو أنه لم يفعل، يا له من وغد! لقد ظننت أن سيد

يقتلني لصالح عميلٍ آخرٍ لديه؟ لا، لا، إنه هو من يريد هذا".
أخفض كورت المسدس أكثر، وسأله: "لماذا؟"

تجرع سلاتري كأسًا أخرى من الويسكي قبل أن يُجيبه: "منذ خمس سنوات زارني سيد و كنت وقتها أعمل لصالح و غدٍ روسي آخر لا يختلف عنه في مجاله وإجرامه. أخبرني سيد أنه مُعجَب بطريقتي في العمل، و عرض عليّ الانضمام لفريقه. فسألته وما المُغري في عرضه أو ما يُميّزه بمعنى أصحّ عن البقية؟ وكيف يُمكنني الحصول على حمايته، خاصةً أنه معروف عن سيدورينكو في المجال حصوله دومًا على صفقات رابحة، قال إنه كي أحصل على هذه الوظيفة عليّ التخلص ممّن يشغلها في ذلك الوقت. أي أن أخلق وظيفتي الشاغرة بنفسني، أترى لأي مدى بلغت قذارة ألعيبه؟ لكنني في النهاية وافقتُ والرجل الإسرائيلي الذي قبلي فقد رصيده وكان عليّ تسوية الموقف، والآن أنا أتلقّى نفس المصير الذي ربّته لغيري".
"لذا قتلته؟"

"بالطبع، هذه هي طبيعة عملنا وأنت في نفس المركب معنا، أما الآن فأنا عجوز وعاجز عن مثل هذه الأعمال الإجرامية، حصان الإسطبل المريض، لا أحقق الأموال المطلوبة لذا أرسلك لتتخلّص مني، إنه خائف أن أدلي بأي كلمة لصحيفة ما تُسبب له فضيحة دولية، أو أشي به لأي جهازٍ أمني عالمي مثل الإنترنت فيتربّص له في كل دولة".

شعر كورت أن سيد قد خدعه، لقد ظن طوال هذا الوقت أن ضحيته مطلوب قتلها لأهدافٍ عملية وليست شخصية، لقد كذب عليه الوغد الروسي لأجل مصالحه، ثم تذكّر الملف الذي أعدّه عن هدفه والأجزاء القذرة منه، رفع مُسدّسه وقال "لكنك قمتَ بأعمالٍ دنيئة في حياتك؟"
"أعمال دنيئة! هذا يتوقّف على أي نوعٍ من الدناءة تقصد؟"
"أعني أنك قتلت أبرياء".

"هراء! ماذا تقول؟ هل ستجلس هنا وتُرَدّد كاللبغاء كلام شخصٍ آخر؟ يا لك من أضحوكة! ضع رصاصتك في رأسي وأرحني من هذه الحماقة، واشعُر بالرضا عن نفسك! أعمال دنيئة! أي أبرياء تتكلّم عنهم؟ وماذا تفعل أنت هنا يا عزيزي بحق الجحيم؟"
قالها سلاتري وهو يُحدق في كاتم صوت مُسدس كورت بعينين لمع فيهما ضي الكحول حين يتشبّع به الجسم.

وبعد توقّفٍ طويل، أنزل كورت مُسدسه جانبًا، وسحب كُرسياً وجلس في مواجهة الأيرلندي.
"أظن أني سأشاركك الشُّرب الآن".
لم يرفع سلاتري عينيه عن الأمريكي وهو يسكّب لكليهما.

بعد مرور عشر دقائق، أعاد كورت مُسدسه لجرابه، بعدما قرَّر عدم قتل ضحيته مُخبرًا إياه بذلك. لم يبتسم الأيرلندي، ولم يتنفس الصُعداء، لكنّه مدَّ يده وتصافحا. جلسا في صمتٍ تحت النور الخافت الآتي من مصابيح الشارع، وكان كورت قد أرخى يديه على المائدة ليُشعر الأيرلندي بالأمان.

قال دوجال بعد برهة: "لن يُمرر سيد الموقف إذا تركتني حيًّا، أنت تعرف هذا حتَّى".
 "كان بيني وبينه اتفاق، أخبرته أنني سأنفذ العقود التي أوافق عليها فحسب، لكنه مدَّني بمعلوماتٍ مغلوطة، ولديّ الحقُّ في عدم تنفيذ الأمر. تَبَّأ له".

رفع سلاتري كأسه في الهواء، وقال: "نخب هذا، تَبَّأ لسيد!"
 "لكنك تعرف أنه سيُرسل شخصًا آخر خلفك؟"
 "نعم أكيد، ربما عليّ أن أطلب منك قتلي فقط لإبعاده عن الطريق."
 "أنا لا أقبل الطلبات".

ضحك الأيرلندي ضحكةً غليظة وقال "هذه مُزحة جيِّدة! ربما المرة القادمة حين يُرسل سيد قاتله خلفي سيتمكن رجالي من التعامل معه".

ضحك كورت ضحكةً مكتومة قائلاً "أشكُّ في هذا!"
 سكب دوجال كأسًا لنفسه وبعد تفكيرٍ قَرَب كأس كورت وصبَّ له أيضًا.
 حاول كورت إيقافه "لا، يكفي ما شربتُ الليلة".
 استمرَّ سلاتري في الصبِّ قائلاً "إنها الثالثة، ستجعلك رجلاً، أقسم لك!"
 هزَّ كورت كتفيه مع رأسه ومدَّ يده ليتناول كأسه، تمنَّى أن يقوم الويسكي بمفعول مُسكِّنات الألم التي يتهافت عليها جسمه في هذه اللحظة لكنه يجرمه منها بكل ضراوة.
 "ربما عليك التفكير في مغادرة المدينة قبل...".

وقبل أن يُنهى كورت جملته كانت المائدة قد أطاحت به واصطدمت كأسه بوجهه، فارتد رأسه إلى الخلف وطار من على كُرسيه.

قلب الأيرلندي العجوز المائدة على كورت وتحوَّل لوحش، ثم قفز عليه وأحكم قبضتيه على رقبة الأمريكي الصُّلبة.

حاول الرجل الرمادي أن ينطق بأيِّ شيءٍ لكن صوته انحبس مع إحساسه بإصبعين ينغرزان في حلقة ويضغطان على تفاحة آدم إلى حدِّ السحق. وبالرغم من الحركة الغادرة وذهوله من عنصر المفاجأة من رجل كان مُسالمًا حتى ثوانٍ قليلة انقضت، إلا أنه نجح في التملُّص قليلًا وتخفيف حمل خصمه من فوقه وشدة

قبضتيه حول عنقه، رفع ذراعه لأعلى مُحاولًا إبعاد اليدين بالكامل لكنَّ ساعدي الرجل الضخم بالكاد ترحزحًا.

صرخ فيه كورت: "توقّف!" كانت لديه النية حقًا لترك دوجال حيًّا، لكنَّ إما أنه لم يُصدِّقه أو هو مُقتنع اقتناعًا تامًّا بأن سيدورينكو سيُرسل كورت مجددًا وراءه، لذا أراد الأيرلندي أن يستبق الأمر ويُنهى حياة قاتله المُحتمل، الآن وهنا، دون أن يترك أي فُرص لسيناريوهات أو أفخاخٍ مُشابهة قادمة أو حتى أي احتمالياتٍ لبقائه حيًّا.

مرميًّا على ظهره تحت ثقل الأيرلندي الذي يخنقه، لم يكن أمام كورت سوى حلٍّ واحدٍ، استغلَّ أرضية المشمع الرخيص تحته، وبكعب جزمته دار حيث انثنت ساقا كورت على باب الشقة الصغيرة. وعندها، وبينما لا تزال يدا خصمه تعنصر حلقه، زحف قليلًا ستَّ بوصات، قدَمين، ثلاثة أقدام حتى اقترب بما يكفي، وعندها رفع جذعه عن الأرض، وتمكَّن من دفع الباب بقدميه مُستخدِمًا تلك الدفعة في الخروج من تحت خصمه والاستناد على رُكبتيه، ثم تدحرج إلى الخلف، انفلت رأسه من قبضة سلاتري عندما استدار للخلف، قبل أن يُسد له هذا الملاكم السابق أي ضربةٍ مباغته تُعجزه.

وفي ثانيةٍ واحدة، صار الخصمان واقفين على أقدامهما في مواجهة عصبية، نظر كورت للأيرلندي فوجد وجهه مُحمرًّا مبتلًا بالعرق، يشعُّ منه الغضب والعنف والشرِّ، ثم قال شيئًا باللُّغة الغيلية الأسكتلندية، لأن كورت لم يفهم شيئًا.

أراد أن يُعيد على مسامح سلاتري أنه بالفعل قرَّر الرحيل وتزكه حيًّا، لكن ذلك لم يكن مُجددًا. تقدَّم الأيرلندي خطوةً إلى الأمام، وسدَّ له لكمةً يميناه استقرَّت في الوجنة اليسرى وفي الحال اغرورقت عينه وأغشت بصره.

شعر كورت أنه استخفَّ بقوة خصمه وسُرعته المُذهلة، وهذه كانت غلظته الأساسية التي دفع ثمنها الآن بشكلٍ كاد يُفقد حياته.

ترأَّع الرجل الرمادي إلى الزاوية، وخلق مساحةً كافيةً بعيدًا عن الرجل الضخم، للوصول لجراب مُسدسه الماكاروف، لكنه وجد خاليًا منه، ربما سقط حين انتفض من على الأرضية أو تدحرج خلف الكرسي المكسور أو تحت المائدة المقلوبة.

لاحظ سلاتري فقدان كورت لمُسدسه، فأتسعت ابتسامته الجاحمة المتوحشة عبر وجهه المُحمرَّ مثل حبات الكرز، قال وهو يُحاول لكمه لكمةً أخرى "دون سلاحك أنت في عداد الموتى يا عزيزي".

تمكَّن كورت من تفاديها، ألحقها سلاتري بلكمةٍ من يده اليسرى صدَّها الرجل الرمادي، لكن مع ذلك كانت قوية كفاية لتصطدم بذقنه.

ثم جاءت له لكمة خطافية يُسرى، سدَّها دوجال من جسده وجذعه وساقيه أتبعها بواحدة أعنف منها، صدَّها جنترى لكنها دفعته للخلف وأسقطته أرضًا. فشلت اللكمة في التأثير عليه. لكن مجرد القوة التي امتصَّها كورت في ساعده جعلته يسقط في غُرفة المعيشة الصغيرة، وانتهى به الأمر مكمومًا بجوار الحائط على رُكبتيه.

في اللحظة المناسبة نهض الرجل الرمادي على قدميه وانحنى ليتفادى لكمة دوجال، ثم ردّ عليه راکلاً إياه بمشط القدم في منطقة ما بين ساقيه.

لم يتأثر سلاتري وهو يصرخ فيه "للصراحة أنت تُقاتل مثل طفل مخنث". ثم تذكر كورت عرج خصمه طوال الليلة التي راقبه فيها، فضربه في ركبته اليسرى التي كان يتجنب وضع حمله عليها في مشيه، صرخ دوجال صرخة متألّمة لكنه لم يسقط، بل على العكس استفزته الضربة ليواصل هجومه على قاتله المحتمل.

انخفض كورت إلى الأسفل واليمين مُتفادياً قبضة يده اليمنى وهي تمرّ فوق أذنه اليسرى مباشرة. قفز عليه كورت وأسقطه أرضاً ثم شلّ كتفه اليمنى تحت ذراعه، وفي حركة خاطفة، لفّ يده حول رقبة الأيرلندي وشدّه بطريقة عكسية من ياقة قميص الرجيبي حول عنقه حتى صار مخنوقاً به.

"ألا تعرف كيف تُقاتل مثل الرجال أيها اللعين؟"

خرج صوت سلاتري مثل غرغرة أو حلاوة روح بمعنى أصحّ، أما كورت فاستخدم قميصه في خنقه ولفّ ذراعه حول رقبته كأنه يحضن عشيقته، محاصراً كل جسمه بإحكام ساقيه حوله شاداً قميصه حتى انغرز في لحم عنقه وانتفخ الجلد من حوله.

محاوياً النجاة بروحه؛ تحرك الأيرلندي كالمجنون في أرجاء الغرفة مُترنّحاً على ركبته المصابة، ساحباً معه الأمريكي حتى صدم به زجاج النافذة، ثم أسقطا في ارتطامهما البراويز والديكورات المعلقة للملاكمين مشاهير فضّين بشوارب، حتى اصطدما بالباب.

عندها فقط، وعلى الجانب الآخر من باب الشقة أتى صوت لجارته تسأل سلاتري بقلقٍ نسائي إن كان بخير أو إن كان في حاجةٍ لأي مساعدة منها. لم يستطع دوجال التحدّث وحاول الوصول للمزلاج لكن قوّته خارت خاصة مع افتقار رثتيه للأكسجين، وفي آخر لحظة قبل تمكّنه من فتح الباب كان كورت قد قفز عليه وأعادته للوراء مجدداً تحت سيطرته، مُستخدماً ساقيه لدفع الباب. سقط كلاهما على أرضية الشقة.

لم يكن سلاتري قادراً على التنفّس بشكل جيّد، لكن لا تزال في جسمه قوة كافية للقتال ولردع خصمه وإبقائه تحته، حاول اعتلاء الرجل الرمادي لكن كورت تغلّب عليه وبرك فوقه.

ولمُدّة ثلاثين ثانية، وسط فوضى الأثاث المهشم استمر الضرب، نجح كورت في تثبيت قدميه على إحدى ذراعي خصمه، لكن القبضة الأخرى تسللت من الناحية الأخرى ووجّهت لظهره وأعلى رأسه ضرباتٍ متكررة بعصبية.

حاول الأيرلندي العبوز نطح رأس كورت، لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب تقارب رأسيهما لدرجة الالتصاق؛ ولم يكن هناك مجال لإرجاع رأسه إلى الخلف حتى يتمكن من ضربها للأمام. تباطأت حركة قتالهما حتى خمد تماماً.

ظل الرجل الرمادي مُحكماً يديه على عنق الهدف الأيرلندي، ولما انقطع صوت سلاتري نظر كورت لوجهه فوجده مُحمرّاً يسيل منه عرقه الممزوج برائحة الخلل والويسكي مع بقية إفرازات جسمه ودمه الذي سال من

شفتيه بفعل شقفة كأس شرابه المكسورة.

لَطَّخت البُقَع الحمراء جبين الأيرلندي، وصبغت جداول العرق المنهمرة في عينيه باللون الأحمر.

رَمشتُ عيناه المُتَفَخْتان بضعفٍ.

أرخی كورت يديه المُمسِكَتين بياقة قميص سلاتري، الذي تنفس بطريقتة محمومة، ونظر في عينيه وهو يسأله لاهثاً من فرط المجهود الذي بذله في مُنازلته "تلك القصة عن ابنك الذي لديه متلازمة داون، أكانت حقيقية أم جزءاً من بقية خداعك؟"

حاول سلاتري الإجابة، لكن لسانه مُتفخ وحلقه مُغلق حتى أنه تفل بلغماً دمويّاً، قبل أن يقول "أقسم لك...!"

أوما كورت برأسه، ومسح العرق من على جبينه، وردّ بلهات: "حسناً، لا تقلق سأعتني به، سيكون بخير".

حلق فيه الأيرلندي، بينما عيناه يسيل منها دمع مخلوط بالدم وأنفه يبغّ مُحاطاً. أوما برأسه، وتحدّث بصوتٍ مكتوم: "هذا معروف كبير يا عزيزي، كنت متأكداً منذ رأيتك أن روحك رءوفة وأنت ستنتفهم موقفي...".

قاطعه الرجل الرمادي وهو يربّت على رأس ضحيته ويُمسّد شعره الرمادي "نعم، أنا قديس لعين". وفي حركة خاطفة، استعاد كورت جنترى مُسدسه الماكاروف الملقى على الأرض، صوّبه نحو رقبة سلاتري وضرب طلقةً اخترقت ذقنه، وسقف فيه، ومرقت من تجويفات جيوبه الأنفية حتى وصلت مُخّه. قوّرت الرصاصة عيار 380 عظام جمجمة الأيرلندي العجوز البالغ من العمر أربعةً وخمسين عاماً قبل أن تستقرّ خلف أذنه اليسرى.

لمعت عينا القتل وبقيتا مفتوحتين بينما روحه تُحلق في مكانٍ آخر خارج الغرفة.

تدحرج كورت من فوق الرجل الميت، وارتمى على ظهره مُستشعراً إنهاكه وامتصاص كل طاقته بعدما انتهت أخيراً الملحمة بينهما مُنهكةً كليهما، ألمه وجهه من اللكحات التي تلقّاها، وذكرته بطنه وساقه بالطعن وإطلاق النار اللذين تعرّض لهما الشتاء الماضي.

وسط فوضى الشقة المريعة، استلقى كورت بجانب ضحيته، كلاهما يُحلق في السقف بأعينٍ مفتوحة على اتساعها.

مُخَلَّفَةٌ وراءها الضباب تحرّكت من الشاطئ نفس سفينة الشحن الليتوانية التي نقلته إلى الجزيرة الخضراء (أيرلندا) مُتَّجِهَةً نحو الشمال بكل عزم وقوة مُحَرِّكِهَا، لتصل بحمولتها وطاقمها وراكبيها مرفأها الأساسي في التوقيت المضبوط.

في مُقدمة المركب انتصب كورت يتأمل حوض السفن الواسع أمامه، ولأنه كان الراكب الوحيد أخذ راحته في الكلام عبر هاتفه المتصل بالقمر الصناعي.

بنبرة جادة أجرى مكالمته "باولوس، دعني أكون واضحاً معك، باستثناء عمولتك التي اتفقنا عليها بشكل مُسبق، أريد لكل سنتٍ أن يذهب لعلاج هذا المريض الذي قضيتُ على أبيه، لا أعرف كيف يُمكنك فعلها لكنني أريد أن تقوم بهذا على أي حالٍ كمعروفٍ لأجلي".

"ليست هناك أي مشكلة على الإطلاق، ثِق بي، يُمكنني ترتيب تحويل الأموال بشكل تلقائي لهذه المؤسسة، لقد قمتُ بتحرياتي وعرفتُ أنها الأفضل في رعاية هذا النوع من الناس المُصابين بمتلازمة داون".
"جيد!"

توقف مُحدِّثه عن الكلام فجأة، واستشعر كورت بعض القلق، حتى أتاه الصوت عبر الهاتف مجدداً "أنت تعرف يا سيدي أنني سأحتاج للتواصل مع السير دونالد لأخذ موافقته قبل أي إجراء".

"طبعاً، ولكن حالما تتصل به أخبره أن ذلك المال لا يُخصِّصه ولا يُخصِّصني وإنما هو لذلك الفتى، وإذا خالف كلامي سيكون ردُّ فعلي مُختلفاً".

"سيد لويس تمهّل! أنت لستَ في حاجة لتهديدنا، السير دونالد ربُّ عملي منذ فترة، ومهمتي أن أنفذ لك ما تريده منه".

"أعتمد على مدى توصيلك لرسالتي له كلمةً بكلمةً وبكل دقة، إذا فكّر أن يعبث معي ويتلاعب بحسابي البنكي سيَجِدني أمام بابه".

"سيد لويس من فضلك!"

"أعتقد أنك فهمت رسالتي، أليس كذلك؟"

"وأنا متأكد أنه سيفعل لك ما تريد، سأتعامل مع الموقف وفقاً لرغبتك مع تطبيق عمولتي".

"شكراً!"

"عفو! الشكر لك. بالمناسبة السيد دونالد لا يزال يُقدّر شخصيتك جداً، ولا أعتقد أنه سيرفض لك طلباً أيّاً كان نوعه وأيّاً كانت صعوبته، لا أعرف لمُ افترقتُها بعد فترة عملٍ طويلة لكنني أأمل أن تعود المياه لمجاريها

يومًا ما".

"وداعًا باولوس!"

صمت للحظة بإحباطٍ قبل أن يقول بتهذيب "مع السلامة يا سيد لويس".
وضع كورت تليفونه المُطَوَّر المُتَّصِل بالقمر الصناعي في حقيبته الكنفاه، وركّز كل انتباهه على التهديد الجديد الذي انضمَّ ليومه.

على بُعد ثلاثمائة ياردة على الرصيف البحري؛ لاحظ سيارة ليموزين سوداء كبيرة. وعلى بُعد مائة وخمسين ياردة يقف أمامها أربعة رجال ضخام في بدلات رمادية تخمّن كورت أنهم أبناء "سيد" أتوا ليأخذوه معهم في جولةٍ من جولاتهم السخيفة مما أثار حنقه، كانت خُطته أن يُمهّل نفسه ليأخذ بعض الراحة بمجرد أن ينزل في ميناء "غدانسك" ليستمتع قليلاً بالشاطئ البولندي، على أن يُعاود التواصل بسيد مرة أخرى عبر موقع "جبال الأورال" السياحي الوهمي الذي تعودًا على الالتقاء فيه بشكل سري حالما يكون جاهزًا لهذا.

طوال فترة عمله مع رئيسه السابق "دونالد" لم يضعه في موقف كهذا، ولم يتعامل معه وجهًا لوجه، لكن هؤلاء الكلاب البوليسية الحمقى أرسلهم "سيد" (الذي يوشك أن يكون رئيسه السابق هو الآخر) لسبب واحد؛ وهو أن يلاحقوه مثل مُربيّات الأطفال كي يتأكدوا أن كورت لا يزال على عهد الوفاء والطاعة، أيظنّ أن الرجل الرمادي يمكن تطويعه وترويضه مثل بقية كلابه!

قال كورت بصوتٍ عالٍ غير مُهتم "اللعنة عليكم". محصّهم بعينيه فرآهم وقد رموا أعقاب سجائرهم على الأرض وسحقوها بأحذيتهم السوداء اللميّع، ارتدوا حول أعناقهم سلاسل ذهبية ثقيلة، نهاذج اعتيادية مألوفة لحفنة غوغاء روس من رجال المافيا، بدءوا يقتربون منه ليُضيّقوا عليه المسافة بمجرد أن يستقر المركب وينزل من عليه للرصيف، قلب نظره فلم يجد لنفسه أي مهرب.

كما لو أنه كان ليهرب.

نظر كورت إلى المرسى، ليرى إن كان هناك مكان للهرب إليه.

لكن لا.

نزل كورت من على المركب وصعد الرصيف فصار أمام الأوغاد الأربعة، لم يحدث أي حوارٍ بين الخمسة، فقط رائحة التستوستيرون الذكورية فاحت في الجوّ من مسامّ أجسامهم وهم يُطالِع بعضهم بعضًا، فجميعهم في مُهمة عملٍ رسمية، ولم يكن أي منهم هنا عن طيب خاطر. تذكر كورت قائده السابق في جهاز "السي آي إيه" والذي خدم أيضًا في قوات "السيلز" الأمريكية، يُدعى "زاك هايتاور" وكان يُسمّي مثل هذا السلوك بـ "العين الحمراء" إذ يعتمد بشكلٍ مادي على إبراز القوة من خلال النظرات الباردة.

ببطءٍ كشف كورت عن مُسدسه الماكاروف المربوط على فخذه فتقدّم أحد الروس وسحبه من جرابه ثم عاد به هازئًا مزهوًّا كأنه هو من اكتشف وجوده بنفسه، سحب سكينًا وجده أيضًا معه وفتش شنتته الكانفاه فأخرج منها تليفونه المُطَوَّر المُتَّصِل بالقمر الصناعي، وبعدهما تأكد الروسي أنه جرّد الأمريكي من أي سلاحٍ معه، تراجع إلى الوراء وأشار له بالتوجّه لسيارتهم السوداء الراقية.

فكّ كورت حزام حقييته ورماها لأحدهم ليحملها عوضاً عنه، لكنها اصطدمت ب صدره وسقطت على الأرض، راقب زعيمهم المغرور الموقف حوله ببرود.

لم يتمالك كورت نفسه، وابتسم بسخرية من المشهد كله، ثم فتح باب السيارة الليموزين وقفز فيها. بعد ساعة بالضبط، حلّق كورت في الجو داخل طائرة من طراز "هوكر 400" أقلته من مطار "غدانسك ليخ فاليسا" الدولي، تمّت الرحلة دون أي حاجة لجواز سفر أو إجراءات جوازات أو أي وثائق أو بيانات شخصية. شقّت الهوكر طريقها وسط السُّحب النديّة في سماء بولندا الصباحية الصافية. داخل مقصورة الطائرة المميزة الخاصة التي تسع سبع ركّاب أروه مكان الطعام والشُّرب، وبنجليزية ركيكة أخبروه أن رحلتهم ستستغرق ساعتين فقط دون تحديد وجهتهم، إذ لم يكونوا في حاجة لهذا.

علم كورت أنهم آخذون إيّاه للرئيس الذي يعيش في "سان بطرسبورغ" بروسيا. شرب زجاجة مياه واسترخى على مقعده، تحوّلته همهمات رجال سيد الأغبياء من حوله، قبل اثنتي عشرة سنة كان فهمه للغة الروسية في ذروته لكثرة احتكاكه بهم في عملياته، أما الآن فيشعر أن استيعابه لهذه اللغة العقيمة تعرّض للصدأ، أغلق عينيه وراح يجمع قاموسه القديم منها مجدداً. بالطبع سيد ورجاله يظنون أنه جاهل تماماً بها، وسيستغل اعتقادهم الخاطيء هذا لصالحه طوال مُغامرته معهم.

هبطت الطائرة بنجاح بعد الظهرية بقليل. وتأكّد أنه ذاهب للقاء رئيسه حين ألقى نظرة من نافذة الطائرة فاستطلع خليج "فنلندا"، كما تعرّف على مطار "جيفكا" شرق سان بطرسبورغ إذ زاره أكثر من مرّة.

في الماضي، قبل عشر سنوات مثلاً، عمل جنّيري لصالح جهاز "السي آي إيه" مُتخفياً وبمفرده في عمليات مُمتدّة عبر العالم من شرقه لغربه، نظرياً، حتمت عليه طبيعة عمله التحرك في شتّى بقاع المعمورة سواء كانت أراضي تابعة لحلفاء أو أعداء، لكن من الناحية العملية، كانت معظم تحركاته في أراضي الأعداء: الاتحاد السوفييتي، وأوكرانيا، وليتوانيا، وجورجيا، وطاجيكستان.. وكانت لدى السي آي إيه استراتيجيته وأسبابه لإرسال عملائه لهذه البؤر الصعبة، لملاحقة وقتل تجار الأسلحة النووية. ولفترة من الزمن، بدا أن هذا هو الأثر الباقي من إمبراطورية الشر التي تنبغي مُحاربتها، وأن الشيء الوحيد الذي طُلب من كورت وزملائه العملاء المزدوجين هو التوجّه إلى هناك ومطاردة الأهداف وكتابة التقارير عنهم وزرع جواسيس في دوائرهم وجمع الأدلة اللازمة على جرائمهم.

لكنّ كل هذا كان أيام التسعينيات الجميلة.

قبل أحداث 11 سبتمبر الفظيعة.

لم يُزر الرجل الرمادي سان بطرسبورغ سوى مرة واحدة في يناير 2003. ومن بعدها عُيّن في إحدى فرق وكالة السي آي إيه، فرقة غولف سييرا، أو غون، وهي فرقة العمليات الخاصّة التابعة لقسم الأنشطة الخاصّة شبه العسكرية المسؤولة عن تعقب الإرهابيين وشُرّكائهم حول العالم. لقد أتى لنفس المطار في تلك الفترة على متن طائرة تابعة للوكالة. وأقام جزء من أعضاء الفريق في منزل ريفي آمن، بينما أقام كورت و"زاك هايتاور"

رئيسه وقتها في منزلٍ مُتداعٍ على بُعد مَبِينٍ من الفنادق الفاخرة في شارع "نيفسكي بروسبكت". وفي أسبوعهم الثالث، استقلَّ أعضاء الفرقة قاربًا مطاطيًا وأغاروا على سفينة شحنٍ أثناء مُغادرتها لميناء سان بطرسبورغ، كان من المُفترض أنها تحمل شحنتان نووية لصدّام حسين وأعوانه في العراق، لكنهم في النهاية وجدوا أسلحةً عادية، أسلحة لا تُسبب أي انفجاراتٍ تُذكر، هكذا أبلغ زاك القيادة عبر تليفونه المُتصل بالقمر الصناعي، وكان الرد عليهم أن يتركوا الأسلحة وينزلوا من على المركب ليُغادروا روسيا في الحال. لم يفهموا وقتها لكن بعد ذلك كل شيء صار منطقيًا، نوعًا ما، حين ظهرت الشحنة في "البصرة"، وعُرِضت في وسائل الإعلام، بالأختام الروسية وكُل شيء. وطوال الطريق تم تعقب الحمولة والتقاط صور لها بالقمر الصناعي، تم إرسالها لقوات المارينز الذين عثروا عليها، وكى لا تكون روسيا في موقفٍ مُخرجٍ أمام الرأي العام والعالم كله قدّموا بعض الدعم للقوات الأمريكية حفظًا لماء الوجه.

كان الأمر كله سياسةً في سياسة، وكورت في داخله يعلم هذا من قراءاته وأبحاثه، والمُفترض أن هذا ليس عملهم لذا لم يُحب الرجل الرمادي ما حدث، لكن كما أخبره رئيسه "زاك" ذات مرة، إنهم يتقاضون مرتباتهم لا ليُحبّوا عملهم أو ينتقدوه، بل فقط ليقوموا به على أكمل وجهٍ في صمت.

بعدما نزلوا من الطائرة الخاصة ساروا على المدرج المُتجمد من البرودة حتى وصلوا أمام سيارة ليموزين طويلة، وحين همّ كورت بركوبها أخبره واحد من مُرافقيه "اجلس في المقعد الأمامي، لأن الكنب الخلفية لكبار الزوّار". ابتسم، كاشفًا عن كميةٍ من الإكسسوارات المعدنية حول رقبته وأسنانه كافية لتلتقط موجات محطات الراديو، قبل أن يُضيف "أما أنت فضيف عادي". ضحك بصوتٍ عالٍ ثم ترجم دُعابته لزملائه الذين ضحكوا بدورهم.

هزّ كورت كتفيه في عدم اكتراثٍ وصعد للمقعد الأمامي مُطيعًا الأوامر بينما جلس رجال "سيد" في الخلف ويبدو أنهم كانوا هم المقصودين بكبار الزوّار، وجد كورت نفسه بجوار سائقٍ في منتصف العمر، وعلى أي حالٍ بدا أن رجال "سيد" ليسوا هم الأذكى في هذه الرحلة ولا أي رحلةٍ أخرى.

طوال الطريق لسان بطرسبورغ حافظ كورت على تركيزه لجمع أكبر قدرٍ من التفاصيل في حال أنه اضطرّ للعودة بمفرده للمطار دون أولئك الأوغاد. كان قد قرّر ألا تستغرق زيارته للملعون الروسي الكثير من الوقت، ثلاثين ثانية ليُخبر "سيد" أنه لم يُحب طريقة الإتيان به لمقرّه بهذا الشكل المُهين، وهو ما يُعد انتهاكًا للاتفاق المنعقد بينهما، وثلاثين ثانية أخرى ليوضح له أنه لم يُحب عدم وضوحه معه بشأن آخر عملية قتل نفّذها بخصوص البيانات المجموعة حول ضحيته، وآخر عشر ثوانٍ ليُعلمه بقرار استقالته من عمله البغيض، أما إذا لم يستجب "سيدورينكو" لطلباته أو حاول رجّله ردعه فهذا معناه أنه ستكون هناك فرص عمل كثيرة شاغرة الفترة القادمة في منظمة رئيسه الحالي.

في النهاية، لم تسر الأمور كما تمنّى وخطط لها كورت داخل هذا الاجتماع العبثي.

بعد ساعةٍ على الطريق، اصطحبوا كورت لقصرٍ فخم يقع في الضواحي الشمالية لسان بطرسبورغ، لم يسبق له أن زار هذا المكان أو حتى أي قصرٍ مشابهٍ له من قبل، كما اعترف لنفسه أنه لم يجد له أثرًا على الخريطة حين بحث على الجي بي إس، بشكلٍ عامٍّ كانت الشوارع واسعة ومحاطة بالأشجار والعقارات عملاقة تطل على مناظر طبيعية والبيوت قديمة بشكلٍ تراثي راقٍ أُرستقراطي.

انطلقت سيارة الليموزين، وركز جنترى على الفور على المنزل الذي أمامه. كان منظرًا خلابًا من مسافةٍ بعيدة ومن الناحية المعماريّة رائعًا.

وكلما اقتربوا بدا له بشكلٍ أوضح أن طاقم "سيد" بأكمله ما هو إلا حفنة من البلهاء بما فيهم عمال النظافة والقائمين على تنسيق الحدائق، الذين لا يبدوون مناسبين لمهامهم تمامًا مثل أفراد الأمن الأغبياء. بدت الساحة الأمامية للقصر في حالة عارمة من الفوضى، خيام منصوبة على الحشائش مثل مُعسكر عسكري صغير، ونيران موقدة تجتمع حولها مجموعة شباب لا يبدو أنهم يفعلون شيئًا، وسيارات دفع رباعي يغطيها الطين مركونة على جانبي المر.

كانت واجهة القصر مُهملةً طلاؤها مُتقشر، وامتلات الباحة المُخصصة لركن السيارات بزجاجاتٍ فارغة وأعقاب سجائر وسلّات نفايات. اقتاده الحُرّاس عبر المطبخ فوجده فوق بعضه كأنّ أمًا هربت منه بعدما أصابته حالته بانهيارٍ عصبي؛ أطباق مُتسخة متراصة بإهمال في الحوض، صوانٍ بلاستيكية لا تترك بقعة شاغرة حولها، زجاجات "فودكا" من كل الماركات مُعلقة على الحوائط كأنها نوع من أعمال الديكور الزجاجة.

لم يكن كورت بطبعه متأففًا ولكن الحالة المُزرية من حوله للمكان جعلته يتساءل بحيرةٍ عن وضعه مع كتمة الصيف، الأمر الذي جعله يشعر بامتنانٍ لنسمة الهواء البارد التي شقّت طريقها عبر النافذة وسط هذه التنانة المُتراكمة وحركة الحشرات النشطة وتجوّال القطط السمينة بعشوائية هنا وهناك.

ثم حان وقت صعوده لسلام القصر فوجدّها تعجّ برجال لهم سلوكيات طفولية يجلسون على الدرجات، يلعبون الفيديو جيم أو يدرشون على هواتفهم المحمولة أو يقرءون الصحف أو يُدخنون السجائر. حمل كلُّ واحد منهم رشاشًا أو مُسدسًا في جرابه تحت ذراعه. وارتدى بعضهم بدلاتٍ سوداء تعتبر النموذج التقليدي لزيّ العصابات الروسية، أما مُعظمهم فارتدوا أفرولات عسكرية خضراء مُموّهة بدت أشبه بملابس صيادين أو فرق كشافه.

كانوا جميعًا من حليقي الرءوس وحملقوا في كورت بنظراتٍ مشمّزة، فخمّن أنه ربما كان السبب شعره المُموج الطويل أو لحيته الكثيفة، وفكّر أنهم ربما يظنّونه الآن بسبب مظهره المُريب فردًا مُتميًا لفريقٍ غير فريقهم، أو ربما لواحدة من تلك الجماعات العرقية التي يكرهونها بسبب مشاكل نفسية في حياتهم.

قال في سره: فليذهبوا للجحيم! وهو يعلم أنه يستطيع غلبة خمسةٍ منهم في جولة واحدة دون أن يتأثر مظهره.

ولكن عائقه الوحيد عن هذه المهزلة لم يكن ثقته في نفسه بل رصده حتى الآن عشرات النسخ من هؤلاء الرجال البغال منذ دخل ذلك القصر اللعين.

وبشكل عام بدا أن نظام "سيد" الأمني العقيم لم يعتمد على متانة الأفراد وخبراتهم بل عددهم المهول. وأخيراً، دخل جنترى لمكتب باب ذهبي مزدوج، استقبله داخله سكرتير مُتأنق فوق الخمسين بدا أكثرهم احترافيةً في مهنته مقارنةً ببقية المُهرّجين الآخرين الذين يتسكّعون في أرجاء هذا المكان الفخم.

انتصب الرجل خلف مكتبه ورحّب به بإنجليزيةٍ مُتقنة قبل أن يسأله "هل لي أن آخذ معطفك يا سيدي؟" "شكراً الذوقك لكنني لن أمكث طويلاً".

ارتبك السكرتير قليلاً "كما تحب سيدي.. من هنا!" أشار له بكل كياسةٍ محدداً وجهته، ثم أمر أربعة حراس أن يُراقبوه، حدّثهم بالروسية "ابقوا بالقرب منه" لكن كورت فهم.

دخلوا من بابٍ آخر مُذهّب فوجد كورت نفسه في صالة فخمةٍ مُظلمة لا يُضيئها سوى مدفأةٍ على يمين مكتب ضخم، في الطرف البعيد من العُرفة ذات الأرضية الخشبية. ليس بها أي أثاث، كانت باردةً مثل ثلاجات حفظ اللحوم حتى مع وجود المدفأة، ولخلوها من أي أثاثٍ كان وقع خطواته له صدًى يتردّد كأنه يسير داخل كاتدرائية عملاقة.

"من الرائع مُقابلتك أخيراً أيها الرجل الرمادي".

تعرّف كورت على صوت "جريجور إيفانوفيتش سيدورينكو" وكانت نبرته المعدنية تُناسب وجهه بطريقةٍ أو بأخرى ونظارته صغيرة مثل بقية جسمه الهش.

لكنه أصغر سنّاً مما توقّع جنترى، ربما في منتصف الأربعينيات، ومع ذلك بدا أنه لا يهتم بتغذية نفسه بسبب هزال بدنه ووجنتيه الشاحبتين الغائرتين بشكل واضح حتى في هذه الظلمة.

مدّ سيد يده ليصافح كورت، لكنه تجاهلها بقلّة ذوقٍ مُتعمّدة، لقد شعر أن رجال الحراسة والطائرة والليموزين والأسلحة، كلها تفاصيل مُدبّرة لضبط اللقطة ولإثبات سيطرة "سيد" على الموقف وعلى كورت شخصياً، عادةً ما يميل الرجال ذوو القوة ضعاف النفوس لإشهار قوتهم بهذه السذاجة والبهرجة لمدارة عيوب شخصياتهم ونقاط ضعفهم، كل هذا تعود عليه كورت على مدار حياته وطوال عملياته، لكنه الآن عليه مُحاربة النار بالنار ليُمارس هيمنته على الموقف، فلا يصير مجرد دميةٍ في يد سيد ورجاله.

"لم يكن أيٌّ من هذا ضمن اتفاقنا يا سيد، لم تتضمن الخطة أي مقابلات شخصية، أنا لست فرداً من كلابك المطوّقين من أعناقهم بسلاسل ذهبية، لقد أتيتُ فقط لأخبرك بهذا، بالإضافة إلى أنني مُستقيل من خدمتك".

لم يفهم الحراس الواقفون إنجليزية الضيف القوية المُحكّمة، لكن من نبرته الغاضبة ولغة جسده العنيفة، شعروا أنه يُشكل تهديداً لزعيمهم فاقتربوا منه، وبحركةٍ من إصبعه كأنه يمسخهم من الهواء أعادهم الرئيس

لرُكن الغرفة فسمع كورت خطواتهم وهم يتراجعون بخنوع، لكنه لم يهتم أصلاً لوجودهم الذي تساوى مع عدمهم في حالة أراد المضي.

لم يُبعد سيدورينكو عينيه عن كورت، وهو يتراجع ويعود ليجلس بكل هدوء إلى مكتبه، ويرشف بهدوءٍ من شايه في كأس مَطلية بالذهب. اعتقد كورت أنه كان خائفاً، لكن على عكس توقّعه خرجت كلمات المضيف في مُتتهى البرود: "هل سبق لك أن رأيت رجلاً يُسلق حياً في حوض من الحمض؟" "أهذا سؤال بلاغي؟"

مدّ له سيد يده وكأنه يُريد تهدئة مخاوف ضيفه "أنا أتكلم عن زميل سابق لي، لم أفعل ذلك. وقعت هذه الحادثة المأساوية بعد فترةٍ وجيزة من بيع شركة مملوكة للدولة بالمزاد العلني؛ عام (1993)، على ما أتذكر. كنتُ أعمل مع مجموعة من المحاسبين والمحامين لصالح إحدى العصابات القوية الراسخة في موسكو. لم يكن رئيسنا عبقرياً لكنه أحبّ المال حباً جماً، وأحكم قبضته على مُلاك المحلات بترويعهم وأحياناً قتلهم. على أي حال، اتهم أحد موظفيه بأنه يسرق منه الأموال، فدعانا جميعاً لاجتماع في منزله الريفي في أوديسا. وكان في انتظارنا رجال أشداء شبه عسكريين يعملون لحسابه. أخذنا جميعاً — نحن التسعة — إلى حظيرة، وجردنا كلنا من ملابسنا ووضعنا في حظيرة مع تكييلنا بعوارض السكّة الحديدية. ضربونا ورشّونا بالمياه لمدة يومين. حدث هذا في شهر أكتوبر، وتوفي محام كان أكبرنا سنّاً في الليلة الأولى، في الليلة الثانية دخل الرجل الذي يحتجزنا وعرض علينا أنه إذا قرّر أحدنا الاعتراف بكلّ شيء سيكون بمقدوره إنقاذ البقية، لكن أحداً لم ينطق بشيء واستمر الضرب فينا لمدة اثنتي عشرة ساعة أخرى".

نظر كورت في أرجاء الغرفة بينما واصل "سيد" كلامه.

"في اليوم الثالث مات رجل آخر، لا أتذكر حتى وجهه أو اسمه، ربما كان خبير الشؤون التنظيمية إذا لم أكن مُخطئاً. عاد صاحب العمل، وعرض علينا نفس العرض السابق. لكن أحداً لم يتجاوب معه حتى في تلك المرة ورغم ما عايناه. كنت متأكداً من أن الرئيس سيقْتلنا كلنا بدم بارد، لكن لحسن حظنا، لم يكن يثق باليهود، مثله مثل القلّة الحاكمة. وجد فريسته وسطنا حين لاحظ أن أحدنا مُحتون، وكان اسمه "ناتان بوليشوفا"، رآه وهو مُلقى في بركةٍ من الوحل. عرّف أنه يهودي، وقرّر أنه المُختلس، فصلوه عنّا وأحضرنا حوضاً مليئاً بمُذيب حمضي يُستخدم في إزالة الطلاء الذي يحتوي على رصاص، وهي مادة قويّة حقاً. رموه بجانبه، ولمُدّة ساعة تقريباً دفعنا مُعذبونا لمرشّ الحمض على "ناتان" المسكين، الذي تلوّى على القش. كان ينبغي أن تراه بينما يتحول جلده للون القرمزي، ثم يمتلئ بالفقايع ويتفسخ وينفصل عن عظامه. أجبرونا على مُشاهدته. وأخيراً، ولأن الرجال حاملِي المعاول شعروا بالتعب، أمسكوا بخطاطيف تُستخدم لرفع بالات القش، وغرسوها في ذراعي ناتان وساقيه. ورموه بأكملة في الحوض. أما بقيتنا، من أصدقائه وزملائه، فقد دعونا أن يموت بسرعة؛ لصالحه ولصالحنا. لقد صرخ صرخةً لن أنساها ثم اختفى وجهه بعدها في الحوض المغمور بالحمض الفتاك.. كانت تجربة قاسية حقاً".

بدا لكورت أن "سيد" روى تلك القصة فقط لأنه يستمتع بحكايتها، لم يعرف بِمَ يردّ عليه فقال "يبدو أن التلاعب مع هذا الرجل لم يكن قرارًا صائبًا".

هزَّ سيد كتفيه، ومدَّ يده لتناول الشاي وهو يُجيبه ببساطة "كان ناتان بريئًا، أنا من اختلستُ النقود بالمناسبة، على أي حالٍ لقد قُتِل مُعدِّبنا سنة 1994 في موسكو، أخذ طلقَةً من ظهره وهو يجرب بذلة جديدة".

تنهَّد كورت قائلاً: "عذرًا يا سيد، هل هناك أي مغزٍ من قصتك التافهة، لأنني لم ألتقطه حتى الآن، ولو الهدف منها إخافتي فأودُّ إعلامك أنني لستُ خائفًا".

"افهمني جيداً، نقطتي التي أريد أن نبلغها معاً أنه يمكنك مُصادقتي، أنا صديق جيد بالمناسبة، أما إذا أتيت لمنزلي وتحديثت معي هذه الهمجية التي تصرفتَ بها، ولم تُظهر لي أي احترام، تأكد أنك ستكسبني كعدو. واحذر من أن تُمددك طريقي اللطيفة فتجعلك تُسيء مُعاملتي وتُقِل من ذوقك في بيتي. ينبغي أن تعرف كيف تتكلم مع رجل بنى نفسه بنفسه، أظن أني وُلدتُ غنياً ومُقتدراً بهذه الصورة التي تراني عليها! كي تكون إنساناً ناجحاً في روسيا تحتاج للموازنة بين شيئين: العقل والوحشية.

ذلك الرجل الذي عملتُ لديه في الماضي وحكيتهُ لك عنه، كان مجرماً وحشياً لكنه لا يملك ذرة مخ، فقتل رجل كصديقي الذي حكيتهُ لك عنه كان أمراً مؤثراً، لكن أن يذهب رئيسنا بكل سذاجة بعد ما فعله ليشتري بَذلة غير حاسب عواقب جرائمه فيُصاب بطلقِ ناري، هو أمر بالنسبة لي أكثر غباءً لأنه لم يملك العقل الكافي لفهم عواقب وحشيته.

أما أنا فأملك العقل الذي يؤهِّلني لوجودي وسط هذه الأجواء الخطرة مهما كانت ضدي، وفي الوقت نفسه أعتز أن بيئتنا الوحشية المُفعمّة بالتنافسية غير الشريفة لم تُعد تنحاز للأذكاء طوال الوقت.

لقد أدركت أنه لا أحد يملك العقل والوحشية معاً، في البداية كان لدي ذكائي الخاص لكنه في بعض المواقف لم يُسعفني، وبمرور الوقت انتبهت أنه كي أصير شيئاً في روسيا أو في العالم كله ينبغي أن أكون وحشياً".

"هل ترمي موظفيك عادةً في الحمض؟"

"بالعكس، أنا أُعاملهم بكل احترام وأدب، هم بالمناسبة إذا لم تكن قد لاحظتَ بعدُ وطنيون اشتراكيون، يستمتعون بقتل المهاجرين، لقد ظنوك من القوقاز من بشرتك وشعرك لذا لم يُرحبوا بوجودك. لكن لا، أنا لا أُهددهم، بل أُعطيهم دوماً حُرّيتهم الكاملة وأدفع لهم بشكلٍ مُرضٍ".

"بالسلاسل الذهبية؟"

ضحك سيد مُستمعاً، قبل أن يُجيبه: "هاهاها، لا طبعاً، ليس بالسلاسل الذهبية، بل يقبضون مني باليورو.. في الماضي كنتُ أدفع بالدولار ولكن الحياة تتغير كل يوم كما ترى، اسمعني أيها الرجل الرمادي يُمكنك أن تأتي لبيتي غاضباً وتقدم استقالتك كما تشاء، سأصغي إليك ليلاً ونهاراً لكنني أُعدك بأني أفضل خيارٍ لديك حالياً إذا كنت تفكر في البقاء داخل مجالنا".

على الحائِط على يسار كورت وسط الضوء البسيط المُضئ بدخان المدفأة كان هناك بورترية عملاق في برواز فخم لوجه "ستالين" كأنه يُمدق فيهم كلهم.

قال كورت "الوحدة لطيفة" وهو يجلس على كرسي خشبي غير مُريح قبالة "سيد" الذي رفع بدوره عينيه للبرواز كأنه فجأة لاحظ وجوده الآن في غرفته، قبل أن يقول "نعم... أنا مفتون بأي رمزٍ للسلطة".

"لا تبدو لي يا سيد تابعًا للنظام القديم".

"ماذا تعني بكلامك هذا؟"

"شيوعي! اعتقدتُ أنكم كلكم كمليارديرات مجرد خنازير رأسمالية كبقية العالم المتحضر".

ضحك سيد بفهم مفتوح: "هاهاها، نعم، أنا خنزير، لكنني لستُ ضمن هؤلاء الذين يؤمنون بالأيديولوجيات وكل هذه الترهات". رفع بصره للوحدة مجددًا، قبل أن يُضيف: "أتعرف ما هي أذكى مقولة نطق بها ستالين، قال إن الموت هو العلاج الناجح لكل المشاكل".

"أتفق معه، من دون البشرية لا وجود لأي مشاكل".

"بالطبع تعرف هذا الاقتباس، إنه أكل عيشك في الأساس، أليس كذلك؟"

"لا ليس كذلك".

هزَّ سيد كتفيه قائلاً "أنت مجرد قاتل مأجور" ولم ينتظر إجابة من الرجل الرمادي، فتابع حديثه قائلاً: "ستالين.. آل رومانوف.. الحرب العالمية الثانية.. ظاهرة القومية الروسية الحالية.. كما ترى أنا رجل مُولع بكل رموز القوة، ولعلمك، الذين يستطيعون تحويل حياة الآخرين لجحيم هم الأكثر قوةً من الأغنياء والصالحين وبقية المشاهير".

"أهذه هي عقيدتك القتالية حقًا؟"

"ليست بالضبط، أرجو أن تفهم مقصدي بشكل صحيح، إنها هواية، بمعنى أدق، معظم أعمالي تنحصر في الدعارة، وغسيل الأموال، والقرصنة البنكية، وتجارة المخدرات، لكن المال ليس شغفي الأكبر، أنا أتحدث عن شيءٍ آخر أعظم يُسمَّى صناعة الموت، أنا روسي، أتعرف ماذا يعني هذا؟ نحن شعب تاريخنا منذ قديم الأزل مُلبَّد بالكآبة والدمار، ألم تقرأ أي كتابٍ عنّا أو عن واقعنا؟ هناك الكثير في مجالنا يُعانون وأنا اخترت أن أكون أحد تجار المعاناة. هذا فظيح، لكنه أفضل من البديل الآخر، أليس كذلك؟"

لم ينطق كورت بكلمة، كان معتادًا على العمل لصالح أشخاص مهوسين بأنفسهم لدرجة الجنون، لكن سيد حالة مختلفة كليًا فهو علاوة على كونه مُحتلًا هو أيضًا زعيم مافيا.

واصل سيد حديثه قائلاً "أنت أداتي ليس إلا".

"إذا اخترتُ أنا أن أكون هذا".

ابتسم سيدورينكو "نعم، لذا أحضرتك هنا اليوم".

"اعتقدتُ أنك أحضرتني لتُخيفني".

"أأنت خائف فعلاً؟"

"لا، إطلاقًا".

ابتسم سيد قائلاً "ممتاز! من حُسن الحظ أن لديّ سبباً آخر، لديّ مهمة جديدة لك". تناول رشفةً طويلة من شايه الأرجواني، وانكفاً على مكتبه بتركيزٍ متأهباً لمطالعة شيء، قبل أن يُضيف "عندي لك سؤال؛ إذا بمقدورك أن تقتل أي شخصٍ في العالم من سيكون؟"
"أنت".

ضحك سيد، لكن كورت لم يضحك، بل ارتعشت ابتسامته المرححة حتى تحوّلت إلى ابتسامة خفيفة "هاهاها، أخطر قاتل في العالم يُريد رأسي، أنا محظوظ فعلاً، ينبغي أن أخاف منك، لكنني لا أشعر بأي خوف، بل على العكس حين أخبرك من هو ضحيتك المقبلة ستشكرني وربما سنصير يوماً ما أعز أصحاب".
لم ينتظره كورت لينهي حديثه إذ قام واستدار على عقبه. فتبعه حراس "سيد" الأربعة وقبل أن يُواصلوا تتبّعهم له مثل ظلاله توقّف وبنبرة حادة ردّهم "سأرحل، وإذا فكّر أحدهم أن يلمسني ستقوم مذبحه هنا يا سيد. لديّ انطباع بأنك ستستمتع بمشاهدتهم وهم يقاومون، لكنك في الوقت ذاته سيكون عليك إيجاد طاقم جديد من الأشرار".

"ضحيتك المقبلة يا كورت هو الرئيس بكري عبود".

رنّ صوت "سيد" في غرفة القصر فتوقف كورت ثم استدار ببطء.

"لا أمانع الصعوبة، لكنني أصر على المُمكن. هذا هدف مُستحيل". ثم تابع سيره مرّةً أخرى.

"لديّ دوماً طرقي يا رجل، حصلنا على جدول أعماله وخط سير تحركاته وإمكانية الوصول إليه وطريقة خروجنا الآمنة، ماذا ينقصنا بعد هذا لنقضي عليه!"

قال كورت بسخرية "فلتفعلها أنت بنفسك إذن!"

"لم أقل إنها مهمة سهلة، ولكن لا يُمكن لسواك فعلها. أصغ إليّ للنهاية إذا لم يُعجبك عَرَضِي يمكنك الرحيل، لكنني متأكد أنك ستطمع فيه إذا فكرت فيه جيداً".

عاد كورت بضع خطواتٍ نحو المكتب، تابع سيد حديثه قائلاً "يعرف رئيس السودان أنه رجل مطلوب، وهناك حكم صادر بحقه من المحكمة الجنائية الدولية في "لاهاي" لاتهامه بعمليات إبادةٍ جماعية في دارفور، إنه رجل مُحاط بعناصر الحراسات الخاصة طوال الليل والنهار، تحت سُلطته أجهزة الشرطة والمُخابرات وقوات الجيش الجوية والبحرية والبرية، رجل يحكم أُمَّةً بأكملها من يستطيع أن ينال منه! ألا تتفق معي؟"

رشف "سيد" من شايه، قبل أن يستكمل حديثه "بعد تسعة أيام من الآن ستقلع طائرة روسية من "بيلاروسيا" مُحمّلة بمساعدات عسكرية للرئيس عبود متجهة للخرطوم، إنها رحلة سرية، بلا جمارك، ولا تفتيش، ولا بيانات شخصية تخصّ أيّاً من راكبيها، بعد أربعة أيام من هذا سيحتفل الرئيس السوداني بعيد مولده في "سواكن"، مسقط رأسه، وهي مدينة ساحلية قديمة مكشوفة بلا حامية عسكرية ولا رقابة حكومية، نقطة استراتيجية ممتازة لتنفيذ عملياتنا خاصةً أنه سيسافر مع حرسه الخاص ويبلغ عددهم 24 رجلاً، بالطبع مزرعته الخاصة ستكون تحت تأمينٍ مُشدّد وفقاً للبروتوكول الأمني المُتبع في حراسة الرؤساء،

ولكن ثغرتنا له أنه سيزور المسجد الموجود هناك ثلاث مرات يوميًا، وحسب تحرياتنا سيؤذن بنفسه أذان الفجر من مئذنة المسجد، المدينة مليئة بأبراج أثرية من عهد الرومان، كل ما ينقُصنا فنَّاص ماهر بأدواته وأسلحته المتطورة ونحن واثقون أنه سيجد هناك بؤرًا عديدة ليصطاده، ألا تتفق معي؟" قال كورت، بصوتٍ بدا فيه الانزعاج: "لستُ متأكدًا".

تابع سيد حديثه: "اسمعي جيدًا، يُمكنني أن أضع في حسابك البنكي مليوني دولار من الغد، وأن أضعك بعد تسعة أيام على متن طائرة تُقلِّك لهُناك لتنفِّذ عمليتك، سأستطيع تمريرك من بوابات المطار دون أي شُبُهات ولا استجوابات، لديَّ سائق خاص هناك سينقلك لسواكن. وبعدها تنفِّذ عمليتك، بافتراض أنك نجحتَ في ذلك، سأكون مسئولًا عن إرجاعك دون أي متاعب أو مخاطر لروسيا على متن طائرة خاصة، وبمجرد عودتك ستجد مليوني دولار آخرين في حسابك نظير بقية أتعابك".

"أربعة ملايين دولار! بالإضافة إلى عمولتك. أنا متأكد أنك حصلتَ على عمولة هائلة من تنظيياتٍ تريد هذا الرجل ميتينًا على وجه السرعة".

"بالطبع، أنت مُصيب".

استرخى كورت في مقعده غير المريح: "مثل من؟"

حرَّك سيدورينكو رأسه، ولكنه لم يبدُ مُندهشًا كثيرًا، قبل أن يقول: "عَهدتُك دومًا لا تهتم من الدافع، أو من الجهة المُمولة وراء عملياتنا، كل ما يشغلك يكون عادةً مدى استحقاق الضحية للعقاب من عدمه".

"نعم، لكن بعد آخر عملية، أو بمعنى أدق آخر فُخِّ منك، لم أعد أشعر بأي ثقةٍ في اتفاقاتك".

ظَهَرَت الدهشة الحقيقية على وجه سيد وهو يقول "تقصد سلاتري؟ لقد كان كما وصفته لك بالضبط".

أجابته كورت ببساطة: "لكن الدافع لم يكن كما ادَّعيت".

صمت "سيد" كأنه يزن كلام الرجل الرمادي ثم ومضت عيناه في ظلام الغرفة تحت شعاع نيران المدفأة، وبدلًا من الإنكار أو الجدال قال أخيرًا بنبرة مُستسلمة "نعم، صحيح، لقد خدعتُك، وأنا آسف. أما إجابة سؤالك، فنعم، الحكومة الروسية بنفسها تريد عبود ميتينًا، لذا يدفعون المال، ويُفوضون العقود، من خلال وسطاء طبعًا، هل ارتحت الآن؟"

"أنت تكذب مُجددًا، روسيا والصين عمليًا هما الدولتان الوحيدتان اللتان تحتفظان بعلاقاتٍ جيدة مع

رئيس السودان، فلماذا تفعل روسيا ذلك؟"

"لأن علاقة السودان بروسيا ليست جيدة مثل علاقتها بالصين، قبل ثلاث سنوات، أخذت الأخيرة حقَّ التصرف في قطعة أرضٍ في صحراء دارفور تعرف باسم (12 أ)، لكن موسكو لم تهتم في ذلك الوقت، لقد كانت تقع في الحدود بين دارفور وتشاد".

قال كورت: "ثم عثرت الصين على شيءٍ هناك".

"ليس مجرد شيء، بل هو العنصر الأكثر قوة على الإطلاق في العالم كله".

"نفظ!"

"نعم، وبكمية هائلة، وبينما نتحدث الآن، يُحكم الصينيون سيطرتهم على المنطقة برمتها، لقد أرسلوا خبراءهم ومعداتهم. وقريباً جداً سيبدأ الحفر وكله بموافقة عبود. أما إذا اختفى من الصورة، فقد أكد أعضاء من البرلمان السوداني وأناس من حزبه هو شخصياً، أن القيادة الجديدة ستتبع عندئذ سياسة مُغايرة، سيطردون الصينيين ويُعطون الأرض بأكملها للروس مع أمل الوصول لاتفاقٍ مُرضٍ ومُريح لكِلتا الدولتين".

"إذا كان السودانيون قد وصلوا التسوية مع الصينيين، فكيف مرّت الصفقة من وراء الرئيس الحالي وستمرّ من وراء الرئيس التالي؟"

حدق فيه "سيد" بنظرة فيها خيبة أمل، كأنه لم يتوقّع هذا السؤال الساذج أبداً، قبل أن يقول "هذه هي إفريقيا يا عزيزي".

أوما كورت برأسه موافقاً، قبل أن يسأله "وماذا سيكون موقف الرئيس الجديد من الإبادة الجماعية في دارفور؟"

أجابه سيد "لا أحد يستطيع أن يُجيب بشكل جازم على هذه الإشكالية؛ لا بُد وأنك تعلم ذلك. ولكن الأكد أن الموقف دون بكري عبود سيتحسن كثيراً لأنه شخص سلطوي، يعبده رجاله، ولا أعتقد أن هناك خليفةً سيُشبهه ويكرر نفس أخطائه الغبية. كما أن دارفور أصبحت مهمةً لأسباب أخرى غير القضاء على أناس مكسورين وبائسين، ومن يعلم؟ ربما يُغيّر خليفته التالي الاستراتيجية بأكملها حتى تجد الأمم المتحدة مناطق أخرى تُبذّر فيها معونات الغرب".

ابتسم، ثم أضاف "وبعدها يأتي دور أبناء بلدي لدخول أراضيهم".
لم يُجبه كورت، فقط نقل بصره للمدفأة أسفل لوحة ستالين.

واصل سيد ضغطه قائلاً "معنى كلامي أن هذه العملية بالإضافة إلى أنها ستُطيح برجل فاسد، فإنها ستقطع شوطاً طويلاً في إنهاء الإبادة الجماعية التي ارتكبت هناك منذ العقد الماضي، أو نحو ذلك..
أتفهمني؟"

تمتم كورت "نعم أفهمك".

عرّف كورت جيداً أن رجلاً مثل "سيد" لا يهتم إطلاقاً بأي إبادة جماعية، فالأمر كله يتعلق من أوله لآخره بالإثارة التي يخلقها محه حين يفكر في القتل وتفصيله الدموية البشعة.

ابتسم الروسي من خلف مكتبه قائلاً "سيكون رائعاً إذا وثقت بي، سنحظى بصداقة عظيمة ومشوار مُريح لكِلينا وأنا أعرف أن الثقة عادة تأتي مع الوقت، لذا لن أضغط عليك نهائياً، خذ وقتك وقم بتحرياتك بنفسك، سيأخذك رجالي لفندق ممتاز، اسهر على كل الأوراق والخرائط والتقارير التي جهّزتها لك وأعطني

إجابتك غداً، أنا متأكد أنك ستخذ القرار السليم لأنني أعرف دماغك أكثر منك، وحالما تُصبح جاهزاً سنقوم بالاستعدادات اللازمة لعمليتنا العظيمة".

أوماً كورت برأسه ببطء، ثم سأله "أشَمَّ شيئاً لا يُعجبني في موقفنا الحالي، أسيظل رجالك مُرافقين لي طوال الوقت؟"

ابتسم جريجور سيدورينكو، لكن عينيه امتلأتا بالجدية وهو يقول "يُمكنك أن تفترض ذلك، سان بطرسبورغ ليست مكاناً آمناً لأمثالك يا صديقي". ثم رفع حاجبه واعتلت وجهه ابتسامة خبيثة، وهو يُضيف "سيكون لديك الكثير لتفعله الليلة، لكن بمقدوري توفير رفقةٍ جيدة لك طالما تعمل بجد.. قليل من.. دعنا نقول (الترفيه) لن يضرَّ".

"عاهرة تقصد؟"

"دعنا نُقل رقيقةً".

انخفض كتفا كورت، كان هذا مُجرّد أمرٍ آخر يجب التعامل معه "هذا آخر ما أحتاجه الآن، لا تفعل ذلك يا سيد".

قال سيد "كيفما تشاء يا صديقي، اعتقدتُ فقط أن هذا سيُحسّن من مزاجك". ثم قال شيئاً باللغة الروسية للحرّاس وضحك معهم عندما انتهى من حديثه. لم يفهم جنّري كلمة واحدة وإشارةً من يده قال سيد "أراك غداً".

تعشى كورت في مطعم روسي عثر عليه وحده دون أي مساعدة وجلس فيه دون رفقة، بينما اكتفى حُرَّاسه بالبقاء من حوله محافظين على إبقاء بقية رواد المكان بعيدين عن مائدته كي لا يكسروا انفراده بنفسه، أما النُدل فبقوا خارج الصالة يدخنون سجائرهم في حالة من الكآبة دون تدمُّر ولكن بحرصٍ شديد. بعد انتهائه من وجبته، اصطحبوه في الليموزين إلى فندق "نيفسكي" الشهير، وهناك صعدوا إلى الطابق الثاني عشر حيث الجناح الذي حجزوه له بشكل مُسبق، تركوه بمفرده واتفقوا معه أنهم سيقون في الغرفة المجاورة طوال الليلة في حالة ما إذا احتاج شيئاً، على أن يُوقظوه في تمام الساعة صباحاً ليصطحبوه مرةً ثانية لقصر "سيد" كي يُخبره بقراره النهائي بعدما يأخذ وقته في التفكير.

بمجرد أن أغلق شابٌ حليق الرأس عليه جناحه الخاص، استطلع أركانه من حوله، فلاحظ أنه في جناح فخم للغاية، عدل رجال "سيد" نظامه حتى بدا وكأنهم بنوه من جديد؛ كانت هناك غرفة جلوس كبيرة تُفضي لشرفة ضيقة، ليس هناك أي هاتف أرضي، غرفة المعيشة مُتصلة بغرفة نوم كبيرة لا يُوجد بها هي الأخرى هاتف، وهي مُتصلة بحمام كبير على طراز شيك حديثٍ مُتملى بكمياتٍ كبيرة من مستلزمات النظافة الشخصية والصابون والبشاكير، وعلى السرير وجد الرجل الرمادي بذلةً حريرية سوداء بحافةٍ سميكة أرجوانية اللون، تحتها صديري على شكل حرف (V) بياقة قطيفة ذهبية، في أي مكانٍ في العالم كان سيبدو شكلها بغيضاً لكنها هنا بدت مثلاً للموضة والشياكة وفق معايير سيد اللعين.

عاد الرجل الرمادي لغرفة الجلوس فوجد الكنبه والمائدة عليها كومة كُتب ومجلدات وملفات مفتوحة على صفحات بعينها، وكان واضحاً أن "سيد" ترك له كل هذه المستندات عن قصدٍ لطلعتها ودراستها جيداً لجمع أكبر معلوماتٍ مُمكنة عن قطعة الأرض المقصودة في صحراء دارفور ومعركة الروس والصينيين حولها، التي من شأنها أن تُسبب حروباً إقليمية ودولية.

تجاهل كورت التفكير في كل هذا، وحاول تصفية ذهنه من كل هذا الهراء الذي ملأ به سيد رأسه طوال الساعات الماضية، فذهب للشرفة ومنها تأمل الشوارع المكتظة بحركة المرور التي تسدُّ الطريق في الأسفل. أمضى دقيقة في تفحص المباني من حوله، مُحَدِّقاً في وهج فوانيس السيارات ومصابيح الطرق. ثم عاد للحمام عازماً على تنفيذ خطته، أخذ عبوة كريم حلاقة ومنشفة ووضعها في جيوب سترته، ثم عاد للشرفة ومن هناك وبمهارةٍ مشى على الدرابزين بساقٍ واحدة ثم التي تليها. قبل أن يهبط على أبواب الصرف المزخرف الممتد على طول الجدار المجاور للشرفة، الذي سمح له بالقفز على الطابق السفلي. تأرجح مرتين للحصول على قوة دفع، ثم ركل بساقيه بقوة.

فور هبوطه على شرفة الطابق الحادي عشر استطاع معرفة أن جناحه مشغول، إذ تبين هذا من الأنوار المضاء والملابس الملقاة بعشية، لكن يبدو أن شاغليه لم يكونوا في هذه اللحظة موجودين، فخمّن أنهم ربما

ذهبوا لتناول العشاء. وبسرعة أخرج من سترته عبوة كريم الحلاقة، هزّها ورشّ الفوم منها على زجاج الباب الزجاجي المنزلق، مُركّزاً رغوته بجوار مقبض الباب مباشرة، حتى أفرغها كلّها وصنع بمحتواها دائرة بيضاء. ربط يده اليمنى بالمنشفة واستجمع كل قوته في قبضته وبكل طاقته خرق بيده المنشفة بشراسة الدائرة التي صنعها، دون أي صوتٍ يصدر من تهشم الزجاج وذلك بفعل الفوم. ترك المنشفة تسقط على الأرضية ومن الداخل فتح لنفسه باب الجناح.

بحث لنفسه في الدواليب عن أي ملابس تُناسب مقاسه لكنه لم يجد أي شيءٍ نافع، شعر بخيبة أمل دون أن يتفاجأ، ولكن منذ متى سارت الأمور في حياته وعملياته بمرونة وسلاسة؟! نادراً ما نجح في تنفيذ أي خطةٍ دون أي عقبة واحدة. غادر الجناح، ونزل أربعة طوابق على الدرج، ثم سار على طول ممرٍ آخر، ودخل قسمًا آخر، حتى وصل لردهة الفندق، ومن هناك وجد باباً للموظفين يُفضي لغرفة غسيل الملابس فدخلها دون أن يُعيّره أحد من العمّال أي اهتمام.

بعد نصف ساعة من قفزه من شرفة جناحه في الطابق الثاني عشر، كان كورت مهندماً يجلس في نُزل مُتواضع يقع على بُعد ميلٍ واحد من فندق "نيفسكي"، تذكر هذا المكان من رحلته الأخيرة مع "زاك هايتاور" في 2003 أثناء انتظارهم مداهمة السفينة الهدف المُحمّلة بأسلحة صدام حسين، وعلى عكس تلك المرة كان المكان الآن هادئاً واتخذ كورت موقعاً استراتيجياً فيه يُسمح له برصد الداخل والخارج دون أن يلمحه أحد.

دفع كورت مصاريق إقامته باليورو لصاحبة النزل، وحين سألته عن جواز سفره، أضاف ورقتين من فئة العشرين يورو في يدها كرشوة، فأخذتهم في صمتٍ ولم تسأله عن أي شيءٍ آخر بعدها. سألها بالتحديد عن غرفةٍ لا يزال يتذكّرها في الطابق الثاني مواجهة للشارع الرئيسي ولحُسن حظّه كانت شاغرة، فاصطحبته إلى الطابق الثاني وصعدت به درجاً ضيقاً، مروراً بالمرحاض العام، ونزولاً إلى رواقٍ بالطابق الثاني ما انفكَّ يُصدر صريراً مع كل خطوة.

فتحت الباب بالمفتاح، ثم تركته هناك دون أن تُلقِي عليه حتى نظرة واحدة.

فضّل كورت ألف مرة أن يقضي ليلته في هذا النزل المُتواضع بدلاً من بقائه بشكل مُحاصر من قِبَل رجال "سيد" حليقي الرءوس الحمقى كأنهم كلاب بوليسية يُعيقون أي حركةٍ منه، كل ما أُراده أن يستلقي في جوٍّ هادئٍ ليُريح أعصابه ويزن قراراته إن كان عليه الهروب للأبد أم مُجاعة رئيسه الجديد اللعين أم العودة لتفحصُ المستندات التي تركها له "سيد"، وبناءً عليها يتمكن من اتخاذ قراره النهائي بشكلٍ حكيمٍ في عملية خطيرة كهذه.

كانت الغرفة المحجوزة مُعتمة من حوله لا يُنيرها سوى بصيصٍ نورٍ قادم من الشارع، فسار كورت نحو النافذة، وأزاح الستائر الفينيل، فأدخلت مزيداً من النور سمح له برؤية تفاصيل المكان بشكلٍ أوضح، واستدار لفحص عُرفته.

فجأةً وجد نفسه أمام خمسة رجالٍ ثابتين كالتماثيل على بُعد خطوتين منه يبدو أنهم تسلّقوا المبنى من حوله.

لم يكن أمامه أي قرار سوى أن يبدأ القتال ضدهم، فلم يكن الهروب خيارًا مُتاحًا. حاول أحدهم ضربه على رأسه، وحين انحنى كورت للأسفل تفاداهما، وهَجَم على الرجل الذي كان على أقصى يمينه، مُصطدِمًا به بينما ضربت ذراعها الرجل الضخم مؤخرَةً رأس كورت بعُنف. اصطدما بالحائط معًا. رفع جنترى ساقه اليسرى ليوجّه ركلةً في فخذ من سيتجرأ ويهاجمه من الخلف. ارتطمت الركلة بفخذ مُهاجمه من الداخل، لكنّها لم تُكُن ضربةً عنيفةً. وبينما رفع كفه اليمنى بقوة ليوجّه لكمة قوية للرجل الذي يطوّقه، شعر بجسم محمولٍ في الهواء يضربه بقوة من اليمين. ارتطمت كف كورت بوجه الرجل الأول، في الوقت الذي دار فيه بعيدًا وسقط على السرير على ظهره، وشعر برجلين آخرين يُمسكان بساقيه ويثبتانها.

وبذراعه الحرة الوحيدة، وجّه لكمةً قوية إلى صدر رجل يتحرّك نحوه. لكنّه شعر بالسترة الواقية من الرصاص تحت ملابسه الداكنة، وعرف أنه لم يحدث أي ضرر.

وبينما يُصارعهم ويقاتلهم، أدرك بوضوح جليّ أن هؤلاء الرجال أكفاء. لا، بل هم بارعون للغاية. فقد كانوا سريعين وأقوياء ومُدربين جيدًا. والأهم من ذلك أنهم عملوا معًا كفريق، ولم يصرخوا أو يتألّموا أو يفزعوا أثناء قتاله. تمكّن من لكم أصغرهم حجمًا في رأسه بكوعه بقوة، مما أدى لارتطامه بقوة باللوح الأمامي للسرير، ثم سقط جانبًا على الأرضية الخشبية. لكن الآخرين ملئوا الفجوة التي تركها رفيقهم الجريح في لحظة، حيث ثبتوا أطرافه على السرير وهو يُصارع بيأس للتحرّر منهم.

نظر إلى يساره، ومن وسط العتمة قرّب أحدهم شيئًا في يده أخرجه من موضع ما، واقترب الآن بثقةٍ حذرة. تعرف على ما يُمسكه من شكله البغيض المألوف إذ كان حقنةً مملوءة ب مادة لزجة أرادوا غرزها في جلده، أدرك أنهم إذا حقنوه بها سيكون ملكهم طوع أيديهم حتى يُفنيق.

وأدرك أنهم عملاء تابعون لقسم العمليات شبه العسكرية في قسم الأنشطة الخاصة بوكالة السي آي إيه، فريق ميداني كامل، وهم الذين ظلّ فأرًا منهم لوقتٍ طويل. لكنه في داخله علم جيدًا ومنذ مدةٍ بعيدة أن أيديهم ستصله عاجلاً أم آجلاً.

تظاهر كورت بإرخاء ذراعه اليسرى أمام الرجل الذي يريد حقنه، نجحت الحيلة، وحرّك جنترى ذراعه للأسفل من تحت قبضة الرجل إلى جانبه. حرّر ذراعه وسدّد لكمةً عنيفة إلى وجه الشخص المُمسك بالحقنة. ارتدّ رأس مُهاجمه للخلف وسقط أرضًا مما أسقط الحقنة، لكن البقية أجهزوا عليه وثبّتوه في وضعيةٍ مصلوبة وحقنوا المادة في فخذِه بكلّ عنفٍ كأنهم يُعاقبونه على مقاومته لهم.

"ابن العاهرة".

كانت صرخته الأخيرة قبل أن تدور الغرفة من حوله ويُدرك أنه خسر معركته معهم وصار كالميت بين أيديهم.

دخل رجل سادس الغرفة ببطء، ولكن بخطواتٍ واثقة لا لبس فيها. كان كورت لا يزال في وعيه، لكن جسمه وأعصابه مشلولان، لقد كان ذلك العقار قويًا؛ قرأ عن تلك المواد كثيرًا طوال حياته وعملياته لدرجة جعلته واعيًا أنهم حقنوه بجرعةٍ مُهدئات قوية جعلت عضلاته تسترخي كأنها تذوب في نسيج المرتبة من تحته.

برك الضيف السادس على جسم كورت، أما بقية الرجال فاثنان منهم استسلموا، والثلاثة الآخرون اعتنوا بجروح زملائهم، أنزل الضيف عينيه على كورت يتفحصه في عتمة الغرفة بفضول. حاول جن تري التركيز على الرجل، لمحاربة زحف المخدرات في دمه. وللحظة، بدا له الوجه مألوفاً، ثم أثرت على صورته في تخيلته دوخة أضاعت تركيزه مجدداً.

ناداه الرجل الذي كان فوقه "أهلاً يا كورت!"

رغم الرؤية المتموهة عرف جن تري الصوت بطريقة ما. أمسك الرجل بخدي كورت، وضغطها حتى فتح فمه فسأل لعاب الرجل الرمادي من لسانه على ذقنه.

قال الرجل الذي فوقه للبقية من حوله: "عشرون ثانية بالضبط، وسيفقد وعيه نهائياً". ثم مُعيداً انتباهه لكورت قائلاً "يا لك من شخصٍ سهل التنبؤ بتصرفاته، لقد توقعتُ أنك ستسلك من الفندق، وستأتي إلى هنا، ألم تعثر على أي أماكن أفضل طوال الثماني سنوات الماضية؟" ابتسم ثم أضاف "من سوء حظك أنني لا أزال أتذكر هذا النزول القدر".

نقل بصره من كورت لرجاله وقال "لطالما كان العميل 6 أقلنا حظاً، اعتدنا أن نقول إنه إن أمطرت السماء ذهباً، فسيكون نصيب كورت جن تري حصي".

العميل 6!

بصوتٍ مخنوق نادى كورت من المتاهة التي غاص فيها وعيه "ذاك! أهذا أنت؟"

"أتذكّرني يا جنتري؟"

كان كورت قد نسي اسمه هو شخصياً في هذه اللحظات العصبية، فتح عينيه على اتساعها وتساءل إن كان واعياً طوال هذا الوقت أم أنه استعاد وعيه لتوه! الشيء الوحيد الذي كان متأكداً منه أنه لا يزال على قيد الحياة، رغم تموّه بقية التفاصيل من حوله. شعر ببرودةٍ وحين تفقّد نفسه وجد أنه عارٍ بلباسه التحتي فقط، مُقيّد على كُرسي داخل غرفةٍ ضيقة تُشبه الزنازين، أو عُرف الاستجواب في السجون، مُحاط بأربعة رجال بمقدوره استشعار طاقة الغضب والكراهية والعنف الفائحة من أنفاس وأجساد كل واحدٍ فيهم، لكنه لم يستطع التعرّف على ملامحهم لأن المخدر الذي حقنوه به كان مفعوله لا يزال مستمرّاً في دمه. أثناء تدريباته في مقر الـ"سي آي إيه" في ولاية "كارولينا الشمالية" حَقَنَ وتناول واستنشق ما يقرب من خمسة وعشرين مادة لتغيير الحالة المزاجية لاختبار وتحسين براعته، وخفة حركته، وقُدْرته الإدراكية أثناء وجوده تحت تأثير المخدرات، حتى إنه ذات مرة استطاع تسلّق سلّم حلي من ثلاثة طوابق وفتح قفلاً وهو في مثل هذه الحالة، رغم أنه لم يتذكّر التدريب بعد عشرين دقيقة. كما اطلع على أنواع المواد الأفيونية وأدوية التخدير، أما ما كان يمرّ به الآن فهو جحيمٍ بشع لم يرَ أو يمرّ بأي سيناريو مثيل له في أي تدريب أو مناورة أو حتى عملية فعلية من قبل.

وفجأة، أدرك أنه توقّف عن أخذ أي أدويةٍ مخدرة طوال الثلاثة أسابيع الماضية، وحتى مُسكن الآلام الذي تعاطاه لأشهرٍ طوال فترة بقائه في فرنسا أوقف تعاطيه تماماً، لذا تساءل إن كان المُخدر الذي حقنوه به سيُرجعه لنقطة الصفر، وتمنّى لو أنهم بدلاً من غرّز هذه الإبرة وضعوا طلقةً في رأسه لإراحته تماماً من كل خصومه ومشاكله ومن حياته ومن سيد ورجاله.

الموت هو الحلّ الناجح لكل المشكلات، أليس كذلك؟

تراجع ثلاثة من الرجال الأربعة عبر باب صغير في الغرفة، تاركين الشخص الذي تحدّث قائلاً: "لا تقلق يا عزيزي، لقد أوقفنا المحلول منذ بضع دقائق، وستستعيد وعيك تدريجياً، أخبرني من فضلك حين يصير صوتي واضحاً بشكل كامل لك، اتفقنا!"

تعرّف كورت على صوت محدّثه قبل تمييز وجهه، حاول مقاومة تأثير المُخدّر عليه، وهزّ رأسه ورمش بقوة، ثم عرف... وتجهّم وجهه، وأشاح بنظره وهو يقول "ألم يسبق لي أن قتلتك؟"

"لا، لم يصل الأمر لهذه المرحلة، كان مجرد اختلاف وجهات نظر بيننا، لكنه لم يكن سوء تفاهم كبيراً".

قال كورت: "هاي.. تا.. ور، زاك هايتاور". نطق اسمه كأن الرجل نفسه لا يعرفه، كما أن مخارج ألفاظه أتت مكسرة كأنه طفل يتعلّم الكلام من جديد.

سأله الرجل "هل تشعر بأي أذى؟"
"لا!"

"حسنًا، دعني أتولى أمرَك أيها الرجل الرمادي ولا تكن عنيدًا". وضع يده أمام وجه كورت بالأخص عينيه، وتابع حديثه بنبرة هادئة: "لقد انتظرتُ أربع سنوات لأجل هذه اللحظة، بالتأكيد سأكره أن أفوتها". نقر بأصابعه أمام وجه جنترى مُتسائلًا "هل ما زلتَ معي؟ رائع. الآن.. هذه من أجل باول لينش". ثم لكمه "زاك" في فكه.

سقط كورت عن كرسيه أرضًا.

قال كورت: "اللعنة".

أجابه زاك: "اللعنة!"

رفع كورت نظره فوجد الرجل الذي ضربه يتحسّس قبضته من فرط الألم، لحسّ شفتيه المجروحة بلسانه الرطب ثم بصق على بلاط الغرفة لُعابه المخلوط بالدم، سحب الرجل من شعره وأعادَه لكرسيه، كانت أطراف كورت تحت تأثير التنميل ولكن اللكمة التي تلقاها أخرجته الآن بعض الشيء من توهان المخدر وأيقظت كل حواسه التي بقيت حتى لحظاتٍ قليلة ماضية مُغيبة.

"وهذه يا كورت لأجل دينورودس".

لكمه هايتاور مرّة ثانية في وجهه. فتهاولى جنترى عن كرسيه، وهذه المرة شعر بعينه اليسرى وقد انتفخت بشكل مُريع وسمع هايتاور يسبّ مرّة أخرى.

قال كورت بعد لحظة "لقد حاول رودس قتلي، كلُّكم حاولتم ألا تتذكّر؟!"

"اصمت، لم ننته هنا بعد!"

رُكع كورت على رُكبتيه مُحاربًا دوخته، وبعينين دامعتين ورؤية غائمة نجح في إحكام توازنه واعتلاء كرسيه دون مساعدة من "زاك" جلّاده. كانت عينه اليسرى قد أُغلقت تقريبًا، وانهمرت منها الدموع لتجعل رؤيته أكثر ضبابية، قال: "ما الذي تتحدث عنه يا زاك! أنت ومورجان ولينش أتيتُم لتقبضوا عليّ، ماذا توقّعتُم أن يكون رد فعلي، أترككم تقتلونني؟!"

قال هايتاور: "كان ذلك سيكون جيدًا لكل الأطراف، وكانت زوجة كيث مورجان ستُقدّر هذا الجميل بالتأكيد". ثم ضربه يُسراه مرّة أخرى على رأسه، بقوة أقل، لكنه هزّ يده مرّة أخرى لتبريدها بعد الضربة.

تمايل كورت، لكنه حافظ على توازنه فوق مقعده هذه المرّة. تفلّ دمه على الأرض وقال "أرى أن لديك أصدقاء كثيرين ميّتين".

ضرب هايتاور يُسراه مرّة أخرى وأرجع يده للخلف استعدادًا لضربةٍ أخرى وهو يصرخ: "كانوا أصدقاءك أنت أيضًا يا كورت، قبل أن تقتلهم!"

صاح كورت مُغتاضاً "أنا أعلم بشأن العقوبة! كان عليك إطلاق النار عليّ بمجرّد رؤيتي! استمِرّ في ضربي وسنظلُّ هنا طوال الليل اللّعين! أخرج مُسدسك واقتلني بدلاً من هذا الهراء".

رفع زاك قبضته عاليّاً فوق وجه جنترى، ثم خفض قبضته ببطء، شدّ فكّه وأوماً برأسه ببطء، وبدلاً من ضربه أخرج الرجل مُسدساً مطليّاً بالنيكل من حزامه.

أداره زاك وألصق فوهته في جبين كورت بحركةٍ سريعة.

رمش كورت وارتعشت وجنتاه، ثم نظر إلى زاك وإلى فوهة البندقية الصغيرة "ربما يُمكنك أن تُخبرني عن سبب عدم قتلي، ما الذي سيؤمّلك لو قُلتّه؟"

تجاهل سؤال كورت وظل مُصوّباً مُسدسه إلى رأس جنترى بثباتٍ مُدّة خمس.. عشر.. عشرين ثانية ثم قال "أياً كان ما سيحدث أيها العميل 6، طوال حياتك القادمة، إذا أفلتتُك فاعلم أنها عطية مني لك ليست إلا".

أنزل المُسدس وأعادته إلى مكانه.

أغمض كورت جفنه مُتفادياً نقطة عرقٍ شعر بها وهي تنساب على جبينه ثم تجد طريقها نحو عينه اليمنى، وضع زاك يديه في استسلامٍ على فخذيّه وهو لا يزال ينظر إليه.

من خلال أنفاس كليهما العالية بعد ما بذلاه من مجهودٍ بدنيٍ عنيفٍ سأله "هل افتقدتني يا كورت؟"

أغمض كورت عينيه مرّةً أخرى "أنت ورم لا يزول من حياتي".

ابتسم زاك بسخريةٍ "وأنت فريسة سهلة، ألا تُوافقني الرأي؟"

غادر هايتاور الغرفة دون أن ينسب بينت شفة، مما أتاح لكورت الفرصة لتهدئة أعصابه قليلاً، والتفكير في مُحيطه. وعندئذٍ أدرك على الفور أنهم طوال هذا الوقت كانوا داخل قمرةٍ على متن سفينة، لاحظ الرجل الرمادي هذا من الجدران البيضاء السميكة وطبيعة الديكورات وشكل النوافذ المُستديرة، ثم انتبه لطنين المُحركات الآتي من الغرف المجاورة وأرجع عدم اتزانه لحركة المياه وليس فقط للمُخدر الذي حقنوه به في النزل المتواضع حين هاجموه وكبّلوه قبل اصطحابه إلى هنا.

عاد زاك للقمرة لكنه هذه المرة كان مُمسكاً بكيسٍ شفافٍ مملوء بالثلج وسكين صغير، لفّ وراء مقعد كورت، وبحركة واحدة خاطفة مدروسة جيداً قطع أصفاده التي كان رسغاه مربوطين بها. ثم أمسك زاك بكرسيٍّ آخر من الرواق وسحبه عبر الأرض بصوتٍ مُزعجٍ وجلس في مواجهة جنترى. ثم ألقي كيس الثلج في حجر الرجل الرمادي فوضعه من تلقاء نفسه على عينه المُتورّمة المُتفاقمٍ وجعها ليوقف انتفاخها المستمر وألمها المُتزايد.

ألقي جنترى نظرة على الرجل بعينه اليمنى. لقد مرّت أربع سنواتٍ منذ عملاً معاً لصالح وكالة الـ"سي آي إيه" التي تُدعى "جولف سيرا"، والمعروفة بشكلٍ غير رسمي، لأولئك القلائل الذين يعرفون عنها على الإطلاق باسم فرقه "جوون". كان زاك هو العميل رقم 1 وقائد الفريق، أما كورت فبقي العميل رقم 6 ورغم أنه كان الأصغر والأحدث لكنهم لكفاءته كانوا يضعونه دومًا في مقدمة المخاطر. وها هو هايتاور في الخامسة والأربعين من عمره أو نحو ذلك، لكن عينيه لا تزالان تشعان ببريقٍ أزرقٍ كلّه طاقة وحيوية كأنه

طفل رضيع. كان نحيفاً للغاية وذا فكٍ مُربَّع، شعره مخلوق ومُصنَّف بطريقة ميري رسمية وبُقع من الشَّيب الرمادي تشوب شعره الأشقر الرملي. جسمه الرياضي الممشوق يزن حوالي 261 رطلاً دون دهون، لا يزال يمشي مشيته العادية فاردًا صدره وكتفيه كأنه ذاهب ليُحارب. يعرف كورت عنه أنه وُلد في "تكساس" ثم انضم إلى القوات البحرية بعدما ترك فريق البيسبول في الجامعة، نفَّذ بعض العمليات مع قوات "السيلز" قبل أن يلتحق كضابط فرقة عمليات بوكالة الـ "سي آي إيه"، كان ذكيًا واثقًا بنفسه، له سحره على النساء ومحبوبًا من أصدقائه الرجال.

باختصارٍ كان هياتاور النموذج المثالي لمحاربٍ في قوات "السيلز" الأمريكية كما يقول الكتاب. سأله هياتاور وهو ينظرُ إلى إصابته ويده المُنتفخة عند المفاصل "كيف كانت حالك في الأيام الماضية؟" لوهلةٍ أراد كورت أن يقفز على مُحْتَجِزه ويضربه في قصبته الهوائية، لكنه في الوقت ذاته كان يعرف أن المُخدر الذي حقنوه به سيُطَيء أي حركةٍ يقوم بها خاصةً لو مُباغته وعنيفه، كذلك بدا زاك غير قلقٍ إطلاقًا من ردود أفعال كورت فهو أدرى من أي أحدٍ آخر بمفعول ما كان في الحقنة التي غرسوها في مجرى دمه.

"بعض الأيام أفضل من الأخرى".

"نقول الشائعات إنك بخير. لقد قُمتَ بثلاث إلى خمس عمليات في العام على مدى السنوات الأربع الماضية، في كُلِّ مكان. إن كَسب بعض المال الجيِّد هو مُحَرِّك الناس في الشوارع. وأعتقد أنك حرقتَ أخوي أبو بكر البغدادي؛ أحدهما في سوريا والآخر بعدها بأسابيع في مدريد، المُخابرات الفرنسية تقول إن شخصًا يُطابق نفس مواصفاتك فجَّر نصف القطر الأوروبي الفرانكفوني في ديسمبر الماضي والأوكرانيون يُذيعون إشاعاتٍ من حينٍ لآخر في كل مكانٍ يقولون إنك أنت من اقترفت هذه الفظاعات في (كييف) أهذا صحيح أم مجرد خرافات؟"

"لا تُصدق كل ما تسمعه، أخبرني كيف وجدتموني؟" هزَّ زاك كتفيه قائلاً "التقطت إيشلون بعض مكالمات الهاتف المحمول من بلطجية سيدورينكو، لديه اسم رمزي لك، على ما أعتقد، لكن بعض الحمقى أشاروا لك باسم سيريج موتشينا على خطِّ مفتوح".

قال كورت بتنهيدةٍ مُحبطة "ترجمتها الرجل الرمادي.. رائع!" ردَّ زاك بسخرية "هؤلاء الروس فعلاً أذكاء جدًّا، لقد قالوا في إحدى الرسائل أنك ستقابل زعيمهم اليوم، فمرر رجال وكالة الأمن القومي الرسالة إلى لانغلي، الذي نقلها لي لأقوم باللازم".

أوما كورت برأسه قائلاً "أحضرْتني إلى هنا لتضربني وتُريني قُدراتك الخارقة في إذلاي؟" "لا، سيبقى نظام تتبع الرسائل مُعلَّقًا حتى نُنهى مُحادثتنا القصيرة وترحل من هنا. أما فيما يتعلَّق بالضرب؛ فهذا أمر شخصي".

"هل تُسمي ذلك ضربًا؟"

"ومن قال إنني انتهيت؟"

عقد كورت حاجييه قائلاً "أطلقت عليك النار في فيرجينيا، ورأيتك تسقط من النافذة مسافةً تقدّر بحوالي طابقين، لكنك الليلة حيّ أمامي، كم رُوحًا تملك!"

ابتسم زاك مثل الضبع، لكنه لم يكن سعيداً وهو يقول "لكنك لم تلاحظ سُرتي الواقية يا كورت، لقد سقطتُ سقطَةً عنيفةً على جهاز تكييف قسّمتُ حوضي نصفين، بالإضافة إلى عظم الترقوة وبعض الأضلاع أيضاً". تأوّه زاك وكأنه يتذكّر ما حدث، ثم بدا وكأنه تذكّر شيئاً، فأضاف "لكنني لم أكن أعرف أنك تحمل مُسدّس ديرينجر من قبل".

"لم يكن لديّ سبب لذكر ذلك. من حُسن الحظ أنني لم أفعل".

هزّ زاك كتفيه قائلاً "يعتمد ذلك على وجهة نظرك. لأكون صادقاً معك، كنتُ أحب أن أعرف ذلك".

"لم يكن عليك المجيء أنت ورجالك، لماذا فعلتموها؟ لقد حاولتم قتلي في تلك الليلة مثل الآن".

هزّ زاك كتفيه وكأن الإجابة واضحة قبل أن يقول "كانت أوامر وأنت تعرف الأوامر وطبيعة عملنا، أنا عبد المأمور وهم معي، ما أقوله ليس غريباً على مداركك".

"لا أعرف، إنه غريب كلّ الغرابة على مسامعي، أخبرني من وجهة نظرك ماذا كانت غلطتي!"

هزّ هايتاور كتفيه قائلاً "أنا مجرد نحلةٍ في مستعمرة كبيرة، لقد تلقيتُ الأوامر ونفذتها دون نقاش، تماماً مثل أي شخصٍ آخر".

"مستحيل، أنا متأكد أنهم منحوك أسباباً لتصفيتي".

"منذ متى اهتممتُ للأسباب يا كورت، أنا لستُ مثلك، اعتدتُ القيام بعملٍ بعينين معيّنتين وابتساماً على وجهي".

كان كورت متأكدًا من كذب رئيسه السابق، لأنه ببساطة لا أحد في وكالة الاستخبارات المركزية سيأمر قائداً بتصفية واحدٍ من رجاله دون أي شرح أو على الأقل توضيح أسباب هذه العملية الخالية من أي مُراعاة لمشاعر الصداقة والزمالة، لكنه قرّر أن يتجاوز هذه النقطة "الرجال الذين كانوا معك ليلتها، أهم من فريقك الجديد؟"

"بشكل ما، لا أزال قائد فرقة، صحيح أنها ليست جولف سيرا، بل تُدعى ويسكي سيرا، لكنها لا تزال فرقة. نختلّف من الناحية البيروقراطية عن الفرقة القديمة، حيث تغيّرت طبيعة وقواعد مهامنا بعض الشيء، صارت أكثر حزمًا وتقييداً لكن الأساس هو هو. يتألف طاقمي الجديد من عميلين سابقين من القوّات الخاصّة، وعميلين سابقين من دلتا، وعميلين من هؤلاء الذين انتدبوا من وكالة المخابرات المركزية إلى العمليات السوداء. إنها مجموعة جيّدة حقاً، لكنهم بالتأكيد ليسوا من طرازك، فستظل دائماً أفضل من يقتحم الأبواب". ابتسم ثم أضاف "لقد شوّهت وجهه تود؛ أنفٌ مكسور وفكٌ مخلوع".

قال كورت دون أن يقصد ذلك "أسف".

هزّ زاك كتفيه قائلاً "الأشياء السيئة تحدث".

كان جلياً أنه لم يقصد ذلك بدوره.

"إذن، لماذا أنا هنا؟"

مدّ زاك هايتاور يده إلى كيس الثلج، وأخذه من على وجه جنثري ولفّه حول قبضته المتورّمة قبل أن يقول
"من أجل عبود، الرئيس بكري علي عبود".

"ماذا تريد بخصوص عبود؟"

"ستغتاله لصالح سيد، أليس كذلك؟"

لم يرَ كورت أي جدوى من التظاهر بالجهل أو الغباء أو الكذب، إن عرفت وكالة الاستخبارات المركزية كل هذا، وكانت معلوماتها بعيدة المدى بحيث يرصدون عمليات الاغتيال شديدة السرية قبل وقوعها بفترة طويلة، فمن الأفضل له أن يكون أكثر صراحةً معه مَهْمَا كانت رذالته، لذا أجابه: "لكنني لم أوافق على شيءٍ بعد".

"نعم، حسنًا، ونحن نُريدك أن توافق يا كورت".

"ما الذي يجعلك تعتقد أنني مُهتم بما تريده أساسًا؟"

"لأنك لا تريد المزيد من المشكلات مع مزيدٍ من الخصوم يا عزيزي، فلمَ لا؟"

سحب كورت كيس الثلج من على عينيه كاشفًا سواد كدمتها، واضعًا إياه على شفته لتخفيف ألمها "أنا مُنصت إليك، أكمل!"
"برافو يا طفلي العزيز".

رغم أن كورت الآن في السادسة والثلاثين من عمره، إلا أن زاك لطالما ناداه بطفلي منذ بدأ العمل معًا من ثماني سنوات، تابع زاك حديثه: "نريدك أن تلتزم بتعليمات سيد في العملية كما لو أنه سيُدك الأول والأخير في هذا العالم ولا أحد سواه، هو لديه طريقته بعلاقاته وأعماله القذرة لإدخالك السودان أحسن من ألف مرة، كي نفعلها نحتاج لترتيباتٍ وتكتيكاتٍ لوجستية لا يسمح لنا موقفنا باستخدامها، وربما طريقتنا تُسبب في نهاية المطاف أزماتٍ دبلوماسية بين الدول".

"وماذا بعد؟"

"ستتظاهر بأنك تُنفذ خطة سيد بحذافيرها، ولكن في اللحظة الأخيرة، نُريدك أن تخطف عبود".

"أخطفه؟"

"نعم".

"وبعد ذلك؟"

"نُسلمه لي ولرجالي، سنكون في نقطةٍ قريبة من موقعك، وسنعود معًا مُبحرين".

"لماذا تريد واشنطن الرئيس عبود؟ لإنهاء أزمة دارفور المسئول هو عنها دون غيره؟"

"نعم، ولكن في الوقت ذاته يُريد الرئيس تقديم عبود على طبقٍ من فضة لمحكمة العدل الدولية، لقد أصدروا مذكرة اعتقالٍ ضده بالفعل منذ ثلاث سنوات".

"فهمت، ولكن من وجهة نظري أن تتم العملية لصالح الروس دون أي ظهورٍ لوكالة الاستخبارات المركزية هذا أفضل كثيرًا".

ضحك زاك، قبل أن يقول "أعلم ذلك يا كورت. طريقتك كانت تصلح للعهد البائد، أما الآن ومع مُنغيرات العصر وبالأخصّ في هذه المنطقة، فالرئيس وطاقمه في البيت الأبيض يريدون تصليح علاقاتهم بمؤسسات المجتمع الأوروبي، وكسب رصيدٍ إضافي لديهم، أتفهم قصدي؟ للأسف إنه كلام سياسة بعيد عن مجالك".

لم يستطع كورت تصديق ما يسمعه "أنت حتمًا تمزح، الرئيس يريد عبود كي يكسب الأوروبيين؟" هزّ زاك كتفيه ثم قال "الأمر أبعد من هذا، العين بالعين، أنا لا أتقاضى مُرتبي لأشغل بالي بالسياسة هذه ليست لعبتنا يا عزيزي، ولكن.. بشكلٍ عام.. نعم".

هزّ كورت رأسه قائلاً "وطريقتي أصبحت من العهد البائد، أليس كذلك؟"

"للأسف نعم، قبل خمس سنواتٍ كان يُمكننا فعل ما يدور في ذهنك بالحرف؛ نذهب بكل بساطة ونضرب هدفنا وليذهب الكل للجحيم، ولكن الأمور تغيّرت في يومنا هذا، شخص ما أقنع الرئيس والبيت الأبيض أننا لدينا طريقتنا لنذهب ونجلب عبود ونُسلمه لمحكمة العدل الدولية، وأن الأمر لن يعود علينا بأي ضررٍ أو فضيحة دولية حتى لو أخفقت عمليتنا".

سأله كورت "وطريقتكم هي أنا؟"

"بالضبط، كل وكالات الاستخبارات وشبكات الجواسيس تعرف كيف تُريدك ميتًا، لذا في حالة فشلت العملية لن يشكّ أحد أنها تتعلّق بنا أو أنك تعمل لصالحنا".

"أكانت هذه فكرة وكالة الاستخبارات المركزية؟"

"مائة بالمائة، في الحقيقة إمكانيات وحدة العمليات الخاصة أقل مما نريد، الطائرات بدون طيارٍ مثلًا التابعة للسي أي إيه يُمكنها الفتك بخصوصيتنا من على بُعد ثلاثين ألف قدم، وتقضي على الأشرار يمينًا ويسارًا بصواريخها القاتلة، بينما نحن جالسون على مؤخراتنا. لكن البيت الأبيض قلّص كل صلاحياتنا، فحتى نظام تدريبنا لم يُعد على ما يُرام. نحن لا نذهب لقتل الإرهابيين في بؤرهم، ولا نُحارب في دول صديقة، نحتاج هذه العملية لنُثبت للرئيس وللبيت الأبيض وأمريكا أن لدينا المزيد لنُقدمه. وأنت الذي ستُساعدنا في هذا، ستحمّل المخاطر، وسنُجلب عبود ونُقدمه للرئيس ليُسلمه بدوره لمحكمة العدل الدولية، إن الرئيس الأمريكي وأتباعه الذين يخشون المخاطرة سيُعطوننا المزيد من الصلاحيات إن رأوا كيف يُمكننا جعل أصدقائه الأوروبيين ودودين ومرتاحين من خلال إعطائهم عبود مُقيّدًا، وعلينا القيام بهذا بأنفسنا. لأنه للأسف الشديد الطائرات دون طيارٍ لا يُمكنها خطف أشخاص، على الأقل حتى الآن".

"ماذا عن سيدورينكو؟"

"سننجح في ذلك، وسيُكتشف ساعتها أنك خطفتَ الرئيس لصالحنا، لا أعتقد أنك تريد تقضية حياتك تعمل لصالح هذا المختل مُدمن الكافيار لفترةٍ أطول. صدّقني من وسط كل المجرمين الروس سيدورينكو وعصابته النازية هم الأسوأ".

أمال كورت رأسه جانبًا، ثم قال "لكن إن تواجدم في مسرح الأحداث لتسليم السلاح، فكيف ستضمن أن العملية لن تعود عليكم بأي ضرر؟"

لوح زاك بيده قائلاً: "سنختبئ في المياه الدولية حتى تحين اللحظة المناسبة، لذا ستقوم أنت بالجزء الأصعب ألا وهو خطف الرئيس، وسندعمك فيها. كما أن وكالة المخابرات المركزية لديها عميل هناك في "سواكن" مُتخصّص في التخطيط للطوارئ، لذا فهو على درايةٍ بمواعيد وتحركات الرئيس عبود وخطط وتكتيكات حُرّاسه".

"وكيف سيساعدني ذلك؟"

ابتسم زاك قائلاً "بروتوكول الحراسات الخاصة يُحتم عليهم في حالة حدوث أي خطر سحب الرئيس هو وحاشيته من المسجد لقبو يقع تحت بنكٍ محلي مجاور، وحبس أنفسهم في الخزانة حتى وصول المساعدة".

"وأعتقد أنك ستجعلهم يشعرون بتهديدٍ من نوعٍ ما؟"

"لستُ في حاجة لهذا، حسب تحريّاتنا وخطّتنا قوات مُتمرّدي "حركة تحرير السودان" سيضربون "سواكن" في السادسة والنصف من صباح يوم العملية، وبالتالي سيختبئ الرئيس ورجاله في البنك، الذي من المُفترض أن يكون خاليًا في هذا التوقيت المُبكر من الصباح".

"لكنه لن يكون هكذا".

ابتسم زاك وأوماً برأسه قائلاً "الآن يبدو لي أنك اندمجت في جوّ العملية بالفعل.. ستكون هناك، مُستعدًا لمواجهة رجال حراساته وخطّفه وتسليمه لنا بينما قوات جيش التحرير تواصل ضرباتها وتُشتت السكّان المحليين وبقية فريق عبود، ثم ستلتقي بي لتسليمه".

كان واضحًا تحمّس "زاك" للعملية برمتها إذ لم تتوقف يداه وجسده كله عن الحركة بشكلٍ مفرط منذ بدأ الشرح لكورت.

جلس كورت مكانه بصمتٍ للحظةٍ ثم سأله "أينبغي عليّ أن أصفّق الآن؟"

"أُتكر أنها خطة مُحكمة أيها العميل 6، وأن العملية برمتها مثيرة تُرجعنا لعهد المغامرات الحقيقي ما قبل الدرون وكل هذه التكنولوجيا الزائفة؟"

قال كورت ساخرًا دون أن يتأثر بحماسة زاك "بالطبع إنها مثيرة لدرجة أن جسمي انتابته القشعريرة".

"لكن الجزء الأهم فيها هو الصفقة التي فوّضوني لعرضها عليك".

حدّق كورت في قائد فريقه السابق لفترةٍ طويلةٍ قبل أن يتحدّث قائلاً "لقد استخدمتني السي آي إيه لمدة أربع سنوات، أي عرضٍ مُغرٍ يمكن أن تُقدّموه الآن؟"

"نحن لا نستخدم المبتدئين، بل نبحث عن خادِمين مُطيعين، والإنترنت يفعل نفس الشيء".
"أنا لا أخاف من الإنترنت".

"أعرف ذلك، كما أعرف أنك لا تخاف بسهولة، لكنني أعرف ما يُخيف الرجل الرمادي".
"وما هو يازاك؟"

"نحن! ألا تريد أخيراً التخلّص مِنّا؟ والتحرّر من مُطاردتنا لخطواتك في كل بلدٍ ومن استدعائنا لك وعثورنا السخيف المُتكرر عليك؟ أتعرف ماذا يقول عنك الناس في العلن والخفاء؟ نسخة باهتة من جيمس بوند تُسافر بالطائرات الخاصة، وتسهر في أفخم النوادي الليلية، وتشرب المارتيني مع صفوة المجتمع على شاطئ "الريفيرا". أما نحن فنرى الجانب الآخر المظلم من هذه المغامرة، ومن الرجل الرمادي البائس، الموزعة حياته بين الركض وراء حثالة العصابات، والخروج من مُصيبة لكارثة، والتنقل من بلدةٍ إلى أخرى.. نعرف شعورك بأن تعيش في هذا العالم البغيض دون أن يُجيبك أحد، أو يحترمك، أو حتى يعرفك على حقيقتك. تتوجّس من الظلال حولك مترقباً أي وغدٍ يأتي ليكدر صفو حياتك، مثلما فعلتُ أنا بالضبط الليلة معك، تأكل الفاصولياء من العلب الصفيح في عُرفٍ وضيعةٍ تعجّ بالصرابير بينما النخبة بالقُرب منك يتعشّون جراد البحر في الفورسيزون، أهذه هي الحياة التي تشدها يا كورت؟"

لم تكن هناك كلمات أكثر صدقاً مما قاله زاك، لكن كورت لم يرغب في أن يُعطيه ذلك الإعجاب بخُطبته الرئانة أو إشعاره بأن كلماته تنطبق فعلاً على حياته المُزرية.

"أنا أحب الفاصولياء بالمناسبة".

"لا، أنت لا تُحبها ولا تُحب وسط هذه الفوضى سوى وظيفتك، أنت تعادل هوسك بعملك، وأنا أعرف الضريبة التي تدفعها كل يوم نتيجة قرارك هذا، إن كونك الرجل الرمادي أمر سيئ".

"حسناً، دعني أحمّن، أنت هنا لتتشلني من كل هذا الخراء وتقدم لي حياةً جديدة بعيداً عن كُل هذا؟"
"بالضبط، أريد لحياتك أن تكون أكثر هدوءاً وأكثر تناسباً، مع مهمةٍ تُناسبك وتليق بمرکزك ومستواك الاحترافي، لكنك لن تكون مُطارداً بعد الآن، على الأقل من قبلنا".

"لصالح من؟ حكومتكم؟"

"لصالح السي آي إيه طبعاً".

وهنا اقترب منه زاك وأدار وجهه بين يديه يتفحص جروحه، قبل أن يسأله "أضربناك بهذا العنف؟"
أخذ كيس الثلج من جنتري وأعادته إلى يده.

قال كورت "أريد أن أستفسر منك عن شيء، إذا افترضنا أنني قمتُ بهذه العملية، أستقدّم لي وظيفة مستمرة بعدها؟ أسيعود كُل شيء إلى ما كان عليه في الأيام الخوالي؟"

"بالعكس، أنا أحسن من غيري، لأنني أقدم لك وظيفة بعقد، ولا تنسَ أبدًا أننا ندفع أحسن من القطاع الحكومي الحقيقي". ابتسم، ثم هزَّ كتفيه قائلاً "دعني أعيد صياغة ذلك، أنا لا أحدثك عن أعمالٍ مكتبية ومكانٍ مُخصص لوقوف السيارات لأنك لم تُخلِّق لهذا. نريدك أن تعود للعمل معنا، ولن تعترف السي أي إيه أنها تعاونت مع الرجل الرمادي، ولن تأتي سيرتك إطلاقًا في أي أحاديث ولو حتى داخل الغرف المغلقة، كل القصة أننا في بعض المواقف نتساءل أين الرجل الرمادي ليخرج بنا من هذا المأزق، عليّ الاعتراف أننا في أحيانٍ كثيرة افتقدناك رغم رعونتك وطيشك". صمت قليلاً قبل أن يُضيف "نريدك حيًا يا كورت لتعود وتواصل أعمالك القذرة البطولية ولكن في صفنا هذه المرة".

"كيف أضمن أنكم لن تتخلصوا مني بعد عملية السودان؟"

"لأننا نحتاجك. نحن لا نطلب منك الذهاب للبستنة في "أيوا" ضمن برنامج حماية الشهود، بل نريدك أن تستمر في فعل ما تفعله، وتظل هنا في تلك الأجواء الباردة، وسنستمر في التظاهر بأننا ما زلنا نلاحقك. اسمعني، أنت تؤمن بهذا الهراء، والوكالة لا تزال قادرة على استخدامك، رغم إخفاقك في عام 2006. واشنطن لا تريد لأيٍّ من أجهزتها الأمنية أن تتسخ يداها علنيًا بمثل هذه العمليات، أنت من يمكن أن تتسخ يده بكل حُرية. هل تفهم قصدي؟"

هزَّ كورت رأسه ببطء، قبل أن يقول: "لا، الأمر ليس كذلك".

"اسمعني جيدًا، أنت تتصرّف بسذاجة، لكنني أعرفك، أنت وطني يا طفلي العزيز. نُحِب وطنك. البيت الأبيض له مصالحه، ونحن لنا مصالحنا، وأنت لك مصالحك، إذا اتفقنا كلنا سنريح كلنا، فهمتني؟" بدا لكورت أن كل أسئلته يملك "ذاك" إجاباتها كأنه درسَ حوارهما بشكل مسبق، بل إن كل تفصييلة كانت حيثياتها حاضرة في ذهنه، رغم هذا رفع يده بكيس الثلج على وجهه المُتسخن بالجراح، وقال "آسف جدًّا، ولكنني مع كل احترامي أحتاج أن أسمع من قيادة أعلى منك".

سأله هايتاور بنبرة خالية من أي مفاجأة: "نعم! مثل من؟"

"ماثيو هانلي، أعتقد أنه لا يزال في القيادة، إن لم يكن شخصًا أعلى من ذلك".

"لا لقد صار خارج قسم العمليات الخاصة، آخر ما سمعته أنهم أرسلوه لمكتب في أمريكا الجنوبية، في باراجواي أظن".

لم يُخفِ كورت حيرته وهو يقول "كان على رأس هذه العمليات السريّة دومًا، ماذا حدث؟"

"أنت السبب أيها اللعين، كيف تخيلت مصيره بعد ما فعلته برجاله!"

"لذا أنا الملموم على ما حدث!"

"التاريخ دومًا يكتبه المنتصرون يا عزيزي، وأنت رغم نجاتك في كل ما ارتكبتَه، إلا أن السي أي إيه وحدها هي من ستقرر النسخة الرسمية لما فعلته ولماذا".

فكّر كورت للحظة وأخيراً كرّر لنفسه "مجدداً أحتاج لسماح كل هذه التفاصيل من شخصٍ في منصبٍ أعلى منك شأنًا".

أوماً هايتاور برأسه، قبل أن يقول: "هذا رائع، اجلس بهدوء، انتظرنى".
أعطاه ملابسه فارتداها وانتظر مفاجآت زاك التي لا تنتهي.

بعد أكثر من ساعة عاد اثنان من رجال "زاك" المسلحين للغرفة، حيث كان ينتظر كورت يدلك جروحه بكيس الثلج، يتساءل بينه وبين نفسه كيف سيشرح سبب الكدمات حين يراها زملاؤه الروس رجال سيد. رجلاً زاك أحدهما كان أسود ضخمًا والآخر عجوز أبيض، اقتاداه لممر ضيق يمر عبر أنابيب المياه والبخار وصعدا درجًا ضيقًا، حتى وصلوا لغرفة في الطابق الأعلى. كان واضحًا بشكل فج أنه لا يروق لهم من نظرات أعينهم المليئة بالاحتقار والغضب وتوجيههم لحركات جسمه المشحون بالعنف، كما أدرك في الوقت ذاته أن تصادمه معهم بالقوة لن يجعلهم يُحبونه ولن يُخفف من حدة التوتر بينهم.

لكنه لم يهتم، لأنه لا يسعى لتكوين أي صداقاتٍ معها، إنهم رجال مأجورون مثله لديهم جميعًا عملية، الأولوية القصوى لها دون غيرها.

لم يكونوا بحاجةٍ إلى أن يُحبَّ بعضهم بعضًا للقيام بوظائفهم.

بمجرد دخول كورت الغرفة الجديدة، لاحظ شاشة في نهاية مقعده تومض باللون الأزرق، بعدها بدقة دخل زاك مُمسكًا بهاتفٍ يعمل عبر القمر الصناعي.

"حسنًا، ستتحدَّث الآن مع شخص ذي حيثية، وهو على اطلاع كامل بتفاصيل العملية كما أردت بالضبط، لكنك طوال مُحادثتكما لن تذكر أنك كنت تعمل لصالح السي أي إيه سواء مسئولًا أو موظفًا أو موظفًا سابقًا أو أنك مواطن أمريكي أساسًا، أنت مجرد عميل أجنبي اسمه العميل 6".
أوما كورت برأسه.

"والاسم الكودي للرئيس عبود هو أوريكس".

"ما هو الأوريكس؟"

"أنا نفسي لا أعرف على وجه التحديد، أعتقد أنه نوع من الطباء الإفريقية أو شيء من هذا القبيل".
هزَّ كورت كتفيه لكنه لم يستغرب أبدًا، طوال عمله كان معتادًا على بروتوكول استخدام الأسماء المشفرة وهو نفسه عمل تحت العديد من الأسماء الوهمية، قبل أن ينضم لفريق زاك كان اسمه "فايولتور"، عادةً ما يتم اختيار الأسماء بواسطة الكمبيوتر دون تدخل أي عامل بشري، لا يزال يتذكر حين سحبته وكالة المخابرات المركزية من سجن جنوب فلوريدا حين كان يقضي عقوبته بالسجن مدى الحياة لقتله ثلاثة تجار مخدرات كولومبيين، فعرضوا عليه وقتها عرضًا لم يستطع رفضه.

لم يُصدِّق قط للحظة أن الحاسوب هو الذي أطلق عليه لقب "فايولتور".

أضاءت الشاشة أمامهم كلهم وظهر عليها رجل فوق الستين متأنق ببذلة وربطة عنق، فوق أنفه نظارة طبية سميكة وملاحة تشي بأنه قيادة عسكرية عليا، سرعان ما تعرّف عليه كورت.

لقد فوجئ كورت، بل صُدم.

سأله الرجل بشكل مقتضب: "العميل 6 ألا تزال تتذكرني؟"

لم تُخالط وجهه ابتسامة أو عاطفة من أي نوع.

أجابه جنترى على الفور: "طبعًا يا سيدي".

التفت لينظر إلى زاك. ابتسم هايتاور ورفع حاجبيه، من الواضح أنه كان فخورًا بالقُدرة التي امتلكها في الحصول على رابط فيديو مع هذا القائد الذي لم يكن سوى "داني كارميكال" رئيس مكتب الخدمات السرية القومية الأمريكية حاليًا، ومؤخرًا رئيس قسم العمليات الخاصة، أسطورة الأجهزة الأمنية وخبرهم الأكبر في شئون الشرق الأقصى، كما قضى فترةً طويلة في مكتبهم بهونج كونج.

باختصار كان "داني كارميكال" بطلهم الخارق في السبي أي إيه. لكن كورت استغرب إذ يعرف أن عملية السودان مهمة، وفي الوقت ذاته هذه العمليات القذرة لا تتدخل فيها القيادات العليا الأمريكية.

"أعتقد أن العميل رقم 1 شرح لك عمليتنا غير العادية المتعلقة بالأوريكس، وسأقوم أنا الآن بإعادة عرض بعض التفاصيل عليك".

كرّر كورت "نعم يا سيدي" هذا هو كل ما استطاع كورت أن يردّ به، إذ لم يسبق له التحدّث مع شخصٍ بهذه المكانة العالية من داخل مطبخ الأجهزة الأمنية، فوجد نفسه شبه مُنبهر، والأكثر غرابة أن داني هو الذي صدّق على قرار تصفية كورت في 2006، يا لسخرية الأقدار!

بدأ القائد يشرح تفاصيل الخطة العامة، ورغم أنه تحدّث بعباراتٍ أكثر تلطيفًا إلا أنه أراد الذهاب كي يعتقل "عبود" بالقوة لا أن يُخطفه. كما اقترح تجميع التهديدات من فرقة الحماية القريبة من عبود، على عكس ما اقترحه زاك بأن يُطلق رصاصة أو اثنتين في رأس كل حارسٍ شخصي منهم.

كان هذا الاختلاف في استخدام المصطلحات العامة تمييزًا شائعًا بين العمل والإدارة في مجاهم الأمن، خاصةً أن كورت اعتاد السماع أكثر من رجال أمثال "زاك" وأقل من رجال أمثال "داني"، لكنه في الوقت ذاته كان يُدرك جيدًا أن الصوابية السياسية ومعضلة اختيار الألفاظ المناسبة داخل العمليات لا تُغيّر من النتائج النهائية أي شيء، العملية ستتم بشكلٍ أو بآخر أيًا كانت الطريقة التي يتم بها شرحها، ورغم كل شيء ومع كياسة الكلام تبقى المحصلة واحدة.

سيموت بعض الرجال.

طوال حديث "كارميكال" اتكأ "هايتاور" على جدار السفينة، ومن وراء الشاشة ظل يفتح يده ويغلقها ساخرًا من إسهاب رئيسه في الكلام عن العملية، لكن بخلاف ذلك، راعى العميل 1 آدابه.

وعندما انتهى من شرح بعض التفاصيل، انتقل للجزء الأكثر أهمية بالنسبة للرجل الرمادي والذي يعتبر هو صميم عمله "يجب أن تفهم أيها العميل 6 أنك ستقوم بهذه العملية لأجلنا، وبمجرد إتمامها ستنتهي كل حُططنا لتعقبك والقضاء عليك في غمضة عين. بمعنى آخر أي اتهامات أو عقوبات وجّهتها الوكالة ضدك فيما سبق ستسقط تلقائيًا، ولن تعود موجودة في أي ملف يُخصّك، كذلك مطاردات الإنترنت وبلاغات كل

وكالات المخابرات المحلية والدولية، ستتوقف عن تتبع بياناتك مع وكالة الأمن القومي ومكتب التحقيقات الفيدرالية وإدارة الجوازات والهجرة، أي جهة في الولايات المتحدة لديها مشكلة ضدك ستُحلّ وتنتهي وهذا وعدٌ مني أنا شخصياً".

لم يكن كورت يعلم أن كل هذه الأجهزة الأمنية والتي تتميزُ بعملائها الأقوياء تتربص للإيقاع به، ومع ذلك لم يتسرّب له الخوف المطلوب.

قال جنترى: "حسناً، فهمتُ قصدك".

"أيعني هذا أننا متفوقون؟"

"هل ستُخبرني بما يدور حوله الأمر؟"

بدا كارميكال مُتزعجاً بعض الشيء. يبدو أنه لا يشعر بالراحة عند عقد الصفقات مع الخارجين عن القانون، لكنّه أوماً برأسه قائلاً "الرئيس عبود مطلوب من قبل المحكمة الجنائية...".

"عفواً يا سيّدي، هل يُمكنك أن تخبرني لماذا قُمتم بمطاردتي منذ سنوات، ما الذي فعلته واستحققتُ عليه كل هذا؟"

صمت كارميكال قليلاً، وأشاح بوجهه عن الكاميرا إلى شخصٍ ما بجانبه، ربما طلباً للتوجيه، قبل أن يُجيب بنبرة حديدية "إذا كنت حقاً لا تدرك ما فعلته فأعتقد أنه في صالح الجميع ألا أخبرك يا بُني".

"ماذا تعني؟"

"انس هذا، دعنا نتجاوز الماضي من فضلك، دعنا نكون أولاد اليوم، هل لدينا اتفاق بشأن عملية الرئيس عبود؟"

نظر كورت إلى زاك الذي بادله النظر، قبل أن يقول جنترى "نعم يا سيّدي، سأبذل قصارى جُهدِي للوفاء بنصبي من الصفقة، سأعتمد عليك ثم على العميل 1".

أوماً كارميكال برأسه، دون أن يبتسم، قائلاً "حسناً أيها العميل 6، لن تسمع صوتي مجدداً، سيكون العميل 1 هو المسئول الأول والأخير عن العملية من بدايتها لنهايتها وفي قلب المعمة هو القائد، ستقومون باعتقال الرئيس بكري علي عبود وتنقلونه من السودان للمحكمة الجنائية الدولية في هولندا، بقية التفاصيل سيتم الترتيب لها من خلال ضابط الحالة في قسم العمليات الخاصة المُعين لك".

"مفهوم، شكراً لك".

أوماً الرجل برأسه، ثم اختفى من على الشاشة نهائياً.

قال زاك على الفور: "اعتقدت أنه لن يتوقف عن الثرثرة" وقف كورت ونظر لساعته.

سأله زاك "أنحن على وفاق الآن؟"

توقف كورت للحظةً باستسلام "الآن عليك إعادتي للفندق، لا يُمكنني السماح لرجال سيد بامساكي".

ابتسم زاك قائلاً: "عُلم، سيُعيدك اثنان من رجالي، لا تقلق. انطباعك عنهم صحيح بالمناسبة هم لا يحبونك، فهم يظنون أنك الأحمق الذي قتل بعض أصدقائهم، قبل أن تفرّ باحثاً عن الشهرة والثروة في القطاع الخاص".

"ومن أين أتوا بهذه الفكرة يا زاك؟"

رفع زاك يديه مُستسلماً، قبل أن يقول "لا أنكر أنني ساهمتُ في تكوينها بنفسني انتقاماً منك، أيضاً، لقد أخرجت تود من الخدمة في هذه العملية" ثم ابتسم وضرب ظهر كورت بيده بقوة قبل أن يُضيف "دعنا نتجاوز كل هذا، أنا حقاً سعيد بالعمل معك مجدداً برغم كل ما حدث بيننا وبرغم حركاتك الغبية المتهورة في الماضي، آخر شيء، لتحدّث عن المُعدّات".

"ماذا عنها؟"

"سأحصل على الأسلحة اللازمة في السودان، سأسلمك كل ما تريده هناك في الليلة السابقة للعملية. لكن دعني أولاً أعرف ما تحتاج إليه كمعدّات شخصية، وسأوفّره لك بحلول الأسبوع القادم، اتفقنا؟"

"أهم شيء هو وسيلة التواصل معك، أعتقد هواتف الثريا ستفي بالغرض، ناهيك عن إمدادات جيّدة من البطاريات".

نظر إليه هايتاور قائلاً "هل ستضرب الأشرار بهاتف ثريا؟ كنت أتحدّث عن الأسلحة".

"سأحصل عليها من سيد، لديه ترسانة أفضل وأخطر منكم".

"هذا مؤلم، لكن مهلاً، ستوفّر عليّ بعض الضرائب وهذا يروقني أيها الرجل الرمادي".

تمكّن كورت من العودة إلى جناحه في فندق "نيفسكي" في تمام الرابعة وخمسة وأربعين دقيقة صباحًا، بعدما ناقش هايتاور في تفاصيل العملية لمدة ساعة أخرى من بدايتها لنهايتها، لأنواع الأسلحة المطلوبة لإحداثيات تحركاتهم هناك، قبل وبعد اعتقال الرئيس، وبعدها انتهوا تمامًا اصطحبه اثنان من رجاله لمكانه على متن يَحْت. لم تتم أي محادثة بين الرجال الثلاثة أثناء عبورهم المياه السوداء المتجمّدة لخليج فنلندا، وبمجرد أن أوصلوه للشاطئ، أقلّته سيارة من هناك حتى غرفته في الفندق، ولأن هايتاور عمل حساب كل شيء كان قد حجز غرفةً أعلاها ومن بلكونتها أنزلوه بحبل، وأعطوا كورت دفترًا صغيرًا يحتوي على معلومات الاتصال بالفريق.

الرجل الأسود يُدعى سبنسر، بينما عَرَفَ كورت أن الرجل الثاني الأصغر سنًا يُدعى ميلو وميّر أنه كرواتي من لكتته، سأله الأول "أأنت من قُمتَ بهذا في كييف، عادة لا أنصت للإشاعات ولكنك لغز يا رجل، أجبني فقط بنعم أو لا".

أخذ كورت الدفتر ووضعَه في جيبه الخلفي، ثم نطق بعبارته الوحيدة في الساعة الماضية "اللعنة عليك". لم يُضَيِّع أي وقت في أي تفاسير وشروحات، ثم ترك الحبل وقفز على بلكونة غرفته دون مُساعدة أو ضوضاء.

انحنى سبنسر من فوق السور وهتف: "اللعنة عليك أنت أيضًا أيها العميل 6 سنتقابل قريبًا جدًا".

استحمّ كورت وفي ضباب الحمام تأمّل وجهه الدامي وهو يبحث عن تفسيرٍ لا بد من تقديمه لهذه الكدمات التي أصابت شفّتيه ووجهه بينما هو مُستلقٍ يطّلع على ملفات العملية بمفرده على كنبه جناحه الفندق في الخامسة صباحًا. عاريًا، استدار ليغادر الحمام، لكنه توقف، ثم عاد إلى الوراء وفتح خزانة الأدوية على حدس. نظر إلى الداخل، وتسارعت نبضات قلبه واسترخى كتفاه حين لمح أعلى الرفّ اثني عشر صنفَ دواءٍ مُهمّين: مُزيلات احتقان، ومضادات حيوية، ومثبّطات للانصباب، ومُسكّنات. كل هذه الأدوية لا يُمكن أن تكون أقل صلةً بظروفه الحالية. لكنّه رأى مُسكّنات الألم على الفور تقريبًا. أقراص ديلاوديد، أربعة ملليجرامات. تسارعت نبضات قلبه تحسُّبًا لراحة الاسترخاء التي سيمنحُه إيّاها قرص واحد. لكن أكتافه استرخت في استسلام لأنه لم يكن يُعاني من أي ألم حقيقي، وعرف أنه يريد المسكن الأفيوني القوي؛ لكنّه لم يكن بحاجة إليه، وعرف أن الأسابيع الثلاثة التي قضّاها في التخلص من السموم التي فرضها على نفسه، ستنتهي في غضون خمس ثوانٍ تقريبًا.

ابتلع قُرصين مع ماء الحنفية، ثم في لحظة غضبٍ وخجل رمى البقية في فتحة الحوض.

ارتدى بعد ذلك البدلة الرياضية الأرجوانية القبيحة التي تركها له رجال سيد، واستلقى على السرير. كان عقله سيصبح عديم الفائدة بالنسبة له في القريب العاجل؛ وتوجّب عليه التفكير قبل أن يأخذ الدواء مفعوله بالكامل.

فكّر في الرئيس عبود، إذا نجحت عمليتهم سيقى الطاغية حيًّا، وأزعجه هذا بشدّة. رُبما كان الأمر بسيطًا للغاية، لكن لم يكن بمقدوره إنكار اتّفاقه بشكلٍ ضمنيٍّ مع مقولة "ستالين" التي طرحها "سيد".. أحيانًا يكون الموت هو الحل الناجع والجذري لبعض المشكلات بل لكل المشكلات الجذرية في الحياة، لم يكن هذا تفكير كورت بالضبط؛ ففي مواقف أخرى يكون الاغتيال السياسي حلًّا أفضل. ولكن بالتأكيد حُققت العديد من الأهداف القصيرة الأجل. ومن المؤكّد أن قتل الفاعل يُنهي ارتكابه للفعل الشرير. فقتل عبود سيُنهي حياته، وما عدا ذلك، فإن كورت جنّري لم يكرث.

شعر بمفعول المخدر يسري في جسمه مثل بيضةٍ تشقّق ويسيل زُلالها أعلى جُجمته. استرخى في سريره المُبطّن بشكلٍ ناعمٍ وطري، قالها لنفسه، سعيدًا في نفس الوقت بالراحة التي منحها المخدر لعقله المُثقل، وغاضبًا في نفس الوقت لاستسلامه لإغراء الأقراص.

لكنه حاول مقاومة هذه الراحة والعودة للتفكير في عمليته المُقبلة.

لم يستسيغ كورت فكرة اعتقال أبشع رجلٍ على وجه الأرض، كانت عملية سيد تُشبع الجانب الحيواني لديه في الانتقام والسيطرة، لكن على الجانب الآخر المكافأة التي طرحها "هايتاور" لا تُفوّت وستُريحه لبقية حياته أو ما تبقى منها بعد شقاءٍ طويلٍ وهروبٍ مستمر. وبالطبع توقّف السي آي إيه عن إدراجه في قائمتهم السوداء كان مُبتغاه الأساسي الأبدي، لكن إيداع أربعة ملايين دولار في حسابه البنكي شيء خيالي، والساخر في الموقف برّمته أنه كي يتمكن من صرف هذه الأموال الطائلة التي سيجنيها من عرض سيد، يحتاج في الوقت ذاته أن يتواجد في هذه الدنيا بحريّة دون ملاحقة أي أجهزة أمنية له، فكيف يُمسك العصا من نصفها!

نعم، ودَّ جانب منه العودة للانضمام لصفوف وكالة الاستخبارات المركزية. بغض النظر عن أخطاء الماضي التي اقترفها، ومفتاح رجوعه ببساطة يكمن في تسليم الرئيس عبود على طبقٍ من فضة لهم.

سمع خبطًا على الباب. وحين التفت للساعة المُعلّقة وجدها السابعة صباحًا.

اللعنة، لم يُدرك على وجه التحديد إن كان المخدر غيَّب عن الوعي بعض الوقت أم أن القلق والتفكير استهلكاه على مدار الساعتين الماضيتين.

سمع الباب يُفتح وفي خلال ثوانٍ كان ثلاثة رجال من نفس المجموعة التي اقتادته إلى هنا أمس، يقفون الآن أمامه ببدلاتهم المُجعدة التي، بنسبة كبيرة، ناموا بها في اللوبي أو في الغرفة المجاورة أو ربما قضوا ليلتهم بأكملها محتفلون ويسكرون، من يعرف الحقيقة! وقف ببطءٍ مترنحًا وفرك عينيه وعندئذٍ شعر بمفعول الأدوية المخدرة يسري في دمه فحاول إحكام توازنه. حملق فيه الرجال بكدماته على شفتيه وعينه.

"ماذا حدث لك؟"

سأله الرجل الأول بالروسية. وحين همَّ بالنطق، شعر بأن الكلمات ثقيلة على لسانه كأنه يُدحرجها لا ينطقها، كان مخدر "الديلوديد" قد سيطر على كل أجهزة جسمه بشكلٍ مريع.

هزَّ كتفَيْه، ربما بشكلٍ درامي أكثر من اللازم، وظل يرمُق الرجل في انتظارٍ حتى تدارك غلطته في استخدام لغةٍ غير صائبة، وأعاد سؤاله عليه لكن بالإنجليزية هذه المرة فردَّ كورت "لقد انزلت من السرير، هذه الملاءات ناعمة للغاية".

بعدها تناول فطوره أخذوه لحديقة القصر حيث جلس "سيد" الذي لم يمنعه هذا الصباح الرمادي البارد من شرب شايبه على مائدته المعدنية تحت مظلة حمراء في بيجامته الموشاة أطرافها بخطوط ذهبية تنتهي بشبشب ناعم، يحوطه عن يمينه ويساره اثنان من حراسه برشاشيهما وسط الأشجار التي تساقطت أوراقها بسبب شتاء سان بطرسبورغ الطويل. وانتبه كورت إلى أن الحراس حافظوا على مسافة معينة منهم تمكنهم من رميه بالرصاص إذا فكر في أي حركة مخادعة مُباغته ولكنهم في الوقت ذاته لم يُدركوا أن هذه المسافة ستجعل رئيسهم إذا فتحوا النار مجرد منخل مع خصمه.

اشمأز من هذا البروتوكول الأمني الغبي الذي كان بالنسبة لخبراته وتجاربه أشبه بذلك الصرير الأحمق الذي يصدر عادةً عن خدش السبورة.

اقرب كورت من سيد وسط رجلي حراسته. كان قد مضى على وجوده مع الرجلين المرافقين له ساعة منذ وصولهما إلى الفندق دون أن ينطق بكلمة واحدة، وحين صار على بُعد خطوات منه قال "دعونا نقوم بهذه العملية".

"ماذا حدث لوجهك؟"

"لا شيء، أسمعت ما قلته للتو؟"

تردد سيد، ثم أوما برأسه وشفق بيديه، وأوما بإبهاميه إلى أعلى، الأمر الذي أضاع شيئاً ما في الترجمة من الإنجليزية إلى الروسية "ممتاز، هذا سيجعل حكومتي في غاية السعادة".

تابع كورت حديثه قائلاً "ولكن اسمعني جيداً، هذه عمليتي وستتبع تعليماتي وإلا سأرحل".

اعتدل سيد في جلسته وأوما برأسه بسرعة.

قال كورت "حسناً مُتفقون، لكنني أحتاج لبعض الوقت كي أواصل أبحاثي وتحرياتي دون وجود لرجالك النازيين فوق رأسي بهذا الشكل الأبوي الفاشل، بعد أيام قليلة سأتواصل أنا معك وأرسل لك عنواني فتبعث رجالك ليأخذوني من هناك". وهنا وضع الرجل الرمادي ورقة مكتوبة بخط يده على المائدة، أخذها سيد عن طيب خاطر، بينما تابع كورت حديثه "يجب أن تكون معهم هذه الأسلحة، سيققادونني لمكان غير مأهول ولا مرصود من اختيارك لأجرب المعدات ومداهها وقوتها، ومن هذه اللحظة أكون أنا المسئول بشكل كامل عن العملية، سأتبع تعليماتك حتى الوصول للسودان، حين أخرج من مطار الخرطوم سألتقي بعميلك السري هناك، وبمجرد أن أتم العملية سأتواصل معك بتليفوني الموصول بالقمر الصناعي كي أطمئنك كيف سارت الأمور".

شعر سيد بالدوار من فرط الحماس وهو يقول "عبقري يا كورت، سأنفذ كل ما قلته بالحرف".

طوال الأسبوع التالي قضى كورت الوقت ليلاً ونهاراً في تجربة الأسلحة وتصفيرها، كما خاض تدريباتٍ جسمانية شاقة؛ يتسلق الجبال ويحمل حقائب مليئة بالأحجار ويسبح لمسافاتٍ طويلة، وكان قد اختار بقعة شرق سان بطرسبورغ كمعسكر تدريب له لبعدها عن أنظار العامة والقواعد العسكرية. كما قام بزياراتٍ يومية إلى صالون التسمير في بوشكين، وهي ضاحية راقية تقع جنوب سان بطرسبورغ نفسها. أما أوقات راحته فكان يقضيها في البحث والقراءة عن الميليشيات الناشطة في السودان و"قوات الدعم السريع" وأنواع أسلحتهم وطبيعة خططهم وتكتيكاتهم؛ قرأ عن تاريخ وجغرافيا المنطقة وطرقها ومطاراتها وموانئها ومناطقها العسكرية.

وأولى اهتماماً خاصاً بدراسة ساحل البحر الأحمر حيث سيقود عملياته، كقاتل مأجور لصالح سيد وحكومته، وكخاطفٍ محترفٍ لصالح وكالة الاستخبارات المركزية، مما زاد الموقف تعقيداً وسُخريّةً في الوقت ذاته.

قال لنفسه باستخفافٍ ساخرٍ إن الأمر قد يتعقد.

التقى كورت بـ "زاك" مجدداً بعدما غادر بقية الفريق، ولكن هذه المرة على متن يخت يُدعى "هانا" مملوك لوكالة السي آي إيه، وكان مُجهّزاً بكل التقنيات التكنولوجية التي تحتاج لها طبيعة عملهم، وخط سيره هو الإبحار نحو "إريتريا"، ومن هناك سيتحركون لبورتسودان والتي تقع على بُعد ثلاثين ميلاً شمال "سواكن". ناقش كورت مع زاك الخطط والمعدات وإحداثيات المواقع المستهدفة. لم تكن هناك تفصيلاً تافهة أو نقطة يمكن تجاوزها بالذات مع عملية بهذه الخطورة والحساسية. شرح زاك له كيف أن "حركة تحرير السودان"، وهي قوة مُتمرّدة مُعادية للعرب ومُناهضة لعبود، ستُحدث فوضى صباح يوم العملية ممّا سيضطر عبود وحراسه للجوء للبنك كملجأ آمن. وكالة الاستخبارات لديها هناك عميل كان فرداً سابقاً في حاشية عبود المُقرّبة، وقد فضح لهم إجراءات حماية الرئيس في حالة وقوع أي خطرٍ أثناء جولته للمسجد، حيث ينصُّ بروتوكول الأمن على اصطحابه للبنك وانتظار الهليكوبتر حتى تصل من "بورتسودان". وكانت الوكالة قد اختارت سواكن من البداية لخلوّ تاريخها من أي هجماتٍ ولأن الرئيس زارها عشرات المرات ومّرت زيارته بسلام.

سيبقى كورت في البنك كي يختطف الرئيس ومن ثم يقتاده لضواحي المدينة حيث ينتظر فريق وكالة الاستخبارات، وقد بذلوا قصارى جُهدهم للامتناع عن العمل المباشر إن أمكن. ومن هناك وبواسطة زورق عسكري قابل للنفخ سيتقلون لليخت الرئيسي المتصل بغواصة صغيرة سيضعون الرئيس فيها، ثم يبحر اليخت خالياً من أي أثرٍ للعملية وبالتالي إذا عثرت عليهم قوات خفر السواحل السودانية وطلبت تفتيشهم لن تشكّ أن هذه المجموعة أي صلةٍ بواقعة الاختطاف.

حسب الخطة، سيبحر اليخت في البحر الأحمر ومن هناك لميناء الإسكندرية. وفي نهاية الأمر، سيُسَلَّم عبود للمحكمة الجنائية الدولية في "لاهاي" بهولندا.

رأى كورت أن الخطة جريئة ومُحكمة. لكنها في الوقت ذاته حرجة للغاية، خطأ بشري واحد بمقدوره أن يُرسلهم كلهم للجحيم، وإذا استجبنا لقوانين "مورفي" المتعارف عليها سنجد أن الأمور إذا كان مُقدَّرًا لها أن تسوء ستسوء.. وكلها في نفس الوقت.

لكن بغض النظر عن كل هذا، بدت العملية واحدة من تلك العمليات التي قد تنجح كما خُطِّط لها. ورغم ذلك، إنها من تدبير فرقة تسعى جاهدة للبقاء في ظل إدارة استبعدت العمليات السرية شبه العسكرية تمامًا.

في الليلة الثالثة التي قضاها كورت بمُفرده، اتصل بالرقم الذي منحه إيَّاه رجال "سيد" وحين ردَّ عليه سكرتيه أخبره الرجل الرمادي أنه تعرَّض لإصابة طفيفة أثناء تدريباته، وأنه بحاجة لنوع قوي من المسكنات يجعله قادرًا على مواصلة العملية وتجاوز الألم الذي يعصف بجسمه. وفي الموعد المحدد ذهب لإحدى محطات المترو، وتبادل مع أحد رجال سيد حقيبة دون النطق بكلمة.

قذف حبتين من المُخدر في فمه وهو لا يزال في المحطة، في انتظار ركوب المترو عائداً إلى فندقه في زاجورودني بروسبكت. كان قد أقنع نفسه، نوعًا ما، بأنه يتألم. كان ألم الجرح في معدته يتفاقم بسبب تمارين البطن التي مارسها مؤخرًا أثناء تدريباته الشاقَّة لأجل العملية المُقبلة، خاصةً وأنها تتطلب منه استعداداتٍ غير أي مجهودٍ قام به من قبل في عملياته السابقة.

عرف كورت هذا، وتخيَّر من أنه ورغم كل هؤلاء الأشرار العتاة حول العالم الذين يشتهون موته، إلا أن الطبيب الوحيد الطيب في "نيس" والذي زوَّده بجرعات المورفين المطلوبة، هو نفسه الرجل الذي في النهاية سيقضي عليه.

كانت وسيلة النقل الروسية المُخصَّصة للرجل الرمادي طائرة ضخمة من طراز "إليوشن إي إل 76" يبلغ طولها من طرفها إلى ذيلها أكثر من 150 قدمًا، كذلك بالنسبة لعرض بدنها من الجناح الأيمن للأيسر. وقف كورت أمامها مشدوهاً يتفقدُها مع ضوء الفجر الخفيف، وبجانبه "سيد". إذ سافرا معاً من سان بطرسبورغ إلى مطار "جرودنو" في "بيلاروسيا" على متن طائرة "هوكر" هبطت بهما في المطار الرئيسي هناك قبل ثلاثين دقيقة فقط. لم يكن هناك أي داعٍ أو ضرورة، وبشكل لا لبس فيه، لوجود "سيد" هنا والآن؛ فقد كان مُحالفًا لكل القواعد والإجراءات ذات الصلة التي تعلَّمها ومارسها كورت على مدار ستة عشر عامًا في هذا المجال كعميل. لكن ما الحيلة ورئيسه الحالي الأحمق يريد أن يقطع هذا الجزء بنفسه من الرحلة، رغم أن درجة الحرارة على المدرج نزلت تحت مستوى التجمد، إلا أن شكل سيدورينكو بدا سخيلاً وهو يطلُّ بأنفه الرفيع وذقنه المُستدقَّة من معطف ياقته المُبطنة بفراء حيوانٍ ما، على غرار زعماء المافيا الروسية.

حماسة "سيد" المُفرطة بشأن العملية كانت محلَّ استغراب من كورت، خاصةً أنها كانت زائدة عن الحد الذي يُناسب العملية، قارن بينه وبين رئيسه الإنجليزي السابق البارد السير "دونالد فيتزوري"، والذي لم يكن أبدًا ليُصاحب أي واحدٍ من رجاله على متن طائرة أو حتى للمطار أثناء توجُّهه لتنفيذ مُهمته، على عكس سيد الذي بدا، من وجهة نظر كورت، مُستمتعًا بهذه الرحلة.

كسرت لكنة سيد الروسية الصمت وهو يقول "كل شيء جاهز، سنُقلع في تمام العاشرة صباحًا".
"أعرف".

"ستستغرق الرحلة سبع ساعاتٍ وخمس عشرة دقيقة للخرطوم".

أوماً كورت برأسه، دون أن يرد.

"لقد اخترتُ لك بنفسِي طيارًا ماهرًا".

لم يُجبه كورت بكلمة.

"سنُقلع الرحلة نحو الجنوب، وستكون بولندا في ظهوركم. لذا من المُحتمل أن يطير جنوبًا حتى تبلغوا حدود...".

"لستُ مُهتَمًّا إطلاقًا بهذه الأمور الملاحية يا سيد".

انعقد لسان الروسي للحظات، ثم انطلق كأنه كتم كلامًا كثيرًا لمدةٍ طويلة في فمه "لا أعرف كيف يمكنك أن تتحلَّى بهذا الهدوء قبل العملية دون التفكير في أي أخطارٍ محتملة أو آلام تعبر جسدك، أنت واقف هنا تنتظر طائرنا كأنك تنتظر القطار ليقبلك لمكتبك".

بينما تقترب منها الطائرة على المدرج، فكّر كورت في أن سيد لم يكن يعرف نصف ما يجول في ذهنه، فقد كانت عملية سيد سهلة نسبيًا، مُقارنةً بما يتوجّب عليه أن يفعله حقًا. كم هو سهل إطلاق النار على شخص، ثم الاختباء لفترة، حتى تهدأ الأوضاع، ثم السفر عبر المطار خارج البلاد بعدما تعمّمها الفوضى، كل هذا أبسط بمراحل من محاولة اختطاف نفس الشخص وإبقائه في أمان حتى موعد تسليمه لجهات أخرى. كم تمنّى إطلاق النار على بكري عبود القاتل اللعين كي يُريح نفسه من هذا الهمّ اللعين.

سأله سيد: "كيف يمكنك أن تبقى بمثل هذا الهدوء؟"

التفت الرجل الرمادي إلى زعيم المافيا الروسي، وهي المرّة الأولى التي يتواصل فيها بالعين مع المسئول عنه طوال الصباح، قبل أن يقول "هذا ما اعتدتُ عليه مع الخبرة والممارسة".

ابتسم جريجور سيدورينكو ابتسامةً واسعة حتى التمعت أسنانه تحت ضوء الفجر "هذرائع".

كانت الطائرة "إليوشن إي إل 76" العملاقة تابعةً بشكلٍ علني وصریح لقوات "الناثو"، بدت لكورت في الظلام ضخمةً ببدنها العملاق وجناحيها العريضين العملاقين كامنة في حالة سكون، كأنها نائمةٌ هناك في الظلام، وودّ لو يقترب منها ويركلها لتستيقظ، لكنّه عَرَفَ أن الطاقم الروسي سيتولى الأمر قريبًا. وكان متأكدًا من أنها ستؤدي مهمتها بنجاح من حيث نقل الطاقم والمعدات والأسلحة للخرطوم. لم تكن الرحلة عسكريةً بشكل تام، لكن الطائرة في حدّ ذاتها مملوكة لشركة متخصصة في شحن المعدات العسكرية تابعة للحكومة الروسية، وقد سبق لها أن أرسلت شحناتٍ للسودان وفنزويلا وليبيا والهند، إذ كان تخصّصها إمدادًا حوالي 60 دولة بالأسلحة المطلوبة لتأجيج نيران الاضطرابات والثورات في تلك المناطق من الكرة الأرضية مما يصبُّ في مصلحة روسيا بالطبع.

سأل جنّيري سيد بفضولٍ خامد "مِمَّ تتكون الحمولة الموجودة معنا؟"

"باستثناءك، صناديق من رشاشات وذخائر ومعدات دعم".

"وهل ستسمح الأمم المتحدة بإدخال مثل هذه الأشياء! ألا تُوجد عقوبات؟"

قال سيد بسُخريّة في هواء الصباح البارد "لا توجد عقوبات، يُسمح لروسيا ببيع الأسلحة للسودان، طالما أنها لن تُستخدم في إقليم دارفور".

"إذن أي أسلحة مُرسلة للسودان تكون روسيا متأكدة مليون في المائة أنها ستُستخدم فقط في دارفور، هناك حيث تدور رحى الحرب".

ابتسم سيد غير مُدركٍ سُخريّة كورت من هذا الاتفاق "بالضبط يا عزيزي، موسكو عادةً ما تأخذ كلام الرئيس عبود على محمّل الجدل والأمم المتحدة يُعجبها هذا السيناريو".

قال كورت لنفسه تقريبًا "شيء لا يُصدّق".

رَبَّت سيدورينكو على ظهره "نعم جيد جدًّا، أليس كذلك؟" ثم استدار الروسي وعاد إلى المحطّة الدافئة.

استلقى كورت على ظهره على أربعة كراسيَّ حمراء وثيرة من كراسي الطائرة، وبجواره في المساحة الضيقة بين مقصورته وصناديق البضائع الضخمة المترصّة في وسط الطائرة، قبع حقيبة ظهرٍ واحدة من طراز "مالتيكام". كان جنترى بارعًا في حزم الأمتعة الخفيفة، وهكذا حزم داخل الحقيبة التي تزن خمسين رطلًا بندقية "بلايزر" مُفكّكة، وبندقية قنص ألمانية من عيار 300 وينشستر ماجنوم، وعشرين طلقة، بالإضافة إلى منظارين، وقنبلتين يدويتين متشظيتين، وقنابل دخان، ومؤن صغيرة من الطعام المُجفّف، وماء، وأملاح ومكمّلات غذائية. ناهيك عن حقيبة الإسعافات الأولية الطبية للرضوض الكبيرة، أما بالنسبة للجروح والكدمات فلم يعبأ بشيء. أما كورت نفسه فكان يرتدي حزامًا فيه مسدس "جلوك" عيار 9 ملم وسكين قتالي وكشاف يدوي صغير.

جلس في رده الأبيض السوداني إذ تركه طاقم الطائرة بمفرده. وكل ما عرفه عنه طاقم الطيران أنه ضيف هامٌ جدًّا يجب نقله للخرطوم بكل سرية.

وطلب جنترى منهم بنفسه بالروسية قبل الإقلاع ألا يتمّ إزعاجه إطلاقًا أو التحدث إليه إلا في حالة أن الطائرة تسقط من الجو. لذا حين ظهر أحد أفراد الطاقم المكوّن من خمسة عناصر فجأة واستدعاه بصوت عالٍ للذهاب معه لقمرة القيادة فهم أن هناك كارثة. تبعه جنترى عبر الممر الضيق إلى جانب صناديق الشحن الخشبية الرمادية التي تتدلّى من بكراتٍ مُثبّته في قضبان السقف وتمتدُّ بطول الطائرة. لم تكن هناك نوافذ في المقصورة؛ وبدلًا من ذلك، كانت هناك حشوة مُبطّنة وشبكة ومُعدات مُثبّته مُعلّقة على جدران جسم الطائرة. ذكرته الطائرة بأخرى كان على متنها قبل أربعة أشهر فوق شمال العراق. لم تنته تلك الرحلة بشكل جيّد بالنسبة لجنترى؛ فقد ألمته عضلات فخذه في المكان الذي مرّفته الرصاصة، لكنّها على الأقل انتهت بشكل أقل سوءًا بالنسبة للرجال الخمسة الآخرين الذين كانوا معه في عنبر الشحن.

حين دخلها وجدّها كبيرة تتسع لأربعة أفرادٍ في المكان المُخصّص للطاقم في الطابق العلوي، بينما جلس الطيار في الأسفل في مُقدّمة الطائرة غارقًا في بحرٍ من العدادات والأزرار وشاشات الحاسوب. وكان الطيار روسيًا شعره أحمر في الأربعينيات من عمره اسمه "جينادي"، يرتدى نظاراتٍ كبيرةً للغاية مُقارنةً بحجم وجهه، كما بدا نحيلًا بشكل غير صحي، أشار إليه ليتقدّم. ثم مرّر مهندس طيران شاب وثقيل الوزن سماعة رأس لاسلكية للأمريكي حتى يتمكّن هو والطيار من التواصّل مع بعضها بسهولة.

سأله كورت بالروسية "ما الأمر؟"

"تواصلوا معنا من مقرّ مراقبة الملاححة الجوية السودانية، هناك مُشكلة".

"بخصوص؟"

"لقد تغيّر مسارنا. لن نتمكن من الهبوط في الخرطوم".

"ماذا! أين سنهبط إذن؟"

"في الفاشر".

"لماذا؟"

"لا أعرف ولكن يبدو أن الجيش السوداني هناك في حاجة ماسّة للأسلحة التي معنا".
سحب كورت خريطةً مُغلّفةً كانت موجودة أمام الطيّار، وراح يتفحصها دون أي اعتراضٍ من الآخر.
سأله جنترى وهو يفتح الخريطة "أين توجد الفاشر هذه بحق الجحيم؟"
استدار الطيّار وأعطاه إجابته في كلمةٍ واحدة بلهجة جادة "دارفور". ثم وضع إصبعه ذا القفاز مُشيرًا
لبُقعة بعيدة عن إحداثيات مكان عمليته.
نظر كورت إلى الخريطة قائلاً "اللعنة!"
"أعتبر هذا مشكلةً بالنسبة لك؟"
"عملي ليس في دارفور".

قال جينادي "للأسف ليس هناك أي شيء في يدي أستطيع فعله، لا أستطيع الهبوط في الخرطوم دون
تصريح أمني من السلطات".
قال جنترى "اللعنة!"

ألقي كورت السهامة عن رأسه وأخذ الخريطة وغادر قمرة القيادة.
وبعد خمس دقائق كان يتحدث مع "سيد" على تليفون "الثريا" الذي يعمل بالأقمار الصناعية. انتظر حتى
يلتقط شبكةً ويتم الاتصال بنجاح وهو ينظرُ إلى الخريطة قبل أن يقول "هذا غير منطقي وغير مقبول! إذا
هبطنا في "الفاشر" سيتوجب عليّ أن أقطع مائة ميل في الصحراء التي تعجّ بقطع الطرق بالإضافة إلى مئات
الأميال وسط ميليشيات السودان الإرهابية؟ الآن نهر النيل يُحوّل بيني وبين الهدف".

"نعم أيها الرجل الرمادي، أفهم ذلك، إنها مشكلة، لكن دعني أفكر".
"ليس هناك وقت للتفكير! ينبغي أن تُعيد هذه الرحلة لمسارها الصحيح".
"لكن هذا غير مُمكن، إن نفوذي في موسكو وليس الخرطوم، يجب أن نلتزم بتعليماتهم".
"إذا لم تستطع فعلَ شيء ستنتهار العملية برمّتها، هل تفهم؟ وإذا حدث لن يمكنك لومي على أي إخفاقٍ
بعدها ولن أسمح لك بهذا من الأساس".

في الواقع كان قلق كورت الحقيقي على عملية زاك وليس "سيد" لكنه لم يذكر هذا طبعًا ولم يقل أي شيء
يجعله يشك في نواياه.

قال كورت "سأبذل قصارى جهدي" قبل أن يُنهي المكالمة ويسير في الممر الضيق بين بدن الطائرة
وشحنات الأسلحة.

لم يكن هناك شخص يمكن لومُه على هذا الخبل الجاري، وفي الوقت ذاته كان يدرك جيدًا أن فشل العملية
لا يحتاج لكبش فداء.

بشكلٍ أسرع مما توقع عاود "سد" الاتصال به.

"لدينا حلّ معقول أيها الرجل الرمادي، بعد تفريغ الحمولة في الفاشر يمكنك العودة للقاعدة الجوية في بيلاروسيا ومن هناك ستُقلع طائرة أخرى للخرطوم في غضون ثلاثة أيام، ستكون هليكوبتر مهمتها الأساسية نقل معدّات إصلاح يمكنك الذهاب فيها وستكون الأمور على ما يُرام".

بدا سيد راضياً عن الترتيبات الجديدة.

"ثلاثة أيام من الآن؟"

"نعم".

"ولكن هذا يعني أنني سأتواجد قبل يومٍ واحد من زيارة عبود لسواكن، مُستحيل هذا ليس في صالح عمليتنا إطلاقاً".

قال كورت لنفسه بالطبع يمكن للوقت أن يكفي لو قُمتُ بالعملية لصالح "سيد" وليس ذلك. لكنه ليس وقتاً كافياً، في تقديره، لاستطلاع المنطقة بشكل كافٍ لزيادة فرص نجاح العملية. ومرةً أخرى، وجد نفسه عاجزاً عن شرح ذلك للرجل الموجود على الطرف الآخر من اتصال القمر الصناعي.

أناه صوت "سيد" عبر الهاتف أكثر حدةً هذه المرة "قلت لك ليس باليد حيلة! لم يكن لديّ أي طريقةٍ للتبؤ بهذا، ولا حتى حكومة بلدي، فقط ابق مع طاقم الطائرة حتى تتمكن من إعادتك في خلال ثلاثة أيام، أتفهمني؟"

أغلق كورت المكالمة وهو يقطع الممرّ الضيق المحصور بين بدن الطائرة والشحنات المكدسة، مُتمتتاً "ابن العاهرة".

ثم اتصل هذه المرة بـ "هايتاور" الذي أجاب على المكالمة من أول رنة، وبدا جليلاً أنه فوجئ بالاتصال "أهلاً كورت، مُذهل، أنت متقدم عن موعد العملية بأربع وعشرين ساعة".

"لا لا، يؤسفني إبلاغك أنني في الواقع سأتأخر عن الموعد المُحدد بكثير".

أخبره كورت بكل التطوّرات الفجائية الأخيرة ثم سأله إن كان يعرف أي شيءٍ عن هذا المطار، أو إن كان على دراية بأي طريقةٍ يتمكن بها من الذهاب لسواكن من هناك.

"أنت في موقف لا تُحسد عليه حقاً، كل ما أعرفه في هذه اللحظة أن الفاشر منطقة حرب، ستجد حولك اللجنة الدولية للصليب الأحمر ووكالات الإغاثة والمنظمات غير الحكومية والاتحادات الإفريقية العاملة لصالح الأمم المتحدة في "دارفور"، هؤلاء هم فقط الأجانب في هذا القطاع، يمكنك أن تستقلّ شيئاً للجنوب لكن يجب عليك العثور على سائقٍ مُتهور وفاقده لعقله كي يتحدى كل الميليشيات الخطرة التي تسيطر على الطرق، لو مكانك لن أفعلها، اقترحي أن تلتزم بتغيير "سيد" حتى تتضح الرؤية أكثر في الأيام الثلاثة القادمة وسأطلع أنا كارميكال على المستجدات".

"علم، سأنهي المكالمة الآن".

قال زاك "اسمعي جيداً، مجرد نصيحة لك، لا تغادر مطار الفاشر، إذا قبضوا عليك ستكون في عداد الموتى وسيُسلونك لبيت الأشباح".

قالها كورت وسط ضجيج محركات الطائرة "يبدو هذا ساحراً". كانوا قد بدءوا للتوّ في الانعطاف نحو الجنوب والهبوط الطفيف.

"لا الأمر ليس كما يبدو، بيت الأشباح هو الاسم الذي يُطلقه السكان المحليون على المعتقلات التابعة للحكومة في أرجاء البلاد، لكن السجن الموجود في الفاشر مُميّز للغاية. حين يودعونك هناك فأنت لا تخرج ولا تموت بسرعة، إنه بمثابة عذابٍ أبدي، أتفهمني؟"
"فهمت، أنا مُضطر للأسف لإنهاء الاتصال الآن".

ارتفعت معنويات "إلين والش" على الفور حين رأت بعض خيوط أشعة الشمس الذهبية تلمع في السماء البعيدة، كانت هناك طائرة كبيرة على ارتفاع ألف متر رأتها وهي تنطلق في طريقها للهبوط شمال دارفور، فتفاءلت واعتبرتها علامة ليوم خلاصها، أي طائرة تظهر هنا كانت بالنسبة لإلين احتماليةً منطقية لخروج آمن وسريع من هذا الجحيم.

إلين لها قصة طويلة حيث إنها عالقة هنا منذ وصلت مع فريق الإغاثة التابع للأمم المتحدة، ولأن ورقها ينقصه الختم اللازم كي تمرّ من البوابات النهائية لم تتمكن من دخول مُحَيِّم النازحين، وبالتالي لم يكن مسموحاً لها بمغادرة المطار، ما لم تكن طائرة ستُخرجها من الفاشر. بمعنى آخر ظلت محبوسةً هنا.

ولمدة ثلاثة أيام انتظرت طائرتها التي كانت من المفترض أن تُعيدها لمكتبها، وبالفعل وصلت وانتظرت على المدرج الساخن حتى تُملاً بالوقود من ناقلة تابعة لهيئة الأمم المتحدة، ولكن كل الطائرات التي حطت يومها كانت تابعة لشركة نפט صينية عادت لبكين، وليس الخرطوم، وقد رفضوا أخذها معهم، كذلك هبطت طائرات تابعة للقوات العسكرية السودانية ولكنهم رفضوا سفرها معهم لأنهم ببساطة لا يقدمون خدماتهم للنساء الأجنيات البيضاوات.

لذا حين رأت هذه الطائرة الجديدة الغامضة هذا الصباح وهي تتهيا للهبوط على المدرج، بدت لها تذكرة خروجها أخيراً من هنا. لم تكن الطائرة من طراز عسكري، كما أنها لم تكن مطليةً بشعار الأمم المتحدة، ولا أي هيئة أخرى دولية، ولا تُشبه في هيكلها طائرات الصينيين المميزة التي رأتها. إلين على دراية بالطائرات، وبإمكانها التعرف على طائرة شحن في ثانية، مع ذلك كان صعباً عليها خاصةً مع توقيت غروب الشمس التعرف على هويتها أو الجهة المالكة لها، لكنها لم تهتم حول أي منظمة أطلقت تلك الطائرة أو من يقودها أو ما هي حتى وجهتها القادمة أو من أين حلقت، ساورها يقينٌ حول شيءٍ واحد؛ أنها ستبذل كل ما بوسعها لتكون على متنها أثناء رحيلها.

لم تكن إلين من النساء اللواتي يعشقن المكياج والملابس أو يعبدن الموضة، لكنها شعرت بأنها في حالة رثة تُجبرها على تفقد منظرها على الأقل في مرآة حمام المطار، في طريقها هناك قابلت ثلاث نساءٍ سودانيات في اللباس التقليدي المعروف بغطاء الرأس الواسع الذي أدركت قيمته الآن كحاجزٍ للأتربة، تمتت لو ارتدته ليحمي شعرها الذي صار أشبهً مع عوامل الجو الصعبة هناك برأس مكنسة. في الحمام ألقت نظرةً على نفسها في المرآة، فأخافها منظرها المُتسخ بخلاف التجاعيد أسفل عينيها التي أبرزها العرق والملح، فبدت وكأنها أدركت لتوها بلوغها الخامسة والثلاثين من عمرها.

أخرجت قميصها الأبيض الكتان من حقيبتها وغسلته بماء الصنبور ثم نظفت به السخام والأتربة عن وجهها، على مدار الاثنتين والسبعين ساعة الماضية كانت قد استخدمته كمنشفةٍ مؤقتة عدة مرات حتى

تكرمش وظهرت فيه تعريجات وخطوط سوداء مثل قطع الأقمشة التي ينظفون بها عادة الأرضيات والحوائط، ثم استخدمت أصابعها كأسنان مشط مررتها في خصلات شعرها لتعدل تسريحته وتعيده لهيئته الطبيعية التي كان عليها منذ أيام قبل احتجازها هنا. أَلقت نظرة أخيرة على شكلها ووضعت قميصها في حقيبتها ثم مضت غير متأكدة إن كانت لا تزال نفس الأنثى الجذابة التي عرفها الناس في بلدها قبل إلقاءها في هذا الجحيم.

لم تُشعرها نظرة أخرى في المرآة بالارتياح، لكنّها تحسّنت قليلاً. أعادت القميص المُبلّل إلى حقيبة ظهرها ورفعته على كتفها، ثم غادرت الحَمَّام لتعود إلى مدرج المطار.

سمعت هدير محركات الطائرة الضخمة من قبل رؤيتها بوقتٍ طويل. وكان قد تم نقلها لمنطقة خاصة بطائرات الأمم المتحدة على بُعد أربعمائة متر من الباب الرئيسي الذي دخلت منه. حاولت في هذا التوقيت الليلي المُظلم وقد غربت الشمس تمامًا التعرفُ عليها أو تمييز شركتها أو هيئتها التابعة لها من أي علامات طيران أو اسم دولة مُلصق على بدنها. ومع ذلك، ومن شكلها، استطاعت معرفة أنها كانت طائرة شحن. علفت للحظة في زحمة المرور، عندما بدأت في السير نحوها. رأت مجموعة من طاقم الطيران الأرضي وموظفي الجمارك وعشرات الجنود معهم ضباطهم يسرون أو يتنقلون في عربات جيب متهالكة، خافت أن يلاحظها أحدهم وكان عليها حسم قرارها قبل أن ينتبهوا لوجود مدنيّة بيضاء أجنبية وسطهم في مكان غير مسموح لها ولا لأي أجنبي آخر بالتواجد فيه، لكنّها قرّرت الاستمرار في السير. لم يكن لديها أي فكرة عن المدة التي ستستغرقها هذه الرحلة على الأرض. كان من المشكوك فيه أن تستغرق أيامًا؛ فكل من هبطوا هنا حتى الآن كانوا قد غادروا الفاشر في أسرع وقتٍ ممكن إذا امتلكوا الوقود اللازم لذلك. ربما تكون هذه هي فرصتها النهائية لتجد بالحظّ طائرة ما قرّر رايوها أن تهبط هنا ملء وقودها غالبًا، مع العلم أنها سريعًا ما ستُحلق مجددًا.

ولم تكن لتفوّت فرصتها.

مشت إلين نحو الطائرة المتهاية ببدنها الضخم وراء السراب الحراري المتصاعد من المدرج، والذي مع غروب الشمس خفتت سخونته لكنه لم يبرد بشكلٍ كامل، ارتجف الهواء فوق شكل الطائرة الضخم، بينما تدفقت الأبخرة من المحركات الخاملة.

بعد لحظة، أطفأ قائد الطائرة مُحركاتها الأربعة فحلت أصوات الجنود والحشرات الآتية من الأراضي المجاورة، وملاّت الأجواء بدلًا من هدير الآلات وصفاراتها الذي كان يصدح على المدرج منذ لحظاتٍ كأنه مصنع كبير مكشوف.

كانت كتائب الجيش وعُمال المطار يسرون في المسافة القصيرة الواقعة بين إلين والطائرة، يتحرّكون بعزم عبر الممر الساخن، وقد استحوذوا على انتباهها طوال مُعظم مسيرها. تردّدت للحظاتٍ إن كان عليها الانتظار حتى ينتهوا من جولتهم أم عليها التحلّي بقدر كبير من الشجاعة والذهاب فورًا واختراق صفوف هؤلاء الرجال الضخام السود ببذلاتهم الرسمية. فقد ارتدى بعضهم الزي العسكري، وآخرون بدلات

العمل، وغيرهم ثياباً بيضاء فضفاضة، للتحدّث فوراً إلى طاقم الطائرة. لم يبدُ أي من الخيارين واعدًا أو مضمونًا مائة بالمائة لكن بالتأكيد المجازفة أفضل بكثيرٍ من أن تنتظر في مكانها "محلّك سرّ" وهي ترى الطائرة المنقذة الجديدة تُحلّق من دونها مثل البقية، فتمكث هنا محبوسة لأجل غير معروف.

أخذت إلين قرارها وتحركت إلى الفتحة الخلفية المنخفضة لتجربّ حظها. دفعها هذا القرار إلى النظر إلى ما وراء الرجال على بُعد خمسين ياردة أمامها، فصبّت انتباهها الكامل إلى الطائرة على بُعد عشرين مترًا أخرى خلفهم، وعندها فقط تباطأت مشيتها الأكيّدة قليلًا. وبعد بضع ياردات تباطأت أكثر. ثم توقّفت في مكانها على مدرج الطائرة.

وبينما ثبتت عينيها على الطائرة، ركعت على المدرج بعدما وضعت حقيبتها تحت ركبتيها حتى لا تتقرّحاً ثم أخرجت دفترًا أسود صغيرًا وفتحته وهي ترمق الطائرة من بعيدٍ بقلق، وبلعقاتٍ من أصابعها عثرت على الصفحة المطلوبة التي أخرجت دفترها بالأساس وعطلت نفسها باحثة عنها. ظلت تنقل بصرها بين الطائرة بالأعلى ودفترها بالأسفل.

ثم تمت بتعجب "يا إلهي!"

كانت الطائرة الواقفة أمامها من طراز "إيوشن إي إل 76" وبنظرة على قعرها ذي العجلات العشر تبين أنها مُتخمة بالحمولات والشحنات وهو الغرض المصنّعة له. كانت تعرف أن هذا الطراز على وجه التحديد يُميز بين بقية الترسانة الروسية الجوية بتخصّصه في نقل معدّات وكالات الإغاثة والمؤسسات العسكرية لشتّى بقاع الكرة الأرضية، مع فارقٍ وحيد وهو أن هذه الطائرة من فئةٍ مُطورة عن مثيلاتها مع بدن أطول. نقلت تركيزها بالكامل لحقيبتها وبدأت تجمع مُتعلقاتها وبيطء عادت لصالة المطار.

تزايدت حماسها بشكلٍ مُفرط ثم بردت لما أدركت أنها لن تتمكن من إجراء مكالمة هاتفية داخل المطار إذ لم يكن هناك هاتف عمومي، كما تم إعلامها من عمال الصالة أن الخط الإداري الوحيد مُعطل منذ اثنتين وسبعين ساعة، لم يكن لديها شكّ أنهم يكذبون عليها ولكن النتيجة في النهاية واحدة، هي عالقة هنا دون أي وسيلة اتصالٍ بمكتبها كي يتصرّفوا وينقذوها.

هدوء حماسها مكّن عقلها أخيرًا من الاسترخاء والتفكير في صيغةٍ أخرى معقولة لحطّتها حتى لو بشكلٍ متسرع، حين يُجس المرء في مطار لعدة أيام يبدأ مخه في البحث عن أي وسيلة هروبٍ حتى لو كانت غير آدمية. لم تتمكن من قياس مستوى فُرصها في هذا الموقف المتأزم ولكنها تحكّمت في مشاعرها وفكرت في الحيل المطروحة تحت يدها، وكما يقول المثل عصفور على المدرج خير من ألفٍ في السماء، حياتها المهنية على المحكّ، إيلين والش المحققة بالمحكمة الجنائية الدولية محبوسة في مطارٍ في بلد عالم ثالث فقير يعجّ بالحروب والأمراض والمجاعات والميليشيات ولا يُوجد لها أي مهرب سوى التطفل على أول طائرة تُقابلها. لم تشعر في حياتها بهذا القدر من العزم، ولا الوحدة أيضًا.

هذه المرأة البيضاء ستسبب مشاكل، وأي أجنبية في مكان حساس كهذا لن تكون عواقب وجودها حميدة.

غير كورت ملابسه وارتدى الأفروال الرسمي ليتهاهى مع بقية أفراد طاقم الطائرة، ثم نزل معهم للجزء السفلي منها، وبمجرد خروجه من الباب لفتحته الحرارة المتبقية في الهواء بعد الغروب وضربت عينيه أشعة الشمس الراحلة ففتحها على اتساعها يمسح كل الاتجاهات من حوله. على يساره، لمح طائرة تابعة للأمم المتحدة واقفة على الرمال، وقد انفصل ذيلها عن بدنها مع آثار حريق واضحة في سخام نوافذها وانصهار معدنها وتدهور محركاتها وفجوات بدنها كأنها تُركت للنار تلتهمها لأيام حتى تحولت لهيكل مُسود. أما على يمينه فكان هناك صف من طائرات الهليكوبتر التابعة للأمم المتحدة المميزة بشعارها وقد ماعت صورتها خلف الضباب الساخن الذي خلفته محركات طائرتة، وهبطت مراوحها للأسفل وكأنها تذوب. وخلفها توقفت عدة طائرات جنباً إلى جنب، وبدت وكأنها طائرات نقل صغيرة تابعة للأمم المتحدة. ناهيك عن المحطة الصغيرة الجديدة التي ارتفعت أمامه على بُعد مئات الأمتار. وخلف كل هذا كان هناك سيارجٌ يُحوط كل مساحة المطار ويعزله عن الصحراء المترامية، وفي الأفق رأى بضع طائرات كهنة مُهملة كأنهم حولوا الساحة لمخازن خردة بدلاً من وضعها في هناجرها المُخصّصة لتخزينها.

كانت الحشرات في كل مكانٍ حوله مثلما هو الحال في أي بقعةٍ أخرى في السودان؛ ذباب وبعوض وجراد يطيرون ويطنون كأنهم في حفلةٍ كبيرة، لم يتمكن من رؤيتهم في هذا الظلام الملفوف بالغبار لكنه سمع صوتهم وميزهم من خبراته التي جمعها من أسفاره لدول الشرق الأوسط أو العالم العربي.

ثم رآها.. ملاك وسط الجحيم، كان من المُستحيل عدم إدراك أنثى بيضاء وحيدة تقف على مدرج مُغبر تحت شمس الغروب في بقعةٍ ما غرب السودان. على بُعد خمسين ياردة رصدها وهي تأخذ ملاحظاتها في دفترها حول طائرتة ثم تُسقطها في شنتتها بسرعة كأنها تُخفي مصيبةً ما، أخرجت كتاباً تصفحته وكشفت حركة جسمها ويديها أنها تبحث فيه عن شيءٍ مُهم تريده بشدة حتى استرخت تماماً وسكنت في وقفقتها، مع ذلك كان لدى كورت شك بأن الطائرة الموجودة خلفها ليس من المُفترض أن تكون هناك.

هذه المرأة البيضاء على ما يبدو للوهلة الأولى تجلب معها المتاعب، كثرة عملياته علمته ودرّيته كيف يشم رائحة الكوارث من صانعيها عن بُعد.

تلصص كورت على محادثة الطيار "جينادي" مع الضباط السودانيين والتي طالت وتخللتها بعض اللحظات العصبية استشفها من حركات أجسامهم ولغة أيديهم، كانت الطائرات الهابطة لتفريغ كل شحنات الأسلحة متأخرة عن مواعيد وصولها حوالي ساعة كاملة قبل بلوغها المطار؛ أما عن الإليوشن

فوقودها كان جاهزاً وسيتم إمدادها به حالاً حسب التعليمات المتفق عليها مع إدارة المطار ومُلاحقته العسكري، في نفس الوقت سيُرشد طاقم العمال كل من كانوا على متنها للحمامات والمطعم ليقضوا فترة راحتهم بشكل مُرضٍ قبل استئناف رحلتهم. وكانت الطائرة نفسها قد وقفت في آخر المدرج كي لا تكون ملحوظة ومرصودة من قِبل المدنيين والأجانب الفضوليين الموجودين في كل مكانٍ هنا، ومع ذلك، تلقى "جينادي" وفريقه دعوةً واضحة من ضباط المطار للاستمتاع بكل وسائل الراحة المتوفرة به حتى يتم تفريغ حمولة الطائرة العسكرية وإمدادها بكمية الوقود اللازمة.

بعد أن غادر العمال السودانيون، اقترح جنترى على جينادي إبقاء رجاله على متن الطائرة. فمن ناحية أمنية، لم ير أي فائدةٍ من تجوُّل روس وسط المدنيين لأن شكلهم سيكون حتمًا ملفتًا للأنظار وسيجعل الكل يشكُّ في أن شيئاً غير معتاد يدور هنا والآن، ولكن في النهاية الطيار هو المسئول عن اتخاذ القرار، وليس المسافر معهم بشكل غير شرعي، لذا أخبرهم قائدهم العنيد أنهم سيُقلعون بعد ثلاث ساعات وحتى هذا الوقت يُمكنهم أن يفعلوا ما يحلو لهم دون أي روادع أو مخاوف.

بعد عشرين دقيقة، خرج كورت بصحبة طاقم الطائرة الروس يتجهون لصالة المطار، مُبقياً عينيه على كل الأفراد ليضمن مدى تحكمهم في أنفسهم إذ كان لديه شكٌ كبير في تهورهم ورعونتهم مثل قائدهم الأهوج الذي لا يتخذ قراراته الخطيرة بعد حنكةٍ وتفكير. لم تكن مع الرجل الرمادي أي أسلحة، أو أي وسائل دفاع عن النفس، وحتى مُسدسه كان في حقيبته داخل الطائرة، تركه عمداً إذ لم تكن لديه فكرة عن التدابير الاحترازية داخل الصالات كما لم تكن لديه أي نيةٍ ولا استعداد للتعامل مع إدارة أمن المطار بشكل عنيف يُسبب فضائح ويفسد العملية برمتها. احتوت محفظته فقط على يوروها وروبلات وجنيهاً سودانية وقد برز شكلها المربع المنتفخ من تحت بذلة طيرانه الزيتونية. صعد للطابق الأعلى، فوجد ردهةً شبه فارغة أصغر من أي سوبر ماركت أمريكي نموذجي مُتعارف عليه. يحتشد المكان بجنودٍ سودانيين يقرفصون على مؤخراتهم أو يتجولون حاملين بنادقهم على ظهورهم. عثر طاقم الطائرة ومن ضمنهم الأجنبي الأمريكي المتخفي على الحمامات ثم وجدوا مطعمًا صغيرًا استقروا فيه ليتناولوا وجبةً بعد ساعات سفرهم الطويلة. وكان الروس يهتمون من أين أتى، قدّم النادل نفسه على أنه مصري، ومرّر لهم قوائم الطعام وحيّاهم بحماسٍ زائد عن اللزوم طالما أنهم أجنب، لكنهم لم يستجيبوا أو يتجاوبوا معه بالشكل الذي توقعه منهم، لا لأنهم يتعالون بقصدٍ على أي شرقي أو عربي يُقابلونه هنا، بل ببساطة لأنهم لا يتحدثون العربية، على عكس كورت، الذي قضى جزءًا كبيرًا من مهنته في الشرق الأوسط مما يسمح له بطلب وجبة بكل أريحية لكنه احتفظ بهذا الكارت لنفسه حتى يُضطر لاستخدامه، إذ لم تكن لديه أي نيةٍ لتمييز نفسه عن بقية المجموعة بالتحوُّل لمرجّم لهم، على الأقل في هذه المرحلة المبديّة الآن.

حجز قائدهم الطيار "جينادي" مائدة له بطريقته المتعجرفة، إذ زار الفاشر مرات عديدة بحكم وظيفته، ويعرف من وجهة نظره كيف يتعامل مع الشعب السوداني، ولم تكن هذه مفاجأة لكورت. فقد كان تجاهل حكومة طاغية إفريقي للعقوبات الدولية أمرًا مألوفًا، وكذلك حرص الروس على الاستفادة منه، وأيضًا غضب وصدمة الأمم المتحدة في كل مرة عرّفت فيها بالأمر.

وبينما انتظروا طعامهم، راح كورت يُجول بعينيه في المكان. كانتا لا تزالان تتكئتان مع الضوء الخافت داخل الصالة مُقارنَةً بالضوء الموجود على مدرج المطار. نظر خلفه ووجد المرأة البيضاء ذاتها تدخُل كأنها تُلاحقهم، وهذا بالضبط ما لم يكن يحتاج لحدوثه بعد ما تعرضت له العملية بالفعل من تعطيل وغباء.

"معذرة! هل يتحدث أي منكم هنا الإنجليزية؟"

وجّهت "إلين" سؤالها لطاقم الطيران الروسي وهي ترسم ابتسامة خفيفة ناظرة للطيار قائدهم الجالس على رأس المائدة، كان بإمكانها تخمين أنه رئيس الفريق من وضعية جلسته وسط مجموعة رجال في أفرولات مُبلّلة بالعرق.

كان هناك خمسة رجال في طاقم الطائرة ارتدوا جميعًا أفرولات أخضر مُتشابهة، دون أسماء ولا رُتب على أفرولاتهم ولا تسريحة شعرٍ عسكرية مميزة أو مستوى لياقة بدنية مُرتفع لأي منهم. لكنها بخبرتها عرفت أن هذه المجموعة قد يكونون طيارين عسكريين يعملون لصالح شركة شحن روسية أو أنهم عسكريون روس متقاعدون في مهمة غير مُعلن عنها أو غير رسمية. وفي كلتا الحالتين، لم يكن الأمر مُهمًا.

"نعم أنا أتحدثها".

ردّ عليها الطيار قائدهم ذو الشعر الأحمر وهو يرُمقها من أسفلها لأعلاها بنظراتٍ شهوانية، ففهمت أنه لا ينوي مساعدتها إطلاقًا وإنما يُجارِها فقط ليجعل منها أضحوكةً لزملائه لا أكثر أو ليصطادها كموس عابرة، وهو آخر شيءٍ يحتمله موقف امرأة عالقة هنا في المطار، ممّا جعله في عينها خنزيرًا كبيرًا أحمر، لكنها هدأت نفسها وأعصابها المُتهيجَة وقررت استخدام هذا القرف لصالحها مثلما تستطيع أي امرأةٍ تحويل أي موقفٍ قديرٍ لمنفعتها أو بمعنى أصح ترويض أي رجلٍ مهما كان حيوانًا لخدمتها.

رسمت إلين على وجهها ابتسامة مُصطنعة وهي تقول "رائع، أنا إلين والش من الأمم المتحدة". رمت كذبتها دون أن يرمش لها حتى جفن "تُسعدني رؤيتكم، في الحقيقة يؤسفني تعكير صفو جلستكم الهادئة لكنني أودُّ إخباركم أنني للأسف محتجزة هنا منذ ثلاثة أيام، وبالتالي أتطلع للعثور على أي وسيلة نقل تنجديني وتُخرجني للخرطوم أو بورتسودان، يُمكنني القيام بأي شيءٍ مقابل الخروج من صالة هذا المطار حتى لو سأدفع نقدًا، وأنا متأكدة أنه فيما بعد سيحلّ مكثبي الموقف مع رئيسكم بشكل دبلوماسي ورسمي".

بدا من هزات رأس الطيار أنه لم يفهم كل ما قالت، وربما هذا بسبب سرعة تحدّثها كأن كلماتها تتبع ضربات قلبها، فأثر توترها على إيقاع كلامها فبعثه.

"أعتقد أنه يُمكننا التوصل لاتفاق حول هذا يا آنسة. انضمي إلينا لتناول العشاء أولًا من فضلك.. وأي شيءٍ آخر سيحلّ، لا تقلقي".

"بكل سرور".

أطاعت إلين كلامه وهي تعلم بحدسها الأنثوي الذي لا يخيب أن هذا الرجل لن يدعها أبدًا تسافر على طائرته، فهو يُسايها لأسبابٍ شخصية ذكورية دنيئة ليس إلا.

وأدركت أن السفر مع رجل مثله على متن طائرته التي يتحكّم بشكل كامل في ركابها حلم مُستحيل، لكنها لم تبيّن أمام حلم النجاة، إذ قررت الخروج من هذا المطار بأسرع شكل ممكن، وفي أضعف الإيمان ستُفلت بأي منفعة من ذلك الوغد الروسي حتى لو بمعلومات سرية عن رحلته التالية أو بإلقاء نظرة على حولته النوعية وطبيعتها ومدى خطورتها للدرجة التي تجعلهم جميعاً يتكتمون حولها. يُمكن لشخصين أن يلعبا اللعبة التي يلعبها، لذا انحنّت مُقتربةً منه.

"ماذا تفعل يا رجل؟"

أتى الصوت بالروسية بنبرة جافة مشمئزة من آخر المائة، خارجاً من رجل يُشبههم من حيث اللحية الكثيفة والشعر الأشعث، لكنه أطول منهم ويتمتع بلياقة بدنية أعلى، فانتبهت إين أنها أخطأت في عدّ الرجال إذ حسبتهم خمسة وكان سؤال الرجل السادس موجهاً للطيار بشكلٍ فظّ كأن سائله يعلوه في الرتبة أو له أي سلطة عليه.

وحين لم يُجِب الطيار كرّر كورت سؤاله بالروسية بنبرة أعنف: "ماذا تفعل بحق الجحيم يا رجل؟"

أجابه بالروسية "ماذا أفعل! أدعو هذه السيدة الجميلة لتنضمّ إلينا على العشاء، ما مشكلتك أنت؟" أجابه كورت ببساطةٍ باذلاً قصارى جهده ليبقى هادئاً "ما مشكلتي! أحتاج الأمر أن أشرح لك أنك غير مسموح لك نهائياً بدعوتها هي أو أي شخصٍ غريب للركوب معنا على متن الطائرة". نظر إليه جينادي قبل أن يُجيبه "ماذا! أتظن أصلاً أنك في موضع يسمح لك بإخباري من آخذ معي على طائرتي ومن لا؟ من أنت، أنا لا أعرف أصلاً من تكون! لكنني أعرف أني طيار هذه الطائرة والوحيد الذي معه أي صلاحياتٍ وسلطات هنا لاتخاذ أي قرارٍ مهما كان". أدار كورت اتجاه عينيه للرددهة حيث تُوجد ضيفتهم الأجنبية التي بدأت تتحول تدريجياً كما تخنّ لمشكلةٍ تتفاقم مُحدثةً شرخاً بينهم.

قدّمت المرأة الكندية نفسها على أنها "إين" وبدأت تُصافح كل واحدٍ منهم مع ابتسامة ودودة، أما كورت فتجنّب أي اتصالٍ بالأعين معها وهو يُصافحها ويُجرها باسمه المزيف "فيكتور".

"إذن من أين أنتم يا رفاق؟"

ردّ عليها جينادي "نحن روس".

"روس! رائع".

استدار كورت ليدرس وجه المرأة لا على نحوٍ جنائي بل كأنه طالب في كلية الفنون الجميلة يتأمل لوحةً زيتية في متحف أو موديل سيرسُمها الآن.

"وما الذي أتى بكم لدارفور يا سادة؟"

قال كورت لنفسه بالروسية اهدأ قليلاً يا جينادي.

"وما هي وظيفتك في الأمم المتحدة بالضبط؟"

تعمد الطيار الروسي أن يُجيب على السؤال بآخِر وهو تكتيك عسكري يتم اللجوء له أحياناً لإبراك مُحدثك، أما إلين فنظرت له بكل هدوءٍ وطلبت منه بنبرة متخمة بالذوق واللباقة أن يُعيد عليها سؤاله مُجدداً إذا تفضّل، وأدرك طبعاً كورت بذكائه الاستراتيجي أن المرأة الخبيثة فهمت جينادي من أول مرة، لكنها تتحايل عليه لتأخذ وقتها في تدبُّر إجابتها، إذ كان مُدرباً على التقاط تلك الثغرات وسط الأحاديث والحوارات التي تخلق بدورها مساحةً منطقية للشكّ. المعادلة كالآتي؛ بعض الإيحاءات ولحظات الصمت أو مجرد حركة خاطئة من الجسم قد تكشف الخداع الكامن وراء ما يُقال، بالنسبة للمرأة الكندية الغربية الجالسة أمامهم شيء ما جعلها تلتفت لليمين حين سُئلت عن وظيفتها، مما نبّهه أن كل ما سيخرج من فمها الآن محض كذب، وبطلبها من الطيار أن يُعيد نفسه كانت فقط تمنح نفسها وقتاً إضافياً لتعدّ إجابتها المصطنعة في ذهنها بشكلٍ مُحكّم مُقنع قبل أن تُلقِيها لهم مثل الطعم.

أخيراً أجابته "في الحقيقة أنا موظفة إدارية مُختصة مسئولة عن إمدادات الإغاثة". هزّت كتفيها قبل أن تُضيف "الخدمات اللوجستية وما إلى ذلك. لا شيء مُثير للاهتمام على الإطلاق". حرّكت ذراعها اليسرى لتفرك بيدها ذراعها اليمنى.

هراء. ها هي لغة جسدها تفضحها للمرة الثانية في أقل من دقيقة، فكّر كورت في سرّه، أما جينادي فبدأ لا يُبالي بكذب هذه المرأة أو مدى صحة كلامها لأنه كان مُغرماً بها مما أعماه وجعله لا يهتم بمنطقية ما ترميه لهم من هراء.

"ونحن آتينا لنُحضِر مُعدّات بترولية لدارفور".

قال الطيار بينما كان الجرسون المصري يُنزل لهم بكلّ ترحابٍ الشاي الساخن. لم تعجب إجابته كورت لأنها تفضح تفاصيل أكثر من اللازم حتى لو كلها كذب، فهي ليست إجابةً مخضّرة من رجل خبير في التجسس والتخابر، لو كان مكانه لردّ عليها بأنه ببساطة شيء لا يعينها وما أتوا لأجله يُخصّمهم هم وحدهم أو إدارة المطار بحد أقصى، لكن على أي حالٍ لحسن حظهم لم يتبادر جينادي في غبائه ولم يُجرها أنهم أتوا لينقلوا أطناناً من الذخيرة والرشاشات.

بدأت المرأة مُحتارة من الإجابة وهنارت جهاز استشعار الخطر في رأس كورت.

قالت "حسناً، لقد فهمت". لكن رغم إجابتها الدبلوماسية بدا من نبرتها وحركات جسمها أنها غير مُقتنعة بما صرّح به جينادي، عبّرت وجهها لمحة تكذيب سريعة ألتقطها كورت وهي تقول "في الحقيقة ظننتُ أن الصينيين يستخدمون مُعدّاتهم بالفعل طوال هذا الوقت".

قال جينادي بابتسامةٍ ربما اعتقد أنها مُثيرة "صينيين! ما الذي يجعلك تذكّرهم في موضوعنا هذا يا سيدتي؟ نحن الروس رائدون في هذا المجال، ألم تسمعي عن حقولنا في سيبيريا؟"

شعر كورت أن كل المعرفة التي جناها عن البترول والأوضاع السياسية في السودان خلال الأسبوعين الماضيين، تملك "إلين" مثلها، بل وربما لو طال الحديث لاكتشف أنها تملك في دماغها من معرفة أكثر مما

يعرفونه كلهم، والحقيقة التي جهلها جينادي أن الصينيين يُحكمون سيطرتهم على كل عمليات تنقيب البترول الجارية في دارفور، لذا لم تكن المحادثة في صالحه إطلاقاً. تظاهرت بالدهشة وهي تُجيبه "حسناً، لقد فهمتُ قصدك".

تأكد كورت أن إلين التقطت كذب جينادي لكنها مرّرت الكذبة لأنها تحتاج خدماته في هذا الوقت، وبدأت تضع السُّكر في شايبها متظاهرةً بأن شيئاً لم يحدث.

أترتعش يدها أم تخيّل الرجل الرمادي هذا؟ كان يُحاول فك طلاسم شخصيتها من أتفه حركة تصدر من جسدها أو عينيها.

"حسناً إيلين، أيمكننا أن نتطفّل ونعرف لماذا أنتِ في الفاشر إذا سمحتِ طبعاً؟"

سألها جينادي بطريقته اللزجة الطفولية، فعادت حركات جسمها للتوتر وبدأت تفرك ذراعها اليمنى مجدداً، وبالنسبة لأي خبيرٍ في قراءة لغة الجسد مثل كورت، كانت هذه المرأة نموذجاً يُحتذى به في الدراسة والتمحيص، لأنها بشكلٍ عام مفضوحة وليست ماهرة في مُدارة ما تفكر فيه.

أجابته "بالطبع أستطيع إخباركم لأنني لا أخفي شيئاً، فأنا في الواقع أتيتُ إلى هنا لأجري بعض الاستبيانات الإحصائية بخصوص مُحيم "زمزم" للناحين إذا سمعتم عنه، لكن فريقتي لا يملك أوراق الثبوتية المطلوبة لذا لا يُمكنني مغادرة المطار، والآن أبحث بكلّ الطُرُق المُمكنة عن وسيلةٍ أفلت بها من هنا". أنهت كلامها باستقرار عينيها على الطيّار الذي رفع حاجبيه وبادلها نظرات الإعجاب دون أي عرضٍ منه لاصطحابها على طائرته.

لذا بادرت هي بسؤاله "أسبق لك أن كنت في دارفور؟"

أجابها بغطرسة "نعم، نعم، مرات عديدة".

أومأت برأسها مُحافظَةً على ابتسامتها وهي تقول "الوضع هنا مريع ألا تتفق معي؟ حوالي 450 ألف مُصاب على مدار الثماني سنوات الماضية، ملايين عالقون في المُخيمات أو على الحدود مع تشاد".

"نعم الحرب دوماً شيء صعب، من يُمكنه أن يُنكر شيئاً كهذا!"

أراد كورت أن يعبر المائدة ويضع جينادي على وجهه لأجل كلامه السطحي الساذج لكنه أمسك نفسه عن أي حماقةٍ وقرّر تأجيل أي حسابٍ إلى حين اختلائه بهذا الأبله.

"طائرتكم الإليوشن شكلها مذهل، لدينا البعض منها باستثناء أننا نستخدمه في النقل، لكنني في الحقيقة لم يسبق لي ركوب طائرة شحن بضائع".

قال جينادي "بالطبع الإليوشن فخر الجوية الروسية". وأوماً والش برأسه معه، وبدا وكأنه يتأمّل كلماته.

سألته إيلين بحماسٍ "أتعرف أن أميليا إيرهارت هبطت هنا في الفاشر أثناء جولتها حول العالم؟"

أمال جينادي رأسه قليلاً وهو يسألها "من؟"

"ألا تعرفها! غير معقول لشخصٍ في مركزك أن يكون جاهلاً بها! أميليا إيرهارت أشهر طيارة في التاريخ وقد اختفت أثناء طيرانها حول العالم عام 1937".

نظر إليها جينادي فحسب.

"بالتأكيد سمعت ...".

قاطعها قائلاً "لا، لا أعرفها ولستُ مُستغرباً من أن ليس لها أي أثر، النساء لا يمكن أن يُصبحنَ طيارات ماهرات". قالها جينادي كما لو أنها قاعدة بحثية أو نظرية علمية تُدرّس بالفعل، وعندئذٍ لاحظ كورت في عيني الكندية أن الإعجاب الذي كانت تكنّه للطيار الروسي بدأ يتهاوى أمام غبائه وعنصريته ضد النوع الأنثوي بشكل عام، خاصةً بعد التصريحات الذكورية التي لم يستطع كتمها في فمه لمدة دقائق حتى ترحل أو حتى يأخذ غرضه منها بمعنى أدق.

لكنها تظاهرت بالعكس تماماً.

"حسناً، لقد سمعتُ الكثير والكثير عن الإليوشن، وفي الحقيقة طائراتنا الخاصة النوعية في الأمم المتحدة تقوم بالواجب على أكمل وجه، ولكنها عقيمة بعض الشيء لأنها من طُرز قديمة كما تعرف، أيمكنني أن أُلقي نظرةً عن قُرب على طائرترككم؟ إذا كان مسموحاً لي، لا تقلق لن أحاول العبث أو الإقلاع بها وإلا سيكون مصيري مثل أميليا البائسة".

ابتسمت بشكل له مغزى، وأدرك كورت أنها خدعة تامة.

ابتسم لها جينادي وهزّ كتفيه في حركة دالة على أن كل شيءٍ مُتاح لهذه المرأة مقابل جمالها وتساهلها معه، أما كورت فكان يلعن اليوم والموقف والظروف التي وضعتُه هنا بينهما.

ذاب الجليد بينها وبين المجموعة فبدءوا يسألونها أسئلةً شخصية من قبيل:

أهي متزوجة؟ لا.

من أين تكون؟ فانكوفر، كندا.

منذ متى وهي في السودان؟ من شهرٍ تقريباً.

لم يرَ كورت خلال هذا الاستجواب الودّي أي زيفٍ في كلامها، لكنها طوال هذا الوقت لم ترفع عينيها عنه، ربما لتختبر إن كانت لديه شكوك حولها، فتجاهلها ليُرِيحها ولتكون أكثر اطمئناناً مع الطاقم الروسي، فهي حتى الآن لم يصدر عنها ما يُصنّفها في مخيلته كعدوة لهم أو كمصدر تهديدٍ لعملية السرية.

لقد شربوا كلهم خدعتها عدا الرجل ذي البشرة الداكنة.. قالت إلين في سرّها.

حاولت إلين أن تبتسم ابتسامةً عريضة للرجل الجالس على طرف الطاولة، لكنّه أشاح بنظره بعيداً وقد شعر بالملل. وعلى عكس بقية المجموعة شعرت أنه يتحاشى النظر إليها كأنه قابلها من قبل أو كأنه يعرف كل شيءٍ عنها ولا يحتاج للحديث معها، من المؤكد أنه استمع لمُحادثتها مع الطيار سواء فهمها أو تجاهلها.

ولكن الأهم من ذلك الرجل غريب الأطوار الطائرة الواقفة على نهاية المدرج هناك والتي تحتاج أن تلقي عليها نظرة عن قُرب، تلتقط صورةً أو اثنتين لها من الداخل، تحصل على مزيدٍ من المعلومات السرية حول هذه الرحلة المتجهة لشمال دارفور، وكانت تتساءل طوال هذا الوقت لو أن القوات السودانية الآن تُنزل الحمولات من على متنها لتضعها في مستودعاتها الخاصة.

"أستقومون بتفريغ حمولة الطائرة بأنفسكم أم لديكم طاقم من شركة البترول المسئولة سينفذ هذا الإجراء؟"

"شكرًا لاهتمامك البالغ لكن لا تقلقي علينا سيقوم السودانيون بهذا، سيستغرق الأمر ساعةً على الأقل، سيذهب رجالي لمساعدتهم لكن بمقدوري البقاء معك والاستمتاع بكوب شايٍ آخر إذا سمحت لي".
ابتسم فابتسمت له إلين على مضض، أما الرجل الجالس في نهاية المائدة فراح يزعم في الطيَّار بكلام لم تفهم منه إلين أي شيء إذ كان كله بالروسية، لكن من لُغة جسده فهمت أنه لا يرحِّب أبدًا بوجودها وسطهم.

"أنا لا أثق إطلاقًا بهذه الكندية، أسئلتها أكثر من اللازم!"
تحدث كورت لجينادي بالروسية، غير مُهتمٍّ إن كانت ستفهم شكّه فيها من نبرته الحادة، وغير مكترث لمنصب جينادي الذي يُحوِّل له كل الصلاحيات والتعليقات.

أشاح جينادي بنظره بعيدًا بدوره، ونظر إلى جنترى وهو يُجيبه بالروسية "ماذا تقول! لا أحتاج أن أثق فيها ولا أن أعرف من تكون، لن أتزوَّجها يا رجل، سأضاجعها فقط، كل ما ينقصها حمَّام دافئ وبعض المكياج وستكون في حالةٍ أفضل بكثيرٍ مما تبدو عليه".
تنهَّد كورت قائلاً "سنقلع خلال ساعتين".

"لم أقصد الآن، رغم أننا نملك ما يكفي من الوقت، بل أعني في رحلتي القادمة إلى الخرطوم، لكنني أرْتب للأمر فحسب".

راقبتُ إلين المحادثة من فوق المائدة بنظراتٍ مصطنعة مقصودة تشي بأنها لا تفهم ما يُقال.
فكّر كورت أن يلوِّح باسم "سيدورينكو" ككارتٍ يضغط به على جينادي ليردعه عن تماديه، ثم تذكر كيف سيثير هذا حنقه وحساسيته نحو صلاحياته وسُلطاته وبدلاً من هذا غيرٍ اقتراحه "دعنا نأخذ أكلنا ونعود للطائرة".

"هذه فكرة ممتازة، اذهب أنت والرجال للطائرة واتركوني مع هذه الكندية الجميلة".
قالها بضحكةٍ سمجة تبعها رجاله بضحكاتٍ مُماثلة، أما كورت فأدار وجهه كاتماً غيظه.
سألته إلين بابتسامة "لماذا يتتابني إحساس أنك تتكلَّم عني".
لكن كورت لم ينتظر أو يتوقف لمواصلة الحوار معها، أخذ نفسه ومشى دون إحضار وجبته إذ التهمم بالفعل بعض الأغذية المُجفَّفة التي كانت في حقيبته والتي ادّخرها لوقت الحاجة.

ذهب كورت للحمام وغسل وجهه ببطء ليُهَدِّئَ أعصابه، قرر أن يتناول من دواء "الهيدروكودون" ليساعده على الاسترخاء والهدوء أثناء رحلة عودته إلى "بيلاروسيا"، القليل منه لن يضره خاصةً أنه لن يعمل على مدار اليومين القادمين ولن تكون هناك أي مهمات أو مغامرات.

فقط سيُقي عينيه على تلك المرأة الكندية المربية، فهو يشك أنها هنا لجمع بعض المعلومات عما يفعله الروس، ربما لصالح صحيفة أو منظمة دولية أو لتسليط الضوء على الانتهاكات الحاصلة في هذا البلد، إن لم تكن تعمل لصالح جهازٍ مُخابراتي ما، أيًا كان، لا يُمكنه المجازفة وارتكاب حماقاتٍ معها لأن الغربيين ومؤسسات حقوق الإنسان والهيئات الأُممية سيُثيرون المشاكل لشركة الشحن التابع لها الطيار، يحتاج أن يُبقي الأمور دبلوماسية وسلسلة وتحت السيطرة حتى لا يُعيقه شيء عن مهمته الأساسية السرية في السودان.

أغلق الصنبور وجفف يديه حين دخل مسئول الملاحاة الجوية، وحين رأى الأمريكي أوماً له وقال: "خذ حذرك لأن جينادي يأخذ المرأة الكندية ليُريها الطائرة". لم يبُد الطيار الروسي متحمساً لما يرتكبه قائده الأحمق لأجل نزواته، لكن حركاته العبثية أوحى أنه يترقب ما يحدث على سبيل التسلية لا أكثر ولا أقل، وقد أكد هو تخمين كورت حين أضاف "أنا وفلادي لدينا رهان، في رأيي سيفعلها جينادي في قمره القيادة، أما فلادي فيرى أنه سيأخذ صفقة محترمة منها على وجهه، أتريد أن تُشارك معنا في الرهان؟"

على عكسهم، لم يكن لدى الرجل الرمادي أي استعدادٍ أو نية للمزاح فيما يخص أمن الرحلة، خاصةً بعد ما تعرضت له العملية الأساسية المُكلِّف بها من عرقلةٍ وغباء، اندفع من الحمام متجاوزاً الرجل وحين خرج وجد الكندية تسير على المدرج حاملة حقيبتها على كتفها وبجوارها جينادي يحمل طبق وجبته يحاول استمالتها بكل الطرق اللزجة المُمكنة التي يمكن أن تصدر من رجل تُحركه فقط غرائزه.

"يا إلهي!"

أول شيء فُكِّر فيه كورت أن يذهب ويشد جينادي من شعره الأحمر ويسحبه لأي ركن ليوبخه ويهدده أنه سيُتصل حالاً برئيسه في سان بطرسبورغ الذي وضع من البداية خط سير الرحلة وخطوط العملية وعينه قائداً لها، أين كان عقل سيد حين رشح مختلاً كهذا لعملية بهذه الخطورة والحساسية، مكاملة واحدة من كورت كافية أن تستفز ذلك الروسي البغيض وتُفقد كل الثقة في رجله المُكلِّف وتجعله يحصد عائلة جينادي كلهم في نصف ساعةٍ داخل بيوتهم. كل ما عليه أن يذكر سيرة "سيد" كي ينصاع جينادي لكل أوامره ويعود لرُشده ويتنازل عن تحكُّم شهواته في قراراته.

قلِّب كورت نظره حوله فرأى موظفي المطار يقفون في مللٍ لا يفعلون شيئاً.

فكرة جيدة. يمكنه الذهاب للسودانيين وإخبارهم بكل بساطة أن موظفة الأمم المتحدة الكندية تُعرقل بتطفلها ونزقها إجراءات رحلة شحن الأسلحة الروسية السرية، وإذا استمر تعطيلها لهم ستحدث أزمة دولية كبيرة سببها مجرد امرأة، وهو يعرف كيف سيستقبل السودانيون هذا بكل غضب.

لكنه عاد وراجع نفسه بشأن خطته فرأى في النهاية أنها مهما كانت مؤثرة ستُسبب له بنفس مقدار فاعليتها مشاكل لها لم يتمناها، صحيح أنها مُربية لكنها ليست خصمة يريد القضاء عليها هو فقط يرغب في إزاحتها عن خط سيرهم، ولو هددت قليلاً من فضول حواء لديها وتركتمهم يُنجزون عملهم لرمى الموضوع كله وراء ظهره ولم يفكر مطلقاً في تدبير أي فخ لها.

إذا وشى بها سيضرب ثلاثة عصافير وليس عصفوراً واحداً، سيتخلص منها، ستبقى مهمته في سرية تامة، سيُبقى طاقم الروس وعلى رأسهم جينادي المختل تحت سيطرته.

سأل كورت ضابطين من أمن المطار "أتحدثون الإنجليزية؟"
هزّ الإفريقي رأسه بالإيجاب، وكذلك فعل الرجل الذي بجانبه.
"ماذا عن الفرنسية؟"

هزّ رأسيهما مرة أخرى لكن بالنفي.

قال كورت بالإنجليزية "عظيم". ثم تحوّل على مضضٍ إلى اللغة العربية "السلام عليكم".
أجابه الرجلان بشكلٍ رسمي مُهدّب "وعليكم السلام".
واصل التحدّث بالعربية "في الحقيقة ينبغي أن أتحدّث لقائكم مباشرة!"
"أيمكننا أن نعرف ما المشكلة؟"

"لقد أتيتُ مع الطائرة الروسية التي هبطت منذ ساعة، لكن للأسف لدينا مشكلة أمنية صغيرة".
تحدّث أحد الضابطين على جهاز اللاسلكي، لم يستطع كورت فهم كل ما قاله حتى لو بالعربية بسبب النبرة السودانية الصعبة عليه، أعاد الحارس جهازه لجوابه وطلب منه الانتظار دقيقة.

وفعلاً في خلال أقل من دقيقة ظهر رجلان ضخمان كلٌّ منهما له لحيةٌ مُشدّبة يرتدي معطفاً أسود وربطة عنق. ربما لم يصل أحدهما إلى سنّ الثلاثين بعد، لكن الآخر كان أكبر منه بعقدٍ من الزمان أو نحو ذلك. كانت بدلتاهما موحّدة؛ ويتدلى من على خصر كل منهما مسدس، ولم يكن في حاجة لرؤية بطاقتي هويتهما ليتأكد من أنهما تابعان لجهاز الأمن الوطني السوداني.

وهنا ندم كورت على طلبه المساعدة، لم يكن هذا النوع من الرجال هو ما يبحث عنه لحلّ أزمته، لأن الأمن الوطني السوداني ببساطةٍ طُرّقه ستُسبب فوضى أكبر وضرراً أخطر للمرأة الكندية بشكلٍ لم يُحطّ له ولم يرغب فيه مطلقاً.

تحدّث رجلاً الأمن الوطني الإنجليزي، وأخذ كورت الضابط الكبير جانباً. كان قصير القامة ونحيفاً، ويرتدي نظاراتٍ سميقة ذات إطارات واسعة للغاية بالنسبة لوجهه البيضاوي. حملت فيهما كورت، لم يكن

مظهرهما يوحى بأي خطورة، لكنه من تحرياته وأبحاثه يعرف جيداً القوة والصلاحيات التي يتمتع بها ضباط الأمن الوطني بشكل يفوق أمن المطار وضباط الشارع وحتى الحكومة نفسها، الكل هنا يتجنب الوقوع في أي مشاكل معهم لأنك لن ترى النور بعدها.

قال كورت "أيمكنني أن أعرف من حضراتكم ودون أي تدخل في عملكم من تكون تلك المرأة البيضاء؟"

هزَّ الرجل كتفيه، ولوّح بيده في غير رضا قائلاً "إنها كندية، التعليمات التي لدينا ألا نتركها تُغادر المطار لكن في الوقت نفسه ألا نحتجزها بشكل رسمي، تحرياتنا تقول إنها تعمل لصالح مكتب الأمم المتحدة في دارفور وأوراقها شبه جاهزة لا ينقصها إلا ختم مُهم من دونه لا تستطيع دخول مُخيم زمزم للنازحين".

"حسناً، لكنني أظن أن وراءها سرّاً، سرّاً خطيراً يضرُّ بالأمن القومي للبلاد".

"لا نظن هذا، هي مجرد خواجية عالقة هنا، تنتظر العودة إلى الخرطوم".

"خواجية!"

"أقصد أجنبية".

"لكنها سألت كثيراً عن الطائرة وحمولتها؟"

أثار هذا انتباههم وفكروا في التداييع التي يمكن أن يتعرضوا لها إذا ثرثت هذه الأجنبية عن الرحلة السرية لنقل الأسلحة الروسية، على الجانب الآخر شعر كورت بالأسف كونه وضع الكندية في هذا المأزق مع جهاز الأمن الوطني السوداني، كل ما أراده أن يلفت انتباه أمن المطار ليس إلا، لكن كل هذا التفكير تضيع وقت، ما حدث حدث وهم الآن مُنخرطون في الموضوع، إذا استجابوا لوشايته سيعتقلونها لساعات، ومن يعلم ربما يُرحّلونها أساساً خارج البلاد إذا شكّوا أنها تحاول التجسس على طاقم الروس أو على عمليات أجهزة الأمن السودانية، ستلقى أقصى معاملة مُمكنة ولن يُعطوها حتى بطانية ولا زجاجة مياه أثناء اعتقالهم لها.

ثم ذكر نفسه أن عمليته لها الأولوية القصوى حتى لو ستم بعض التضحيات بأناسٍ لا يعرفهم يُقابلهم فجأة في طريقه ويُحاولون أن يفرضوا أنفسهم عليه وعلى واجباته، لم يكن في نيته استخدام هؤلاء الثيران في إزاحة حشرة عن وجهه لكنهم أتوا ولن يستطيع الرجوع في كلامه أو تحوير بلاغه لأنه إذا فعلها ستقلب الآية ويصير هو موضع الشبهات أمامهم.

حملق الضابطان من نوافذ المبنى القذرة المُغطاة بالتراب والسخام والوسخ يتأملان المدرج الذي خلا من الإليوشن إي إل 76 التي كانت على بُعد مئات الأمتار ثم قال أحدهما "تعليماتنا كانت أن نُخلي المدرج من أي طائرات تابعة لمنظمات غير حكومية طوال فترة وجود طائراتكم، لم يذكر أحد شيئاً عن الذين هم هنا بالفعل، لذا تركناها قبل شكوى حضرتك".

بدا الرجل خائفاً على سُمعته وصورة أجهزته الأمنية، وقرّر كورت أن ينتهز الفرصة ويستغلَّ هذا لصالحه.

"أعتقد أن أفضل حلّ هو إبقاؤها في مكتبكم حتى نُغادر، وبالتالي لن تعرف أي معلوماتٍ عنّا أو عن حمولتنا".

تعمّد إخفاء فقرة صعودها بالفعل للطائرة لأن هذا من شأنه أن يُضيف متاعب لم يرغب لها أن تواجهها، كما لم يتطرق جينادي الذي أخذ الأمور لمنحى آخر غير مناسبٍ لأجواء العملية بسبب أهوائه الدنيئة. وبدأ جنثري يشعر بالثقة في أنّ كل شيءٍ سينتهي على ما يُرام. أوّماً أحد الضابطَيْن برأسه بتقدير "نعم، حسناً، سنتكلّم معها لا تقلق".

بعد عشر دقائق كان ضابطا جهاز الأمن الوطني السوداني يحتجزان "إلين" داخل أحد مكاتب صالة المطار، بدت قلقةً للغاية ولكنها أطاعتها، تبعهما كورت الذي بالتأكيد أراد الإقلاع بالطائرة والتملص من كل هذا العبث، لكنه اضطر تحت رغبة جينادي أن يحضر معه استجواب الأمن الوطني للمرأة الكندية، الأمر الذي لم يكن أبداً ليركبه يفعله بمفرده خوفاً من أهوائه الهوجاء التي كادت بالفعل أن تؤثر على خط سير العملية برمتها. أما جينادي فرغبته في حضور التحقيق كان منبعها الأصلي تخيُّله أن إلين سيزداد ولعُها به وستنام معه أثناء رحلته القادمة للخرطوم بعدما يساعدها في الإفلات من استجوابٍ يُجريه لها وغدان قادمان من قاع العالم الثالث.

وبناءً على هذا ظن كورت أن ما سيستخلصه جينادي حول سلوك الأمريكي من حيث الإيقاع بالكندية تحت أيدي وسلطة الأمن الوطني السوداني ليس الحفاظ على سلامة العملية، بل كل ما سيرقى له خيال الروسي هو غيرة كورت منه ومن افتتاح الكندية به، وكلُّ يُغني على ليله.

كان يوماً عصيباً لكورت بالذات مع النظرات المشحونة المتبادلة بينه وبين جينادي، أي حالةٍ أسوأ من هذه يمكن أن يثول لها الوضع بالأخص بعد ظهور امرأةٍ بينهما سببت كل هذه العطلة والخراب!

أمضى أحد الضابطَيْن، الأكبر سنّاً والذي يرتدي نظارة غريبة، بعض الوقت يفتش مُتعلقات إلين، وشعر كورت أن كل هذه الإجراءات الأمنية العبثية مجرد مسرحية، حتى أتت لحظةٌ أخرج فيها من حقيبتها دفترها الأسود الذي رآها على المدرج وهي تدوّن فيه ملاحظاتها، بدأ يشعر بالقلق بصدقٍ عليها، وتمنّى ألا يحوي أي شيءٍ يجلب لها المزيد من المتاعب. راح الضابط السوداني يقلّب صفحات الدفتر حتى توقف عند رسميّة بخط اليد لشكل طائرة الإليوشن فرفع بصره لها مُتسائلاً "لماذا سألت كل هذه الأسئلة حول الطائرة وحمولتها؟ ما سرُّ اهتمامك بهذه الطائرة؟"

"أنا مولعة بالطائرات، أهذه جريمة في بلدكم؟"

حدّق الرجل فيها لفترةٍ طويلة. وفي بلدٍ بالكاد تخرج المرأة من بيتها، كانت مُجادلة الضابط لخواجية بيضاء تتطلّب مجهوداً وحكمة. وبدا من الواضح أنه غير مُتأكد من كيفية التعامل معها.

لم تُعدّ إلين خائفةً، كانت متأكدة الآن أكثر من أي لحظةٍ مضت منذ التقت بهم، أن هؤلاء الروس ينتهكون شيئاً وإلا لماذا اصطادوها حين وجدوها تحوم حولهم، ولماذا سلّطوا عليها جهاز الأمن الوطني السوداني ليصطادها من طريقهم.

الآن هي واثقة أكثر مما تفعله ومن وجود شُبهةٍ ما حول رحلتهم، وقد ساعدها تحفّيفها تحت هوية موظفة الأمم المتحدة في إقناع الطيّار الساذج باصطحابها لطائرته وكانت للأسف على بُعد خمسٍ وعشرين ياردة فقط من هدفها حين أتت سيارة جيب نزل منها الضباط السودانيون وطلبوها لمكتبهم، فهبّ جينادي بحمّةٍ غريبةٍ عارضاً خدماته عليها وهي تفهم أهدافه الوحيدة من كل هذه الشهامة الزائفة.

وحين عادت لصالة المطار وجدت ضابطي الأمن الوطني السوداني بانتظارها بصحبة ذلك الرجل ذي البشرة الداكنة الذي قدّم نفسه لها على أنه "فيكتور". كانت متأكدة من شيئين أنه هو من وشى بها وأنه وغد لعين، أما ما لم تفهمه ما يُخفيه بالضبط وراء رحلته مع أولئك الروس. لن يفلت من العقاب.

أقحم جينادي نفسه فجأة في الاستجواب محاولاً بكل ما يمكن من حيلٍ إنقاذها من أيديهم "انظر، الأمم المتحدة أيضاً يستخدمون نفس طراز طائرتنا الإليوشن إي إل 76 وبالتالي هذه المرأة حين كانت تدوّن ملاحظاتها كان بغرض استنتاج الفروقات واستخلاص معلومات حول حجمها من الداخل والمسافة التي تقطعها وحجم الشحنات التي يمكن أن تحملها، لا أرى من وجهة نظري أنها ارتكبت أي جُرمٍ حين طلبت مني أن أخذها في جولة بطائرتي". رفع الطيّار ورقة الملاحظات لأعلى ليبيّن وجهة نظره.

نظر إليه الضابط السوداني للحظة، ثم هزّ له رأسه بلامبالاة وهو يقول "نعم، فهمت وجهة نظرك وربما أنت مُحق فيما تقول". ثم التفت لإلين "الصالح من تَعمَلين في الخرطوم؟" تنهّدت ثم رمشت بعينيها وفركت ذراعها اليسرى بيدها اليمنى وأجابته "أخبرتكَ عشرات المرات أني أعمل لصالح مكتب الأمم المتحدة في دارفور قسم التنقّلات واللوجيستيات، يُمكنك أن تتواصل معهم إذا أردتَ التأكد من صدق كلامي، وقد أتيتُ أصلاً إلى هنا لأتكلّم مع الناس في المخيمات وأرى احتياجاتهم...".

سألها "ما هو اسم مُديرِكَ المباشر؟"

ابتسمت وهي تُجيبه "تشارلز ستيفنز.. إنه كندي".

حملق الضابط في ملفّ بيده أحضره معه منذ بداية التحقيق إذ راجع الأسماء الموجودة به ثم هزّ رأسه. وبينما يُمرّر جينادي عينيّه مرة أخرى على دفتر إلين لاحظ شيئاً غريباً، فحدّق فيها باهتمام، وقد بدت أمارات الارتباك جليّةً على وجهه الآن، وبالنسبة لكورت، لم يعن هذا سوى المتاعب.

سألها بهدوء "معذرة إلين، ولكن الطائرة المرسومة في أوراقك من طراز إم إف".

هزّت كتفَيها بسُرعةٍ كبيرةٍ وبلامبالاة، حتى بدا لكورت وكأنه ردُّ فعل مُصطنع "أهي كذلك؟"

"والمعروف أن الأمم المتحدة لا تستخدم طائراتٍ من هذا الطراز".
كانت عينا الروسي على إلين بينما قفزت بنظرها ترُقُب ضابطي الأمن الوطني السودانيين.
"لا يستخدمونها؟!"
"لا".

اللعنة، فكّر كورت في نفسه، جينادي صار يشتبه فيها الآن، وكورت أيضًا لم يفهم لماذا تملك امرأة تعمل في الأمم المتحدة رسماً توضيحياً لطائرة روسية، وتمنّى من أعماقه لو تستطيع الدفاع عن نفسها بأي منطقٍ إذ وصلوا كلهم لنقطة حيث لن ينفعها سوى نفسها.
"من تكونين؟ ومن الذين تعملين لحسابهم؟"
هذه المرة سألها جينادي بصوتٍ أعلى ونبرة حادة مُحَرِّكًا جسمها نحوه وقد زالت من جسمه كل نبضات رغبته فيها.

أدرکت إین آنها لن تستطيع لعب دور المغفلة مع جينادي مثلما فعلت مع ضابطي جهاز الأمن الوطني السوداني، فهو كطيارٍ روسي من المؤكد أنه يملك خبرةً ودراية حول الطائرات أفضل بكثيرٍ من ضابطي أمن سودانيين تتلخّص معرفتهما في المُسدسات والرشاشات.

دفعها الموقف لا تُحاذ أي ردّ فعل ليس دفاعياً بل هجومياً.

وتذكرت والدها حين كان يقول لها دومًا وهي طفلة "إما أن تفعليها في أحسن صورة أو تستسلمي يا إين!" فاعتادت من صغرها ألا تقبل بالبدائل أو أنصاف الحلول، والآن، صار تحت يدها دليلٌ دامغ أن هناك صفقات أسلحة سرّية غير شرعية بين روسيا والسودان، وهو بالضبط ما أرادت منعه، وما قرّرت الذهاب لأجله لهولندا للمثول أمام المحكمة الجنائية الدولية.

رفضت أن تلعب دور الضحية داخل غرفة التحقيق التي احتجزوها فيها مُحاولين التأثير على تماسك أعصابها كي تعترف بأي شيءٍ تعرفه لكنها قررت قلب الترابيزة عليهم، عليها أن تستخدم كل ما عرفته من خبايا وأسرار عسكرية ضدّهم خاصةً وأن وظيفتها والجهة التي تنتمي لها تسمحان بهذا بل وتشجّعانها على التنقيب وراء كل ما هو مخفيٌ بقصدٍ في علاقات الدول ببعضها. الرأي العام الدولي سيكون كارثًا صالحًا للخروج من هذا المأزق والعودة لمكتبها ومن ثم الكشف عن كل الأسرار التي وقعت بالصدفة في حجرها، لقد احتكّت في مواقف سابقة بقياداتٍ سودانية أعلى عشرات الرُتب من هذين الضابطين ولن تسمح لهما بتخوينها أو الضغط عليها، كذلك الطيار الروسي الذي رماها بكل شرٍّ لأفواه الأسود كي يتخلّص منها فلا تتركب طيارته، وبالتالي يتمكن من الإفلات منها وإتمام عملياته بسلامٍ بعيدًا عن نظرها هي أو أي جهة رقابية.

هل ستفعلين شيئًا كبيرًا أم ستعودين إلى الوطن؟

لم تكن لتعود إلى المنزل حتى تكشف هذا السرّ المريع، الذي اشتبه فيه الكثيرون، للعالم بأسره.

كانت على وشك أن تفعلها، وفي أحسن صورة.

قولي شيئًا أرجوك! ندم كورت أن الأمور آلت لهذا الوضع السخيف من الخطورة عليها، كل ما أرادته في البداية حين استغاث بحراس المطار هو أن يُبقي هذه الكندية في أي غرفة بعيدة عنهم حتى تنتهي إجراءاتهم، لا أن يحتجزها الأمن الوطني السوداني ويبدأ معها تحقيقًا بهذه الرذالة.

قولي شيئًا أرجوك، أي شيءٍ من فضلك!

لكنها حين نطقت ندم كورت مجددًا على تحقق أمنيته.

"حسنًا أيها الرجال المحترمون أتريدون الحقيقة؟ أتمنى أن تُعجبكم، أنا إلين والش، ولست موظفة في بعثة الأمم المتحدة أو الاتحاد الإفريقي في دارفور، بل أعمل مفتشة سرية لدى المحكمة الجنائية الدولية، وأنا هنا لتقصي الحقائق حول صفقات الأسلحة التي تصل السودان بشكل غير شرعي من الخارج".
أوه لقد قضيت على نفسك بنفسك يا غبية، فكر كورت، هذه الكندية حقًا غبية والآن رمت نفسها في جبّ الأسود.

حملق فيها ضابطا الأمن الوطني بأعينٍ متسعة كلها قلق وريبة، ورمق جينادي كورت بوجهٍ يكاد ينفجر من الغضب.

واصلت إلين تهديدها محافظة على نفس نبرتها الحادة "لقد علمنا بهذه الرحلة منذ فترة طويلة، وأتيتُ بنفسني لأتأكد وأراسلهم بالأخبار، ويُمكنني أن أؤكد لك أن وكالتي بأكملها، سواء في الخرطوم أو في هولندا، تُدرك جيدًا أنني هنا، وإن لم يُسمح لي على الفور بالتواصل مع موظفي، فسيكون هناك...".

صاح جينادي في وجهها "أنتِ تكذبين، لم تكن الفاشر وجهتنا من الأساس، لقد هبطنا هنا بشكلٍ اضطراري، لم تُرسلك أي منظمةٍ للتجسس علينا!"
وهنا أفاق الضابطان من حالة المفاجأة التي نزلت عليهما وانقضًا على إلين بعُنف وكتبلاها واضعين ذراعيها خلف ظهرها.

أما جينادي فاستدعى رجاله بزعيقٍ من صالة المطار، وحاول كورت السيطرة عليه لكنه فشل. حوَّط الضابطان المرأة بشكلٍ شلها عن أي حركة، وأداراها ووضعوا ذراعيها خلف ظهرها. لم يكن لدى هذين الرجلين سوى طريقتي عمل، إما الاستجواب أو الاعتقال، وها هما ينخرطان في الطريقة الثانية. كانت تعرف كم يبلغ قلقهما على مصيرهما المهني، بل وحياتهما الخاصة حتى، فقد سمحا لأجنبيّة بالتلصص على المطار أثناء تواجد شحنة أسلحة سرية من الخارج.

"أنتِ مجرد عاهرة كندية حاولتِ استغلالِي للصعود لمتن طائرتي".

صرخ فيها جينادي ثم صفعها بكل قوته.

فكر كورت أن يتحرك ويوقف هذه المهزلة الدائرة أمامه داخل غرفة التحقيق، لكنه عرف أنه بحركة واحدة منه طائشة سيضع نفسه على المحك وفي موضع شُبّهات، لا يمكنه المخاطرة بأي فعل يكشف هويته الحقيقية للسودانيين فيفهمون بدورهم وحسهم الأمني أنه ليس مجرد فردٍ ضمن طاقم طائرة تتلخص وظيفتها في شحن مُعدات، وفي الوقت نفسه لا يُمكنه أن يتصرف بشكلٍ يشدّ عن خطة الروس كعميل جلبوه لإتمام عملية من عملياتهم السرية الخطيرة.

لذا اكتفى بالوقوف في غرفة التحقيق كتمثالٍ لا يتحرك فيه سوى عينيّه، ظل جينادي يصرخ في إلين بالروسية بشكلٍ هستيري لم تتحمّله فما كان منها إلا أن ركلته وفي خلال لحظاتٍ اقتحم الغرفة عساكر سودانيون، وقد انتهبوا بلا شكٍّ إلى الصراخ والصراع في غرفة الاستجواب. خرجت مجموعة جنترى من الباب، ونظر إليها اثنان من الروس الآخرين بنظراتٍ مُتعبة من الانبهار، بل وحتى التسلية.

أمسكها أحد ضابطي الأمن الوطني من ذقنها، وأدار وجهها نحوه قائلاً "لا تقلقي هناك مكان مخصص لدينا للزوار غير المرغوب فيهم، أعدك أنه بمجرد إيداعك هناك ستندمين أشد الندم على محاولة وقوفك ضد السودان والتجسس عليه يا عميلة".

"تجسس، أنا أجنبية هنا ولديّ كامل الحق في مُعاملتي كموظفةٍ تنتمي لجهةٍ دولية...".
صرخ فيها كورت غير مُهتم بفضح لهجته الأمريكية "لا تنطقي بكلمةٍ أخرى من فضلك، فقط نفّذي ما يطلبونه منك. أنت لا تعرفين شيئاً. اخرجي من هنا وافعلي ما عليك فعله، لكن لا تُظهري أنك تعرفين أي شيء...".

"أنت تتحدث الإنجليزية!"

نظرت إلى جنترى وقد حلّ الارتباك محلّ غضبها. حوّل لسانه للفرنسية آملاً أن تفهمه طالما هي كندية كي لا يستوعب السودانيون ما سيقوله "اسمعيني جيداً أنت لست تابعة للمحكمة الجنائية الدولية، في كل مرة تدّعين هذا تُثيرين حنقهم أكثر، ألم تفهمي؟ سيقتلونك! أخبريهم أنك كنت تكذبين، وأنت مجرد موظفة في الأمم المتحدة ليس إلا".

حملق فيه أحد الضباط السودانيين مُتفاجئاً لكنه كان مشغولاً بتثبيتها على كرسيها.
بدأت في البكاء والصراخ في نفس الوقت "أنا لا أتحدّث الفرنسية يا أحمق، تكلم بالإنجليزية وأنقذني أرجوك".

بعدما رُبطت على كرسيها، ويدها الصغيرتان لا تزالان مُقيّدتين خلف ظهرها، انسحب أحد الضابطين السودانيين ليجري مكالمة وخرج بقية الروس للردهة إذ أدركوا أن العرض المثير انتهى.
أما كورت فبقي معها، قرفص على كعبيه حتى صار في مستوى رأسها وهي مكبلّة، وحينئذٍ رأى شفتها تنزف من إثر لطمة جينادي، ولاحظ أن بلوزتها مُرّقت عند كتفها بسبب تعنيف رجال الأمن لها.

تحدّث إليها بصوتٍ خافت ونبرة سريعة حتى لا يلتقط الضباط كل شيء يُبلغها به "اسمعيني جيداً، إياك أن تتشاحني معهم مجدداً، طالبي بحقك في التحدّث لشخص ما من مكتب الأمم المتحدة في دارفور، فقط هذا ليس إلا، أنت لست في المحكمة الجنائية الدولية، أنت لم تري أي شيء ولا تعرفين أي شيء". أطرق ثم قال "ستكونين بخير لا تقلقي".

تركها وتحرك نحو الباب.

نادته "من أنت؟"

تباطأ، لكنه لم يتوقّف، ولم ينظر إليها، بل قال "أنا لا أحد، لا تشغلي بالك بي".

سار كورت برفقة بقية طاقم الطيارين الروس على المدرج الذي لفّه ظلام الليل في طريقهم نحو طائرتهم.

شعر بالتوتر والقلق على المرأة الكندية وعلى مصيرها المحتوم بين أيدي الأمن الوطني السوداني، عاتب نفسه للحظة على ما سببه لها ثم تراجع ورأى أنها هي من وضعت نفسها في ذلك الموقف من البداية وليس هو، بسبب غبائها وإجابتها التي أطلقتها دون ذرة تفكير لثانية.

لقد أخبرها أنها ستكون بخير، لكنه كذب عليها، من موضعه هنا ومن خبراته في التعامل مع أجهزة الأمن في الدول العربية كان بمقدوره تخمين الجحيم الذي ستمرُّ به إين على أيدي هؤلاء الضباط طوال الليالي القادمة حتى يظهر لها صاحب من جهة دولية سيادية هامة من تلك الجهات التي تعمل لها الدول العربية ألف حساب.

في قول آخر: الأنسة إين والش ميّنة، ليس هناك سيناريو آخر يُمكن ترجيحه، إلا إذا كانت محظوظة. كانت غلطتك أنت من البداية يا كورت. كلّم نفسه موبخاً إيّاها على المدرج بصوت لا يسمعه من حوله.

لحظ الطائرة واقفة على بُعد مائتي ياردة، تباطأ قليلاً، ثم نظر للأعلى ورأى الآخرين يسبقونه بعدة أمتار، تباطأ أكثر، ثم هز كتفيه واستجمع صوته ونادى بأعلى صوت "جينادي، لا تتركني!"
استدار الطيار مُستمرّاً في السير "أتركك! أين؟"
"فقط انتظرنى، عليّ أن...".

"ماذا! علينا أن نذهب الآن، نحتاج لخمس عشرة دقيقة للاستعداد للطيران بعدها سنكون في الجو، لم أفهم ما تتحدّث عنه ولن أنتظرك، أسرع!"
وقف كورت ثابتاً في الظلام؛ غرّدت وطنت وزقزقت الحشرات في الشجيرات المحيطة به. نظر خلفه نحو المحطة المظلمة حيث توقفت سيارة سيدان سوداء بأربعة أبواب عند باب دخول الموظفين.

صاح في عتمة الليل "اللعنة!"
صرخ فيه جينادي بغضب "هيا بنا! ماذا تنتظر!"
أعاد كورت نظره للطائرة التي كانت لا تزال على بُعد مائتي ياردة أمامه، فكّر في معداته التي تزن خمسين رطلاً وتمنّى لو معه بعضها الآن.

سأله جينادي "ما الذي يشلُّك هكذا يا رجل، أنت مريض أم ماذا؟"
رفع كورت إصبعه في وجه جينادي بطريقة تحذيرية "إياك أن تُقلع وتركني، سأعود لك مجدداً! لا تقلع حتى أعود!"

كان متأكداً أنه لو رمى بكارث رئيسه "سيدورينكو" سيستجيب الطيار الروسي الأحمق دون أي جدالٍ عقيم كعادته معه، لكنه لم يشأ رفع النقاش لهذا المستوى الحساس واكتفى بنبرة فيها شيء من الرجاء، لم ينتظر الإجابة إذ استدار الرجل الرمادي على عقبيه وعاد لصالة المطار ليُصلح ما أفسده.
"اللعنة!"

وسط الظلام قطع الرجل الرمادي المدرج جرياً مخترقاً الهواء الساخن لمسافة مائة ياردة، لم تكن لديه خطة محددة في دماغه، لكنه قرّر شيئاً واحداً ألا وهو إنقاذ تلك المرأة الكندية التي وضعها بنفسه بين محالبهم. وبالطبع لم يكن الشجار في مطارٍ مكتظٍّ برجال الأمن فكرة ذكية لكنه عوّل على قدراته الاستراتيجية والحوارية في الإقناع، والتي اكتسبها على مدار حياته من عملياته السابقة في بقاع مختلفة من العالم ومع شتى أجناس الأرض. عند باب صالة المطار لحظ نفس ضابطي الأمن الوطني السوداني يسيران ببطءٍ يتبعهما جنديان مسلحان يحوّطان إلين ويصطحبانها لسيارة "سيدان".

ركب الضابطان في المقعدَيْن الأماميَيْن ووضع الجنديان إلين في الخلف وركبا بجانبها. تحرّكت السيارة التابعة للأمن في الاتجاه المضاد لكورت، علم أنهم مُتجهون إلى مخرج المطار، ومعهم المرأة. عرف إلى أين يتجهون، للمعتقل التابع لجهاز الأمن القومي في الفاشر. بيت الأشباح. حاول الصراخ ليجذب انتباههم لكن السيارة كانت قد مضت، وحتى أفراد الأمن داخل المطار حين لاحظوه لم يُعطوه أي اهتمام.

نظر جنترى حوله باحثاً عن مركبة، لكنه لم يجد شيئاً. وبدلاً من ذلك، استدار وبدأ يسير عائداً نحو الطائرة. وبمجرد مغادرته الأضواء الخافتة المنبعثة من المحطة، والاختفاء عن أنظار الحُرّاس، بدأ يركض مرّة أخرى. جرى بإزاء المباني ثم مرق بين حاويات تُستخدم كمكاتب مُتنقلة تابعة للمنظمات غير الحكومية التي يبدو أنها قد انسحبت منذ فترة طويلة. وبعد تجاوزه لها غادرت قدماه المدرج الدافئ، وغاصت في رمال مُغطاة بالقش والتراب الصلب. ارتفع تل صغير باتجاه نهاية المطار، على بُعد خمسين ياردة أخرى ركض حتى وصل لسياج حدودي يحدّ أطراف المطار مع الصحراء حيث لا تُوجد أي إنارة. الآن لم يرَ أي مصابيح أماميه، لكنه أيضاً لم يرَ أي حُرّاس هنا في قلب العتمة الموحشة. ركض بجوار حطام طائرة ضخمة عالية الجناحين وذات مروحتين محطمتين، يبدو أنها تدمرت ثم سُحبت إلى هنا في انتظار الدفن النهائي في الرمال، والذي سيحدث على مدى سنواتٍ من الرياح العاتية.

توقف كورت عند قاعدة السياج، الذي بلغ ارتفاعه عشرة أقدام، وعلّته لفائف سميكة من الأسلاك الشائكة. فكّ الرجل الرمادي حذاءه، لكنه تركه في قدميه، تسلّق السياج بسرعة وبراعة. وعند القمة أمسك بإحدى يديه أسفل السلك الشائك، ثم خلع حذاءه تباعاً. كافح ليلبسهما في يديه، واحداً تلو الآخر، احترق الجلد بين أصابع يديه من فرط الضغط عليهم، حاول بقدر الإمكان ألا يرمي بثقله كله على الأسلاك الشائكة للسياج كي لا تشويهه. ضغط بيديه المُغطاتين بحذائه لتغطية أكبر مساحةٍ مُمكنة. ثم، ومع إبقاء الحذاء ثابتاً، واصل السير بقدميه إلى أعلى السياج حتى وصل إلى أعلى السور، مُقترباً من القمة، قبل أن يميل بجسده مثل سباحٍ ينتظر إشارة البداية. ومن هنا، حوّل كل ثقل جسمه إلى ذراعيه، وركل بساقيه للأعلى

حتى أصبح في وضع الوقوف على يديه على قمة السياج، تاركًا ساقيه تستمران إلى الأمام. أكمل شقلبته مُنطلقًا في الهواء، وتطاير حذاؤه من يديه وهو يهرب من الأسلاك الشائكة، ويهبط على كومة ترابٍ على أرض المطار الخارجية.

لم يُصَب بأي أذى، لكنه بعدما سقط على الأرض وجد كدمةً أو اثنتين على ذراعه وظهره، بحث عن حذائه فوجد أن هناك فردة منها عالقة على السور، صعد مرة أخرى وجلبها، قضى ثلاثين ثانيةً أخرى لإعادة ربطهما ثم مضى لأسفل التل الصغير نحو الطريق.

لم يكن قد اطلع من قبل على أي خريطةٍ للفاشر ولم يسمع عن هذه المنطقة قبل ظهر اليوم، لكنه أثناء رحلة القدوم كان في قمرة القيادة وقد رصد بعينه التضاريس والطرق المجاورة، حسب تخمينه ستوجه السيارة السيدان التابعة للأمن السوداني التي احتجزوا فيها إلين نحو الشمال لمسافة ميل أو نحو ذلك، قبل أن تلتقي بالطريق السريع الذي يمتد شرقًا وغربًا. وعند هذا التقاطع، سينعطفون يمينًا، وسيستغرق الأمر عدة دقائق أخرى للوصول إلى الفاشر. ليس أمامه ليلحق بها سوى أن يجد أي مركبة مارة على الطريق تُمكنه من بلوغ السودانيين ومنعهم من اعتقال إلين في مكانٍ سري من معتقلاتهم التي يموت فيها الناس والأجانب. وفجأة داهمه من الظلام نور متوهج، ولأنه مصباح واحد فهم أنه صادر من موتوسيكل فانتظره حتى يصل. كان هذا مثاليًا. لن يُفضّل كورت ركوب شيء أكثر من دراجة نارية. يُمكنه الالتفاف عبر حركة المرور بسرّعه الخاصّة، والعثور على إلين والش وخاطفيها.

تراجع إلى الظلام مُنتظرًا وصولهم.

لم يكن يعرف على وجه التحديد أين يوجد ذلك المعتقل الشهير الذي يصطحبون له الأجانب والذي قرأ عن قسوته وسادية سجانيه كثيرًا، لكن في دولة مثل السودان من المؤكد أن كل أفراد الشعب يعرفون أين يوجد هذا السجن المخيف، وبيعض الجنيهاات كرشوة لأي مواطن يُقابله سيتمكن من الحصول على أي معلوماتٍ من بطون هذا الشعب الكادح الجوعان.

أسرع إلى جانب الطريق الآن. كانت خطّته وحشية إلى حدّ ما، وقاسية بكل تأكيد، لكنّه لم يشك لحظة في فاعليتها. سيُنظر سائق الدراجة النارية حتى يقترب منه بضعة أمتار، ثم يخطو إلى الطريق ويضرب الرجل ودراجته. لقد أعدّ نفسه لهذا، لكن الموتوسيكل كان أبطأ من اللازم، ثم افترض أنها مجرد دراجة بخارية، والتي ستظل مركبة فعالة لشقّ طريقه عبر الشوارع الضيقة وحركة المرور الكثيفة في العالم الثالث، حتى لو لم تُكن تتحرّك بسرّعة كبيرة.

حين وصل أخيرًا، وبعد مرور وقتٍ طويل، ظهر "توكتوك" متهاك خلف مصباحه الأمامي الوحيد، فصرخ جنّري بصوتٍ عال. كان توكتوك صغيرًا مزودًا بمُحرّك، أو أقرب إلى دراجة بخارية صغيرة ذات مقعد مُغطّى، وثلاثة مقاعد خلف السائق، ومُحرّك ضعيف، ومُحور خلفي عريض بعجلات ثلاثية.

استشاط جنّري غضبًا، فقد كانت هذه على الأرجح أبطأ عربة في التاريخ باستثناء عربة الكارو. ومع ذلك، فقد أدرك أنها أفضل بكثيرٍ من الركض، لذا خطا في الطريق المُظلم. ولم يُحاول الإطاحة بالعربة الصغيرة؛ فبدلاً من ذلك، أوقفها.

توقفت العربة، جلس رجل أسود يرتدي عمامة خلف المقود. سأله "تاكسي"؟ دون أن يُبدي أي صدمة أو دهشة من رؤية رجل أبيض مُلتح يرتدي بدلة عسكرية. كأنه معتاد على مقابلة أجانب تائهين بغباءٍ بين الأحرار في الظلام، ركب كورت متعجلاً، ودهس السائق دواًسة الوقود إلى الأمام. تحرك التوكتوك فعلاً صوت موتوره كأنه أنين.

طلب كورت من السائق إيصاله لسوق الفاشر، خمن بالبديهة دون حاجة لأي بحث على الإنترنت أن كل مدينةٍ بطبيعة الحال لها سوق خاص بها، ويبدو أن ترجيحه في محله طالما لم يُجادله السائق العجوز. بل على العكس، عندما انطلق رجل قبيلة دارفور الأربعيني إلى المدينة، التفت له وعرض عليه مياهاً من "مبرد" صغير احتفظ به على الكنبه الخلفية. فحص كورت المكان، ورأى ست زجاجات من الماء الفاتر، لكن أختام أمانها كانت مكسورة. ورغم أنه عطشان إلا أنه أبى شرب مياه مملوءة من صنابير السودان المحلية. خفض بصره فلاحظ على أرضية التوكتوك بضع مُعدّات ميكانيكية في كيس من الخيش. لم يهّمه وسطها سوى مفكّ صديّ وشعلة حمراء من ذلك النوع الذي يستخدمونه في الظلام للتنبيه أو الاستغاثة.

بشكل لإرادي وجد كورت نفسه يضع الشعلة وبقية المُعدّات في جيوبه؛ إذ كانت هناك فكرة جهنمية تختمر في رأسه سيتمكن بواسطتها من فكّ أسر إين وتخليصها من أيدي الأمن الوطني السوداني. اتجهوا بالتوكتوك شرقاً وبعد أكثر من ثلاث دقائق وصلوا للزحام حيث تتكثف ضوضاء المدينة وأضواؤها، أخرج رأسه فوجد أن وسيلة النقل الأساسية هنا في القرية هي عربة "الكارو" مع وجود بعض السيارات التابعة لهيئات دولية غير حكومية مثل "الأمم المتحدة" و"اليونيسف" و"كير" و"الصليب الأحمر" بالإضافة إلى مركبات عسكرية تابعة لمنظمة الأمم المتحدة في دارفور ومُسلحين تابعين للجيش السوداني يتجولون على موتوسيكلات. ربما 10٪ فقط من وسائل المواصلات كانت تعود لأهل البلد، بدوا أنهم الأقلية في شوارعهم وأحيائهم.

توسّل كورت لسائق التوكتوك أكثر من مرة كي يُسرّع، لكن مع أقصى سرعة يمكن أن تبلغها الخردة التي يقودها كان متأكدًا أن سباقه مع السيارة السيدان التابعة للأمن خاسر في كل الأحوال، لا ينقُصه إلا زحام مروري آخر ويكون قد أضاع هدفه تمامًا.

فرمّل السائق وأخبره أنها وصلوا السوق طالباً أجرته 20 جنيهاً.

قال كورت "أريدك أن تأخذني إلى بيت الأشباح" ولم يندهش عندما أدار له السائق رأسه لينظر إليه. لم يكن هناك أي مواطن في هذا البلد يرغب في زيارة هذا المكان، لكن الخوافة أخرج من محفظته ما زغلل عيني الرجل.

فهم كورت أن قيمة رشوته ليست كافية حين نطق السائق "لا أعرف ما تتحدث عنه، هنا السوق، أتريد شرب شيء؟ ستجد أكشاكاً لبيع الصودا والشاي".

"لا أريد الصودا اللعينة. خُذني لمقرّ الأمن الوطني السوداني، أو قرّبي منه فحسب، وأرني أين هو، وسأواصل الطريق مشياً".

أخرج كورت حزمة نقود أخرى مدّ يده بها للسائق، حملق فيها بعينين مُتسعَتين على ضوء واجهة متجر يعمل بمولّد غاز هادر ومُدخن، ثم نقل بصره لوجه الأمريكي المجنون.
"حسنًا سأخذك إلى ملعب كرة قدم يقع على بُعد بنائيتين من مقرهم".
"ملعب كرة قدم على بُعد بنائيتين من بيت الأشباح؟"
"نعم".

من هزة كتفّيه وحركاته العصبية أدرك كورت أن السائق لم يُقل إلا الحقيقة.
"سأعطيك مالا أكثر إذا أسرع".

استدار السوداني لمواجهة الطريق أمامه، وضع العجوز يده على المقود وانطلق بأسرع ما عنده. وهنا، سمع كورت ضجيج محرك قادمًا من أعلى، رفع بصره فوجد الطائرة الإليوشن تشقّ طريقها نحو السماء المرصعة بالنجوم.

تمتم "روس ملاعين" لكنه في النهاية لا يستطيع لوّمهم.

شعر بوحدةٍ خانقة كأجنبي على هذه الأرض في مهمةٍ مبعثرة، لكنه انتشل نفسه من الانزلاق في فورة مشاعره وركّز في إيجاد خطة ينقذ بها ضحية ذكائه إلين.

وفي غضون ثوانٍ، علقوا في حركة المرور المسائية مرّة أخرى، زحام.. سيمفونية من أبواق السيارات.. عربات الكارو التي تجرّها الحمير. لمح كورت الممشى غير المرصوف الذي يمتد على طول الطريق. وهناك، تحت ضوء مصباح عارٍ يتدلّى من نافذةٍ من الطابق الثاني، يجلس رجل على دلو معدني مقلوب في الشارع. بجانبه وعاء بحجم برميل البيرة، يُخرّج خرطوم مطاطي من أعلاه ويتدلّى على جانبه، وقد وضع لافتة كتب عليها بالعربية والإنجليزية نفس الشيء "جاز للبيع". وجد كورت خطته، سحب فجأة مفتاح التوكتوك من الكونتاك، وترجّل دون أي تفسير، كل ما قاله للسائق "سأعود حالًا". صرخ السائق في وجهه، ونزل وراءه ليفهم ماذا حدث لكنه وجد الزبون الخواجة يقطع طريقه وسط الزحام نحو بائع الجاز.

أخرج كورت نقودًا لبائع الجاز أخذها بشكل تلقائي ولما أدرك قيمتها المبالغ فيها نظر للخواجة بفضول. لكن كورت لم يحصل على شيء، فأشار للجراكن الموضوعه وأخبره أنه يريد شراء بعض ما يملكه، بينما أبواق السيارات تتعالى خلفها بعدما عطّلا حركة المرور. صرخ فيه كورت "جاز.. جاز". ثم تدارك سبب وقوف البائع بلا استجابة؛ إذ فيم سيضع الخواجة جازه بعدما يشتريه؟ لم يكن معه أي جركن، ولا يملك سيارة. نظر الرجل الرمادي لجردلٍ موضوع بجانبه يستخدمه في عمله وطلب منه شراءه، كان يتّسع لجالونين أو نحو ذلك. حملق فيه الرجل وكأنه مجنون، لكنه التقطه وملاه بحوالي جالونين مُستخدمًا خرطوم الملء والقمع المعدني.

استغرق كورت دقيقةً ونصفًا تقريبًا لسحب الوقود وإتمام المعاملة، وبحلول الوقت الذي عاد فيه كورت للتوكتوك، شاعرًا أنه رجل الساعة المكروه الآن من كل أهل الفاشر نظرًا لما سببه لهم من فوضى وعطلة. انطلقت أبواق السيارات من خلفه في جوقة. أعاد المفاتيح إلى السائق، الذي استمرّ في توبيخه وهو يُعيد

تشغيل مُحرك التوكتوك الصغير. جلس كورت على كنبته، ووضع الجردل الممتلئ بالجاز على الأرضية بين قدميه، وقبل أن يُوجّه له السواق المزيد من السباب أو الشتيمة بالعربية كان قد أغلق فمه بنفحة إكرامية جديدة، وربّت على كتفه كأنه يُخبره "قريباً يا عزيزي ستتخلّص مِنِّي نهائياً".

انطلق السائق في طريقه، وبينما يفعل ذلك، وعلى ضوء المصابيح والبنائيات الخفيف، فتح كورت مبرّد زجاجات المياه المُعبّأة بجانبه على المقعد وتمكّن من رؤية رواسب سوداء في قيعان زجاجات المياه، وكان من المحتمل أن يؤدي شُرْبها إلى إصابته بالدوستاريا، لكنه لم ينوِ شُرْبها على أي حال. وبدلاً من ذلك، فتحها زجاجة تلو الأخرى، ودلقهم كلهم على جسمه ووجهه وشعره.

استدار العجوز السوداني ليفهم بالضبط ما يقوم به ذلك الخواجة الأحق، لكن كورت نهره وأمره أن يواصل قيادته دون تركيز معه أو حتى التفاتٍ للخلف.

فتح كورت زجاجة ثالثة ثم رابعة، وسكب الماء على ملابسه وشعره ووجهه. سرعان ما توقّف السائق عند ملعب كرة قدم عملاق لكنه مُتْهالك، وأشار لتقاطع الطريق المُزدحم التالي موضعاً أن المبنى المقصود هناك. ثم استدار في مقعده ومدّ يده مُطالباً بالحصول على نقوده، أخرج كورت مالا من محفظته ورغم عدم ثقافته الواسعة لكن من في العالم الثالث لا يعرف شكل ورقة اليورو الحمراء! أربعائة يورو كافية للسوداني الذي بلغ ريقه بصعوبة، في بلده، ليشترى سيارة جديدة بدلاً من هذه الخردة التي بالكاد تسير.

استغرق الأمر بضع ثوانٍ أخرى ليُدرك السائق ذو العمامة أن هذا بالضبط ما كان الخواجة يطلب منه فعله. بعد أن أخذ السائق المال، خرج الرجل الأبيض المنقوع في الماء وهو يحمل دلو البنزين من الخلف، ثم خلع ملابسه وسرواله القصير وقميصه المبلل بالماء، وسلّمهم إلى السائق. وبعد لحظاتٍ من الإشارات فهم الرجل أن الخواجة يطلب منه، لا بل يُجبره، أن يخلع ملابسه ويبدّلها معه، ونظير ما قبضه منه استجاب على مضض، وبسرعة خلع ملابسه هناك على جانب الشارع. توقف المارّة مُحَدِّقٍ فيه، خلع الخواجة سُترته الطويلة وسرواله البني وارتدى الجاكت الطويل، دسّ المفك والشعلة الضوئية في جيبه، مدّ يده ونزع العمامة عن رأس الدارفوري ولفّها بها وجهه ورأسه بما يُشبه القناع الأبيض. ودون كلمةٍ أو إيحاءة أزال الرجل الأبيض غطاء خزان الدراجة البخارية المُغطّاة وألقى به في عرض الطريق. صعد بسرعة خلف المقود ووضع الدلو بإحكام بين رُكبتيه. فتح زجاجة ماء أخرى وغمر ملابسه الجديدة بها قبل أن يضغط على دواسة الوقود منطلقاً إلى الأمام، فففز التوكتوك الأحمر الصديء لينقله إلى قلب حركة المرور.

وقف السائق السوداني على التراب تحت مصباح الشارع المُجاور للملعب كرة القدم، عاري الصدر، يحكُّ رأسه بينما تجمّع الحشد من حوله بفضولٍ جامح.

دعا كورت من أعماق قلبه ألا تكون إلين والش قد دخلت المعتقل، لأنه في هذه الحالة لن يتمكن من فعل أي شيء لها، أي مساعدة يمكن تقديمها ينبغي أن تتمّ قبل عبور السيارة السيدان بوابة مقرّ مبنى الأمن الوطني السوداني، بعدها لن تكون له أي قوة في مساعدتها.

في الأمام رأى حشدًا آخر من السيَّارات المتهالكة، وحيوانات تجرُّ عرباتٍ خشبية وأخرى صدئة، وتخطف الأعين عن كل هذه الخردة سيارات المنظَّات غير الحكومية بطُرزها الحديثة. رفع مقود التوكتوك إلى اليسار واصطدم بالرصيف الصغير، قاد السيارة مباشرةً بين رجالٍ عائدِين من العمل، أو خارجِين لتناول العشاء، أو التنزُّه مساءً. قفز الرجال بعماماتهم البيضاء جانبًا كما لو أنهم ينجون بحياتهم، رغم أن التوكتوك لم يكن كبيرًا أو قويًّا للتسبب بما هو أكثر من مُجرَّد كدمات أو بعض العظام المكسورة لأحد المارَّة.

حاول تخيُّل المشهد أمامه، لأنه لم يكن لديه فكرة حقيقية عمَّا سيجده هناك عند الزاوية. لكنَّه رأى نصيبه، بل وأكثر من نصيبه، من مقرَّات الشُّرطة السريَّة في البؤر الاستعمارية السابقة في العالم الثالث. قد يكون هناك مبنى عريض مع سورٍ مُحصَّن حوله، وبوابة أمامية مع كوخ حراسة، وحاجز مُتحرِّك من نوع ما. وغالبًا ما يكون هناك متاريس وشوالات رملٍ موضوعة عليها المدافع الرشاشة وتؤمِّن أبوابه عددٌ من المدرعات والكلاب البوليسية.

فكَّر في نفسه أنه من الأفضل أن تُقدَّر هذه الكندية اللعينة ما يفعله لأجلها، قبل أن يتذكَّر أنه لولاه ولولا حيلته الماكرة واستغاثته برجال المطار لما واجهت إلين هذا الموقف المُربع مع الأمن الوطني السوداني، فكَّر في أنه وحده المسئول عن كل هذه الفوضى.

كان عند المنعطف الأيسر الآن، تاركًا خلفه المزيد من الصراخ والصياح وأصوات أبواق السيَّارات. سحبها بقوة عند المنعطف، واهتزَّت الماكينة الصغيرة غالبًا، وارتفعت عجلتها يُسرَى عن الأرض لبضع ثوانٍ قبل أن ترتطم بالرصيف المُغرَّب مما تسبَّب في سقوط بدنها أرضًا بصوتٍ خدشٍ عال. اندلق الجاز على ساق بنطاله، لكنه تمكَّن من إنقاذ أغلب محتوياته برفع رُكبته المُقابلة لتعويض الميل في مقعده.

ثمَّ وجده هناك، أمامه وعلى اليمين. كان الجدار أقلَّ ارتفاعًا وأكثر زخرفة مما تصوَّر. هناك بوابة دخول مع حراسة مشددة ومخبأً صفيحي من نوع ما على الجانب البعيد.

ظهرت السيارة السيدان التابعة لجهاز الأمن الوطني ورآها وهي تنعطف يمينًا عند التقاطع في طريقها لبوابات المبنى.

"اللعنة" إذا دخلت سيفقد تحكُّمه بالكامل في الموقف.

لكنَّه أوقف التوكتوك الصغير وانحنى إلى الأمام، على أمل أن يُبطئ من تقدُّم السيارة السيدان عند المدخل.

ظهرت عربة كارو يجرُّها حمائرٌ تحمل جراكن عطَّلت بالصدفة السيدان، كانت بوابة دخول المعتقل على بُعد 25 ياردة منه، أدرك كورت أنها فرصته الأخيرة لاعتراض سيارة الأمن الوطني قبل ضياع إلين لأجل غير معروف في عالمهم المُظلم. ورغم أن احتمالات نجاحه في أي جُزءٍ من خطته بعد ذلك كانت لا تزال ضعيفة جدًّا، أمسك المقود بيدٍ وجركن الجاز بالأخرى وقاد التوكتوك نحو هدفه، لكن العربة الكارو ابتعدت عن الطريق، وبدأت السيارة الانطلاق بسرعة فضغط دواسة البنزين على آخرها، قبل أن يترك المقود ويقفز من التوكتوك. ورغم تعرُّه إلى الأمام واندلاق حوالي 25٪ مما يحمله، إلا أنه ظلَّ واقفًا على قدميه وسط حركة المرور المكتظة.

اصطدم التوكتوك بالبواب الأمامي من جانب الراكب بسرعة عشرين ميلاً في الساعة، معرقلاً السيدان عن مواصلة طريقها داخل المبنى.

أحاطت بكورت رنات أبواق السيارات من كل جهة، عند وقوع الحادث، في انزعاج من التأخير الذي سيسببه بكل تأكيد، متناغمة مع نهيق حمير عربات الكارو، الكل في الشارع منزعج من الحادثة المريعة التي سببها الرجل الرمادي بقيادته الهوجاء الانتحارية للتوكتوك.

توقفت السيارة السيدان التابعة لجهاز الأمن القومي في مُنتصف التقاطع، وتهشمت مصابيحها الأمامية المضاءة التي عكست الدخان المنطلق من شكمانها، ثم ارتدت وانقلبت على جانبيها، وتدقق البنزين من تانكها.

هرع كورت إلى الباب الجانبي للراكب، في نفس الوقت الذي ركله قائد جهاز الأمن الوطني فاتحاً إيّاه وهو في حالة ذهول. أمسك جنترى بالرجل الصغير ذو النظارة، وبكل قوة سحبه من الحطام وساعده أن يقف على قدميه، ثم سكب على رأسه دلو الجاز.

خرج الجنديان من مؤخرة السيارة، بينما خرج سائقها من الجانب ببطء، سحب كورت شعلة التنبيه الحمراء من جيب بنطاله وقربها من رأسه. وبانفجار من النار والشرر أمسك الشعلة بعيداً عن جسده يسراه، أما يميناه فأمسك بقائد جهاز الأمن القومي من ياقته، وشده إليه بقوة.

صوب الجنود الذين خرجوا من مؤخرة السيارة أسلحتهم إليه، وصرخوا في وجهه. في لحظات كان بقية ضباط وحراسات المبنى العسكري قد سحبوا أجسامهم من السيارة ومن أكشاك الأمن المطوّقة للمربع الأمني وأشهبوا أسلحتهم في وجه الخواجة يصرخون فيه آمين إيّاه بالاستسلام. وقف كورت في تقاطع الطريق بشكل مُحاصر، قابضاً بيده على عنق قائدهم، وبالإنجليزية تحدّث بهدوء في أذنه قائلاً "حاول أن تمدّ يدك لمسدسك وسأحرقك في الحال".

لم يُجبه الرجل، لكنّه رفع يديه مُستسلماً بعيداً عن مسدسه الموجود تحت معطفه. قرب كورت الشعلة المتوهجة من جسمه المُبتلّ بالجاز، ثم لوّح بها في الهواء ناحيتهم صارخاً "إذا فكّر أحدكم في الاقتراب مني سأغرّزها فيك، وإذا فعلت ستموت، هل تفهمني؟"

استجاب الضابط الرهينة بشكل أقوى، إذ رفع يديه في أوجههم وبدأ يصرخ طالباً منهم الابتعاد، فهمم كورت لُغته العربية المُطعمّة بلهجته السودانية "اخفضوا أسلحتكم.. اخفضوها، ولا تطلقوا النار، هذا أمر نفّذوه فوراً".

لم يخفّض أحدٌ سلاحه، لكنهم لم يُطلقوا النار أيضاً. وخوفاً من أن يكون هناك قنّاص أعلى أي مبنى محاط للميدان راح كورت يدور يميناً ويساراً قابضاً على أسيره، وبالتالي سيفكّر أي قنّاص 100 مرة قبل أن يُنهي الموقف المتأزم بطلقة واحدة مثلما تنتهي عادة مواقف احتجاز الرهائن. وفي دورانه الهستيرى هذا حافظ

كورت على إبقاء الشعلة على مسافة مُعينة من الرهينة بحيث تستمر حالة الذعر دون تحوّل المشهد لنار جهنم بحقّ. أرسل بصره للسيدان ليطمئن على هدفه الحقيقي؛ فوجد إلين لا تتحرك، وعلى ضوء مصابيح السيارة لمحَ عينَيها مفتوحَتين مُحدّقان فيه.

سألها: "أأنتِ بخير؟" انتقل بسرّعة إلى الجانب الآخر من السيّارة، وهو لا يزال يتحرّك محاولاً منع أيّ قنّاصٍ من استهدافه، كرّر سؤاله "أأنتِ بخير؟"

هزّت رأسها بشكلٍ لم يفهمه، وشعر بالقلق من أنها ربّما تمرّ بحالة صدمة، فصرخ فيها "انتبهي! انتقلي بسرعة لمقعد القيادة أسرع، وتمالكي نفسك!"

تحرّك إلى الأمام وإلى الوراء بضعة أقدام، وانحنى إلى الأسفل، كاد أن يسحب الضابط إلى الرصيف. استمرّت هتافات ضباط الأمن وأبواق السيارات وثغاء الحيوانات ونهيق الأحصنة والحمير دون توقّف. انتبه كورت أنه في خلال دقيقة واحدة ستنتطفئ الشعلة لذا يتوجّب عليه أخذ قراره الآن بمغادرة المكان أو إشعال النيران في المكان.

رأى أن الخيار الأول هو الأكثر معقولة.

حرّكت إلين نفسها من الكنب الخلفية للمقعد الأمامي في السيارة السيدان بصعوبة وبدت مستغرّبة أكثر من كونها مذعورة، صرخ فيها بنبرة فظة، بخطبةٍ مليئة بالألفاظ النابية، مُصمّمة خصيصاً لإعادتها إلى تركيزها في الوقت الراهن، موضّحاً لها أن مفتاح النجاة من هذا الموقف مُتعلق بسلوكها وتحكّمها في أعصابها.

ولمّا وجدها بدأت تستجيب لإرشاداته، وجلست خلف عجلة القيادة، خفّف من تعنيفه لها وشجّعها على مواصلة اتباعها لتعليماته قائلاً "أنتِ تُبلين حسناً، انظري ما إن كانت السيارة لا تزال تعمل".

لاحظ أن أحد الضباط من قوة المطار يقترّب منه جهة اليسار، ويبدو من تهوّره عدم اكتراثه إطلاقاً بما يمكن أن يسببه غباؤه إذ سيرى قائده تلتهمه النار أمام عينيه، وكان التخمين المنطقي الوحيد لهذا الهراء أنه الشخص التالي في الترقية وبموت رئيسه يكون قد اغتنم فرصته الذهبية.

وراءه ظهر فجأة اثنا عشر فرداً من قوات حفظ السلام التابعة للاتحاد الإفريقي، ترجّلوا من مدرعاتهم، وحاولوا المكان، رافعين أسلحتهم غير متأكّدين مما يحدث بالضبط، لكنهم من حركاتهم العصبية يبدو واضحاً أنهم على أتم استعدادٍ لنسف أي شخص يعترضهم أو يعارض أوامرهم بوابل من الرصاص.

عظيم، الآن هناك حوالي خمس وعشرين بندقية مصوّبة تجاه الرجل الرمادي، والذي لم يكن لديه شك في أن غالبيتهم لا يهتمّون إذا احترقت معه رهينته حيّة.

حسناً، حان وقت الذهاب.

وضعت إلين المفتاح في السيارة وأدارت الكونتاك، سحب كورت عربة كارو مُحاصرة في الجزء الشمالي من التقاطع بضعة أقدام، وطلب من إلين قيادة السيارة بجانبه، فأرجعت السيارة السيدان إلى الخلف بعيداً عن الكارو، ودفع المصد الخلفي العربة المحطّمة بضعة أقدام قبل أن تضعها في وضع القيادة. أفلت كورت

رهينته، لكنه استمرَّ في التلويح بالشعلة المتوهجة فوقه، وهو يلفه ويسحب منه مُسدسه. ثبت المُسدس بيدٍ واحدة، عبر تثبيت منظاره الخلفي على حزامه، وتحريك المُسدس للأسفل وللأمام، ثم صوّبه نحو الضابط الآخر، الذي بدا أنه فكّر بشكل أفضل في خطته لإطلاق النار. تخيل جنترى أن هذا التقاطع الجنوني الذي يعج بالأسلحة لن يحتاج سوى إلى طلقة واحدة ليأتيه الرد عليها زخات من الرصاص. رُبما اعتقد رجل الأمن القومي الآخر أن قوّات حفظ السلام التي تقف خلفه ستقضى على كل من يتنفس أمامها إذا أطلق رصاصةً من مُسدسه على الرجل الأبيض. وبينما تقدّمت إلين إلى الأمام، أمرها بالمتابعة ببطء، وسار إلى الورا، نحو الباب الخلفي الأيسر المفتوح، ثم أفلت رهينته بين عربات الكارو والعربات الأخرى العالقة في حركة المرور خلف الحطام الذي يسد ثلاث جهات. ثم سرعان ما رمى الشعلة المُوشكة على الانطفاء بالقرب من وقود التوكتوك المتسرب من التانك، رفع مُسدسه وأطلق طلقتين على كل من ضابطي الأمن الوطني السودانيين، وفي غمضة عينٍ كان قد قفز في الكنبة الخلفية للسيدان صارخًا في إلين أمرًا إيّاها بسرعة التحرك فورًا، وبأقصى سرعة.

كان صوت اشتعال النيران في التوكتوك قد بدأ يتناهى إليهما وهما يدوران بالسيارة، وحين ابتعدا بضعة أمتار سمعا دوي انفجار وكُتلة نار تتصاعد نحو السماء ففهمتا أنها من انفجار التوكتوك الذي تركاه في حالة تأهب لانفجار كبير أحدثته الشعلة اللعينة.

"إلى أين نحن مُتجهان؟"

سألت إلين الرجل الغريب من طاقم الطائرة الروسي، الذي لم يبدُ روسيًا نهائيًا، وبينما قطعت إلين بالسيارة السيدان الطرق الضيقة الملتوية المزدحمة، وجدا نفسيهما محاصرين بين مساكن الصفيح الرمادية المُتهالكة والبيوت الطينية المكوّنة من دور واحد، التي امتدّت على كلا الجانبين لأميالٍ طويلة. ومع كل تقاطعٍ توجّب عليها أن تبطئ من سرعتها لتتفادى قطعان الماشية والأغنام السارحة في كل مكان، سواء بصحبة راعٍ يرعاها أو من دونه.

صرخت هذه المرّة "إلى أين تريدني أن أذهب؟" لأنه لم يبدُ مُتنبهاً.

انتظر الرجل الرمادي ثم خرج صوته بشكلٍ واهن "فقط واصلي في طريقك كما أنتِ، تُبلين بلاءً حسنًا". نعم، سمحت لنفسها أن تُدرك ذلك. أنا أبلئ بلاءً حسنًا. اندهشت إلين من هدوء أعصابها واحتفاظها بعقلها حتى هذه اللحظة وسط هذا الجنون.

سألته إلين بصوتٍ مُرتعدٍ مليءٍ بالارتباك، وهي تبذل قصارى جُهدا للسيطرة على مشاعرها "أنت لم تقتل أحدًا هناك، أليس كذلك؟ أقصد من ضباط الأمن الوطني السوداني".

"بالطبع لا، مجرد طلقات تعجيزية لتعطيلهم عن ملاحظتنا حتى نتمكن من الابتعاد".

صدّقت، ربما لأنه لم يبدُ إنسانًا يمكن أن يقتل ويبقى بعدها بهذا التماسك والهدوء، أو هذا ما تعرفه نظريًا عن البشر.

"إلى أين نحن ذاهبان؟"

"ليس لمكانٍ على وجه التحديد، واصلِي في طريقك كما أنتِ وستعرفين لاحقاً".

"من أنت؟"

لم يُقل سوى "سأخبرك، لكن ليس الآن".

نظرت إليه في المرأة الخلفية قبل أن تقول "أنت لست روسياً، أليس كذلك؟"

أجابها مُتهكِّماً بغموضٍ "سأترك اكتشاف ذلك لمهاراتك أيتها المحققة البارعة"، لم تفهم إين إن كان يُبازحها أم يحاول مُضايقتها.

قالت "أمريكي؟" كانت قد عرفت هذا من لكتته.

"قلت لك ليس الآن!"

واصلت والش قيادتها شمالاً لمدة نصف ساعة، لم يتبادلا فيها أطراف الحديث إلا قليلاً. تتمت الأمريكي بشيء ما عن ضرورة البحث عن وسيلة مواصلات أخرى غير هذه السيارة السيدان التي صارت مُشْتَبَهاً فيها، لكنه بدا في الوقت ذاته غير مُلمٍّ بإحداثيات المدينة وطُرق التنقل فيها. بقي في مقعده الخلفي دون حراكٍ بشكل ينم عن حالةٍ من الاسترخاء والكسل، تأملت إين وجهه وملامحه في انعكاسها على المرأة فوجدتها غارقةً في الظلام، في البداية ظنَّته يُراقب المارة ويتأكد من عدم ملاحقة أي جهةٍ لهما، لكن من عينيه فهمت الآن أنه تائه لا يعرف إلى أين عليهما التوجُّه. لقد بدا الرجل الأمريكي لها قوياً وحازماً في تعامله مع الموقف منذ دقائق بخصوص رهينته، والقوات المُحاصرة لهم، وتوقيت استخدامه للشعلة والمسدس، لكن يبدو أن كل هذا أنهكه ومن ثم عليها الآن تولي الدفة واتخاذ القرارات المناسبة لحالتهم كي يُفلتا من هذا الجحيم.

قالت "نحتاج لموبايل، اتصل بأيّ من معارفك إذا كان يمكنهم المساعدة".

أجابها بشكلٍ قاطعٍ "لا، ليست فكرة سديدة واصلِي القيادة" كان صوته قوياً بشكلٍ غير متوقَّع الآن.

"أوشكنا على بلوغ الصحراء".

"ليست صحراء، إنه الساحل".

نظرت في المرأة الخلفية بدهشةٍ "ماذا؟"

"نحن وسط بيئةٍ من الشجيرات ذات المناخ الحار تقع بين السافانا جنوباً والصحراء شمالاً، حارة كالصحراء، لكنّها لا تُشبهها. الصحراء الحقيقية ستبدأ بعد مائة ميل باتجاه الشمال من هنا".

"أياً كان الوصف الجغرافي، أنظن أننا في حاجةٍ للذهاب هناك؟"

"بالتأكيد".

"لكن لن تكون هناك شبكة ولا مكالمات، أفكرت في هذا؟"

أجابها بالموافقة "أعرف، نحتاج الآن أن نبتعد بقدر الإمكان عن الجزء الحي من المدينة، سنجد طريق العودة إلى مكان آمن لاحقاً. جهاز الأمن الوطني السوداني سيكثف كل جهوده طوال الساعات المقبلة للعثور علينا، سيتنصتون على المكالمات، ويطلقون مروحياتهم في السماء، سيمثلون الشوارع والحارات والمحلات والفنادق في الفاشر بمخبريهم. نحتاج أن نخفي عن الأعين طوال الليلة حتى يمين الوقت ونلجأ لأي مُعسكر نازحين تابع للأمم المتحدة في الصباح".

اعتزّت قائلة "ليس لديّ ترخيص لدخول أيّ من معسكراتهم".

"أكان معك رخصة لمحاولة السيطرة على طاقم من مُهربي الأسلحة الروسية؟ لم يردعك هذا بالمناسبة!"

هزّت رأسها "نعم لديك حق، بَمَ كنتُ أفكر وقتها!"

قال الرجل "ليس لديّ أي فكرة يا سيدتي، لكن لا بُد لي من السؤال، أكان لديك خطة أفضل من

تهديدهم بمنصبك الدولي؟ ثم طلب استخدام الهاتف لتجدي من يُنقذك؟"

أجابته وهي تهز رأسها بخجل من أفعالها "لا، كانت هذه هي الخطة. لكنني لم أكذب بشكل كُلي، لقد تمرّنت لفترة محدودة على مهنة المُحامة، وقضيتُ مع المحكمة الجنائية الدولية بضعة أشهر، زوّرتُ وثائق الأمم المتحدة بنفسني لآتي وأرى ما يحدث في دارفور بنفسني؛ لست غشاشة لكنني ببساطة سئمتُ الجلوس في مكنتي بلا عملٍ جادٍ يشغل حياتي، لا أحد في مكنتي يعرف أين أنا أو ماذا أفعل، أتصدّق هذا!"

"حسناً، أنت شجاعة بما يكفي لتقومي بكل هذا، أعتزّ لكِ بذلك".

تبخّرت كلماته وسط الصحراء، وصمتَ بعدها بشكل ظنّته سيدوم للأبد طوال مدة بقاءه معها التي لا يعلمها إلا الله، وفهمتُ أنه لم يعد يريد التحدّث بعد الآن.

اتجهت إلين بالسيارة في ظلام الصحراء حسب تعليماته الواضحة شمالاً لمدة عشر دقائق، أي محاولات من والش لإشراكه في أي حوارٍ تجنّبها الرجل الرمادي أو تجاهلها، بمعنى أدقّ، بصنعة لطافة. وعلى الطريق المفتوح، خارج المدينة، ازدادت سرعتها. طلب منها أن تخرج عن الطريق المُهدّ إلى طريقٍ آخر وسط الصحراء، سألته عن إمكانية الاصطدام بأي حيوان من الحيوانات البرية التي تجري هنا وهناك دون حذر، فاعترف بأنه ليس لديه أي فكرة، لكنّه وعدّها أنها ستكون بأمان. لم يكن الأمر يتعلّق بثقتها به، لأنها لا تعرفه بقدرٍ كافٍ يسمح لها بأن تتكل عليه في اتّخاذ قراراتٍ مصيرية في ليلة كهذه، لكنها باختصار لم يكن أمامها أي خياراتٍ آمنة بعد ما عانتها من دون وجوده، لذا ستفعل ما يقوله.

وصلوا لأخدودٍ منحدر وهائل في انخفاضه بشكل يوحي بأنه مع سقوط الأمطار سيتحول لبحر عميق، كانت الانهيارات التي تشق الأحراش في كل مكانٍ سُرّسِل فيضاً من الجريان السطحي إلى هنا بعد دقائق فقط من هطول الأمطار الغزيرة. أما الآن، فيبدو المكان آمناً بما فيه الكفاية. ارتفعت الأشجار المكسوة بالقش عدّة أقدام على جانبي الأخدود الترابي، وتشابكت قممها مع بعضها البعض، مما خلق مظلةً ضيقة في الأعلى. كان ارتفاعها ستة أقدام فقط أو نحو ذلك، لكن كورت طلب منها أن توقّف المحرك فوراً، وحين فعلت طقطقت وصدّرت منه زججرة.

قال "تفحّصي كبوت السيّارة، هل يوجد ماء في صندوقه؟" لكنّها حين فتحتّه لم تجد شيئاً هناك.

قال "سنكون بخير الليلة، سنحصّل على بعض الماء في الصباح".

سألته "ماذا سنفعل الآن؟" نظرت إليه لكنّه توارى في العتمة، وسمّعتّه يُعيد تموضعه ويمدّ ساقيه ليريحها على المقعد الخلفي الصغير.

"لن نفعل شيئاً الآن، حاولي أن تنامي قليلاً".

"حسنًا، لكنني على الأقل أحتاج لمعرفة اسمك، بَم أناديك إذا احتجتُ التحدّث معك".

"ليس هناك سوانا هنا، إذا تحدّثت؛ سأفهم تلقائياً أنك تكلميني".

"هذا صحيح" قالتها باستسلام رغم أنها لم تكن تكره أكثر من المتحدلقين، حرّكت نفسها وبصعوبة استطاعت أن تستقر في وضعيةٍ تسمّح لها بالنوم مرتاحة، كان باب السائق قد تحطّم من الخارج لكن الإطار الداخلي بقي بحالةٍ متماسكة. أسندت ظهرها إلى باب الراكب، وفعلت ذلك لتُحاول النظر في وجه الرجل الذي انبطح في الخلف وظهره إلى جانب السائق.

"اسمي إلين إذا كنت قد نسيت".

"نعم، أعرف".

سادت لحظة طويلة من الصمت، ثم سألته "ألن تتحدّث معي؟"
"يحتاج كلانا للراحة، لا تتخيّل أننا سنخرج من هنا بسهولةٍ أو بهذه السيارة المدمرة، سيتوجّب علينا أن نمشي في الصحراء حتى نصل للطريق ومن هناك نعثر على أي مركبةٍ عابرة نتسوّل من صاحبها اصطحابنا لأي وجهةٍ قريبة من هنا".

"وما الذي سيضمن لنا موافقة أي شخصٍ مارّاً على أخذنا معه وهو لا يعرفنا؟"
هزّ كتفيه بقوةٍ قبل أن يقول "لا أعرف في الحقيقة" ومرّةٍ أخرى، فهمتُ من تلقاء نفسها أنه يقطع أي نقاشٍ بينهما.

"أعمل لصالح شركة تصدير الأسلحة الروسية تلك؟"

لم يردّ عليها.

"أأنت مجرد مُرتزق؟"

لم يردّ.

"جاسوس؟"

"نامي يا إيلين!"

تنهّدت بإحباطٍ قبل أن تقول "ليس قبل أن تُعطيني اسمًا لك يُمكنني مُناداتك به حتى لو لم يكن حقيقيًا".
"ناديني برقم 6".

أجابته "يا إلهي، أعني هذا أن هناك خمسة آخرين مثلك!"

قال مرّةٍ أخرى "نامي يا إيلين!"

هذه المرّة حاولت تركّه وشأنه.

بعد دقيقةٍ من محاولات الاستغراق في النوم غلبها الأرق، من يُمكنه أن يغفل بعد كل ما مرّ به من أحداث عنيفة وموتّرة على مدار النصف الثاني من اليوم؟ بالإضافة إلى أنها شعرت بالبؤس في السيارة ذات الرائحة الكريهة.

"أيمكن أن نفتح إحدى النوافذ يا رقم 6؟"

"مرفوض".

"مرفوض؟ يمكنك أن تقول لا بالمناسبة".

"لا".

نهضت من رقدتها، وحملت فيه وسط الظلام "لا، لا يمكننا فتح أي نافذة؟"

"لا، لا يُمكننا فتح أي نافذة".

"لمَ لا، الجوهنا حار وخانق، لا يُمكنني النوم؛ أشعر باختناق".

أجابها العميل 6 بحزم "حسنًا، إذا كنتِ تُريدين فتح النوافذ افعلها، لكن أنتِ على استعداد لترك نفسك للعقارب والعناكب والشعابين التي تعجُّ بها الصحراء من حولنا"؟
"حسنًا، حسنًا سنُبقِيها مُغلقة".

لم يُقل شيئًا.
لكنها تابعت حديثها قائلة "لديّ سؤال أخير لك، لماذا عدتِ لي رغم أنك كنتِ ضديّ في غرفة التحقيق أمام ضباط الأمن الوطني السوداني"؟
"لا أعرف".

أجابته "بالطبع تعرف، أرجوكِ تحدّثِ إليّ مثلما أكلّمك، ما زلتُ خائفة، وقلبي يدقُّ في رعدة، ولا يُمكنني النوم هكذا. ليس عليك أن تُفشي أسرارًا خطيرة لصالح الجهة التي ترعاك وتمولك، كل ما أطلبه منك أن تتكلّم معي لخمس دقائق حتى أهدأ".
ظل الرجل صامتًا، لم تلمح أي حركة من خياله في الظلام، ولم ترَ أي إغماضة لعينه.
كانت مُتأكدة من أنه قد تحوّل إلى تمثال، حتى إنها ذهلت عندما استجاب أخيرًا قائلاً "عدتُ لأجلك، لأنني أنا من وضعتك في هذا الموقف، هذه هي الحقيقة حسب اعتقادي".
"لماذا وكيف؟!"

"أُتيتُ في الأساس لأداء مهمة خطيرة، لكنها خيرة، في الواقع، إنها خيرة حتى إنك ستوافقين عليها".
لم ينطق بكلمةٍ أخرى، وبدا أنه انتقى تلك الكلمات القليلة التي قالها بعناية فائقة، وأنه يُجهد نفسه في كل عبارة، قرّرت أن تُشجّعه "ثم"؟
"ثم ظهرت أنت لتعطلي كل شيءٍ خططنا له، حاولتِ إزاحتكِ بأسهل طريقةٍ ممكنة لكنها أخفقت في النهاية".

"أو أنها نجحت بشكل جيد للغاية".
"أجل، أعتقد ذلك. لم أكن أعرف أنكِ تعملين لصالح المحكمة الجنائية الدولية، ظننتكِ مجرد شخصٍ متطفل يحاول أن يجمع بعض المعلومات".

لم يُزعجها أي شيءٍ يقوله، كانت مسرورةً لمجرد أنها أخيرًا حرّكت لسان ذلك الأمريكي الغامض.
قالت "في الواقع، يروني هذا الوصف لوظيفتي في المحكمة الجنائية الدولية".
في وسط الظلام، رأت إلين تغييرًا في شكله، وحركةً في شعيرات لحيته، وتخيّلته يضحك، وإن بدا هذا غير منطقي بالنسبة لشخصيته الجافة وفضاعة الموقف برمته.

"على أي حال أردتُ إبعادكِ ليس إلا، حتى تدخل رجال الأمن الوطني السوداني وساء الموقف، أعتقد أنهم لو تمكّنوا منك لقتلوكِ".
"أعتقد هذا فعلاً؟"

"بكل تأكيد".

"من أين لك هذا اليقين؟"

"أعرف كيف يفكر رجال الأمن بشكل عام، لا تُقلقهم إلا سُمعتهم في المجال، إذا شعروا أن هناك شيئاً خرج من أيديهم وسيقلل من صورتهم أمام رؤسائهم لا يتبقى أمامهم سوى حلٍّ واحدٍ يُجيدونه أكثر من أي حلولٍ أخرى".

فجأة عاد شريط كل أحداث الساعات الماضية أمام عيني إلين واجتاحت جسدها موجةٌ من الإرهاق البدني والنفسي، دفنت رأسها بين يديها وشعرت بأصابعها ترتعد وترتجف. استرخى جسدها بأكمله وشعرت بالألم والإرهاق. حملت في الأمريكي وسط الظلام.

قالت "أنا.. أنا فقط...".

شعرت بغثيان، ثم ترددت للحظة، مدّت يدها وفتحت باب السيدان المُحطّم مُخرجةً رأسها للهواء الطلق، تقيأت بتشنج. بعد عدّة ثوان، انحسرت موجة الغثيان، فسعلت وبصقت بين النباتات. هاجمتها موجةٌ ثانية من الغثيان، فاستسلمت لها وللتقيؤ مرةً أخرى، تشنّجت محاولةً تنفّس أكبر كميةً من الهواء تحصل عليها، انتظرت حتى أفرغت كل قيئها ثم نظّفت فمّها وعندئذ انفجرت في البكاء بشكلٍ هستيري.

أما الأمريكي فلم يصدر منه أي ردّ فعلٍ تجاه انهيارها.

"أنا.. آسفة جداً".

لم تستطع قول شيءٍ آخر، فقد جعلها إحراجها تشعر بالحماقة.

قال بصوتٍ خافتٍ بشكلٍ مُفاجيءٍ من خلفها "لا بأس".

مسحت فمّها من بواقي قيئها بكُمّ بلوزتها.

قال العميل 6 "هذا يحدث لي أيضاً طوال الوقت".

استجمعت إلين نفسها وأغلقت باب السيارة عائدةً لوضعيتها الأولى، بعد أن بدأت دموعها وتشنّجها في التراجع، حاولت أن تستخلص في الظلام أي إيحاءاتٍ أو إشاراتٍ من وجه الأمريكي لكن بلا أي طائل.

أخيراً، عندما تعافت تماماً باستثناء بعض الشهيق سألته "أتظن أننا حقاً سنستطيع الخروج من هذا المأزق؟"

"نعم، أعدك أنك غداً في نفس التوقيت ستكونين بخيرٍ وآمنة".

بدا متأكدًا من ذلك، وساعدها ذلك كثيراً، لكنّها سألته "ماذا عنك؟"

هزّ كتفيه قائلاً "أنا؟ هذا هو روتيني اليومي وقد اعتدت عليه".

لم تفهم مقصده لكنها مرّرت قوله الغامض حتى لا تضغط عليه.

سألته وهي تمسح عينيها "أأنت متزوج؟"

"نعم".

أنزلت ذراعها ببطءٍ عن وجهها، ونظرت نحو عتمة المقعد الخلفي "لا، أنت تكذب".
"لماذا تقولين هذا؟"

"لا أعرف، لكنك لست متزوجًا".

رأته بوضوح وهو يوميء برأسه قبل أن يقول "عندك حق، هذا مثير للإعجاب".
استقامت في جلستها وانحنت أقرب قليلاً. لمعت عيناها كأنها طفلةٌ مُستمتعة بلعبة تلعبها.
"أيّ أطفال؟"
"لا تعليق".

لقد استرخى قليلاً وبدأ يستخدم الفكاهة، لكنه كان لا يزال حذرًا للغاية.
"لا يمكنني الجزم، لكنني لا أعتقد ذلك".
لم يجارها.

"أهلك؟ أبوك.. أمك؟"

أجاب بسرعة شككتها في إجابته "نعم، لديّ أب".
"من أين أنت؟"

"ميتشجان، ديترويت".

"حقًا؟ أنا أيضًا.. أقصد أصول عائلتي قبل أن يهاجروا لكندا، إلى أي مدرسة كنت تذهب؟"

صمت كورت قليلاً قبل أن يجيبها "حسنًا، لقد كذبتُ عليك، أنا لستُ من ميتشجان".

ضحكتُ إلين وفاجأت نفسها بالضوضاء العالية التي ملأت السيارة الضيقة وهي تقول "يا لك من مُغفل! ولا أنا".

لمحت طيفه في الظلام يبتسم ثم قال "أنت جيدة جدًا".

ابتسمت ابتسامةً عريضةً وهي تقول "ليس لديك أي فكرة من أكون!"

بدا الصباح في منطقة الساحل حارًا جدًا تزداد سخونته ولهيبه مع كل ساعة، مع زقزقة الطيور، وطين الحشرات التي تنتشر في موسم الجفاف. في كتمة السيارة السيدان التي حُبس بداخلها، تحت أشجار الأخدود الكثيفة ذات اللونين البني والأخضر، نفص جنترى قُرادًا من طرف أنفه، وحاول أن يغفوَ مرّة أخرى لكنّه لم يستطع.

فتح نافذته ليتمكن من التنفّس، وعلى الفور دخل الهواء النقي. فتح عينيه وفركهما من العرق المتجمّع في جفنيه، كان قد نام بضع ساعاتٍ ليس بشكلٍ مُتتالٍ لكن بمقدارٍ كافٍ لنظامه الروتيني الذي كيف جسمه عليه منذ سنواتٍ بسبب طبيعة عملياته.

حاول في ضوء الصباح الخافت، وتحت مظلة الأغصان التي تلفُ السيارة أن يضع خطة زمنية ليومه لكن لم يعرف من أين يبدأ، أولاً وقبل أي شيء عليه الاتصال بقائده "زاك" ليُخبره بما حدث والتغيير المفاجئ الذي حلَّ بخطتهم، لكن هاتفه المتصل بالأقمار الصناعية لم يكن معه، ولم يكن يتطلّع إلى تلك المكالمات على أي حال. الهبوط في دارفور لخبطة لم تكن في الحقيقة خطأ أحد، ومن الممكن تجاوزها بسهولة نسبية. لكن كل ما حدث منذ ذلك الحين؟ كل الأخطار التي حاقت بالعملية منذ هبوطهم في الفاشر؟ عَرَف كورت أنه سيتحمّل وحده مسؤوليتها، فلا شك أن بعض الأخطاء من جانبه قد أدّت لانتهاة عملية وكالة المخبرات المركزية لهذه النهاية المؤسفة التي ستعطلهم عن بلوغ هدفهم لأجل غير مُسمّى.

ماذا الآن يا جنترى؟ نظر للمرأة النائمة، مرّت مدة طويلة على آخر مرةٍ يحتكّ فيها عن قُرب مع صنف النساء، كان ذلك مع بعض المرضيات اللواتي اعتنّين به في فرنسا.

لكن هذا كان مُختلفًا. حملق في إين ومن خبرته المحدودة بالجنس الناعم تخنّ أنها تحظى بنوم هادئ الآن مع الملائكة. لقد استيقظت عدة مرات خلال الليل تصرّخ، ولم يعرف كيف عليه مساعدتها لتعود لسباتها في كل مرةٍ بشكلٍ مُنتظم وهادئ.

لم يكن لديه أي فكرة عمّا يجب فعله، حيث أنه لم يحظ بأي تدريبٍ على توفير الراحة. تأمّلها سارحًا في شعرها البني المحمر المنثور على وجهها الملائكي، بدت في عمره تقريبًا وخنّ هذا من تقاطيع وجهها، قدّر فيها جرأتها وشجاعته اللتين بسببهما أقدمت على هذه المغامرة المميّنة، في منطقة حرب، رغم عدم احترامه للمُحامين والهيئات الدولية. بدت المحكمة الدولية على وجه التحديد، بالنسبة لرجل مثل كورت، مُجرّد قاعة مآدبة مليئة بالعاهرات والمتدّمّرين الذين لا يملكون ذراعًا تنفيذية حقيقية أو تفويضًا للقيام بما وعدوا به. فبالنسبة لرجل مثله، يلعب دور القاضي وهيئة المُحلّفين والجلّاد، بدت المحكمة الجنائية الدولية غير ذات صلة على الإطلاق هنا بالعالم الحقيقي. لكنّه وجد نفسه مُرعًا على احترامها بسبب قوة قلبها ورباطة جأشها، هذا هو نوعه المُفضل في النساء، صحيح أنها كانت غيبّة حين رمت كارت المحكمة

الجنايئة الدولية في غرفة التحقيق أمام ضباط الأمن الوطني السوداني، لكنها قوية، حتى لو لم تتمتع بالحس الكافي لكبح جماح نفسها من التحدُّث كثيرًا.

لقد كذب عليها بشأن مسألة عدم قتله للضابطين، لكنه فعل ذلك لمصلحتها. فقد عرف أنه لو أخبرها الحقيقة سيُشتت هذا انتباهها وأعصابها ولن تتمكن من القيادة بها حتى يصلها هنا. في الوقت نفسه لم يبق أمامه بديل عن قتلها، فقد انكشف وجهه أمامها في المطار، وحتى مع تليفعة رأسه ولبسه السوداني كان بإمكانها التعرف عليه من لهجة لسانه، ولأنه الخواجة الذي تحدث الإنجليزية والفرنسية مع الأجنبية البيضاء وكان ضمن الطاقم الروسي للطائرة الإليوشن، وبالتالي في غضون دقائق سيكون بمقدور أجهزة الأمن السودانية التعرف على هويته مما سيُعطل عملياته برمتها، لذا كان أفضل شيء فعله هو القضاء عليها ومن ثم إخفاء حقيقة قتلها عنها.

تحركت إلين مثل طفلة رضية في مقعدها الأمامي، وتثاءبت وبدأت تفرك أنفها وتلعق شفيتها، باغته رغبة في لمسها وإبعاد شعرها عن وجهها. كان شعورًا قويًا، لكنه منع نفسه، لم يعصف به هذا التوهج منذ كان في "نيس" وسط الممرضات اللواتي كن يعتنين به طوال الليل والنهار. عرف أنه لا ينبغي عليه مدُّ يده عليها، ولكنه ملعون إن لم يرغب في ذلك.

وعلى عكس تلك الأيام في نيس، وبعض الأيام التي تليها. لم يتهدأ مع إلين والش. فقط الآن أدرك أنه ثرثر كثيرًا ليلة أمس أمامها، وأفشى أمورًا لم يكن ينبغي أن يفصح عنها لامرأة يُقابلها لأول مرة، وأغضبه ذلك. لقد استمرت المحادثة لمدة ساعة كاملة. وعرفت عنه في وقتٍ قليل أشياء لم يُخبر بها أناسًا يعرفونه منذ سنوات، صحيح أن تسعين بالمائة من المحادثة كانت عنها، وعن عائلتها، وظروف عملها، ودوافعها للقدوم إلى هنا. لكن حتى هذه العشرة بالمائة، أو لنقل الخمسة بالمائة التي تحدت فيها عن حياته الشخصية، كانت كارثة، لقد اعترف لها أن والدیه انفصلا وهو صغير، وأن أخاه تُوفي شابًا قبل بضع سنوات، ولم يكن لديه أي فكرة عن سبب إخباره لها بذلك. هي ذكية، ولديها أساليبها في استخلاص الحقيقة بحيث تُوحي له أنه مجرد نقاشٍ عفويٍ حميمي بين شخصين يكونان صداقةً لكنه في حقيقته كان استجوابًا متخفيًا سقط فيه بكل حماقةٍ أمام جماها.

بكل خفة ومهارة اطلعت إلين على شياطينه الخفية التي واراها حتى عن نفسه. لم يستطع مداراة إعجابه ببراعتها في سبر أغواره كأنها عميلة سرية مُحضمة، كيف لتلك المرأة النائمة على بُعد ثلاث أقدام منه في السيارة الساخنة أن تحتلس النظر إلى أعماقه بطريقتها.

كان شعورًا مُقززًا بالانكشاف والضعف. ومع ذلك وفي الوقت نفسه، منحه هذا الشعور انجذابًا نحو هذه المرأة، وجعله يشعر بأنه قريب منها بطريقةٍ ما، ومنحه إحساسًا لم يكن مُعتادًا عليه تمامًا. نظر إليها لفترةٍ طويلة، مُراقبًا صدرها وهو يعلو ويهبط مع تنفسها. ثم أشاح بوجهه بعيدًا فجأة، واستقام في جلسته في المقعد الخلفي.

عَنف نفسه، أصلح غلظتك يا كورت، لا تنزلق معها! أنت تفقد كل شيء في معقل الأعداء! ركز في مهمته وكره تلك المرأة من فوره لأنها تُشكّل تهديدًا له، نقطة ضعف يُمكنها أن تقتله.

كان بإمكانه التلاعب في مشاعره بهذه السهولة. وكان ذلك يُبقيه وحيداً، بلا شك، لكنه ما يُبقيه حيّاً أيضاً.

أخرج نفسه من السيارة في حركاتٍ عنيفة غير مكترث إن أيقظ بضوضائه إلين، فاستراحتها الجميلة ليست مشكلته اللعينة. زحف خارجاً من بين الأحراش التي تحتضن السيارة السيدان، مزّق عنه ثياب سواق التوكتوك، فتبقت عليه ملابسه الداخلية البنية.

في ضوء الصباح تأمل كورت المسدس الذي استلبه من الضابط ليلة أمس، فوجده من طراز "بول شيروكي"، وكان شيئاً ساخرًا أن يحمل رجل أمنٍ عربي سلاحًا إسرائيليًا، بل والأكثر سُخريةً أن يُقتل بواسطة، لم يكن من أسلحة الرجل الرمادي المُفضلة في الحقيقة لكنه أدى وظيفته على أكمل وجهٍ في ردع الضابطين.

خرج من الأخدود مُتجاوزًا الأراضي الجافة التي تعصف بها الرياح وتنتشر فيها الرمال، فوجد الطريق خاليًا من أي سيارات، تتناثر فوقه الرمال التي تذرّوها الرياح، يمتد باستقامة نحو الغرب، أما نحو الشرق، باتجاه الفاشر، فقد تعرّج، واختفى في منحدرٍ لطيف.

قلّب نظره حوله فلم يجدها صحراء قاحلة، بل انبثقت على مرمى الأفق أطراف شجيرات وأعشاب جافة مُترامية في منظرٍ فني متناسق.

تناهى إليه صوت خروج إلين من السيارة، استغرقها الأمر دقيقةً لتستجمع قواها وتجدّه هناك على قمة الوادي، ثم سمع وقع خطواتها في الرمال خلفه حتى اقتربت منه بشكلٍ زائدٍ عن اللزوم لم يُجبه، تتبعت نظراته إلى الامتداد الشاسع نحو الشرق.

"لا أعتقد أنك تبحث عن مطعم (وافل هاوس) الذي لم أراه من على هذه المسافة".

هزّ كورت رأسه بالنفي.

"أنمت بشكلٍ جيد؟"

"إلى حدٍّ ما".

"حلمتُ بكابوس، لكنني نمتُ في النهاية، شكرًا أنك تكلمت معي ليلة أمس".

لم يردّ.

"لديّ انطباع أنه ليس من عاداتك التحدّث للناس لمساعدتهم على النوم".

استمرّ في صمته.

"على أي حال، أنا مُمتنة لك".

واصل كورت مسح عينيه للصحراء المترامية أمامه، ورصده لتضاريسها والطريق المُمتد على أفقها، راغبًا لو تراجع خطوتين إلى الوراء.

تفحص الطريق باحثًا عن أي سياراتٍ عندما سألته "هل استيقظت بمزاجٍ عكس هذا الصباح؟"

أدرك أنه تصرّف بشكل طفولي حين نفس ضغطة أعصابه من موقف ليلة أمس في إلين بينما لا ذنب لها في كل هذا، خفف من حدة غضبه والتفت نحوها، دون أن ينظر في عينيها، قائلاً "أنا بخير، أفكر فقط فيما علينا فعله الآن".

"أتعرف أين نحن؟"

"نحن على بُعد 25 كيلو من ضواحي الفاشر، هذا كل ما يمكنني قوله".

"وإلى أين سنذهب؟"

رفع بصره فوق كتفها، وهناك على مرمى بصره في آخر الطريق لمح وسط الصورة المتماوجة تحت صهد النهار موجةً من التراب يطيرها موكب شاحنات عملاقة. استغرقه الأمر بعض الوقت ليتأكد من ذلك، لكنّه تأكّد بعد قليل. في البداية ظنّها تابعة للحكومة السودانية، لكن من لون مركباتها الأبيض خمن أنها تخصّ منظمة إغاثة غير حكومية من نوع ما.

أشار إلى الغبار المتصاعد من بعيد قائلاً "سنذهب حيثما هم ذاهبون".

جرّياً على الطريق نحو الشاحنات، وفي هرولتها ضربت إلين أصابع يديها في رأسها تعدل تسريحة شعرها وتضبط هيئتها كامرأة، راقبها كورت بطرف عينه مذهولاً من تصرفات النساء في مثل هذه المواقف، فباغتته بتفسيرها مُبتسمة "الانطباع الأول يدوم".

استمرّت في فعل ما بوسّعها لإزالة الغبار عن ملابسها الآن ثم قالت "كنت أودّ لو أسألك عن مرآة، لكنني أعتقد أنه من الأسهل أن نجد فرعاً لمطعم وافل هاوس هنا".
لم يغيّر تعليقها من فكرته حول هذا الجنس وتصرفاته المريبة.

قالت له إلين "اسمعي" عرّف أنها غير مرتاحة قليلاً قبل حتى أن تتحدّث "لديّ اقتراح أن تبقى خلف واحدة من هذه الأشجار حتى يقفوا لنا، لا أريد تفويت فرصتنا الوحيدة".

لم يُمانع كورت ذلك أبداً، بدت له فكرة عبقرية، فقد كان رجلاً أبيض، رثّ المظهر، هنا في الخارج، يحمل مُسدّساً كبيراً مدسوساً بشكل سيئ في بنطاله. وافترض أن هذه الشاحنات بنسبة كبيرة تحمل جنوداً وضباطاً يعملون لصالح منظمة الأمم المتحدة في دارفور، وهو يعرف طريقة تفكيرهم وردود أفعالهم الهجومية نحو أي خطرٍ مُحتمل حولهم، بينما مساعدة امرأة أجنبية جميلة بيضاء وحيدة وسط الصحراء ستكون مدعاة للفخر والبطولة بالنسبة لهم.

لم يرد المخاطرة بإخافتهم.

"موافق، لكن من فضلك لا تذكرني أي شيء عن عملك مع المحكمة الجنائية الدولية أو عمّا واجهناه ليلة أمس، هذه المنظمات لا تُحب أن تتورط في هذا النوع من المشاكل السياسية. وانبطحي في الطريق إن اضطررت لذلك، لكن تأكدي من توقّفهم، وأخبرهم...".

"ما رأيك أن نعمل تمثيلية، أنا صحفية وأنت مُصوّر؟ كنا نبحث عن فندق في الفاشر، حين اختطفنا وسرّقنا ورؤينا هنا، أعتقد أنها قصة مُقنعة من شأنها مساعدتنا في الخروج من هنا وإقناعهم أننا مُسلمون لا

نريد أي ضرر لهم".

كان على وشك التثمر من أفكارها، لكنه وجد نفسه للمرة الثانية في أقل من دقيقة مُعجَبًا بحلولها الجهنمية.

محاولاً ألا يظهر عليه إعجابُه تتم بنبرة مُحايدة "حسنًا، دعينا نجرب مسرحتك".
ابتعد جنتري عن الطريق، ونزل إلى أسفل مجرى صغير، مُحتَبًا بين أحضان بعض الأحرش. بينما سارت إلين والش على الطريق مسافة خمسين مترًا لخلق مسافة إضافية.

بعد عشر دقائق، سار الكندي "ماريو بيانكي" ذو الواحد والستين عامًا نحو شاحناته تتبَّعه امرأة صحفية كندية معها زميلها الأمريكي الذي قالت إنه مصور فوتوغرافي. ضايقته ذبابة كبيرة في حجم نصف عملة اليورو، حاول إبعادها عن وجهه لكنه فشل في النهاية. خلع قبعة السفاري الخاصة به، وطردها بعيدًا، لكنه سرعان ما أدرك أنها معركة خاسرة واستسلم لها. الجو حار جدًا، فها هم في التاسعة صباحًا ودرجة الحرارة 37. أراد وصول موكبه بحلول الظهيرة، فقد كانوا متأخرين حتى قبل تعثرهم بهذا الحدث المفاجئ. اعتقد ماريو أنه رأى كل شيء على الطريق من الفاشر لمحطته التالية، فقد قام بهذه الرحلة التي تمتد لحوالي 125 كيلومترًا أكثر من مائة مرة على مدار ثماني سنوات لصالح وكالة "سبيرانزا إنترناسيونالي" ومقرها روما، والتي تهدف لجمع المساعدات والإمدادات من جميع أنحاء أوروبا إلى هذا العالم السوداني المتروك للمجاعات والأوبئة والحروب، ما يعني أنه اعتاد حياة الطرق بعواصفها وتراها وحشراتنا وحيواناتها وأخطارها.

وطوال هذه الرحلات واجه بيانكي مُتمردين سكارى، ولصوص طرق، ودوريات أمن سودانية، وقوات حفظ سلام تابعة للاتحاد الإفريقي، وبالطبع ميليشيا "الجنجويد" المخيفة.
لكنه لأول مرة يُقابل أجنيين يتحدثان الإنجليزية يسيران على أقدامهما في وسط الصحراء.
كان الجنون بعينه.

على مدار أربعين عامًا، حظي الإيطالي "ماريو بيانكي" بسُمعة جيدة في مجال الإغاثة في شتى بقاع القارة الإفريقية، كانت ملكاته الدبلوماسية ولسانه الحذق ودماغه الثعلبية تعتبر كلها مهارات تسمح له بكسب أي صفقة أياً كانت خطورة مُفاوضيه ومهما بلغت درجة شراستهم وهمجيتهم. وبغض النظر عن الجهة التي يعمل لصالحها، أو المكان الذي يعمل فيه، مرَّ ماريو قوافله، وبني مخيماته، وعياداته، وحقق أهدافه، ودفع لفرقه وحراسه رواتبهم في مواعيدها. وقد فعل كل ذلك دون أي مشاكل ملحوظة من المسؤولين المحليين. بدا الأمر أشبه بالمعجزة، بالنظر إلى المكان الذي كان فيه وما فعله، ولكن بطريقة ما تجاوزه متمردو تحالف القوى الديمقراطية التابع لـ "لوران كاييلا"، ولم يُضايق مجانين الجبهة المتحدة الثورية في سيراليون جهوده لإجلاء المدنيين من أراضيهم، حتى عصابة المراهقين الليبيريين. أما عصابات الجانب الغربي الذين ذبحوا معظم من يرونه بغرض المتعة والتسلية، فقد تركوه يفعل ما يُريد في المناطق التي يسيطرون عليها.

فاز بالجائزة تلو الأخرى في جميع أنحاء العالم الأول. ولم يعد يمرّ عام دون رؤيته وهو متأنق ببذلته يسير على السجادات الحمراء نحو منصّات التكريم تحت ضربات فلاش الكاميرات وتصفيق المؤيدين الحار، إعجابًا بمساعداته الخيرية الإنسانية ومساهماته في مجال الإغاثة الإفريقية، وبالتالي حين شهد السودان وبالأخص دارفور الأحداث العصبية الأخيرة بات وجود السنيور "ماريو بيانكي" هنا شيئًا مفروغًا منه مثلما يجذب الوهج الفراشات.

وهنا في دارفور، وصلت سُمعته لمستوياتٍ شبه أسطورية، وبطريقةٍ ما، في عزّ الرُعب الذي تعيشه قوافل الإغاثة من السير دون مُرافقة أمنية، وحين تعرّضت محطات الإمدادات في الخرطوم للنهب وفي دارفور للذبح، استمرت مواكب "سيرانزا إنترناسيونالي" في طريقها سالمة لا يقربها جندي واحد من جنود الميليشيات، تعسكر بمُخيماتها ومحطات مياهها، مُواصلًا جهودها الخيرية نحو السكّان المحليين، مُتفادية ضربات العصابات المحيطة. بالطبع شنّ الجنجويد والمتمردون غارات مُتقطعة بين الفينة والأخرى، لكنّها كانت أقل بكثيرٍ مما تعرّضت له أي مجموعة أخرى في المنطقة عندما تجرّأت على دخول أرض الفور.

وبسبب نجاحه الخارق للمنطق ذهب الناس في إفريقيا وأوروبا لوضع تميمينات ورسم قصص وإشاعات حول خُطط ماريو واستراتيجياته، حتى ظنوا أنه رجل من ذلك الطراز الأفعواني الذي يحصل على مراميه بالخدعة والحيلة والكاريزما الطاغية.

لكن الحقيقة أن ماريو في حياته الشخصية كان رجلًا هزليًا يهوى السخرية من أي شيءٍ حتى مخاوفه، من شأن نصف قرن من العمل في إفريقيا أن يفعل ذلك لأي شخص، ولكن مظهر سُخريته كان باردًا ووحشيًا وواقعيًا بشكلٍ لا مكان له في عالم منظمات الإغاثة.

والسر الذي لم يكتشفه كثيرون أن نجاح ماريو لم يقف وراءه سوى فعلٍ واحدٍ بسيطٍ وشائع؛ وهو حجم الرشاوى الهائل الذي كان يرشّه على الكل هنا.

لم تضايق عصابات الجانب الغربي في ليبيريا عملياته المحلية لأنه دفع لهم عشرات الآلاف من الدولارات ليسمحوا له بالعمل. ومن المؤكّد أنه لو علمت جميع المنظمات الدولية التي تضخّ تبرّعاتها لحملة ماريو أن جزءًا كبيرًا من إسهاماتها المُعفاة من الضرائب يذهب لمتبردي الميليشيات المراهقين الذين يأخذون هذا المال ليشتروا لأنفسهم الحشيش والرصاص وشرائط البورنو، لأغلقت حنفية المساعدات التي تبرع بها القطاع الخاص على الفور. ولو عرف هؤلاء المانحون كيف تقاضت فرق الموت الكونغولية مبالغ مالية من المنظمة مُقابل الوصول إلى هناك، ثم طالبوا على الفور جميع المنظمات غير الحكومية العاملة في منطقتهم نفوذهم بالدفع، وعندما رفض أصحاب المبادئ من بينهم المُساهمة، استهدفوا وذبحوا شر ذبحة، وبالتالي تركوا المنظمة كوكالة الإغاثة الوحيدة تقريبًا في شرق الكونغو، لو عرف القائمون على العطايا كل هذه الخبايا لقطعوا كل منحهم.

أما هنا في دارفور، فقد استمرّ الأمر، حملات إعلانية شرسة يظهر فيها نجوم السينما الأمريكية، أموال تروح وتجيء تنتهي في جيوب الميليشيات كرشاوى فيعيشون فسادًا؛ يقتلون ويغتصبون ويسرقون شمال دارفور، وكل تحركاتهم على ظهور أفضل الجمال من تشاد يحملون طوال رحلاتهم بندق AK-47 من مصر،

ويُجرون مُكالماتهم عبر هواتفهم المطورة المتصلة بالقمر الصناعي المستوردة من اليابان، وكله من جيوب الأمريكيين والأوروبيين.

من يستطيع منهم أن ينتقد حنكة ماريو أو أساليبه الملتوية، فبينما هم يجلسون في مكاتبهم تحت التكييف يرشفون من مشروباتهم الثلجة، كان يقف هو تحت الشمس الحارقة في السودان تسلقه درجة حرارة تبلغ 40، ينفخ من منخاريه ذباباً في حجم عملة اليورو.

والآن أوقعه حسه الخيري في عواقب أعماله، ها هو ينقل معه في موكب شاحناته صحفيةً ومُصوِّرها، لو كان صادقاً مع نفسه لاعترف أنه تمنى أن يأمر سائقه بمواصلة القيادة دون التوقف لأي أجنب على الطريق، إذ ليس من المعتاد العثور على مواطنين بيض وحدهم في الصحراء، كما أنه طالما يمشون دون رفقة أمنية من الحكومة السودانية فهذا يُعزز احتمالية كونهم جواسيس أو عملاء، يتواجدون في البلاد دون أي غطاءٍ أمني أو شرعي من الحكومة. رغم كل أعماله الدنيئة أو الصالحة لم يتصرّف ماريو ولا مرة طوال رحلات مركباته التي ينقل خلالها شحنات الإغاثة، من دماغه، كان دومًا على وفاق مع الحكومة يمرّ من نقاط تفتيشها كما تخرج الشعرة من العجين، لكنهم لو عثروا على هذين الأجنبيين سيكون ردّ فعلهم عنيفاً تجاهه هو ورجاله وحراسه وشحناته، ربما يُوقفون كل إمدادات المساعدة للمعسكرات المسئول عنها، صحيح أنه اعتاد في الماضي إنقاذ هذه المواقف السخيفة بالرشاوى لكن الأزمة الاقتصادية التي طالت العالم الأول أثرت على حجم المساعدات التي ينالها منهم ولم تعد كحالها فيما سبق.

رأي بيانكي الرجل الأبيض أمامه فسأها "لكن أين كاميرته، ألم تقولي إنه مُصوّر؟"

"إنه مصوّر، حين هاجمتنا الميليشيات سرقوا سيارتنا وكانت فيها كل أمتعتنا، لقد بقينا هنا لساعات في انتظار الأشخاص المناسبين لنجدتنا".

قال لها "لكنكم كنتم على بُعد 25 كيلو مترًا من الفاشر".

"تكلّمني كأني أنا من كنت أقود السيارة".

لم يشكّ ماريو في المرأة، فقد عرف أكثر منها كيف أن طرق المدينة هنا بالذات على أطرافها تعجّ بالعصابات وقطّاع الطرق، فمؤخرًا لم تعد شاحناته تقطع أي رحلة دون تأمين من قوات الأمم المتحدة في دارفور، إذ صار من المُستحيل رشوة كل مواطن سوداني يسير حاملاً بندقيته الكلاشينكوف يريد أن يحصل على غذاءٍ لأسرته أو مال لشراء متطلبات مزاجه، باستثناء الجنجويد الذين دفع لهم أموالاً طائلة حتى يتركوا قوافله وشأنها.

اقترب ماريو من الرجل الأمريكي يتأمل سلوكياته، كان قد اندمج مع سائقي الشاحنات بعدما توقّفوا على جانب الطريق للراحة والتدخين. لم يكن الأمريكي يحمل أي مُعدات معه، ولا حتى علبة سجائر. كان يرتدي قميصًا داخليًا بُنيًا ملطخًا بالعرق، وبنطالًا أسود محليًا من نوع ما، وارتفع قميصه من على ظهره كُلمًا استدار.

كما غطت أوساخ منطقة الساحل أجزاء وجهه التي لم تشملها لحيته. لاحظ ماريو أنه يتحدث معهم الفرنسية رغم أنها ليست شائعة هنا، بل في تشاد على بُعد مائة ميل جهة الغرب. واصل حملته في الأجنبي من أعلاه إلى أسفله، وعندما مدَّ يده لمُصافحة موظفٍ آخر من موظفيه، وهو شابُّ دارفوري، لمح انبعاجة المسدس تحت ملابسه. فغر الإيطالي فاهُ، غير مُصدِّق أن هذا الرجل قد تجرَّأ على حمل مُسدَّس معه. هل توقع أن يقفز على إحدى شاحناته، ويخرُج من هنا إلى بر الأمان؟ لن يجلب معه سوى الخطر بأداة الشر تلك. وبدون كلمة واحدة، تقدَّم بغضبٍ من خلفه ومدَّ يده لنزع سلاحه. دون إدراك أنه بذلك شدَّ بنفسه بكرة المشاكل.

قد لا يكون وضع يد المرء على سلاح رجل بتدريب جنترى وتصرفاته أمرًا خطيرًا تمامًا مثل وضع ذراعِهِ في مفرمة، لكنه يُشبهه إلى حدٍ كبير. بمجرد أن استشعر كورت يدًا غريبة تتحسّس مُسدسه، وقبل أن يبدأ في سحبه، كان قد استدار في حركةٍ خاطفة، مُستخدِمًا قوة الدفع في جذعه المُستدير ليُحرِّك يُمناه بقوةٍ وسرعةٍ مُذهلة، مُطيحًا بذراع التهديد لأعلى بعيدًا عن مُسدسه. استمرَّ في دورانه، ويُسراهِ التي ضربت جسده، وصل أمام وجه مصدر الخطر، ثم حرك ساقه اليسرى خلف ساقه وضرب يسراه تحت ذقنه. مما أدى لترنُّح الرجل إلى الوراء، مُتعثِّرًا بالساق التي خلفه، ساقطًا على ظهره داخل سحابة الغبار التي أثارها حركة جنترى السريعة.

وفي حركةٍ خاطفة أخرج الرجل الرمادي سلاحه ووجَّهه لضحيته أمرًا إيَّاه ألا يتحرك، ثم دار حول نفسه ماسحًا مُحيط المكان حوله ليتأكد من عدم وجود مُهاجمين آخرين شركاء معه. وقفت إلين على بُعد عشرة أقدامٍ بوجهٍ شاحبٍ من شدة الرعب.

قوبل تصرُّف كورت من الجميع بشكل لا يُغتفر خاصةً تجاه مُسن إيطالي في الستين من عمره. بعد خمس دقائق كان ماريو يجلس مع إلين يهنِّد ملامحه ويُعيد لرأسه قُبعتَه. احتاج إلى دقيقة لتهديئة نفسه، فجلس على لوحة تشغيل إحدى الشاحنات، يشرب صودا برتقال باردة ويُدخن سيجارة. اعتذرت له الكندية بكياسة ودبلوماسية تفوق قدراتها كصحفيةٍ أو محاميةٍ كما قدّمت نفسها. أما كورت فبقيَ بعيدًا على قارعة الطريق يشعر بموجات النبت والكراهية الصادرة من السائقين وأفراد الأمن تجاهه بعدما رأوه يُشهر مُسدسه في بلدٍ يتنفس فيه الناس رائحة الرصاص والدم كل يوم.

"دون أسلحة.. دون أسلحة".

صرخ في الأمريكي سائق إفريقي في منتصف العمر بشعرٍ رمادي، ملوحًا بيديه بإشارة ممنوع مرارًا وتكرارًا.

لكن كورت صرخ فيه بحزم "الن تأخذ مُسدسي".

كرَّر السائق رجاءه وبدا أنها الكلمتان الوحيدتان اللتان يعرفهما من قاموس الإنجليزية، لكن كورت لم يكثر إطلاقًا لتوسّله.

صرخ فيه "قلها مرّة أخرى يا أحمق، هيا قلها".

وبالفعل قالها الرجل مرّتين أخريين، قبل أن يتحرّك مُفسحًا الطريق لرئيسه ومعه الضيفة الكندية تبدو على وجهيهما ملامح الضيق والاستفزاز.

حلق فيها كورت بغضبٍ كأنه يلومها بشكلٍ ضمني على أخذ صفٍّ الآخر وبادر هو بالهجوم "لا تضع يدك على مُسدسات الناس!"

أجابته بغضبٍ "لقد وضحت وجهة نظرك بالفعل يا 6، اسمعني جيداً هم موافقون على نقلي وسيأخذونك أيضاً، كمعروفٍ شخصيٍّ لي، بشرطٍ واحد؛ أن تُعطي مسدسك لسنيور ماريو".
"ماذا سيفعل به؟"

تحدّث سنيور ماريو مُتحمّساً ألم رقبته من إثر ضربة كورت، مُتسائلاً بصوتٍ عالٍ عما إن كان هناك مُعالج طبيعي أو مقومٍ عظام في عيادة محطتها التالية: "سأرميه في الصحراء، لماذا تحتاجه؟"
أدار كورت عينيه في سخطٍ "من يعرف ما الذي يمكن أن تُواجهه في الطريق؟"
"لا نحتاج في رحلتنا لأي أسلحةٍ في قافلتنا، لا نبحت عن الأذى".

نظر كورت إلى الإيطالي الأكبر سنّاً لفترةٍ طويلةٍ وأخيراً قال "منطقك مُضحك، أحياناً المشاكل هي من تبحث عنك يا عزيزي".

حلق فيه الطلياني العجوز كأنه يقيس شيئاً في خصمه، ثم بنبرةٍ جافةٍ قالها قولاً واحداً "لن تركب في شاحناتي بمُسدسك هذا! القرار كله لك".

أدرك كورت جيداً أنه لو تحلّف عن موكبهم لن يجد وسيلة مواصلات تُخرجه من الصحراء وربما سيعثر عليه أولاً ضباط الأمن الوطني السوداني قبل أي فرقٍ إغاثة موجودة في البلد، تخمّن هذا لأنه ببساطة طوال الوقت الذي قضاه في موكب شاحنات منظمة "سيرانزا إنترناسيونالي" لم يلمح أي أثرٍ لسيارة أخرى على الطريق مدنيةً كانت أو عسكرية.

بتنهيدةٍ غاضبةٍ أخرج مُسدسه، وحين اقترب منه سنيور ماريو ليأخذه أبعدَه كورت، فكّ خزنته وفرغها من الرصاص، قبل أن يلقِيها أرضاً ويركلها بعيداً. سقط بعضها في شقوق الأرض الجافة، وظلّ بعضها مرثياً. أخرج الطلقة من مخزن المُسدس وفكّ السلاح وسحب الزلّاقة، أخرج النابض والماسورة ورمى هذه الأشياء بعيداً.

صعدت إلين إليه وبصوتٍ ناعمٍ أرادت إلقاء الأمر خلف ظهرها "أترى؟ لم يكن الأمر صعباً".
تأمّل المناظر الطبيعية الشاسعة، وחדش برغوث رمل جديدٍ معصمه الأيسر قبل أن يُجيبها "سأتركك تُدركين عاقبة ما فعلته بنفسك في خلال ساعتين من الآن".

بعد عشر دقائق، تحرك موكب شاحنات الإغاثة من جديد، ركب كورت في أحد المقاعد الأمامية لإحدى شاحنات المساعدات، لم يكن بإمكانه رؤية أي شيءٍ من النافذة المغطاة بالتراب. بينما أخذ سنيور ماريو إلين معه في سيارته التي توجد في مقدمة بقية المركبات. وربما تعمّد الطلياني العجوز فصلهما، لأن الكندية رغم تبعر شعرها وبهدلة منظرها من رمال الصحراء التي غطّتها، بقيت جذابة لأي رجلٍ مهما كان سنّه وأياً كانت حيثيته. كان السائق بجوار كورت يدعى رشيد، وهو رجلٌ ذو شعر أبيض، وكذلك كان هناك بشارة، وهو شاب يعمل في الشركة ويتحدّث الإنجليزية بطلاقةٍ مُدهشة، رغم أنها ليست لغته الأم. سأل كورت إن

كان من نفس مدينة "ديفيد بيكهام" لكن الأمريكي أجابه بالنفي وتجاهله مُرَكِّزًا على خطته الضرورية للساعات الخطرة المقبلة. عرف أنهم لم يفرُّوا من قبضة جهاز الأمن القومي بعد. حسب كلام سنيور ماريو سيصلون للمُخيم التابع لمنظمة "سيرانزا إنترناسيونالي" في خلال ساعتين من الآن، أي في مُنتصف النهار تقريبًا. سيأخذ الرجل الرمادي إلين إلى مكانٍ آمنٍ في مُحيم للنازحين داخليًا، ومن هُنَا سيتمتع بإدارة اتصالاته، وسيحاول إخراج إلين بطائرة هليكوبتر أو برًا بمساعدة فرق الأمم المتحدة في دارفور. بعدها سيتوجَّب عليه إيجاد سيارة تنقله للفاشر. وهناك في السوق السوداء سيشتري تليفونًا من السوق السوداء، وسيُتصل بـ "سيد" ليُحمِّله سلوكيات قائد الطائرة "الإليوشن" الذي خَلِّفه وراءه، وكيف بدأت كل المصائب من مغازلة جينادي للكندية الجميلة التي تعمل لصالح المحكمة الجنائية الدولية. وسيجعل سيد يوفر له وسيلةً أخرى للخروج من الفاشر. إذا تمكَّن من إتمام كل هذا في يوم ونصف سيكون بمقدوره الوصول إلى سواكن في توقيتٍ مناسبٍ للعملية.

فقط إذا لم يواجه عقباتٍ جديدةً شبيهةً بالتي واجهها منذ غروب الأمس إذ لم تكن أيُّ منها معمولًا لها حساب.

ارتشف كورت زجاجة مياه فاترة مرَّرها له بشاره، بعدما تأكَّد بنفسه أنه لم تتم إعادة ملئها من حنفية. صدحت في كابينه القيادة، من راديو ترانزستور عقيم مُعلَّق في الفاصل بين العربة الرئيسية والشاحنة المقطورة، أغنية رديئة بصوت نساءٍ تُولول اندمج معها السواق وزميله الشيال وراحا يغنيان وهما يضحكان على صوتهما النشاذ.

واصل الرجلان السودانيان دندنتهما بشكل جعل كورت يتمنَّى لو كان لا يزال وحده على جانب الطريق تحت الشمس يحمل مُسدسه، صمت الصحراء أهون مليون مرة مما يُلاقيه هنا معها. لم يتوقف بشاره عن الغناء إلا ليسأل كورت عن أغرب موضوع لم يتوقَّعه؛ مُغني الهيب هوب الأمريكيين، وهو موضوع لم يكن الرجل الرمادي على درايةٍ كبيرة به. استمرَّ في تجاهل الفتى الذي عاد في النهاية إلى موسيقاه المحلية.

من وقتٍ لآخر، تردَّد عبر جهاز اللاسلكي الخاص بطاقم الشاحنات صوت السنيور "ماريو بيانكي" بلهجته الطليانية يُعطيهم بعض الإرشادات والمستجدات حول خطِّ سيرهم وتحركاتهم؛ مثل وجود بقايا جذوع أشجار تسدُّ الطريق ينبغي أن ينزلوا ويُزيلوها، طريق صحراوي غير مُمهَّد يُجبرهم على الإبطاء من سرعتهم، ظهور جمل فجأة أمام موكبهم مما يعني أنه سيكون هناك بعض التأخير عن موعد وصولهم المُحدد. شعر كورت بالقلق من فكرة أن موكبًا كهذا يحمل كل هذه الشحنات من المساعدة والإمدادات غير مؤمَّن بالمرَّة ومكشوف في العراء لأي عصابةٍ أو ميلشيا، فسأل بشاره "لماذا لا يوجد جنود من الأمم المتحدة معكم هُنَا؟"

هزَّ الشاب كتفَيْه، وهو يرقُّص جذعه على أنغام الموسيقى الرديئة ثم قال "إن دارفور كبيرة مثل تكساس عندكم في أمريكا، لدينا فقط 10000 جندي من قوات الأمم المتحدة. وهم مرتكزون أغلب الوقت في

المعسكرات، لا يُمكنهم تأمين كل موكب خارج على الطريق " صمت قليلاً ثم أردف مُبتسماً "لا تقلق، الميليشيات لا تُهاجم أي موكب تابع للسيد ماريو".

نظر كورت إلى الشاب مُدهشاً "حقاً! لماذا؟"
"لأنه صديقهم!"

نظر كورت من النافذة إلى العُبار قائلاً "حقاً! رائع".

لم يلاحظ كورت أن بيانكي لم يتحدّث منذ بعض الوقت. فبالكاد تمكّن من سماع الإيطالي وسط الموسيقى والغناء. ولكن عندما عاد صوت الإيطالي أخيراً على الراديو، استقام كورت في جلسته على الفور. كان هناك شيء مُختلف في نبرة الرُجل. لفت انتباه الأمريكي إيقاعه وبروتوكوله المُفاجئ، فمدّ يده ورفع صوت المذياع بسرّعة.

"نخيم النازحين، هنا الشاحنة رقم 1، حوّل".

أسكت كورت الغناء في مقصورة القيادة، ثم عاد إلى الخلف، مُتحمّساً الراديو ليخفض صوته.
أجابه صوتٌ أنثوي بلكنة أسترالية: "نعم، أسمعك بوضوح، حوّل".

بدا صوت بيانكي رسمياً وجاداً. كان كورت قد درس أنماط التوتر الصوتي لأكثر من عقدٍ من الزمان، وعرف أن هذا الإرسال اللاسلكي يعني مُشكلة قبل حتى أن يتحدّث الإيطالي قائلاً "لقد عثرنا في طريقنا على امرأة كندية تقول إنها تعمل لصالح المحكمة الجنائية الدولية، ومعها زميلها. نحتاج منكم أن تتواصلوا مع مقرّهم في الخرطوم للتأكد من هويتها، في حالة أنها صادقة ينبغي أن يُرسلوا لنا هليكوبتر لنقلها، لا أعتقد أنها ستكون في أمانٍ هنا".

تمتم كورت: "اللعنة!" بينما حدّق فيه الرُجلان المحليّان اللذان جلسا معه في السيّارة.

وأدرك كورت بالتأكيد أن هذه الموجات اللاسلكية ملقوطة من قبل جهاز الأمن الوطني السوداني، ولا يحتاج الأمر لجهاز استخباراتٍ عملاق ليخمن أن نفس الشخصين اللذين تم العثور عليهما في الطريق من قبل موكب الإغاثات الإنسانية التابع للسنينور ماريو هما نفسها من سببا كل تلك الفوضى ليلة أمس أمام بيت الأشباح.

الغبية العاهرة اللعينة! لكنه أمسك نفسه عن أي تهوّر، وراح يتساءل ما الذي يجعله يستحق ثقتها فيه أكثر من سنينور ماريو، على الأقل، فهو أمامها قائد قافلة عظيمة من المساعدات الإنسانية وبقاؤها معه يُشعرها بالأمان، لكنها بتسليمها نفسها له وضعت كليهما في مأزقٍ مربع سيتحمّل هو عاقبته ومسئولية إخراجها منه، مثلما أنقذها من أيدي الأمن الوطني السوداني منذ ساعات.

حرّك الرجل الرمادي ذهنه وبدأ يُفكر في كل السيناريوهات المتوقعة، ما هي احتمالات التقاط جهاز الأمن الوطني لهذه الموجات؟ وكيفية تحركهم على وجه السرعة؟ وإن كانوا سيعترضون خطّ سير الموكب أم ينتظرون حتى يصل لمعسكر النازحين؟ وهل بكلّ بساطة سيمرّون من أمام قوات الأمم المتحدة ويعتقلون

الكندية بكل بساطة أم سيتحايلون لاحتجازها بأي حجة من حُججهم المعروفة وعلى رأسها حماية الأمن القومي للبلاد؟

نظر إلى الخارج، إلى الضباب والغبار. شحذ كل تركيزه وأمر نفسه: فكّر! فكّر يا جنترى! ماذا سيفعلون؟ كافح نفسه من أجل تجميع تركيزه على طريقة تفكير قيادة المخابرات السودانية! ليس بإمكانهم ترك إلين ترقص الفالس في معسكر النازحين، لأنه من شأن ذلك أن يكشف كل شيء عن انتهاكاتهم. ولم يكونوا لينتظروا قوات حفظ السلام حتى تلتحق بقافلة المساعدات، عندها سيفوقونهم تسليحًا، حتى لو لم يتحمس المسلحون أنفسهم لاستخدام أسلحتهم.

فكّر لو كان هو من يرأس جهاز الأمن الوطني في بلد عربي مثل السودان ووجد فريسته على متن موكب شاحنات إغاثة ماذا سيفعل؟ دون تفكير سيُرسل فرق إبادة لينسفوا الموكب كله فلا يتعرّف الرأي العام المحلي أو الدولي على هوية الضحية المستهدفة بشكل أساسي.

فكّر في كل هذه الاحتمالات لأقل من دقيقة، عاجلًا في دماغه الخصب، والمهيأ للخطر والمعارك والدسائس والخداع والتهديد.

قد يحشد جهاز الأمن القومي فصيلة من قوّات الأمن العام في المنطقة في الوقت المناسب لقطع الطريق على القافلة. لكن ذلك لا يبدو مُحتملاً، فقد كانوا على بُعد ساعات قليلة من وجهتهم.

كلّا، حتمًا سيُرسل الأمن الوطني كتائب تابعة للحكومة، أو هو بالفعل يملك فرقة الخاصة لتصفية مثل هذه المواقف المعقدة.

فكّر، يا إلهي! لا أريد التورط مع هؤلاء الحمقى غير المدربين بشكل كافٍ. وبقدر ما كره الاعتراف بذلك، إلا أنه لم يستطع أن يرى سوى استنتاج واحد مُحتمل. أو ما برأسه لنفسه، وقبض فكّه بعزم وتصميم.

نظر لبشارة السوداني الجالس بجانبه وقال "أعطني خريطة".

مدّ الشاب يده في كومة أوراق مرمية عند الدوّاسة، وضحك وهو يسأله "لماذا تحتاج إلى خريطة؟ أماننا طريق واحد لنسلكه، لا يُمكنك أن تضلّ الطريق هنا يا رجل".

ومع ذلك، أخرج الخريطة المطوية، أخذها منه كورت وراح يدرسها بعينيه بسرعة كي يتعرّف على الطرق والمنعطفات التي سيسلكونها وسط الصحاري والوديان، لكنه لم يكن في الحقيقة يبحث عن خط سيرهم وإنما عن البؤر المناسبة لجهاز الأمن الوطني ليضربهم فيها.

"اسمعي يا فتى، سيتم ضربنا في أي لحظة، هنا على الطريق".

اتسعت عينا بشارة البُنّتان اللامعتان وهو يقول "ضربنا! من سيضربنا؟"

نظر كورت إلى ما وراء الشاب الدارفوري، من نافذة الراكب، إلى المناظر الطبيعية شبه اللائمتناحية. ارتفعت التضاريس جنوبًا، ووقفت أشجار السنط السمينة بحجم عربات النقل وسط تلال جافة من بعيد.

أجابه كورت بصوت قوي، لكنّ التوتّر بدا واضحًا فيه "الجنجويد".

أوماً الشاب الأسود برأسه، ولوّح بيده وكأنه يطرد دُبابه، قبل أن يقول: "هذا مُستحيل، لا".
التفت جنترى إلى السائق وقال "أعطني سلاحك".

أجاب بشارة نيابةً عن الرجل الأكبر سنًا، والذي لا يتحدث الإنجليزية "نحن لا نملك أي أسلحة يا رجل".

"بحقكم! أنا متأكد أنكم تملكون بندقية آلية AK-47 تُخبئونها هنا في مكانٍ ما داخل الشاحنة في حالة أغارت عليكم أي ميليشيا. أنا لست مع الأمم المتحدة، ولن أخبر أحدًا. ستعرض للهجوم، وأنا بحاجة إلى سلاح، للحمايتنا منهم".

"أقسم لك أننا لا نملك أي بندق، وأنا لن نُهاجم".

قال كورت: "سينغّر هذا اليوم" انتقل كورت للتفكير في الخطة البديلة وهي أن يكلم سنير مارينو على اللاسلكي ويحاول بأي طريقة إقناعه بإيقاف القافلة. ثم يُجره بالخطر الذي تسبّب فيه لتوّه، ويطلب منه التوقّف عن التحدّث في اللاسلكي، والعودة إلى الفاشر.

لا، خطة سيئة، وماذا لو رفض؟ وماذا لو تسببت مفاوضاته معه في التأخر أو الرجوع، ومن ثم تلحق بهم قوات ضباط الأمن السوداني ويكون قد زاد بخطته الطين بلة، وعرض القافلة لمزيد من الخطر.

كلّا، ربما أفضل سيناريو لهم هو أن يترك القافلة تمضي في طريقها دون أي عرقلة حتى تصل سالمةً لمُخيم النازحين قبل أن يظهر المغيرون على قمة التل.

ومن هناك يأخذ خطواته التالية، لكن هذا لا يعني أنه سيقضي الرحلة كلها مكتوف الأيدي ينتظر قذيفةً تنزل عليهم من السماء تمحو وجودهم من أساسه.

قلّب في ذهنه خططًا أخرى بديلة.

اللعنة، لم يكن لديه أي فكرة. لقد تلقى تدريبات قاسية في تكتيكات الوحدات الصغيرة. لكن عليه الاعتراف الآن أن البيئة الصحراوية الجافة القاسية حوله هذه المرة جديدة تمامًا على أجواء عملياته السابقة. تذكر أفلام رعاة البقر من بطولة "جون وين" التي كان مدمنًا عليها مع أخيه وأبيه، لكن للأسف لم تمده ذاكرته المتبقية من هذه الأفلام بأي حيل أو أفكار في موقفه الحالي المتأزم.

ثم ذكر نفسه أنه في الأمر الواقع عميلٌ خاص، وليس مُمثلاً أمريكيًا في فيلم هوليوودي الآن، هو في معركة حقيقية على أرض الواقع وقد تُداهمهم الميليشيات المسلحة الهمجية في أي وقت.

لقد سمع أنهم لا ينسفون قوافل الأمم المتحدة أو أي قوافل أخرى. لا لأنهم رحماء فأفعالهم بمُعسكرات النازحين من قتل و سلب و اغتصاب لا تعكس أي رحمة ولا إنسانية، لكنهم ببساطة يُحاولون بقدر الإمكان الحفاظ على المركبات سليمةً حتى يتسنى لهم نهب كل محتوياتها والاستيلاء على خيراتها من غذاءٍ و سلع تموينية ومياهٍ و سُنط إسعافات أولية.

إذا هاجمهم فعلاً كما انطلق بخياله سيكون هناك سيناريو واحد مُتعارف عليه؛ سيوقفون الشاحنات على جانب الطريق ويُخرجون كل أطقمها، وفي العراء يصفونهم.

لقد علموه تكتيكاتٍ عديدة في وكالة الاستخبارات المركزية ليس من بينها إيقاف مذبحةٍ جماعية وهو أعزل، للأسف الشديد.

أدار الرجل الرمادي رأسه لفتحة شحنٍ تُوجد في كابينة القيادة خلف رأسه مباشرة، وسأل بشاره "ماذا يوجد في الخلف؟"

أجابه بشاره بنبرةٍ منزعجة من أسئلة الخواجة وتوجُّسه المُستمر من ظهور قُطاعٍ طرق في أي وقت: "لا شيء يا رجل، لا أسلحة، لماذا تقول إن...".

سأله كورت مرّةً أخرى، بإصرارٍ أكبر "ما الذي نحمله؟"

"مجرد أدوات لازمة للمُنخيمات؛ أسرّة ومكاتب ومصابيح وأجهزة راديو، وأشياء من هذا القبيل لمكاتب الموظفين وأماكن المعيشة وأبراج المياه.. لماذا تقول إن...".

غير كورت وضعيته وقفز في الفتحة الواصلة بين الكابينة وصندوق الشحن، وجد مساحةً كافية فقط ليمرّ من خلالها، تسلّق الأمتعة وأكياس الحمولات ورفاً معدنيّاً من نوعٍ ما للوصول إلى أعلى كومة البضائع المخزّنة قائلاً "أعطني كشافاً".

سأله بشاره: "أعطيك ماذا؟"

"كشاف.. مصباح كهربائي، تَبّاً للإنجليزية البريطانية المعتادة".

بعد دقيقةٍ واحدة كان هو والشاب السوداني يزحفان على رُكبهما داخل صندوق الحاوية الذي وصلت حرارته لمائةٍ وخمس عشرة درجة مئوية بسهولة، بينما سيطر الظلام الدامس على كُل شيء. ارتدّأ بعُنْفٍ مع كُل مطبّ في الطريق، بينما السائق يتساءل عما يدور بحق الجحيم وراءه، لكنّه واصل القيادة وكأن شيئاً لم يحدث.

سأله بشاره بعدما توصل لأفضل صيغةٍ مُمكنة يمتحن بها الخواجة "أيمكنني أن أسألك لماذا تظنّ أن الميليشيات ستهاجمنا؟"

كان كورت يزبح صناديق الإمدادات المرصوفة يميناً ويساراً، بينما الشاب يُمسك له الكشاف ودون أن يتوقّف عما يفعله أجابه "جهاز الأمن الوطني عندكم يبحث عن تلك المرأة الأجنبية التي رأيتموها معي وأخذها معه سنيور ماريو في شاحنته، يريدون قتلها، وأنا متأكد أنهم التقطوا موجات اللاسلكي الخاصة بالسنيور ماريو بيانكي بعدما وضح فيها إحدائيات موقعنا، وأفشى معلومة أنكم عثرتم علينا في طريقكم فأخذتمونا معكم، ولأنهم ليس لهم قوات تابعة على الطريق، أغلب الظن سيستعينون بإحدى الميليشيات لتأتي وتعثر علينا بطريقتها، وبمجرد أن نجدونا سيُصفوننا عن بكرة أينا، في مثل هذه الحالات سيقضون على الموكب كله، فقط للتغطية على حقيقة أنهم يعملون لصالح الأمن الوطني، وأنهم أتوا فقط لأجل القضاء على الأجنبيين".

أوماً بشاره برأسه مُنفهماً تداعيات كلمات هذا الأمريكي المتوتر للغاية قبل أن يسأله "يا الله! إذن كيف يُمكنني المساعدة؟"

"أن تتعاون معي، سنعمل كفريقٍ واحد، وسيُمكننا أن نُخرج أنفسنا وبعض هؤلاء الآخرين من هذا المأزق، هل تفهمني؟"

أوما الفتى برأسه.

"أتثق في هذا السائق؟"

هزَّ بشارة كنفه قائلًا: "في الحقيقة هو ليس من قبيلتي، فأنا من الزغاوة، وهو من المساليت. لكنه رجل صالح، سأخبره بما تريده، ما هي الخطة؟"
"أول بند في الخطة أن ندعو الله أن أكون مُحطًا".

هزَّ بشارة رأسه "نحن هنا في دارفور ندعو الله طوال الوقت، لكن هذا لا يمنع الميليشيات من فظائعهم".
واصل كورت تفتيشه وسط الحمولة بشراصة. كان قد وجد بالفعل ولأعة سجائر ومنبها ميكانيكيًا بين الكراتين. ثم أمسك بلفة من أكياس القمامة البلاستيكية الثقيلة في يده، ورفعها أمام مصباح بشارة اليدوي. ثم استمرَّ في الحفر، متجاوزًا أكوامًا من أكياس الدقيق وبراميل زيت الطهي الصغيرة. أبعد سلَّة ملابس عن طريقه، ثم أخذ المصباح وسلَّطه على صندوقٍ خشبي ثقيل على أرضية مقصورة الشحن. أزال غطاءه ليجد مجموعة من مُعدات؛ أسطوانة لحام أكسجين، وخوذة، ومفصلاتٍ حديدية، وشعلة، فشعر أنه وجد ضالته وسلاحه وسط هذه الأشياء.

نظر كورت للشابِّ السوداني وقال "إذا أتوا خلفنا لن يبقى لنا حلٌّ سوى المواجهة".

"اسمعي يا خواجة، الأمور هنا لا تجري كما تظنُّ أو كما يُصوِّر لكم الإعلام الغربي، أنا أعرف الميليشيات جيدًا، لقد أبادوا قريتي وقتلوا أبي واغتصبوا أُختيَّ الاثنتين، قتلوا إحداهما وتركوا الأخرى حيَّةً وهي مجنونة الآن.. فهم حين يأتون يجلِّون كالعاصفة التي تُبِّد أمامها أي شيء، لديهم جمال وأحصنة وأسلحة، لا يمكن أن تُقاتلهم وأعدُّك أننا لن نبقي أحياء إذا رأيناهم، لا أحد يبقى حيًّا بعد مُقابلتهم".

هزَّ كورت رأسه قائلًا "يُمكننا القيام بذلك، إنهم سفاحون فعلاً لكنهم جبناء، طريقتهم هي الكرّ والفرّ وليس القتال، إذا أسقطنا اثنين منهم سيفرّون هارين. صدَّقني إنهم يقتلون النساء والأطفال من أجل المتعة، ويُمكننا القيام بذلك".

"لا يُهم إن كانوا مُقاتلين من عدمه، قلتُ لك إنهم يحملون أسلحة! ماذا لدينا لندافع به عن أنفسنا!"

"بل لدينا الكثير لا تقلق".

"لدينا ماذا؟"

"أنا".

"أنت مجنون يا رجل!"

قالها بشارة بابتسامةٍ واسعة بلهاء جعلته يبدو في موقفٍ مُضطرب كهذا مجنونًا بحق، لكن الرجل الرمادي بعد عملياتٍ كثيرة صار يُحب المجانين خاصةً حين يحين وقت العمل، بل إنه لا يجد أي متعةٍ إذا وقع حظه في

مغامراته مع أناس طبيعيين.

"أيمكنك إخباري ما الذي يُوجد في حاويات بقية الشاحنات"؟

"حسب ما أعرفه يُوجد في الشاحنة الأولى طعام للعاملين، وليس طحيناً للنازحين. وأيضاً قطع غيار لإصلاح البئر".

"انس الأمر، وماذا يوجد في أول شاحنة تسبقنا مباشرة"؟

"أعتقد أنها تحتوي على لفافات قماش ومياه ومستلزمات إسعافات أولية وستة مولدات صغيرة للمعسكرات وشيء يُشبه مضخات الأبيار".

انطلق الجزء التكتيكي من عقل كورت يحسب حُططه حسب الأدوات المتاحة لديه، علّمته مواقف الحياة والموت من خلال عملياتٍ نوعية مُتباينة كيف يستغلُّ أبسط الموارد المتاحة لديه لصُنع مهربٍ أو ربما قبلة إذا تطلّب الأمر.

سأله "وماذا عن الشاحنة التي خلفنا"؟

فكّر بشارة للحظة ثم قال "هذه تحتوي على أدوات يدوية وخشب ومسامير وغاز للمولدات".

"غاز"!

"نعم كما سمعت".

ابتسم الرجل الرمادي قائلاً "عظيم! كم تبلغ كميته مثلاً يا بشارة"؟

فوجي بيانكي برؤية الرجال الذين يسدون الطريق أمامهم. كان عددهم لا يقل عن اثني عشر رجلاً على الأقل. وبدوا مثل منظرهم المعتاد في صورهم المنشورة بالجرائد المحلية أو الأجنبية يعتلون جملهم وأحصنتهم، يعلّقون بنادقهم الآلية الكلاشينكوف على صدورهم أو جنبهم، بعضهم يرتدي بدلاً عسكرية مُموّهة ونظارات شمس وبياداتٍ عسكرية غليظة براقبٍ عالية، أما معظمهم فيتعلون صنادل بسيطة وكلهم مُلثّمون يحتمون بسترَاتٍ مضادة للرصاص وأحزمة ثقيلة محشوة بخزانات الرصاص تتقاطع كالصُّلبان المعقوفة على صدورهم العارية.

هؤلاء هم الجنجويد، ويأتي هذا المصطلح من الكلمات العربية التي تعني الشر والخيل. إنهم فُرسان الشر. رجال القبائل العربية السُّود، الذين تعود أصول معظمهم للخيالة ومُربي الماشية أو الإبل، والذين اتَّجهوا بعد بأسهم للإجرام لكسب المال بصورة أكبر وتوفير قدر أعلى من مستوى المعيشة من خلال أعمال العصابات التي يتم تمويلها من كياناتٍ خارجية مُعادية، ومن ثم أصبح كل هلفوتٍ من أي قبيلةٍ لديه سيارة، أيًا كانت حالتها، عضواً في أي ميليشيا منها، فيتنعم بكل الغنائم التي تحصدتها في كل هجمةٍ ليُمدد بها عائلته أو عشيقته، وعلى مدار الثاني سنوات الماضية قتلوا مئات الآلاف وشرّدوا الملايين المدنيين العُزّل واغتصبوا أعداداً لا حصر لها من المواطنين في منطقة غرب السودان.

إذا كان هناك شرٌّ في العالم، ومن يُمكنه إنكار هذا، سيكون هؤلاء الهجّانة أحد أوجهه.

لكن سنينور ماريو لم يكن يُخشاهم. لاعتقاده السخيف أنهم في جيبه مقابل ما يدفعه لهم من رشاوى هائلة طوال الوقت على مدار السنة لتمرير مواكب شحنته بسلام من كائنهم.

كل ما أقلقه اليوم هو مواجهة تأخيرٍ جديد لموكبه على أيدي أولئك الخُثالة، فقد أجرى ترتيباته مع قادتهم، وهي ترتيبات سمحت له بالسفر في هذا الطريق الصحراوي دون مُضايقة. ومن حينٍ لآخر كانت تستوقفه فرقة أو أخرى من رجال القبائل العربية. ولا يتعاملون معه دون تهذيب، ينزل سنينور ماريو بنفسه ليُصافح قائد المجموعة بتفخيم وإشاراتٍ ضمنية متتابعة مُتعمداً ذكر أسماء بعض رؤسائه الذين هم على اطلاع من البداية بخط سير الطلياني وموكبه وحتى أسماء سائقيه وشياليه، وبشكلٍ بديهي مُفترض أن يكون هؤلاء القادة قد أبلغوا رجالهم الواقفين على متاريس الطريق بكل ما حصلوا عليه من معلومات، كي يؤهلوهم لاستقبال هذه الشاحنات وتمريرها دون أي مشاكل أو سوء فهم، وفي حالة أنهم جاهلون بما يحدث يُفضّل سنينور ماريو بتوضيح كل شيءٍ من البداية للنهاية، أو يتواصل مع أحد قادته عبر تليفونه الذكي المتصل بالقمر الصناعي كي يتوسّط له في المرور منهم.

وهكذا ينتهي الأمر دوماً.

أمر ماريو سائقه بالتوقف أمام كمينهم، أدار رأسه فوجد المرأة الكندية فقدت تماسكها وبدأت ترتجف، مسح على خدّها وهو يقول مُبتسماً "لا تخافي مطلقاً، إنهم أصدقاؤنا وأنا أعرف قائدهم، لا يوجد ما يدعو للقلق".

في نفس الوقت كان كورت يُمسِر أربعة أضلاع خشبية صنع بها إطاراً سيستخدمه في قبلته الموقوتة، استخدم طرف المطرقة من أداة، جانبها الآخر عبارة عن فأس في مُهمّته، وكان هناك خطاف عتلة أيضاً، وحين لاحظ تباطؤ الموكب زعق مُنادياً رجله الجديد من آخر المقطورة "بشارة! لماذا نتوقف؟" صرخ بشارة "هناك رجال على الطريق".

بالكاد استطاع كورت سماعه، فقد حُشِر وسط الحمولات المكدّسة والأمتعة، وتأثر سمعه وحركته بالأكياس والحقائب وعبوات المياه ولفائف القماش المُشَمَّع الكبيرة فوقه. تصبّب العرق من منبت رأسه إلى أذنيه وعينيه. حتى إن أخذ نفس عميق كان تحدياً في الظلام والمساحة الضيقة من الجزء الخلفي للشاحنة. كان بشارة قد عاد لمساعدته لفترة من الوقت، لكن ثبت أن ركل رجلين ودفعهما وحفرهما في الحمولة كان عائناً أكثر من كونه مُساعدة. وبعد أن دَفَن كُلُّ منهما الآخر مرّة واحدة على الأقل، أرسل جنترى الشاب إلى الأمام مع تعليمات جديدة للسائق، وواصل عمله باستخدام المطرقة، وبسبب سرعته ومحاوله شحذ تركيزه ضرب إبهامه بالخطأ أربع مرات في خمس دقائق. لكن عدم اضطراره إلى استخدام المصباح في نفس الوقت سرّع من وتيرة عمله، رغم أنه كان جحيماً مؤلماً على أطرافه.

بعد لحظة صمتٍ قال بشارة "الميليشيا أمامنا".

قال كورت لنفسه: اللعنة! توقف عن الطرق وأمسك بمصباحه اليدوي، زحف عائداً إلى أعلى الحمولة. توجّب عليه أن يفعل شيئاً آخر، لكنه لم يكن يفهم هذا المشروع سوى بشكل نظري، ولم يسبق له أن بنى شيئاً كهذا من قبل. لقد قام بكلّ تجهيزاته في إضاءة خافتة للغاية، وعلى عجل، وبشكل أشبه بالكابوس. لم يكن الوضع يحتمل أي نسبة خطأ مع كمية المتفجرات التي يُجهّزها، الغلطة تعني هلاك كل من هم على متن الموكب وربما هو معهم، لم يكن قلقاً من فشل خطته بقدر خوفه من نجاحها المدوّي. خشى كورت من احتمالية المبالغة في مشروع قبلته.

إن الأكسجين والأسيتيلين مكوّنان أساسيان لأي عملية اشتعال، إذا تم دمجها بنسب مضبوطة، ووُضِعَا في مكانٍ ضيق. أوقف كورت الخزائين الكبيرين، وملاً ستة أكياسٍ سعة أربعين جالوناً، وربط الأكياس بإحكام مثل البالونات، ثم ثبتهم في آخر الحاوية، وباستخدام المنبّه وولاعة السجائر والأشرطة اللاصقة للأزياء صنع مفجراً موقوتاً. كان قد اختبرها مرّتين، قبل ملء الأكياس بالطبع، ووجد أن المطرقة المتحرّكة للساعة يُمكنها تشييط قاذف الولاعة وخلق شعلة من البوتان المُشتعل.

صمّم الرجل الرمادي قبلته بحيث تُحدث أكبر دائرة من الوميض والضوضاء، وليس الشظايا، لأنه في النهاية لا يريد أن يقتل نفسه هو وإلين، أو بقية من معهم. كلاً، لم يُرد كورت سوى تمويهه. قُبلة يدوية ذات وميض كبير. ولتحقيق هذا التأثير، وضع قبلته الموقوتة أعلى الحاوية بحيث ينفجر سقف الشاحنة دون أن

تفجّر كل الحمولة التي بداخلها، كما أنه لم يكن يرغب في أن يشتعل خزان الوقود، الذي لو طالته سيتحول الموكب بأكمله لقبلة حقيقية تدمر الجميع وتُحوّلهم لأشلاء. كانت هناك عشرات المتغيّرات في الخطة لكنه لم يكن لديه أي خيارات أخرى يُمكنه الاعتماد عليها.

خطته لا تقف هنا، الوميض سيُرهب الميليشيا ويكسبه بعض الوقت الإضافي لفرض سيطرته على الموقف. كافح وقاتل وسحب ودفع خزان الأستيلين الحديدي إلى أعلى حمولة البضائع، ووضعها في الخلف عند الباب المنزلق، بحيث تكون فوهته في مواجهة أكياس المواد الكيميائية القابلة للاحتراق، وقاعدته غير الحادة باتجاه الباب. ثم وجّهها للأسفل قليلاً، وبنى حولها قفصاً خشبياً بدائياً للغاية، عبارة عن قضبانٍ من أعلى وأسفل يُمكن أن ينطلق عليها، مثل صاروخ مقذوف من طائرة أو منصة حربية.

وأخيراً، بعد توقّف الشاحنة، فتح فوهة الصهريج قليلاً، وعاد إلى الخلف، مُحركاً الحقائق أمامه أثناء قيامه بذلك. وفي نهاية الكابينة ضبط المنبّه عند نهاية حيز الشحن، وفحص القداحة ثلاث مرّات ليتأكد من أن مطرقة الساعة ستُلامس عجلتها، ثم تركها هناك بجانب إحدى قنابله.

عاد لكابينة القيادة والعرق ينزُّ من كل مسام جسمه، وهو مُنهك بشكلٍ لا يُصدّق، في الوقت الذي عاد السائق بمركبته للخلف عدّة أمتار، وأوقف محرّكها.

اقترب أحد أفراد الميليشيا على صهوة جواده من نافذة السائق، وقبل أي كلامٍ وجّه له ضرباتٍ من سوطه ثم أمره بالترجّل، قبل أن يعود إلى الشاحنة الأخيرة لضرب سائقها أيضاً.

نزل بالفعل يتبعه بشارة وكورت القلق مما نفذه بيديه في مؤخرة الشاحنة، ومن الجموع المسلحة حولهم، تدور في رأسه كل السيناريوهات الفظيعة كنتيجةٍ لما رتبّه.

نزل سنيور ماريو ليرحب بأصدقائه الذين طوّقوا الموكب بخيولهم، ثم نزلوا من عليها وجروها من أجمتها رافعين بأيادهم بنادقهم، بينما بقي قادتهم على ظهور دوابهم على حافة الطريق يراقبون المشهد في صمتٍ ورزانة، لا يرون ما يستدعي نزولهم والتحدّث لهؤلاء الأجانِب البيض.

تعرف بيانكي على كبيرهم من قامته، وقلادته الثقيلة من التمايم الطينية المربعة الشكل المعلقة على صدره وسط أحزمة الذخيرة المتقاطعة، والتي حسب مُعتقداتهم الدينية هنا تحميه من زخات الرصاص.

اقترب منه بيانكي يُحييه بتحية بلادهم "السلام عليكم" ثم وضع يده على صدره كعلامةٍ للسلام.

ردّ عليه زعيمهم بإيماءة من رأسه دون أن ينزل من على جمّله "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"، كان رأسه على ارتفاع عشرة أقدام في الهواء وهو جالس على جمّله الضخم، كما أنه لم يُبد أي إشارة سلام.

تابع بيانكي حديثه باللغة العربية "أيمكنني أن أعرف لماذا أوقفتمونا يا أخي؟ القائد إبراهيم صديقنا، وقد

سمح لنا بالمرور إلى ديرة".

تجاهله الزعيم، ورفع عينيه للموكب حوله يمسحه بنظراتٍ ثابتة، تلفت الطلياني ليتأكد من أن كل شيء على ما يُرام فوجد سائقه في أماكنهم، والمرأة الكندية لا تزال ملامحها مذعورة، والأمريكي مُبتلاً بعرقه وقد

تبعثر شعره وأطرق بصره في تضرُّع. نظر بيانكي إليه لفترةٍ طويلة. كم بدا شجاعاً بمُسَدسه وهو يواجهُ رجلاً عجوزاً، أما الآن وسط هذه الكتائب المُسلحة فقد بدا حملاً وديعاً.

باستثناء أنه لمحه يسترق النظر لساعته كأنه على موعدٍ مع شخصٍ ما في هذه الصحراء المترامية حولهم، كان هذا غريباً، عاد سنينور ماريو بتركيزه لقائد الميليشيا الراكب على جمله، والذي يبدو أنه جاهل بأي معلوماتٍ حول خط سير الموكب وطبيعة حمولته والغرض من الرحلة أساساً.

"لن يكون هذا جيداً".

فكّر كورت في سرّه ولم يكن يقصد هؤلاء الهجانة، بل الهدية التي حضّرها لهم وعكف على تجهيزها لمدة خمسٍ وثلاثين دقيقة. كانت حياة كل الواقفين في خطر بما فيهم هؤلاء على جماهم التي نهشتها البراغيث.

تقدّم بشارة من كورت ووضع يده على ظهره وسأله بهدوء "هل ستعمل بشكل جيد؟"

نظر له كورت قائلاً "الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه أنها ستفجر مثل نار جهنم" نظر في عيني الخواجة كي يفهم الخطر المُحدق فيهم جميعاً، وبدا جلياً للرجل الرمادي أن بشارة قد فهم ذلك تماماً.

"حظاً موفقاً يا رجل".

أوما كورت برأسه "ولك أيضاً يا فتى!"

بحث كورت بعينه عن إين لتحذيرها مما سيقع أو لإبعادها عن مدى الانفجار، فوجدها تتحرك مع بقية المجموعة التابعة لمنظمة "سيرانزا". اقترب منها لكنه لم يستطع التحدّث إليها، فاللغة الوحيدة المشتركة بينهما هي الإنجليزية أو بعض العربية، وكلاهما مفهوم بالنسبة لأفراد الميليشيا، لذا فضّل الصمت والبقاء بالقرب منها. لكنها بشكلٍ سخيف ظلت مُلاصقة للسنيور ماريو الواقف بشكلٍ ذليل تحت قدمي زعيم الجنجويد. اندفع كورت خلف الإيطالي، وهو الأمر الذي لم يكن صعباً مع قيام الميليشيا بحشدِهم في هذه المنطقة الضيقة على جانب الطريق. حسب كورت المسافة فوجد أنهم كلهم يقفون على بُعد خمسين قدماً من الشاحنة الثالثة المُفخخة التي اختلقها للتضليل. حاول إبعادهم، لكن المُسلحين دفعوهم في الاتجاه المضاد. وقف الجميع في دائرة ضيقة؛ وكان بإمكانه شم رائحة غريزة الخوف تفوح من كل هؤلاء البشر، أنظارهم مُعلّقة على زعيم الميليشيا الذي بيده مصائرهم، يتأملون سطوته الطاغية من ارتفاعه على جمله، ومن حارسه الراكب على حصان خلفه يحمل "آر بي جي"، وكان من الملاحظ أن كليهما استخدم دابّته العالية لإخضاعهم.

نظرت إين لكورت، الرجل الذي تعرفه باسم الرقم 6، وسألته بنبرة يكاد يخنقها بكاء مكتوم وإحساس

بتأنيب الضمير "أكل هؤلاء هنا لأنني أخبرت ماريو بهويتي الحقيقية؟"

أجابها بذهنٍ شارد إذ لا يملك لحظة واحدة الآن للتركيز على مشاعرهما الدرامية ومخاوفها المبالغ فيها "لقد حدّرتك من مغبة هذا لكنك لم تستجيب".

"لقد ظننت أنه سيستدعي قوات الأمم المتحدة".

لم يكن الرجل الرمادي يُنصت لها بقدر تفكيره في أي الحدّثين سيقع أولاً، رفع عينيه يُراقب ويتنصّت على السنيور ماريو الذي لم يكفّ عن الثرثرة مع زعيم الميليشيا منذ ترّجل من شاحنته، لكنه فجأة ودون أسباب قرّر تحويل لغة الحوار من العربية للفرنسية رغم عدم تجاوب زعيمهم معه من بداية المناقشة.

"يمكنك استخدام تليفوني، والتكلّم مع القائد إبراهيم للتأكد من أني صديق له".

سأله كورت بالإنجليزية "هل أنت صديق هؤلاء الملاعين"!

استدار ماريو ليجد الأمريكي خلفه، أراد تجاهله كي يركّز على أزمته مع أصدقائه الذين انقلبوا فجأة لأعداء، لكن سؤال الرجل الرمادي استفزّه فلم يستطع منع نفسه من الردّ عليه "نعم لديّ ترتيباتي معهم".

"فعلًا؟ وكيف ترى فائدة هذا؟"

أسقطه ماريو من حساباته وعاود الحديث مع زعيمهم "ها هو تليفوني إذا أردت التأكّد بنفسك".

قال القائد الذي كان مُرتفعًا بشكل مُستحيل على جملة الضخم "لا، لديّ تليفوني الخاص".

أوماً بيانكي برأسه قائلاً "حسنًا يمكنك التواصل معه إذن".

"القائد إبراهيم تواصل معي بالفعل يا خواجه".

أوماً برأسه مُجددًا وقال "حقًا! من المؤكّد أنه أمرك بتركنا نعبّر".

هزّ الرجل رأسه بالنفي ببطء شديد.

خرجت كلمات ماريو مهزوزةً ومليئةً بالشك "ماذا أخبرك إذن؟"

"هذا ما أمرني به".

قالها زعيمهم بنبرة جافة، ثم أصدر تعليماته باللّغة العربية، فانطلق واحد من رجاله مُعمّم بعمامة أرجوانية ومُلمّم يعتلي حصانًا مخصيًا ضخماً، قاده بسُرعة حول وخلف سرب أفراد القافلة المُحتشدين. غاب عن بصر كورت للحظة خلف بعض الفرسان الثابتين، ولكن عندما ظهر مرّة أخرى كان هناك جبلٌ مشدود في يده. رماه ببراعة فالتفّ حول رقبة ماريو ثم ثبّته في صهوة جواده، وما إن رفس دابّته بقدميه حتى انطلقت تصهّل وتقفز خارجةً من الطريق المُمهّد متجهةً لعمق الصحراء.

وفي ثوانٍ اندفع الطلياني العجوز للأمام مسحولاً وجسده الهش يترجرج فوق الرمال والحصى والزلط. اصطدم جسمه بثلاثة أو أربعة من مُساعديه، مما أبعد الرجال عن الطريق أو أوقعهم أرضًا كعرائس البولنج. أصدرت حوافر الحصان وارتطام جسده الغليظ بالأرض الصلبة والحجارة المسنونة أصواتًا عنيفةً جعلت إلين والش تصرخ بشكل هستيري. ابتعد الحصان براكبه لعشرة.. عشرين.. خمسين، مائة ياردة حتى لم يُعد ظاهرًا في الأفق من المنظر سوى عفرة الرمال المُتطايرة في الهواء.

نظر كورت لساعته يحسب الوقت المتبقي على قنبلته الموقوتة، ثم حاول إبعاد الناس عن الطريق بقدر الإمكان.

زعم زعيم الميليشيا من فوق جمّله بلغة عربية سودانية أقرب للهجة الخليج، وأياً كانت اللكنة فقد تعرّف كورت على ما قاله الرجل لأنها كانت عبارة متعارفاً عليها في أي دولة عربية.

"اضربوهم حتى الموت!"

انطلق رجال الميليشيا يضربون الناس العزل بشراسة بأعقاب بنادقهم ويدهسونهم بحوافر دوابهم. انهال نصف دزينة من الرجال على أجساد تسعة رجال وامرأة واحدة؛ ومضوا في أعمالهم الوحشية وسط صراخ وصيحات وتوسّلات الضحايا. وفي الوقت نفسه بدأ هؤلاء الرجال على الخيول والجمال في دفع طاقم الموكب أكثر وأكثر، مُستخدمين أجساد الحيوانات الضخمة لسحق المجموعة المثيرة للشفقة من المدنيين العزل.

أخذ كورت ضربةً في كتفه الأيمن وهو ينظر في الاتجاه الآخر. فدفعته جانباً وأسقطته تحت أقدام جملة زعيمهم. رفع نظره يتأمله فإذا بقائدهم هو أيضاً يبادله الحملقة بشكل انتقامي، لكن كورت تجاهله وأخفض عينيه نحو ساعته.

تلقت برأسه يبحث عن إين فوجدها وقد انطرحت بجانبه. بدأت تنهض وكأنها تريد الهرب، لكن لم يكن هناك مكان أو سبيل لهذا، فقد حاصرتهم الميليشيا بشكل كامل.

عرف كورت أنه إن كان هناك مكان آمن لها فهو موضعها الآن وليس سواه، ووجهها للأسفل على التراب.

تحرك بجسمه وقفز عليها كأنه يُشكّل لها درعاً بنفسه، ثم استخدم ذراعيها لتغطية أذنيها وما تبقى من رأسها.

قال لنفسه وهو يشد جسده ها نحن ذا!

وفجأة من آخر شاحنة، تلك التي ركب فيها بشارة وكورت، أتى صوت فرقة مكتومة انتقل ترددها عبر الهواء بشكل مُزعج لكنه عابر، مثل صوت عادم سيارة مكتوم. لم يكن أثرها عشر ما توقعه كورت، بالأخص وسط جلبة الصراخ وضرب الرجال للأبرياء من حولهم.

راح يفكر في الخطأ الذي ارتكبه بخصوص تركيبها مما جعلها بهذا الخفوت.

لكنه جعل إخفاقتها آخر همّه وأدار عينيه حوله يُراقب ردود أفعالهم.

استرعى الانفجار المحدود انتباه رجال الميليشيا، وحتى المدنيين العزل المنبطحين على الأرض يحمون أنفسهم بأيديهم، أو حتى المستلقين أرضاً حول جنترى ووالش.

تصاعد الدخان من نوافذ الكابينة، ومن خلال فتحات الباب المنزلق في الجزء الخلفي من الشاحنة. لكن السقف لم ينفجر، ولم يحدث أي انفجار ارتجاجي، وبالتأكيد لم يكن هناك أي شظايا.

أطلقت الأوامر باللُّغة العربية، فذهب بعض المسلحين للشاحنة التي صدر منها الانفجار ليطمئنوا على سلامة الشُّحنات التي خطَّطوا لنهبها والاستفادة من خيراتها، وحين وصلوا عندها استغربوا أن التفجير تمَّ أعلى سطح الشاحنة ولم يمَسَّ أي شيءٍ من الحمولة.

لاحظ زعيمهم أن هناك بلبلة، فكرر أمره لهم بنبرةٍ عصبية هستيرية "أطلقوا النار على الجميع".

تحرك الرجال، وتشكَّلوا في صفٍّ واحد في مواجهة ضحاياهم المنبطحين بجوار الشاحنات.

رفع الرجال بنادقهم الكلاشينكوف وأنزلوا صامات الأمان ووجَّهوا فوهاتها نحو ضحاياهم.

شعر كورت باليأس وهو يقف بسرعة. ماذا بمقدوره أن يفعل وهو رجل وحيد أعزل أمام عشرةٍ من البلطجية المسلحين. مدَّ يده خلف ظهره تحت قميصه ليُمسك بشيءٍ مُحبَّباً هناك.

وهنا دوى الانفجار الثاني من الشاحنة الأخيرة، ورغم أن المرحلة الأولى من عملية التضليل قد فشلت فشلاً ذريعاً، إلا أن المرحلة الثانية كانت تُحفة فنيَّة لعينة.

عندما اقترب الرجال من مؤخرة الشاحنة، دوى صوت انفجارٍ آخر، ثم صرخة شيطانية عالية لانطلاق القنبلة. انطلق خزان الأستيلين من الخلف، بسرعةٍ صاروخية لا تلاحظها العين، مما جعله يرشق زجاج كابينة القيادة ويستقر في مؤخرة الشاحنة الضخمة التي تسبقه وتزن أربعة أطنان.

انكفأ كورت على إلين يتأكد من أنه يحصن جسمها كله ويحميه من أي شظايا متناثرة في الهواء.

علت نار الانفجار كمظلةٍ غطت كل المُستلقين على بطونهم، وهجم على طبقات الأذان دويٌّ يُصمُّها، واندفعت الأدمغة داخل الجماجم بارتجاجٍ يُشبه لطمَةً قوية. شعر كورت باللهب يلفُّ جسده، ثم يتبدد في لحظة. كما شعر بصعوبةٍ في التنفس إذ امتصت النيران المندلعة معظم الأكسجين في الهواء، لكنها سرعان ما تراجعت وتمكَّن من التنفس.

قاوم ألم صدره، وذهوله، ورفع رأسه ليجد أن الضربة الارتجاجية قد قتلت أحد البلطجية على الفور، بينما سقط ثلاثة آخرون عن خيولهم، كما اختفى مُقاتِل آخر، وهو أحد الرجال الذين تحركوا بين الشاحنتين، من الوجود ببساطة. ولم يكن هناك دليل على وجوده سوى جواده الذي هرول يسهلُ في الصحراء مذعوراً من الصوت الجبار والنيران الهائلة. كما أُصيب آخرون بحروقٍ وجراحٍ بفعل الشظايا المتهاوية من السماء كالأمطار.

بعد ستِّ ثوانٍ من الانفجار، كانت بقايا الحطام المُشتعلة لا تزال تتساقط وتتناثر من حولهم. فزعت الخيول والجِمال على حدِّ سواء؛ ورقصت وركضت وتمايلت على أرجلٍ مُرتعشة.

حمى المدنيون أنفسهم بتثبيت أجسامهم في وضعية الانبطاح فكانوا أقلَّ تضرراً من المسلحين الذين احترقوا، نهض كورت مُترنحاً بعدما اطمأنَّ على إلين. ألقى نظرة خاطفة على الشاحنة الرابعة فوجد مقصورتها مُتبعجة وسوداء لكنها سليمة، وعجلاتها وهيكلها وخزان الغاز والحاوية المُسطحة لا يزالون في أماكنهم، ولكن جوانب وسقف الحاوية قد اختفوا بكُلِّ بساطة، بينما تصاعد الدخان من قوارير الغاز،

وتناثرت بقية البضائع أرضًا وهي تحترق، أو حتى لا تزال تتطاير في الهواء. استدار كورت الآن بعدم استقرارٍ بسيط، وخطا خطوةً كاملة ومُرتبِكة نحو قائدهم الرابض على سرج جملة لا يتزعزع ومعه حارسه على حصانه. حملق الزعيم في كورت إذ كان الخواجة الأبيض هو الوحيد الواقف على قدميه وسط هذا الجحيم، رفع نحوهً بنديته الكلاشينكوف لكنه بدا من ترنح جسمه وارتعاش يديه غير موزون، ضرب كورت فوهة بنديته إلى الجانب يسراه المفتوحة، ومدَّ يده لظهره يسحب سلاحه المُخبأ.

أخرج المطرقة-الفأس من ظهره، رفعها فوق رأسه، وبعزم ما عنده وفي ساق زعيم الميليشيا غرسها. لم يصرخ الرجل، لكن رُكبتة انتفضت للأعلى، وأمسك بها في ألم. ظلَّت الفأس مغروسةً في عظم رأس الرُكبة وعميقًا في عظم الفخذ، وانسحب المقبض من قبضة كورت. انزلق الرجل من على السرج على الجانب الآخر من المهاجم، ثم تهاوى غاطسًا في الرمال وسقطت بنديته معه.

هرول كورت مُبتعدًا عن الجمل ليتفقد حال إلين التي هرولت بعيدًا عن الرجال والشاحنات، على يديها ورُكبتيها، سامعًا رصاصات الكلاشينكوف تمرق فوق رأسه لا يعرف من أين مصدرها وكم عدد أفراد الميليشيا المُتبقين أحياءً بعد هذا التفجير، ثم تدارك أن انفجارًا آخر سيكون أعنف وأكبر على وشك الوقوع حين تصل النيران لخزانات وقود الشاحنات، وساعتها لن تُبقي أي أثرٍ لأي كائن حيٍّ على مقربة منها، ستصهر كل ما يُقابلها من لحوم بشرٍ أو هياكل شاحنات.

شجعته رشقة أخرى من نيران الرشاشات من خلفه على أن يجد لنفسه سلاحًا. ألقى رشاش قائد الميليشيا على الجانب الآخر من الجمل، ثم بدأ يُسرع ليلحق به لكن فجأة اصطدم شيءٌ به أطاحه من الخلف. و فقط بعدما دُهِس بواسطة على الأرض استشعر وبرَّ جملٍ مقتول فوقه، تقلب تحته فرأى عينيهِ الواسعتين مفتوحتين على آخرهما ولسانه المبلل باللعب مُتدليًا وأسنانه الكبيرة ورموشه الطويلة مُحضبين بدمائه، كان الحيوان قد قُتل برصاص بنديته، وبعد ثانية أو ثانيتين من الحكِّ في التراب بأصابعه، أدرك جنترى أنه لا توجد طريقة للتملص من سطوة مائة رطلٍ من اللحم الميت تعصره.

مدَّ يديه خلف ظهره محاولًا التفتيش في سرج الجمل باحثًا عن أي أداة حادة يفكُّ بها حبسته أو على الأقل يدافع بها عن نفسه إذا تعرَّض لهجوم.

لكنه لم يجد أي شيءٍ في مُتناول يده.

استمر القتال من حوله. وعلى بُعد خمسة أقدام من وجهه، رأى سائقًا من سائقي "سبيرانزا إنترناسيونالي" يجثو على رُكبتيه، والدماء تسيل من أذنيه من ارتجاج السيارة المُفخخة الذي تسبَّب فيه جنترى. ومن خلفه كان هناك آخرون، من رجال المنظمة والبلطجية، يتحركون جميعًا في اتجاهاتٍ مُختلفة وبسرعاتٍ مُتفرقة، وقد كان كُلُّ منهم في نقطةٍ فريدةٍ من نوعها في الجدول الزمني للتعافي من موجة الصدمة الوحشية. حاول أحد رجال الميليشيا، المُصاب بدوارٍ من الانفجار، الصعود مرةً أخرى على ظهر جملة، لكنه فشل في ذلك. لم ينتظره الجمل ليُكرِّر محاولته، بل تراجع إلى الوراء مُبتعدًا عن العربي الذي استسلم أخيرًا. ثم لمحّه يسحب الآر بي جي من على جانب الجمل ويرفع فوهته نحو المدنيين، لم يكن بوسعها فعل أي شيءٍ يحمي به الناس وهو مدهوس. تردَّد الرجل للحظة، وعرف جنترى أنه قريب بما يكفي من ضحاياه المقصودين، الذين كانوا

على جانب الطريق، ولا شك أنه سيُفجّر نفسه في محاولة القضاء عليهم. لكن الرجل كان مُرتبگًا، وليس في وعيه. صوّب وداس على زناده، لكنه نسي صمام الأمان، فأنزل سلاحه وفتحته وأعاد شحنه، ثم وجّهه نحو حشد الرجال المُترنّحين.

أطلق الرجل قذيفته فارتدّ جسمه للوراء حتى أنه انطرح على الأرض، وبسبب خللٍ ما في السلاح انفجر في مكانه وأردى مُطلقه قتيلاً.

خَلّف الانفجار موجةً من التراب والنيان حاول كورت الاختباء منها بالنزول أكثر تحت الجمل الجاثم فوقه ليحمي نفسه من أي شظايا مشتعلة، فبدأ في حركته مثل سلحفاةٍ تُدخّل رأسها في درعها. نظر كورت إلى الوراء مرّةً أخرى فرأى بشارة يقفز على الجمل الميت وينحني ليحمي نفسه مُمسكًا ببندقية كلاشينكوف يتصاعد الدخان من فوهتها.

ابتسم وهو ينظر إلى كورت قائلاً "لقد فجّرت الشاحنة أيها الأمريكياني".

نهض وضرب من بندقيته على هدفٍ لم يره كورت وهو محشور تحت الجمل، حيث دُفِن وجهه في التراب. كانت النيران المُتبادلة مُتقطّعة، لكنه رأى الغبار يتصاعد بين موقعه والشاحنات في الطريق. ورأى السائق يهرول، ويلتقط من عنصر الميليشيا الميت الذي حاول ضربهم بالآر بي جي، ببندقية من حزامه، ويطلق منها بشكل متهور عشوائي يفقد لأي مهارة في التصويب على أي أفرادٍ تابعين للجنجويد. اخترقت الرصاصات الهواء فوق رأس جنترى. انحنى بشارة ليتفادى هذا التهديد الجديد، قبل أن يستدير ويصرّخ في وجه الرجل الأكبر سنًا. وتمنّى كورت لو يسأله أين يصوّب بندقيته اللعينة؟

سأله بشارة وهو لا يزال يبتسم "أستقاتل معنا أيها الأمريكياني أم أنك مُستمتع بوضعك هذا؟" بدأ بشارة متحمسًا لمحاربة الميليشيات التي دمّرت قريته وقتلت واغتصبت وشرّدت أهله بأوامر من الرئيس عبود.

قال كورت "أنا عالق هنا" حاول الخروج من تحت الجمل، لم يشعر بألم بقدر ما كان هناك ضغط هائل على ركبتيه فدعا ألا يخرج من تحت هذا الحيوان العملاق بكسرٍ في أحد أعضائه.

أطلق بشارة رصاصةً أخرى فوق الحيوان الميت، الذي وقّر جسده الطويل السمين غطاءً مُمتازًا له، لكن كورت عرّف أن رجال الميليشيا على الجانب الآخر يُمكن أن يُحيطوا بمكانه هو وبشارة في أي لحظة.

علّق بشارة بندقيته حول عنقه، وأخذ كورت من كلتا ذراعيه، لكن الأخير لم يتزحزح. تدخّل صديقٍ لبشارة من نفس قبيلته، وحاول مساعدة كورت، فثبّت بندقيته حول صدره وشده من يديه كي يُجرّجه من تحت الجمل الميت، حاول الأمريكي أن يضرب بقدميه في الرمال مُستخدماً قوة الدفع بشكل عكسي كي يخرج من حبسه، أتنهم طلقات من بندق الميليشيا فانبطحا فورًا، انتظروا حتى توقّف ضرب النار ثم جرّبوا مرةً ثالثة بعزم أكبر، وعندئذٍ شعر كورت أنه بدأ أخيرًا يتحرّر من تحت الجمل النافق. حين خرج بكامل جسده تفقّد الرجل الرمادي أعضائه وعظمه ولم يجد شيئًا مكسورًا، لذا أبقى رأسه مُنخفضًا وجثا على ركبتيه.

تلفّت حوله فوجد الرجل الذي ساعد في تخليصه وقد استلقى على بطنه يتحاشى طلقات الرصاص، أما بشارة فكان بكل شجاعةٍ واقفًا يُمسك بندقيته الكلاشينكوف يضرب هدفًا غير مرئي على الجانب الآخر من الجمل.

انطلقت دفعة من النيران من خلف كورت، وهكذا استدار الشابُّ بشارة، عندما أته طلقه أسقطته ميتاً.
التقط كورت البندقية المُلطخة بالدم والتراب ونهض لِيَتَّبِعَ الهدف الذي قتل صديقه، فوجدهم ستة من
عناصر الميليشيا يُهرعون على جِمالهم وجيادهم، ضرب عليهم فأردى أحدهم من فوق سرج حصانه قتيلاً.

أنَّ الرجال وصرخوا. واحترقت المركبات ودخنت. تشبَّع الهواء برائحة حريق وقود الشاحنات والجِلد البشري المتفحم والدماء السائلة في كل مكان في خليطٍ مُقزز يبعث على التقيؤ، دار كورت بعينيه يبحث عن إلين وسط الباقين على قيد الحياة، فرآها على بُعد خمسين ياردة تمشي بخطى منهكة نحو جثة السنيور ماريو بيانكي الملقاة بعيداً أسفل شجرة سمينة الجذع. بدت غير مُصابة بأذى. ثم نظر إلى جثة الطلياني، المُكومة على شكل كُرة، مثل كومة من الخرق المتسخة، وقد جرت جداول المياه في الأرض الجافة من حولها. لم يكن قد مضى على موته أقل من دقيقة، وها هي أسراب الذباب قد احتشدت بالفعل حول جرح رقبته، تمصّ وجبتها الدسمة من الدماء الحارة الطازجة.

رأى رجلاً آخر ميتاً، ووجهه للأسفل، على بُعد عدّة ياردات. ولم ينبج من طاقم منظمة "سيرانزا إنترناسيونالي" سوى ستة أفراد، نزع اثنان منهم من آذانها من جرّاء الانفجار الذي دبره كورت. ربما سيعيشان بقية حياتهما بصمّم مُزمن لكنهما على الأقل نجوا. تلطّخت أذرع أو أرجل اثنين آخرين بالدماء، لكنه لم يتبين إن كانت من انفجاره أم من جرائم المهجّانة التي هاجمت الموكب. أما الدابة الوحيدة التي ظلّت على قيد الحياة، فقد فرّت لكنها توقفت على بُعد خمسين ياردة، إذ اعتادت كل هذه الجمال والخيول التي قضت جزءاً من حياتها تحت خدمة عناصر الميليشيا على أصوات الرصاص والتفجيرات، على عكس حيوانات الرعي الطبيعية التي في موقف مُماثل كانت ستظل تجري في الصحراء حتى يُنهكها العطش والشمس والحرّ.

مسح كورت الطريق بعينيه فوجد الحطام المشتعل في كل مكان، وفي أي لحظة قد يقع انفجار جديد ناتج عن لمس النار لحزّانات وقود بقية الشاحنات. كانت فوضى بمعنى الكلمة.

هُرع الرجل الرمادي لأقرب فردٍ منه وقال له أمراً "حرّك أول شاحنتين، وخذ الناس وجميع الحيوانات إلى قارعة الطريق، إذ سيحدث انفجار جديد وهذه المرة لن يُبقي أحداً على قيد الحياة".

بعد لحظة، ذهب لإلين، فوجدّها راكعةً وسط الصحراء على رُكبتيها بجانب جثة السنيور الطلياني تنوح وتبكي بحرقة على مصيره البشع، إذ كان الحبل لا يزال ملفوفاً على رقبته، وملابسه تقطّعت وجلد وجهه تمزّق من الاحتكاك بالطوب والحصى.

بكت والش بتنهيداتٍ خافتة.

"أصابك أي أذى؟"

سألها كورت، وإن كان قد غير نبرته بعض الشيء إذ قرّر ألا يكون لطيفاً معها بعد الآن، لو سمعتُ كلامه من البداية لما تعرّض الموكب كله لهذا الدمار ولما سُحِلَ السنيور.
قالت وقد لاحظت وجوده "أنا بخير، ولكن ماريو مات!"
قال وهو ينظر إلى الجثة الملتوية بشكلٍ غير طبيعي "اللعنة عليه، هو من لفّ هذا الحبل حول رقبتة بتعاونه معهم".

لم تردّ عليه إلين، فقط رمقته بنظراتٍ حزينة ممزوجة باشمئزاز من بروده المتعالي عن مأساوية الموقف.
بعد بضع ثوانٍ، دوّى انفجار هائل جديد. وهذه المرة من الشاحنة الرابعة بعدما اشتعلت النيران في خزان وقودها، وكان قوياً حتى إن الدخان تصاعد للسماء مثل منطاد يُحلق، وشعر جنترى بالحرارة حتى على بعد مائة ياردة. شاهدت إلين ذلك بدورها، وبعد لحظةٍ من الصمت شَبَّت النيران في الشاحنة الثالثة وبدأت تلتهمها شيئاً فشيئاً.
أسرع سائقو المنظمة يُخْرِجون بقية الشاحنات بعيداً عن دائرة الجحيم المُتفاقمة التي تأكل كل ما تطوله من بشرٍ وهياكل معدنية.

صرخت إلين في كورت قاصدةً السائقين "إلى أين يذهبون؟"
استمرّت الشاحنة الأولى في طريقها، وتصاعدت خلفها سحابة من الغبار.
"أغلب الظن أنهم سيواصلون خط سير رحلتهم إلى المعسكر".
تحركت الشاحنات ثم توقّفت، وكان بمقدوره تخمين أن هناك جدالاً دائراً الآن داخل كبائن القيادة لانتخاذ قرارٍ نهائي بشأن الخواجات إن كان عليهم انتظارهم أم تركهم وراءهم، وللغرابة لم يتنبّ كورت أي خوفٍ من البقاء هنا.
بدأ يسير عائداً إلى الطريق قبل أن يقول "لا تقلقي، سنكون بخير". لكنه لم يكن واثقاً من نفسه كما أوحى لها صوته.

"اللعنة".
جثا كورت على رُكبتيه يتأمّل جثة بشارة التي تفحمت أجزاء منها وما بقي صار وليمةً بدمه للدُّباب النهم. اعتداء آخر غير ضروري على الشاب الذي ساعده كثيراً.
سألته إلين "ما الأمر؟"
"للأسف كان فتىً رائعاً".
قالت له "لم تعرفه لأكثر من ساعة".

حملت فيه باستغراب إذ لم تفهم مشاعر الصداقة التي كوَّنها الرقم 6 مع شاب سوداني عرفه منذ ساعة، ثم راحت تُقارن بحسّها الأنثوي وقوة ملاحظتها الفارق الهائل بين نظرات الاحتقار التي رماها على جثة

السنيور ماريو، ونظرات الإجلال التي رمق بها جثة الشاب السوداني صديقه. كانت قد أحصت ثماني جُثث مُلقاة على التراب، بما في ذلك جُثة بشارة.

"لقد أنقذنا، هذا الشاب هو أفضل مَنْ عملتُ معهم في الفترة الأخيرة، ذكي ومُلاح ومتعاون، بفضلُه نحن أحياء الآن يا عزيزتي".

رأت إلين شاحنات الإغاثة تدور لكنها عبرت بجانبهم دون أن تتوقّف بل تجاوزتهم بسرعة متزايدة، بدأت إلين تركّض نحوها ملوّحة بذراعيها بشكلٍ محموم.

صرخت "لااااا!"

خمن كورت أنه لو دار أي جدالٍ بين السائقين فهو ليس بشأن ترك الخواجات أو أخذهم، فقد أيد الجميع الخيار الأول، وإنما كان النقاش حول وجهتهم التالية التي من الواضح أنهم حسموها.

سألته بنبرة يُغالبها الغيظ واليأس "والآن، ماذا سنفعل؟"

تجاهلها الرجل الرمادي، وسار بين الجثث يقلبها تارة بيديه وتارة بقدميه، قبل أن يجثو على رُكبتيه ويلتقط من جثة محارب جنجويد قربة ماء صغيرة علّقها على ظهره، ومخزناً كاملاً لبندقية كلاشينكوف، وسكيناً مزخرفاً من غمده، سحبه ليتفحص نصله قبل أن يُعيده تاركاً إيّاه على صدر القتيل.

سألته مرّة أخرى وهي تتحبّب "ماذا سنفعل؟"

راقبته وهو يقلب سائق السيّارة الميت على ظهره، ويركع على رُكبتيه ساحباً نظارة شمس من جيب صدر قميصه الملطّخ بالدماء. وضعها على عينيه ونظر للحيوانات الهائمة في المكان.

"أتعرفين كيف تركيبين حصاناً؟"

"أعتقد ذلك، ولكن هذا يعتمد على المسافة".

تفقد كورت ساعته التي تحتوي على خاصية "الجي بي إس" لكنه وجدها مُعطّلة، عظيم، ربما يتعيّن عليهم قطع مسافة تتراوح بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين ميلاً، سحب من الرمال بندقية كلاشينكوف أخرى، طوى السونكي ليُقصّر طولها بشكل كبير، ووضعها على ظهره قائلاً "ثلاثون ميلاً، مسافة لا بأس بها".

تفقد عنصرًا من عناصر الميليشيا مكومًا جريماً لا يزال على قيد الحياة، فتّشه باحثًا في ملبسه عن أي وسيلة نافعة، لكنه لم يجد شيئاً فتابع حديثه قائلاً "أتمنّى ألا نقابل في طريقنا مزيداً من هؤلاء الأوغاد".

رفعت إلين عينيها نحو كابينة إحدى الشاحنات التي تركها وراءهم سائقو منظمة سبيرانزا، وقالت: "لو كان اللاسلكي لا يزال يعمل، ستمكّن من طلب المساعدة".

نظر كورت إليها قائلاً "نعم، لقد كان حلاً مثاليًا نحصد الآن نتيجة، فلم لا نكرّره مرّة أخرى!" سكت للحظات ثم أردف "كيف في رأيك عرفت الميليشيا أننا على متن هذا الموكب؟ لقد تصنّت جهاز الأمن الوطني السوداني علينا، لم يكن الأمر اعتباطياً، وحين حدّدوا إحداثيات موقعنا أرسلوا عصاباتهم للتخلّص منّا، أمرين إيّاهم بذبح أي شخص يقابلونه حتى لا يبدو الأمر وكأنه عملية اغتيال حكومية مُنظمة غرضها الحقيقي تصفية اثنين من الخواجات.. صدّقيني، من الأفضل لنا كي نبقى على قيد الحياة ألا نستخدم هذا

اللاسلكي اللعين إطلاقاً، حين يصل سائقو الشاحنات وموظفو الإغاثة لن يعترفوا أننا على قيد الحياة، نحن ميّتان بالنسبة للكل وعلينا استخدام هذا لصالحنا".

جثا كورت فوق جثة عربيٍّ آخر جريح من عناصر الميليشيا، كان مُستلقياً على ظهره ويتنفس ببطءٍ في أزيزٍ خافت.

سألته إلين "لكن ماذا عنهم؟"

"عمّن؟"

"عنصري الميليشيا اللذين على قيد الحياة، إنهما مُصابان".

"ماذا عنهما! "

"أيمكننا مساعدتها؟"

"أأنتِ طيبة؟"

"لا، ولكن...".

"ولا أنا، اختاري أحد الخيول، دعينا نتحرك فوراً".

حملتُ إلين في الأمريكي الملتحي بنظرات استهجانٍ "أين قلبك لتتركها وراءك بهذا الشكل، ماذا لو لم يأتِ لإنقاذها أحدٌ؟ ألم تفكر في الحيوانات الضارية التي تمتلئ بها الصحراء، وستجتمع هنا بحلول الليل لتستمتع بمأدبتها. هؤلاء بشر يا رقم 6، لا يُمكنك تركهم خلفك ليموتوا".

"اسمعيني جيداً، خُذي حصاناً وسأركب أنا جملاً، الجمال لا تعطش كالخيول، لكننا في حالة واجهنا عناصر من الميليشيا في طريقنا سنحتاج لسرعة الأحصنة للفرار منهم".

سحب عمامتين من رأسي اثنتين من الفرسان القتلى، ودسّتهما في الحزام الذي كان قد انتزعه لتوّه.

صرخت إلين بغضب "اسمعني أنت، إما نأخذ هذين المُصابين وإلا لن أتحرك من مكاني يا رقم 6".

تجاهلها جنترى وواصل ملاحظاته كأنه لا يسمعا "الجمال بالمناسبة سريعة جداً، لكن إذا لم تتمكّني من السيطرة عليها، مثلي، ستفقدنيها بسهولة...".

"ألا تسمعي، إنهما يحتاجان نقلهما لمستشفى بشكلٍ فوري".

توقّف كورت عن حديثه، ناظرًا إلى الرجال الجرحى "لمشركة تقصدين".

"إنهما حيّان وأنا لن أذهب لأي مكانٍ دونها، ألا تفهم ما أقوله! "

نظر إلى المرأة التي تصرخ مُتسائلاً "حقاً! "

"نعم حقاً، لا يُمكننا ترك جريحين على قيد الحياة بهذا المنظر في الصحراء، ألسنت إنساناً".

تأوّه أحدهما بصوتٍ سمعه كورت وإلين معاً.

حملتُ فيها كورت بشكلٍ أرعدها، أوماً برأسه، ورفع البندقية المُتدلّية من عنقه، فأجفلت بخوف. ودون أن يرمش له جفن، استدار وأطلق النار على كليهما، فتدفّق دمٌ أسود من صدريهما وصمّت للأبد.

بعد تلاشي صوت الطلقة الثانية في الصحراء، ترك جنترى بُندقته مُعلّقة بحبلها أمامه وقال "ها قد حُلّت المشكلة، لنذهب".

شحب وجه إين والش من الرُعب، ثم احمرَّ وجهها بعد ثوانٍ من الرُعب. وجرت وراءه وهو يمضي نحو جملة، تُسكه من ذيل قميصه، دارت به حرفياً لكنه لم ينظر إليها؛ وبدلاً من ذلك واصل السير للأمام إلى جانب الشاحنة المحترقة. وبَخته بزعيقٍ هستيري وهي تركّض بمحاذاة الشاحنة، محاولةً التقدّم أمامه "أنت لست أفضل منهم يا".

قال بجدية "إنهما ميتان الآن، أما أنا فحيّ، لذا أعتقد أنني أفضل منها بكثير". نجحت إين أن تسبقه فوقفت أمامه تمنعه من المُضيّ، فما كان منه إلا أن أمسكها من معصمها مُدبراً ذراعها الرفيعة خلف ظهرها دافعاً إياها بعيداً عن طريقه، ثم رفع بغضبٍ مؤخرة البندقية الكلاشينكوف بيده الحرة كما لو كان سيضربها في وجهها.

لم تخف إين؛ فقد دفعها غضبها إلى ما هو أبعد من قلقها على سلامتها الشخصية "آه، أنت تضرب النساء أيضاً، أتحسب نفسك رجلاً قوياً بهذه الهمجية؟ أنت مجرد حيوان أعدم اثنين جرحى بدم بارد". "أأنت غبية! كيف كُنّا سنمشي بهم حوالي ثلاثين ميلاً في الصحراء وهم ينزفون؟ كُنّا سنموت ونحن نحاول".

"كُنّا سنحملهم على ظهور الخيول!"
"وبالتالي نقطع الطريق في وقتٍ أطول، أتريد أن يأتي علينا الليل ونحن لا نزال هنا في الصحراء؟"
"كلها حجج وأعدار، اعترف أنك أردت قتلها بدلاً من كل هذا اللفّ والدوران".
أخفض بُندقته وترك يدها قائلاً "سأعترف بهذا، أنا لا أكثرث بهذين الرجلين، ولا لأي جثة حولنا هنا باستثناء بشارة الشهم الجدد".

نظرت إلى الجثث ثم إليه وسألته "من تكون بالضبط؟"
قال وهو يصعد على سرج فرسٍ عربي رمادي كبير "أنا أي شيء في خيالك، شخص قدر بلا قلب معدوم الرحمة يُعدم جرحى، مجرد أحمق أنقذك عدة مرات من موتٍ مؤكد على مدار الثماني عشرة ساعة الماضية إن لم تخني ذاكرتي، يُمكنني إخراجك من هنا على قيد الحياة، لكن عليك أن تدعيني أقوم بعملٍ".
"عملك هو قتل الجرحى المساكين؟"

"ليس إن كان بإمكانك المساعدة، ولكن علينا أن نمضي، وقتل هذين الأحمقين وسيلتنا لتحقيق هذه الغاية. كان بإمكانك الانتظار ثلاثين دقيقةً حتى يموتا من تلقاء نفسيهما، لكننا لم نملك للأسف رفاهية الانتظار. ثم ألم تتخيّل للحظة واحدة مصيرنا الدموي إذا وصلهم زملاؤهم فأشاروا لهم في أي اتجاه رحلنا ومن ثم سيتبعوننا حتى يدركونا ويصفوننا. أنت لا تعرفين أي شيء عن أفاعيل الميليشيا هنا، إنهم يقتلون العزل

ويغتصبون النساء ويحرقون الأطفال أمام أهاليهم من أجل التسلية والمتعة. عدد ضحاياهم حسب آخر تقديرٍ مُعلن وصل لأربعمئة ألف، أهذا رقم طبيعي لك يا حامية حقوق البشر؟ يمكنك أن تبكي عليها كي تشعرني باتساقٍ مع ذاتك لكنني لن أشعر بأي ندم حين أُعَدِم قَتلة النساء والأطفال".

سكتت إين لشوانٍ وسالت دموع على خديها المتسخين بالتراب. حدقت فيه للحظةٍ قبل أن تقول "حسنًا، فهمت، إنهم قتلة نساء وأطفال، وأنت؟ ماذا تكون بأفعالك الدموية هذه يا 6"؟

ثبَّت الرجل الرمادي بندقيته على ظهره، ثم أحكم قبضته على لجام الفرس الكبير. نظر إلى إين والش، ورفس بساقيه جملةً في جانبيه وهو يُجيبها "أنا قاتل السفّاحين".

بعد ثلاثين دقيقة انطلق الرجل الرمادي مع إين على بُعد ميل شمال الطريق الصحراوي المؤدي إلى معسكر النازحين، مُتَّجِهِينَ شَرْقًا يقطعان الطريق الممهَّد خارج الصحراء. كادت فرس والش الكستنائية أن تُخالفها مرَّتين؛ فقد اعتادت على يدٍ أثقل تتحكَّم في اللجام. بينما قاد جنترى حصانه بمهارة، وقاد فرسه ببراعة دون أن يتكلَّم.

ورغم أنها خلفه، إلا أنه استشعر طاقة الغضب والكرهية الخارجة من نظراتها في ظهره، حتى أتاه صوتها مملوءًا بالانتقاد وهي مُستمرَّة في توبيخه "أنت مجرم حرب وتدرِك هذا، أليس كذلك؟ لقد أعدمتَ جريحيين أمام مُحقِّقة تعمل لصالح المحكمة الجنائية الدولية، وهو ما يجعلني أتساءل أي جرائم أخرى كنتَ سترتكب في الطبيعي لو كنت بمفردك؟"

مُتجاهلاً تعنيفها اللساني مسح كورت الصحراء بعينيَّه في ضباب الظهرية باحثًا عن أي سُحب غبارٍ ثابتة أو تتحرَّك ببطءٍ أمامه، وهي علامات تدلُّ على اقتراب الخيول. لمح سحابة غبار في الجوِّ لكنها ناتجة عن الرياح وليست عن حوافر الدوابِّ أو إطارات سيارات.

واصلت إين تبيخها له "لقد أتيتُ إلى هنا لتقديم مجرم للعدالة، فقابلتك أنت، صحيح أنك لستَ على نفس خطورته وجرائمك ليست بنفس مستواه، لكن صدَّقني حين أقول لك إني لن أفلتك حتى أفدِّمك للعدالة على ما ارتكبته اليوم، حتى لو سأنفذ هذا بعد سنين، لن أتركك يا 6 وهذا وعدُّ مني لن أراجع فيه، أنسمعني؟"

أدار حصانه قليلاً نحو الشمال الآن، أراد أن يبقى بعيداً عن أنظار أي حركة مرور عابرة، وتمتم قائلاً "هل سبق أن جرَّبت الصمت قليلاً؟" بدا الطريق إلى الأمام، أي طريق الخروج من الوادي والعودة إلى أحراش الساحل، خالياً حتى هذه اللحظة. قال بصوتٍ أعلى "أتعرفين من قتلها فعلاً يا إين؟ غباؤك، أنت لا تُنفذين أي شيءٍ أنصحك به منذ تقابلنا، إذا كنتُ أمثل أمام محكمة، فقط في هذه الحالة ستجديني أقول ما تُريدين سماعه، لكن طالما نحن على أرض العدو فعليك أن تمتثلي لأوامري".

تطلَّب الأمر بعض الوقت لتستوعب ما قاله الرجل الرمادي، فقد اعتادت على تجاهله لها. استغرقتها الأمر قليلاً للرد، وحتى ذلك الحين، بدت كلماتها غير مؤثِّرة "أنا لستُ محامية في محكمة". لم يردَّ عليها وراح يستطلع الصحراء حولهما بحثاً عن أي تهديدات.

"كيف يمكنك أن تقتل بدمٍ بارد هكذا؟"

"بالتمرس".

"تقصد بشكلٍ عسكري؟"

لم يجب.

قالت "أخبرني مَنْ تكون".

شعر كورت بأنه فريسة لاستجوابها.

"لست في حاجة لمعرفة أي شيءٍ شخصيٍّ عني".

"أعمل فعلاً لصالح الروس؟"

"مرة، ولم ينجح الأمر".

"بسببي؟"

"نعم".

"لكنك أمريكي، أعمل لصالح جهاز السي آي إيه؟"

"لا".

"إذن فمن الذين تعمل لصالحهم الآن؟"

"أنا متقاعد حالياً".

قالت "فعلاً" لم تصدّقه وأضافت "وكل ما فعلته منذ ليلة أمس كان للمتعة ليس إلا!"

أجابها وهو يرتشف من قربة الماء التي أخذها من أحد ضحاياه "إن كنتِ تقصدين قتل عناصر

الميليشيات، بالطبع نعم".

"أنا أتحدث بشكلٍ جديٍّ يا رقم 6، سأكتب تقريراً عن كل ما دار هنا وسأفضحك وأضعك بنفسك في

السجن".

"افعلي ما يحلو لك".

"إذن أنت لا تصدّقني".

"بل أنا لا أهتم".

"ألا تخاف من المحكمة الجنائية الدولية؟"

ضحك بقسوة قائلاً "بل أنا مُرتعد في الحقيقة، لكنني لديّ طُرقي الخاصة في التعامل مع هذه الأمور".

"أنت رجل خطير ينبغي ردّك بأي وسيلة".

لم يُبطئ من سرعة جواده ولم يحرك رأسه نحوها، بل سحب لجامه إلى اليسار حتى يتمكن من النظر إليها

قائلاً "لو كنتُ خطراً كما تزعمين لما قبلت مساعدتي أكثر من مرة، ولا تركت نفسك معي في الصحراء وأنا

أحمل سلاحين، ولا صارحتني بما أنت مُقبلة على فعله من مجهوداتٍ حثيثة ليس لها هدف سوى وضعي في

السجن.. فكّري جيداً يا والش، في داخلك أنت تعلمين أنني بالنسبة لك المُنقذ أكثر من كوني المهلك".

فكّرت في الأمر للحظة ثم قالت "لا أنتَ مُخطئٌ لحدّ بعيد، لأن العدالة التي أراها من وجهة نظري مختلفة

كل الاختلاف عن تلك التي تُحقّقها بأفعالك الإجرامية، الفارق بيني وبينك أنني أحترم شيئاً اسمه القانون،

نحن لسنا في غابة يا 6".

"حسنًا، أنتِ لا تحترمينه بما يكفي لإجبار كل هؤلاء الأوغاد على التوقُّف عن ضرب بعضهم البعض، والجلوس في قاعة محكمة مؤقتة صغيرة ليحاكموا بشكل صحيح. احترمي سيادة القانون كما تُريدين، ولكن هنا في الخارج.. لن يُنقذك القانون مثلما سيفعل هذا الرشاش الصديء، وحفنة من الرصاص القذر".

"أنا لستُ غبية، ولا...".

"بل غبية وكل العالمين في مجالك أغبياء وسُدج لمجرد اعتقادكم أن كل عصابات السودان ستُلقي أسلحتها يومًا ما خوفًا على شكلها أمام محكمة دولية في هولندا، إذا كنتم تشعرُونَ بأي بطولَةٍ بخصوص إتيانكم هنا والمغامرة بحياتكم وسط الصحاري كي تتفاوضوا مع عناصر الميليشيا المسلحين، مُضحِّين بأنفسكم لأجل كتابة تقارير سخيفة ونقل الحقيقة للعالم بالصوت والصورة، حسنًا افعَلوا هذا إن كان يُحقِّق لكم بعض الرضا عن أنفسكم والسمو بإنسانيتكم، لكن لا تأملوا في أي تغيُّر حقيقي لأنكم في هذه الحالة ستكونون مجرد بُلهاء يُرثى لعقولهم".

"وما تفعله أنتِ، أسيِّعِ أي شيء في العالم الثالث؟"

أراد كورت أن يُغلِق فمه، لكنّه لم يستطع فقال "بالتأكيد نعم".

"إذن أنت تعمل لصالح مُجار سلاح روس وتقتل مُصايين عُزل اعتقادًا منك أنك بهذه الطريقة تجعل العالم الثالث الفوضوي الدموي مكانًا أفضل لضحاياه".

"لا، كل ما أفعله ليس إلا محاولات إلهاء".

"وما مُهمَّتكَ في هذا العالم؟"

"لن أخبرك".

"لم لا؟!"

"لأنك مجرد عقبة في طريقي".

"ربما يُمكننا العمل معًا".

قال كورت: "أعتقدين أني بهذا الغباء؟ بمجرد أن نصل وجهتنا سيفترق كلٌّ مِنَّا في طريقه كأننا لم نتقابل من الأساس".

أدركت والش أنه قد انتهى من حديثه، فتركته وشأنه.

قطعا ثلاث ساعاتٍ أخرى من قطع الصحراء الشاق دون تبادلٍ أي كلمة بينهما.

بعد الخامسة وقت المغرب نظر جنثري إلى الورا ليتفقد أحوالها. كانت مُتعبة ومُرهقة من حروق الشمس، لكن لا تزال مُنتصبَةً على صهوة جوادها. سحب كورت جملته إذ شعر بإعيائه وعطشه، سقاهُ وفعل نفس

الشيء مع حصان إلين. وبينما يفعل ذلك تلفتت حولها كما لو كانت نائمة وهي جالسة ولم تُدرك ما حولها سوى الآن.

بنظراتٍ مدهوشة رفعتُ عينيها نحو الأفق، وسألته بفضولٍ أقرب للقلق "ما هذا".
تبع جنترى نظراتها نحو الطريق الذين أتوا منه قبل أن يُجيبها بجديّة "عاصفة رملية".
حدّقت إلين في المنظر برهبة، بدا وكأنّ جبلاً يتحرّك من مكانه في الهواء تجاههم.
"هذا يبدو سيئاً".

أجابها كورت "إنه ليس جيداً بكل تأكيد".
"أستدر كنا هذه العاصفة؟"

قام كورت بإعادة قرية المياه على ظهر سرج حصانه، ثم رفع قدميه مرّة أخرى في الركاب، وامتنى جواده قائلاً "انزلي من على حصانك واركبي خلفي، بسرعة".
قالت "لا" ثم سألته "لماذا؟"

"ستفصلنا الرياح عن بعض، ولا يُمكننا تحمّل ذلك، هيا، الآن".

تردّدت إلين في البداية، لكنها انصاعت للرجل الرمادي ونزلت من على حصانها رابطة على بطنها قرية مياهها، قفزت ورائه وعقدت يديها حول وسطه، مدّ يده لها بلثامٍ بُني كان قد أخذه من أحد البلطجية القتلى وقال "غطّي وجهك وعينيك".
"وأنت كيف ستري الطريق؟"

لفّ كورت لثاماً مُمائلاً على وجهه وقال "لستُ مُضطراً لأرى، سأحاول أن نبقي في نفس اتجاهنا حتى نصل وجهتنا. لا يوجد مكان هنا لنختبئ فيه وننتظر حتى نهاية العاصفة، علينا فقط أن نمضي قدماً في الصحراء".

فكّر كورت أنه ربما كان الحل الأفضل هو الانتظار والاختباء حتى تنقش العاصفة، لكنه رأى واحدةً مثيلة لها في العراق استمرت لثلاثة أيام، كما أن الميليشيات لن تهدأ إذ سترسل عناصرها المسلحة للانتقام مما فعله، وكان آخر شيء يُريده هو أن يتعثّر حصانه بشكلٍ أعمى في وادٍ أو أن يتجوّل في مُعسكرٍ لمقاتلي الجنجويد. وبالتالي كان الحل الأمثل هو الهروب من هنا حتى لو وسط العاصفة، بدلاً من البقاء في الصحراء دون ماء ولا حماية.

هبّ عليهم نسيم بارد بعد دقيقة، وانهالت عليهم الرمال والغبار بعد ذلك بقليل. وفجأة، تحوّل الجو من ضوء النهار إلى عتمة الليل؛ وحُجبت أشعة الشمس فوقهم في لحظة، وأصبحوا مُحاصرين. وانتاب إلين خوفٌ غيرٌ مُبرّر، لكنها كلما هاجمتها أي هواجس كانت تضغط بوجهها المُلثم في ظهر الأمريكي الركب أمامها بقميصه المُبتل بالعرق، لم تُنكر أنه أنقذها أكثر من مرّة منذ التقت به وأنه في داخله إنسان جيد، حتى لو بدا مُتسلطاً وحشيّاً بخصوص قراراته حول من يستحق الحياة أو الموت.

تفقد كورت ساعته تحت غطاء الرأس الذي بدا كخيمة صغيرة، بالكاد استطاع الرؤية والرمال الساخنة تحدش عينيه. بدا أن خاصية "الجي بي إس" لا تزال مُعطّلة، لكن على الأقل بوصلتها تعمل. واصل طريقه على حصانه شرقاً. كان معسكر النازحين في هذا الاتجاه، لكنه لم يكن لديه أي فكرة عن السرعة التي سارا بها وسط العاصفة، وكل ما يحشاه هو مروره بالمناطق المأهولة دون أن ينتبه لها في الأفق أو يلمحها وسط تراب العاصفة الهائل الذي أعماه عن رصد الصحراء، لكنه طمأن نفسه بأنها إذا وصلا لوجهتهما المشودة فعلى الأقل سيلمّحان بعض الأنوار من القرى المحيطة. لكن بخلاف الطاقة الكهربائية المنعدمة تقريباً، ستكون هناك تلال مُنخفضة ومجار مائية جافة وتشكيلات صخرية يُمكنها أن تحجب بسهولة أي مصدر ضوء بعيد، حتى لو خفّت العاصفة الترابية.

شعر الرجل الرمادي بجفافٍ يكتسح جسمه وحلقه ويُفقد كل طاقته، حتى إنه أثر على أدائه. فقد شعر بالدوار والتعب، وحتى بالترنح بعض الشيء. كان بحاجة لمزيد من السوائل، ولأنه لم يستطع رؤية شبرٍ واحد أمام وجهه، مدّ يده وألصق قربة المياه بفيه. شعر بالرمل ينزلق في جوفه كأنه يشرب بدل الماء طيناً، لم يهتم وواصل شربه، المهم أن يدخل أي سائل مهما كانت درجة وساخته لمعدته المتيبسة. وضع القربة في يد إلين، استغرقت لحظات لتدرك ما فعله وأن عليها تروية نفسها بهذا الماء القذر لأنه كل ما يملكونه الآن، أخذت جرعة بنفسها قبل أن تشمئز.

"إنها مليئة بالرمل".

"وجهك كله رمل، اشربي، أنت بحاجة إلى الماء".

قالت "أنا بخير". وحاولت أن تُعيدها إليه.

"يجب أن تُحافظي على نسبة السوائل في جسمك بالذات في درجات الحرارة المرتفعة".

"لكنها مليئة بالرمل".

قال كورت ببرود "ستتغوّطينه".

"هذا مُقرف، لا أريد تغوّطه".

صرخ في وجهها "أتريدين أن تموتي من ضربة شمس، قُلْتُ اشربي الماء اللعين!"

أطاعت إلين ودلقت الماء في فمها بحركاتٍ مُترددة، سعلت بسبب احتكاك الرمل بحلقها لكنها واصلت، وحين فرغت القربة رمّتها من فوق الحصان الذي استمرّ في السير.

رغم استمرار العاصفة حتى ما بعد حلول الظلام، تمكّن كورت بطريقةٍ ما من إبقاء الحيوان يتحرّك في الاتجاه الصحيح. وعندما انقشعت سحابة الغبار، قرّر أن يترجّل هو وإلين من على الحصان، ليواصل سيرهما على الأقدام، بينما قاد حصانه من لجامه. كما أنه في الوقت ذاته أراد أن يمنح الحصان فرصة لساعة أو ساعتين يُريجه فيها من الحمل الثقيل، الذي أثبت أنه جدير بتحمّله كل هذا الوقت في الصحراء وسط

العطش والعواصف الرملية، التي تركت على جسديهما طبقة سميكة من التراب أخفت ملامحهما، إن كانا أفارقة أصلاً أم آسيويين أم كائنات فضائية، لكن إن أخفت عرقهم فهي لم تُخفِ في النهاية هيئتهما الغريبة.

كانا قد ابتعدا عن الطريق الصحراوي الوحيد بين الفاشر ومعسكر النازحين، ولم يقطعوا سوى أرضٍ واسعة ومُقفرة لساعاتٍ طويلة، ولكنها عرفا أنها يقتربان من وجهتهما حين بدأ يمران بقرى صغيرة وطُرقٍ مترّبة تنشط بها حركة المرور. عربات كارو وتكاتك تسير بجانبهم، يتفحصهم بأعينٍ ثاقبة السائقون والركاب القرويون مُستغربين منظر اثنين من الخوارج يركبان حصاناً، الرجل يحمل بندقيتين والمرأة ملثمة مثل الرجال، كلها تفاصيل من منظرٍ عجيب لن يروه كل يومٍ فبدا لهم كأنه ظاهرة تستحق التلصص والتمحيص.

انتاب الرجل الرمادي قلق من أهل القرية أنفسهم، ففي أي بلد عربي معروف أن الأخبار تنتقل بسرعة البرق، ربما أسرع من الهواتف الموصولة بالقمر الصناعي، وأدرك أنه في أي لحظة قد يجد نفسه أمام عناصر الميليشيات مجدداً أو رجال الأمن الوطني أو قوات الحكومة السودانية أو قوات الأمم المتحدة من الاتحاد الإفريقي، وأي جماعة من هؤلاء لن يكون لها ردُّ فعل سوى اعتقاله ومن ثم إنهاء عملياته السرية المقبلة.

لكن كورت لم يهتم لكل هذا إذ أعطى الأولوية القصوى لتوصيل المرأة الكندية لبر الأمان. دخلت إلين في نوبة إعياءٍ قاتلة من ضغط الحرّ والعطش ونقص الطعام والماء في جسمها المُفتقر لأي طاقة، حاولت التغلّب على هذا بإلهاء نفسها في أي محادثةٍ مع 6، وعلى عكس آخر مرة صدّها فيها وقطع عليها أي محاولة لفتح حوارٍ وديٍّ، وجدته أكثر انفتاحاً معها في النقاش، رغم أنها كانت لا تزال ضده و ضد ما ارتكبه بحق عنصري الميليشيا الجريحين.

هبّ عليهم نسيم صحراوي بارد في حوالي الساعة الحادية عشرة، وبدا أنها قد تتعش من جديد بسببه. أعطاهما كورت ما تبقى من الماء، وبدا أنه قد جعلها تنبض بالحياة من جديد أمام عينيه مثل نبتة عطشى في الزاوية.

"كم تبقى من الوقت؟"

"ليس طويلاً، أعتقد نصف ساعة أخرى أو نحو ذلك".

"أيمكننا العودة للركوب على ظهر الحصان؟"

"لا، نحتاج لإراحته في حالة واجهنا متاعب واضطّرنا للهروب عليه".

قالت "حسناً، هذا منطقي".

سارا جنباً إلى جنب وسط الشجيرات الصحراوية تحت سماءٍ ممسوحة من أي نجوم. نظرت إليه عدّة مرّات. استطاع معرفة أنها تُفكّر في شيءٍ ما، لكنه تجاهلها، على أمل أن تتخلّى عمّا تُفكّر فيه، لكنها لم تفعل.

"كنت أفكر في شيءٍ يا رقم 6، إن كثيرين من الأشرار بدءوا حياتهم كأشخاصٍ صالحين، ما رأيك في هذه

النظرية؟"

"لا أعرف".

"على أي حال احذر من أن يكون هذا مصيرك".
"ليس لدي أي فكرة عما تتحدثين عنه".

"بل فهمتني جيدًا، في عقلك أنت تؤمن أنك هنا لأسبابٍ خيرة وأن كل ما تقوم به مهما كانت فظاعته هو لصالح البشرية، لكن صدقني هذا المكان يحتاج لأناسٍ يجمعون الآخرين لا يقتلونهم".
كادت إلين تتعثر في عِشٍّ نمل لكنه ساعدها بذراعه على تجاوزه، ثم تركها على الفور، وهو يقول "في الحقيقة لدي نظرية مختلفة يا عزيزتي، قتل الناس أو إنقاذهم وجهان لعملية واحدة، أحيانًا نُضطر للقتل كي نُنقذ آخرين، أتفهميني؟"

"يبدو الأمر وكأنك تُحاول إيجاد مبرراتٍ شرعية لنفسك".

"لو أني أبرر شيئًا سيكون لنفسي وليس لك، أمثالك صعب عليهم فهم العالم وأي محاولاتٍ لإقناعهم هي بكل المقاييس مضيعة للوقت".

"في النهاية، وبعدها نعود لديارنا سنتهم كمجرمٍ حربٍ على ما فعلته اليوم".

شعر كورت في نبرتها بخذلان من تصرفاته، لكنها في الوقت نفسه مُضطربة في مشاعرها نحوَه إن كان فعلاً رجلاً خيرًا أم سفاكًا.

"لقد ذكرت ذلك بالفعل".

"ستقبض عليك".

"منذ ثلاث سنواتٍ وأنتم تحاولون الإمساك بعبود رغم أن محل سكنه معروف لديكم".

صمتت للحظة قبل أن تقول "عاجلاً أم آجلاً ستقبض عليه المحكمة الجنائية الدولية".

"كيف؟ بإرسال كندية وحيدة إلى هنا وسط هؤلاء الرعاع لتواجه زمرة من عناصر الميليشيات المتعطّشين للدماء ورائحة لحوم النساء، بالذات لو كُنَّ أجنبيات. ستحتاجون إلى الكثير من المساعدة للإطاحة به".

خمن بحدسه أن هذا التعليق قد أثار فضولها لأنها سألته "هل ستساعدنا؟ هل هذه هي خطتك؟"

لقد باح كورت بالكثير وأزعجه سلوكه ورغم ذلك قال "لو كنتُ هنا لأجل عبود ما الذي سيُرسلي لدارفور، من المُفترض أن أكون حيث يكون هو في الخرطوم".

تمنى في داخله أن يكون ما قاله مقنعًا لها.

هزّت كتفها قائلة "عبود ليس قضيتي، اهتمامي في المقام الأول هو تجارة الأسلحة غير الشرعية، إنها العَرَض الأساسي وعبود هو أَسُّ المرض بنفسه".

"أتعتقدين أنه مسئول بمفرده عن عمليات الإبادة الجماعية؟"

فكرت في الأمر للحظة قبل أن تقول "مسئول؟ ليس تمامًا! لكن على الأقل يمكنه إيقافها وهو يملك السلطة والقوة لإتمام هذا".

"نعم، على أحدهم وضع رصاصة في رأسه كي تنتهي الأزمة".

لأول مرة يشعر كورت بحماسٍ معها في الحوار، أراد رؤية كيف ستردّ على هذا التعليق.
"أترى أن العنف هو الحل الناجح لأي أزمة؟"
"تستطيعين قول هذا لو كنتُ في الخرطوم كما ذكرتُ".
"لكنك تعتقد أن قتله هو الحل الأمثل؟"
"ألا تعتقدين هذا؟"

"بالطبع لا، لأنه حتى لو مات وراءه أتباعه الذين سيواصلون الحرب من بعده، وربما باختفائه من المشهد تضيع كل المكاسب التي حققتها المنظمات غير الحكومية في المنطقة، ومن يعرف؟ ربما من يأتي بعده يكون أغبى منه ولا يسمح بأي وجودٍ غربي في بلده كي يفعل ما يشاء في الناس".
"ومن ثم، من وجهة نظرك الرئيس عبود هو أهون الشرّين".
حاول استفزازها بأسئلته لتكشف له كل أوراقها عن المشهد السياسي.
"لم أقل هذا، رأيي أن موته ربما يجلب المزيد من المشاكل غير المقصودة".
فكّر كورت في نوايا الروس وخططهم الذين يريدون رأس عبود فقط ليُطيحوا بالصينيين خصومهم.
لكن ما الثمن الذي على أهل البلد المدنيين العُزّل دفعه في سبيل هذا؟
ضغط عليها قليلاً محاولاً استخلاص المزيد من المعلومات منها فسألها "وما رأيك في دور بقية العناصر الفاعلة في المنطقة؟ الروس، والصينيين، والأمريكان، والاتحاد الإفريقي؟"
حاول بدهاءٍ وطريقة غير مباشرة استخلاص كل وجهات نظرها، كانت تعرف أكثر منه واحترم هذا فيها، حتى لو بدت ساذجة في تكوين صورتها النهائية عن الأشخاص والمواقف.
"ماذا عنهم!"

"هل تعتقدين أن أيّاً منهم لديه اهتمام بما يحدث هنا؟"
التفتت إليه، رغم أنها كانا لا يزالان يمشيان، وأجابت سؤاله بتنهيديّة مُتأمّلة "الصينيون لديهم حقول تعدين شمال دارفور، حتى الآن لم يجدوا الكثير، لكنهم إن عثروا على شيءٍ ستتغير الخريطة السياسية برمتها".
"ماذا تعنين؟"

"الصينيون لديهم تحالف هشّ مع عبود، والروس لديهم تحالف هشّ مع...".
حاول كورت تكملة جملتها "مع الرجل الذي سينوب عنه حين يُخرُج من الصورة".
"لا، نائب الرئيس لا يتفوّق عليه في القوة، لكن ما أردتُ قوله إن الروس لديهم تحالف هشّ مع الحكومة التشادية، في حالة قُتل عبود ستعمّ البلاد حرب أهلية تعصف بها، وساعتها ستتتهز تشاد الفرصة وتغزو دارفور بمُساعدة روسيا، وهنا تبدأ حرب نووية بين قوتين عظيمين، أنا شخصياً لا أصدّق ذلك، طالما لم يُعثر على رواسب نفطية كبيرة بعدُ في دارفور. الأمر كله يتوقف على ما سيجدونه خلال تعدينهم تحت التراب".

بدت إلين واثقةً مما تقوله، وثقتها هذه جعلت كورت يشكّ أن "جريجور سيدورينكو" كذب عليه، لم يطلب الروس رأس عبود لأنهم أرادوه ميتاً في المطلق، بل لأن موته سيخلق فرصةً للفوضى ومن ثم تتدخل تشاد لصالح روسيا عبر حربٍ عظمى.

ابن العاهرة!

خطرت ببال كورت فكرة فقال "لكنكم في المحكمة الجنائية الدولية تريدون اعتقال عبود؟ أليس من شأن هذا أن يكون له نفس تأثير قتله، في الحاليتين سيختفي ولن يمكنه إيقاف الحرب الأهلية".

"خطتنا في المحكمة الجنائية الدولية أن نتمكّن من إقناع عبود باستخدام صلاحياته ونفوذه وسُلطته لصالحنا، وبالتالي لن يقع أتباعه في أفخاخ الصينيين والروس".

أعجب كورت بكلامها لكنه لم يجد سبباً منطقيّاً واحداً يدفع الرئيس عبود للتعاون مع المحكمة الجنائية الدولية.

كان قد بلغا مرتفعاً أظلاماً من فوقه فوجدا معسكراً للنازحين مُنتشرًا في الوادي أسفلهم على مساحة عدّة أميال مُربّعة. بدا مُسطحاً ومُظلمًا في الليل، امتدّت آلاف الخيام الضيّقة وانتشرت حولها عواميد إنارة متوهّجة كشفت عن مركباتٍ تابعة لقوات الأمم المتحدة في دارفور.

"يا إلهي، انظر!"

قالت إلين مُشيرةً لبوابة المعسكر المحمية بمدرمعات نقل جنود بيضاء.

نظرت إليه مُتسائلةً "لن تأتي معي أليس كذلك؟"

امتطى كورت جواده قائلاً "لا".

"بسبب ما قلته عن محامتك، لا تخف! أنت أكثر أمانًا هنا. لن نُحتجَز هنا، أعدك بذلك. نحن نتبع القانون، ولن نُتهم حتى يثبت عليك شيء".

"لن أذهب معك ليس لأني خائف بل لأن لديّ مهمة أخرى".

قالت "مهمة هنا! بعد منتصف الليل!" ثم هزّت رأسها لتطرّد بعض الحشرات بعيداً عن عينيها، وأردفت "نظن أنك راعي بقر، لكنك لست كذلك. أنت خارج عن القانون، و...".

"أحتاج ثلاثة أيام يا إلين بعدها افعلي ما تُريدين، اكتبني تقاريرك لجميع المنظمات الدولية الحقوقية وأرسلني فِرَقك للبحث عني".

"لماذا لا تُخبرني بمهمتك؟ ما الذي سيحدث في الثلاثة أيام المقبلة؟ لحساب من تعمل؟ ربما تتوافق مصالحنا وأعدك في هذه الحالة أن أقدم لك كل الدعم الممكن".

"لا أقصد الإهانة يا آنسة والش، لكنني لا أحتاج لأي مساعدة من مؤسساتك ولا من أي جهة".

نظرت للبندقية الموضوعة على صدره، ولوّحت بيدها المنهكة نحوه قائلةً "مجددًا، أهذا هو النوع الذي تنشده من الدعم؟"

"لستُ هنا لأقتل الناس. طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية كُنت مُتملِّصًا من وظيفتي الأساسية، لديّ مهمة مُحددة تحتاج لثلاثة أيام ليس إلا، إذا انتظرتِ قبل تباعي أو تسليط أي ضوءٍ عليّ سأقُدر هذا كثيرًا منك".

لم تُجبه والش. خنن كورت أن أمام إلين الآن سيناريوهين لا ثالث لهما؛ إما أن تنتظره فعلاً بدافع الفضول النسائي حتى تكتشف بنفسها أسرار وطبيعة مُهمته، أو تجري وتصرخ لحُرّاس بوابات معسكر النازحين كي يتحركوا بمُدّرعاتهم ويمسكوا ذلك المجرم الأمريكي الهارب على حصانه، لكن مثل كل نساء الدنيا كانت إلين بالنسبة لكورت لُغزًا كبيرًا لا يُمكنه حدس تصرفاتها المُقبلة.

"ثلاثة أيام من فضلك لا أطلب أكثر من هذا".

رفس حصانه على جانبيه وانطلق به حتى اختفى في ظلام الصحراء.

قضى كورت ليلته في فندق متواضع في "الفاشر"، حيث نام على مرتبة مهترئة مُتسخة وسط البراغيث، وحين أيقظته الشمس تناهت إليه من الشارع نداءات الباعة وئغاء الماعز ونهيق الحمير وزمارات المركبات. شم رائحة ننتة لا تُحتمل تفوح من جسمه، وأراد الاستحمام لكن الحمام المتوفر في غرفته المتواضعة داخل نزله الحقير ليس به دُش، ولا يوجد سوى فتحة تغوُّط في الأرض. كان قد أمضى المساء وهو يحكّ لدغات البراغيث المتوحشة، ولم يحصل على قسطٍ وافٍ من النوم، لكن ماذا توقع غير هذا!

استغرقه الأمر يوماً ونصف يوم ومُعظم ما يملك من جنيتها سودانية، للحصول على سيارة بسائقٍ لنقله إلى هنا في عاصمة شمال السودان، اشترى تليفوناً متصلاً بالقمر الصناعي، معوضاً فارق الثمن بمقايضة البندقيتين وساعته. كان للرجل الذي أوصله ابن عمِّ يملك منزلاً قذراً في الفاشر يُقيم فيه الدارفوريون هناك للعمل في الإنشاءات المعمارية التي تموّلها المنظّمات غير الحكومية، وقد عرضا عليه عُرفة مجانية، حتى إنهما اصطحبا لشراء بعض الأغراض المحلية ودفعا ثمنها من جيوبهما. لقد كانت تجربة إنسانية فريدة له، اختبر خلالها فكرة أن الشعب السوداني مضياف وكريم بطبعه بالذات مع الغرباء والأجانب.

تعامل كورت وتجاوب بمُحصلته الصغيرة من اللغة العربية، والباقي عبّر عنه وفهمه بلغة الجسد التي تُعني أحياناً عن أي كلام وكل اللغات، وضع يده على قلبه وأوماً برأسه بامتنانٍ مرّات عديدة في اليوم السابق حتى كاد يشعر أنه دارفوري لولا لون بشرته.

فعمله كعميل سري مُتنقّل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية وأحياناً كقاتل مأجور لكيانات خفية مُستقلة عن أي حكومات، جعله رحّالاً من أقصى الغرب لأقصى الشرق، يجوب طوأل حياته بلداناً يكتشف لأول مرة لغاتها وثقافتها وعادات شعوبها وأديانها، لذا كانت هذه التجربة مألوفة بشكلٍ ما مقارنةً ببقية مغامراته التي بمجرد إنهاؤها كان يتركها وراء ظهره دون أي عواطف أو ذكرياتٍ حميمة.

وهكذا شعر تجاه دارفور. لم يُفترَض به أن يكون هنا حيث الكثير مما يكرهه. حرّ وحشرات وبراغيث وميليشيات ومدركات، فكّر أنه كان الرجل المُطالب وحده بمواجهة كل هذا القرف والعبث على مدار اليومين الماضيين والأيام الآتية دون أي مساعدةٍ من الجهات التي من المُفترَض أنها موجودة في ظهره لتُقدم له كل أشكال الدعم المطلوب، وللحظةٍ غمره شعور بالامتنان للمدنيين الطيبين الذين وفّروا له مأوى وطعاماً دون معرفته بشكلٍ شخصي.

ودّ لو ردّ الجميل لهم بإزاحة ذلك الدكتاتور الدموي الذي يتهاون بشأن وجودهم أصلاً في الحياة. مدّ يده فوق المرتبة العفنة والتقط هاتفه المُتصل بالقمر الصناعي وطلب رقماً يحفظه عن ظهر قلب في سان بطرسبورغ.

على مدار الاثنتين وسبعين ساعة الماضية، لم ينم "جريجور إيفانوفيتش سيدورينكو" بسبب اختفاء رجله الخاص في مهمته الحساسة داخل أعماق دارفور دون حسّ ولا خبر، ثم زاد الطين بلة الأخبار التي شاهدها عبر عدة قنوات تلفزيونية تبث تقاريرها من دارفور حول هجوم ميليشيا سودانية على قافلة مساعدات في منطقة تبعد حوالي 90 دقيقة قيادة بالسيارة عن آخر نقطة إحدائيات سجّلها كورت منذ آخر تواصل بينهما. كانت التفاصيل غامضة، لكن الأمور لم تبدُ جيدة.

جلس "سيد" على طاولة إفطاره في البرد، وقضم بيضةً مسلوقة وهو يُحدّق في هاتفه. فطوال هذه المدة لم ينزع سيد عينيه الخرزيتين عن شاشة هاتفه.

والآن حين ومض رقم غريب على شاشة هاتفه، جفل بدهشة.

وضع الكوب الكريستالي المزخرف من يده وهو ينحني للأمام لألتقاط هاتفه، وفي حركته الطائشة سُكب عصير برتقال فلوريدا الطازج، وكوفي دو سنتينار جراند مارنييه، وشامبانيا كروج جراند كوفيه على ردائه الصوفي السميك المبطن بالذهب. تجاهل اتساخ زيّه وأجاب على هاتفه.

"آلو، أسمعك".

"أنا جنثري، أسمعني بوضوح"؟

"أين أنت"؟

"في الفاشر، أنا آمن هنا في الوقت الحالي، لكنني لا أستطيع المكوث وقتاً طويلاً".

"ماذا حدث"؟

"لا تقلق، سيناريو غير متوقع عطّل العملية كلها".

"غير متوقع! لقد عرّضت العملية كلها للخطر أيها الرجل الرمادي، ومنظمة الأمن الفيدرالية بموسكو مُستاءة للغاية!"

"لا يُمكنني فعل شيء حيال ذلك".

"لقد تحدّثت رجالي مع الطيّار، وأخبرهم أنك تخلّفت عنهم في المطار لتُنقذ امرأة!"

"لا أعتقد أنه كان يُفترض به تركي خلفه على أي حال".

"كُل هذا بسبب امرأة"؟

"يصعب الآن شرح كل ما حدث".

"لقد دمّر ما فعلته جدولنا الزمني".

"سأعالج الأمر بطريقتي".

"تعالج ماذا؟ ليست لدينا طائرة أخرى تنقلك للخرطوم قبل رحلة عبود للبحر الأحمر! كيف ستذهب...".

"أيمكنك إرسال طائرة للعودة إلى الفاشر"؟

"نعم لقد ربّبت لك طائرة ستقلع من بيلاروسيا اليوم، لكنها ستأخذك إلى هنا ولن تهبط مرة أخرى في السودان".

"ليس عليها أن تهبط".

"ماذا!"

"أحضرت ورقةً وقلماً وَاكْتُبْ معي المعدات التي أحتاجها إذا كنتَ ترغب لهذه العملية أن تستمر يا سيد، يُمكنك الاستعانة بوكالة الأمن الفيدرالي في موسكو لتوفيرها. فقط استرخ من فضلك، ستذهب هذه الزوبعة الصغيرة لحال سبيلها".

"إذا كانت لن تهبط، فكيف...".

"يمكن ترتيب مسار للطيران عبر الحدود يأخذهم فوق البحر الأحمر. والآن، اكتب معي".

سمع صوتًا من الطرف الآخر من الخط، ثم "حسنًا، أنا جاهز".

أملى عليه الرجل الرمادي كل ما يحتاجه وسجّله وراءه "سيد" مثل سكرتير ماهر.

عندما انتهى، أخذ سيدورينكو نفسًا طويلاً قبل أن يسأله "أواثق أنه يمكنك فعل هذا؟"

"نعم".

"والطيار؟"

"ونحن في الهواء فهّمه أن ينصاع لتعليماتي بحذافيرها".

بدأت نبرة سيد تتغير شيئًا فشيئًا مُتحوّلة لحماسه الأول وهو يقول "نعم، بالطبع. لكن هذا سينطوي على

بعض الخطورة بالنسبة لك".

"أأنت فعلاً قلق على سلامتي؟"

"طبعًا.. أريد المساعدة بما أقدر عليه".

"أي شيءٍ آخر؟"

"ربّبتُ لك مع سائق ليأخذك من الخرطوم لسواكن، إذا تابعت العملية كما اقترحت، سيتعيّن عليك قطع

مسافةٍ كبيرة سيرًا على الأقدام، وأنت في الوقت ذاته لا يبدو عليك أنك سوداني أو عربي".

"حسب تحريّاتي هناك قبيلة من ذوي البشرة الفاتحة اسمهم الرشايدة. لن أكون قادرًا على الظهور عن

قُرب، ولكن مع غطاء رأسٍ وبعض الملابس المحلية، فإن من يراني وأنا أقود سيارة أو أسير في حقلٍ ما،

سيظنني من الرشايدة قبل اعتقاده أنني أجنبي".

"أأنت على استعدادٍ للمُخاطرة بحياتك لأجل ذلك؟"

أجابه القاتل بلا مُبالاة "هذا ما أفعله طوال الوقت".

"أأنت مُذهل".

سادت لحظة طويلة من الصمت واعتقد "سيد" أن الأمريكي سيرد على تعليقه، لكنه بدلاً من ذلك قال "لا تزال الخطة سارية المفعول. اسمعني جيداً، بمجرد أن أهبط من الطائرة لن يكون بيننا أي تواصل حتى تنتهي المهمة".

"ولكن السائق الذي سيأخذك لسواكن هو ضابط شرطة هناك، ومُحبر لوكالة الأمن الفيدرالية الروسية، ربما يُمكنه مساعدتك بمعلوماتٍ استخباراتية قد تفيدك. يُمكنني ترتيب لقاء معه".
فكّر كورت في الأمر. لم يكن بحاجةٍ إلى مُحبرٍ شرطة فيما يتعلّق بعملية سيد، لكن بالنسبة لمهمة زاك؟ يُمكن أن يستفيد من مصدرٍ إضافيٍّ للمعلومات حول تخطيط القوات في المنطقة.
"حسنًا".

قال سيد: "طلبٌ أخير أيها الرجل الرمادي، حين تعود ستجدي جَهّزتُ لك كتيبة كاملة من النساء الجميلات، أرجوك لا تعطلّ نفسك في الصحراء بسبب أي امرأةٍ جديدة تُقابلها، سأشبعك منهنّ حتى تمّل".

تنهّد كورت قائلاً "لماذا لم أفكّر في هذا من قبل؟"

أحنى كورت رأسه إلى الوراء مُستنداً على الجدار الخشبي لغرفته. عرف أنه بحاجةٍ ماسّةٍ لمكالمة "زاك" فقد أجل ذلك لأطول فترةٍ مُمكنة. كما عرف يقيناً أنه سيتلقى توييحاً شديداً من أعلى المستويات، وكان مُحقّقاً. بعد ثلاث رنّات أتاه صوته على التليفون بنبرة خالية من مجاملاته وكياسته المعتادة "أين أنت؟"
"آسف، لقد تأخّرت".

"تأخّرت! حقاً؟ على مدار اليومين الماضيين ظللتُ أحمق في ساعتني معتقداً أنها مرّرتُ يومين بالخطأ".
"لقد واجهتُ مشاكل مع الأمن الوطني السوداني، والميليشيات".
"ماذا! أغادرت المطار؟"
"نعم".

"أهدأ له علاقة بالعاهرة الكندية التي تعمل لدى المحكمة الجنائية الدولية؟"

"ألحقتُ أن تنشر ما حدث؟"

"لم تنشر شيئاً، لكن سُحب التفجير فوق موكب شاحنات المنظمات غير الحكومية فضحت كل شيء، إنها حتى لا تتذكّر وجهك، ولكن أهل البلد يثرثرون عن رجل أبيض فجر شاحنتين، وقتل عدداً كبيراً من الجنجويد على الطريق. ماذا حدث بحق الجحيم؟"
"كانت بحاجةٍ لمساعدتي، هذا كل ما حدث".

"حقاً! هذا رائع، لكن أتعلم ماذا؟ أنا بحاجةٍ لمساعدتك أيضاً! أحتاجك أن تقوم بمهمتك التي كلّفت بها وقبلت تنفيذها من البداية، كان من المُفترض أن تكون مستعداً الآن لأهم عملية سيشهدها العالم فانظر ما

تفعله.. تضيع الوقت وتتحجج بامرأة احتاجت مساعدتك".

"أنا لا أضيع الوقت، لقد حاولوا قتلها، ألا تفهم ما أقوله!"

"نعم أريدك أن تحكي لي قصة تجعلني أبكي دموعاً تملأ نهر النيل، الذي يفترض أن نعبره أنا ورجالي لنسحبك من هناك".

من واقع خبرته علم كورت جيداً أن وكالة الاستخبارات المركزية لن تُرسل رجلاً واحداً من رجالها لإنقاذه، لكنه قرّر أن يتسامى ويتجاوز جملة زاك فتعامل مع عصبيته بدبلوماسية وحنكة، ومن واقع معاشرته له عرف أن أنجح وسيلة لإطفاء غضبه وامتصاصه هي تركه يتكلم حتى يصمت من تلقاء نفسه فلا يجد شيئاً يردّ به عليه.

قال كورت وقد سئم الحديث معه "اسمعني يا زاك، كل شيء سيكون على ما يُرام، سيُرسل لي سيد طائرة تلتقني من الفاشر الليلة، وسأصل سواكن مساء الغد، على اعتبار أن أبدأ عمليتي في السادسة والنصف من صباح الأحد كما خططنا لها".

"نعم يا 6 من الأفضل أن تلتزم بالخطة، فثمة الكثير من الأمور التي تعتمد على ذلك".

"مفهوم، انتهى الاتصال".

على مقعده في الجزء الخلفي من طائرة "أنتونوف"، جلس كورت يراقب جهاز "الجي بي إس" الموصول بساعته الجديدة، والذي أعطاه موقعه بدقة، ومن حينٍ لآخر يراقب مسافة الطائرة من سطح الأرض ليتأكد من أن الطيار ينفذ ما قيل له.

كانت الطائرة هذه المرة من طراز "AN-26"، وهي أصغر من تلك التي جلبته للسودان قبل ثلاثة أيام. تساءل عن الأشخاص الذين كانوا على متنها، لم يكن قد رأى أو تحدّث إلى أي شخص في قمرة القيادة منذ صعوده إلى الطائرة قبل ساعتين تقريباً. لقد تطلب الأمر منه أن يقفز من أعلى سور مطار الفاشر، ويظلّ منتظراً في نهاية مدرج يعجّ بحطام طائراتٍ مقصوفة ومُهملّة، يصارع الذباب والعنكب والعقارب، مُستظلاً من الشمس بجناح طائرة مفصولٍ وحدّه. كان قد خطّط للانتظار داخل مقصورة الطائرة المُحطّمة، لكنّه وجد أن الجو بداخلها حار للغاية حتى إنه لم يتحمّله، ولم يراوده شك في وجود ثعابين قابعة بداخلها كذلك. استنفذ آخر زجاجة ماء لديه بعد ظهر اليوم، ورشف آخر رشفةٍ منها قبل ساعة من وصول الطائرة الروسية، والتي اتضح حين وصلت أخيراً أنها لن تُقلع مرّةً ثانية قبل ثلاث ساعات.

صعد من خلال الفتحة التي تُركت مفتوحةً بناءً على أوامره التي نقلها سيد إلى الطاقم. وعندما شقّ طريقه إلى داخل مقصورة الشحن المُعتمّة وجد كلّ المُعدات والتقنيات التي أوصاهم بها بنفس المواصفات والمعايير مُبنتّة على مقعدٍ شبكي. كانت نفس الحقيبة التي شاركته الرحلة السابقة، بالإضافة لبعض الأغراض الجديدة. وهي مُعدّات ضرورية للتغيير الذي طرأ على عملياته التي استلزمتهما زيارته لدارفور، والتي استغرقت ثلاثة أيام. لم يُكلّف طاقم الطائرة نفسه عناء الخروج من قمرة القيادة للتحقق والتأكد من وصوله، وأن لديه كلّ ما يحتاجه.

أدرك أن هؤلاء الروس المشاركين معه في العملية لا يهتمون لأمره، كل ما يشغلهم ويُزعجهم هو الخطة الصعبة التي وضعها لهم ولطائراتهم، بالإضافة للمعدات التي دفعهم لاقتراضها من وكالة الأمن الفيدرالية وإملائه أوامره عليهم في كيفية استخدامها.

حتى الآن كانت الخطة تسير وفق رؤيته، إذ تركوا الباب الخلفي لمستودع الطائرة نصف مفتوح ولم يحتكّ به أحد عند صعوده على متنها.

وقد ناسب هذا رجلاً مثل الرجل الرمادي.

أمضى أول ساعةٍ من الرحلة يفحص ويتفقد جميع المُعدات بقلقٍ شديد. لم يثق طوال حياته مرة بالروس، وبمجرد أن اطمأن إلى أن كل شيء يعمل بشكل سليم، استرخى على مقعده وترك الباقي في يد قدره.

سرعان ما انجرف دماغه عن المهمة، وكعادته في مثل هذه المواقف ومع بداية كل عملية جديدة أحسّ بمستوى الأدرينالين يرتفع في جسمه.

لكن شعورًا آخر مُستجدًا رافقه هذه المرة لم يألّفه من زمنٍ بعيد، إحساس ستمتالي مُزعج نحو المرأة الكندية، اشتياق ربا، لم تعمل تروس قلب الرجل الرمادي على نحوٍ عاطفي منذ مدة طويلة، يصعب عليه حتى أن يتذكّرها، ولم يكن جمالها الظاهري هو ما يشغله بقدر شجاعته وصدقها في مواجهة عالم مُظلم، لقد سحرته بشخصيتها ولم يُزعجه فيها سوى سذاجتها ومبادئها الطفولية وهي تعتقد أنها قد تُصلح بسلامة نيّتها فساد العالم.

بدأت الطائرة هبوطها الحاد، وشعرَ بمعدته ترتفع لمستوى صدره، ففك مشبك حزام الأمان. لم يستطع كبح تفكيره في إلين كأنها مُحدّر من الأدوية التي يتعاطاها تسري تحت جِلده، ولم ينكر أنه يتمنّى رؤيتها مرةً ثانية أيًّا كان الموقف الذي سيجمعهما مرةً أخرى. لكنه انتبه لنفسه ونهرَ خياله كي يركّز فقط في عمليته.

ثبّتت الطائرة فجأة سرعتها، فاهتز جسمه وأحشاؤه. وبصوتٍ معدني انفتح باب المستودع بشكل كامل خلفه. ومن وراء إنارة المقصورة الحمراء ظهرت السماء بسوادها الدامس. دوى أزيز الهواء عاليًا وصاخبًا بشكل مؤلم، لكنّه بالكاد أحسّ به، حيث أبقت الديناميكا الهوائية للمركبة الرياح خارج المقصورة. وقف كورت وتحسّس جميع المُعدّات المربوطة بجسده، وبدأ يسير مُثاقلاً نحو عتمة الليل. قال لنفسه إنه لا يزال جيّدًا، وصدّق ذلك.

اختبر حزام البراشوت المربوط حول صدره وتفقد لآخر مرة أمّتعته وذكّر نفسه بمن يكون الرجل الرمادي الذي لن يصدأ طالما يتحرك، ثم قفز في حلقة الليل حتى ابتلعتته.

هنا حيث الساحل الشرقي للسودان، كانت المياه قد لطّفت من درجة الحرارة وجلبت مع الهواء نسيهما المنعش، لم يلاحظ في تلك العتمة سوى ضوء القمر الذي افترش التلال الصخرية الموازية للبحر الأحمر، تلك المناطق الطوبوغرافية الشاذة عما حولها إلى الغرب من بورتسودان وإلى الشمال الغربي من سواكن، ترتفع ألف قدم من منطقة الساحل، وهي تشويه صخري بُني اللون للمناظر الطبيعية المُبسطة.

وعلى مسافة عشرات الأميال لم يظهر مصدر نور كهربائي واحد، لم تكن تلك البقعة غير مأهولة على عكس ظاهرها، إذ تعيش بها قبائل البجا والرشايدة يفلحون أراضيهم ويرعون ماشيتهم، ويُتاجرون ويزرعون الكفاف حيثما استطاعوا، ويبدلون قصارى جُهدهم للبقاء بعيدًا عن غطرسة وبطش الميليشيات وفساد الحكومة السودانية.

اكتظّ باطن هذه الرقعة بمناجم ذهبٍ تعود للعصور الفرعونية ذات يوم، وحين اكتُشفت تم استخراجها وشحنها برًا للقاهرة والإسكندرية، فرغت الآن من تلك المعادن النفيسة لكنها لا تزال مستودعًا للحجر الجيري والجبس والحديد، حيث يتم تعدينها وإرسالها لدولٍ أجنبية تحوّلها لمواد بناءٍ ضرورية، وهي بطبيعة الحال غير هامة ولا مطلوبة في مناطق رعوية قبلية مثل هنا.

دارت رحى حربٍ قبل بضع سنوات؛ مثل الحرب في جنوب السودان، والحرب في دارفور، حاولت قبائل الأقلية الشرقية ذات مرة التخلّص من نير الاضطهاد، لكنهم كانوا سيئي التنظيم، ولا يمتلكون أي مصدر

تمويل، فُضِرَ بوا حتى الاستسلام.

والآن، على سفح تلّ بارد ومظلم وهادئ على الحافة الشرقية لهضبة تُطل على السهل الساحلي المُبسّط الذي يمتدُّ عشرين ميلاً إلى بورتسودان، ثم إلى خط الماء نفسه، لم تكن توجد أي أشكالٍ من الحراسة أو أي تمرُّكات عسكرية للميليشيات؛ فقط مجموعة من الماعز ترعى وتأكل الأعشاب النابتة من الأرض الصخرية.

شعرَ قطيع الماعز بشيءٍ ثقيل يتهاوى عليهم من السماء فتفرّقوا وعلا ثغاًؤهم، ثم ارتطمت بالأرض حقيبة ممتلئة عن آخرها.

وبعد ثابنتين تبعها رجل ما إن لمست قدماه الأرض حتى غطّته مظلة كبيرة حجبت كل جسده. ثم عادت لتتشكّل أمامه من جديد، وسحبته إلى أسفل التلّ باتجاه الأراضي المُبسّطة. فقدّ توازنه تماماً واندفع إلى الأمام جاذباً معه حبال المظلة أثناء سقوطه.

وبعدما هدأت العفرة التي سبّبها هبوطه عاد المكان لهدوئه ورجعت الأغنام لمرعاها كأن شيئاً لم يحدث عُزلتهم.

أما جنّري فجلس يستعيد اتزانه، ضمّ المظلة إلى صدره وتلفّت حوله في الظلام.

همس لنفسه "اللعنة" ثم اتكأ على مرفقه الأيسر، وتقياً على الأعشاب.

وبمُجرّد أن استجمع شتات نفسه فتح الرجل الرمادي حقيبته، وأخرج قربة مياه تجرّع منها حتى نظّف فمه، ثم رمى عينيه نحو الأفق فلمح أضواء بورتسودان على بُعد عشرين ميلاً عبر السهل الساحلي. التفت إلى يمينه قليلاً باتجاه الجنوب. وأدرك أن سواكن هناك في الظلام على بُعد خمسة وعشرين ميلاً، عليه أن يبلغها في أسرع وقتٍ ممكن.

تمنى لو كان هناك بالفعل، كي يمسح طبوغرافية المنطقة بنفسه بدلاً من الاعتماد على أي خرائط أو أجهزة رصد إحدائيات.

وقف كورت وشعر ببعض الألم لكنّه تجاهله تماماً. تذكر مجموعة المُسكّنات المقدّسة في حقيبته، وكيف خاض معركةً داخليةً طويلةً ضدها كي يُقلع تماماً عن استخدامها، لقد قطع شوطاً طويلاً في هذا الصدد لا يريد أن يخسره مرةً واحدة.

لم يفتح الحقيبة بحثاً عنها، وبدلاً من ذلك وقف وقضى عدّة دقائق بين قطيع الماعز، خبأً مظلته والحقائب الأخرى التي لم يعد بحاجة إليها في الأعشاب التي يجتاحها النسيم والشجيرات الجافة على سفح التل. غيرَ ملابسهِ وارتدى بنظلاً بسيطاً أزرق اللون وقميصاً أخضر غامقاً قصير الأكمام اشتراها يوم أمس من الفاشر. لم يكن عليه أن يرتدي الزيّ التقليدي للقبائل، الرشايدة مثلاً لا يرتدونه، بل يُفضّلون في أزيائهم الموضة الغربية وتميل بشرتهم للبياض، ربما العائق الوحيد أمام الرجل الرمادي كان اللغة، لأن العربية التي يعرفها لا تُشبه لهجة أهل البلد هنا، لذا عليه أن يتجنّب أي تواصلٍ بشري بقدر الإمكان، أما إذا حدث ووقع تواصلٍ حتمي في موقفٍ ما، سيّدعي أنه بوسني مسلم درس العربية في مصر ثم قرّر أداء فريضة الحجّ، الركن الخامس من أركان الإسلام الواجب على كل مسلم أدائه في مكة بالمملكة العربية السعودية. ورغم

عدم شهرة سواكن لكنها كانت معروفة بين مُسلمي المنطقة؛ إذ من مینائها يمكن أخذ عبّارة لعبور البحر الأحمر لجدّة، ومنها إلى مكة. حتى إنه قد اشترى مصلية يُدعم بها قصّته المزيّقة أمام أهل القرية.

وربما هي أضعف قصةٍ اختلقها طوال مسيرته المهنية خلال عملياته التي خاضها في دول متفاوتة ومع شعوبٍ بثقافاتٍ مغايرة، لأسبابٍ كثيرة لم يُحصها كورت. فهو لا يتحدث اللغة الصربية الكرواتية، لغة البوسنة. وليس من المنطقي أن يتسلّل طالب علم في القاهرة بهذه الطريقة على الحدود كي يصل للسعودية، وبالطبع لا يحمل الطلاب بطبيعة الحال شنطة مكدّسة فيها أجزاء بندقية قنص ورقم ضخّم من المال، وإذا سأله أحد عن الطرق التي سلكها في السودان أو المنطقة التي عاش بها في القاهرة، فلن يجد الرجل الرمادي ما يقوله.

ربما أفضل خطةٍ هي تجنّب الكلام مع أي أحد، وسينجح تنكّره.

إلا إذا أوقفه كمينٌ شرطيّ أو جيش، في هذه الحالة لن يقتنعوا بقصّته الهزيلة ولن يبقى أمامهم سوى تخيّل واحد؛ أنه أجنبي كافر نزل عليهم ببراشرت من السماء ليرتكب على أرضهم مصيبةً تحت بند التخابّر والتجسس.

قبل الساعة الواحدة صباحًا بقليل، حمل الرُّجل الرمادي حقيّته القماشية على ظهره، وبدأ يسير إلى أسفل التل.

في تمام الثامنة صباحًا، ركب كورت على ظهر عربة كارو يجرّها حمار ويقودها صبيّان سودانيان مُراهقان من البجا، كانا قد ضفّرا شعرهما على الطريقة الإفريقية، وارتديا سروالين فضفاضين وسُترتين بُنيتين، جلدهما بُنيّ شوكلاتي يلمع تحت أشعة الشمس التي لا تتوقّف. وجدهما كورت حين كانا في طريقهما لنقل حمولة القشّ لبيت عمّهما في سواكن وقد اقتنعا بقصة الدراسة في مصر والسفر لأداء فريضة الحجّ، ومهما كانت عربتهما بطيئةً فقد ظلّت بالنسبة له وسيلة نقل ممتازة أفضل كثيرًا من المشي.

أخبر الصبيين أنه لا يريد التورط في أي مشاكل مع السلطات هنا، لكونه أجنبيًا وما إلى ذلك، فوجد نفس الموقف لديها، اقترحا عليه ترديد بعض الكلمات العربية الشائعة، واتفقا معه على تحبّته داخل أكوام القشّ خاصةً كلما مرّوا بنقاط تفتيش على الطريق. لم يمّر الكثير قبل أن يحوّلوا الأمر إلى لعبة، وقد ردّ لها الجميل بشراء طعام لهما هما والحمار من كشك على جانب الطريق مُعدّ للمُتجهين إلى سواكن للحاق بعبّارة جدّة.

في فترة ما بعد الظُّهر، عندما ظهر ساحل البحر الأحمر من بعيدٍ وسط الضباب، دفن جنّري نفسه عميقًا في القش، وبقى هناك، حاول ألاّ يحنّيق من الغبار، وتجنّب التفكير كثيرًا في الأشياء التي تزحف في سرواله وقميصه. طوال سفرهما مرّت بهم شاحنات وعربات كارو في مواكب غير متناغمة، حتى إن شاحنات نقل عسكرية مرّت بهم مرّتين.

استغلّ كورت الوقت السانح، وراح يفحص الخريطة التي معه وتمنّى لو يتطابق جزء منها مع الوضع الجغرافي الحالي، لقد أمده سيد بتقارير عنها وقرأ هو بنفسه بعض المقالات بخصوص تاريخها الغني، فتفاجأ بأنها بخلاف عبّارتها الشهيرة للسعودية معروفة كأخر معقل للعبودية في إفريقيا، إذ لم تتوقف بها حركة

الاتجار بالبشر إلا عام (1946)، في قول آخر كانت سواكن سوقاً للعبيد للمصريين والعثمانيين وقوات الاحتلال البريطاني، وبالتالي معظم أو جميع مباني المدينة أنشئت في الأساس لتُخدّم على هذه التجارة غير الآدمية، الفاحشة في أرباحها.

لم يتوقّع الكثير بشأن البنية التحتية، لكنه عرف شيئاً واحداً وهو أن الرئيس عبود سيُلبّي أذان الصلاة بنفسه من فوق مئذنة أحد مساجدها، وهذا هو السبب الذي حدّد لكورت رحلته ومصيره.

عند حلول الظلام، وجد الرجل الرمادي نفسه في شمال سواكن، يُحْمَلَق في مياه البوغاز مُسْتَرَجِعًا تاريخه وكيف كان هو الميناء الأساسي حتى تم بناء بورتسودان عام (1907) التي تقع على بُعد 40 ميلًا إلى الشمال، من بعيدٍ بدا منظره بملابسه السودانية، وبشرته، غريبًا لِكِنِه مُقْنَع كعربي من قبيلة الرشايدة، ببشرته السمراء، ولحيته وشعره الداكنين، مع غبار وأوساخ يوم كامل من السفر. من بعيدٍ بدا كرشيديّ بسهولة، إن لم يُمَعِن أحد النظر. لكن في حالة أن اقترب منه أحد فلن يكون الموقف منطقيًا، وفي هذه الحالة قصة الطالب البوسني تُصَبِح الخطة البديلة.

وضع الرجل الرمادي شنطته بين الصخور على بُعد عشر ياردات من حافة المياه الدافئة، بعدما وجد فجوة مُظْلِمَة تُشَبِه الكهف وسط الصخور، واتخذها مكانًا مؤقتًا للاستلقاء.

شَمَّر بنظونه عن ساقيه وترك قدميه للمياه، شعر بنسمة باردة تُرْفَرَف فوق الساحل كأنها لمسة امرأة حانية على جسمه الساخن، لم يختبرها كثيرًا في سنوات حياته الماضية. استلقى على ظهره ساجًا لذهنه بالانجراف، وترك قدميه العاريتين تتدليان في بركة من مياه البحر بينما استند برأسه إلى حذائه. أراد أي مُسَكِّن بشدة لتخدير آلامه قبل عملية الغد المصيرية.

لكن ليس هناك وقت للاسترخاء، عليه الاتصال بزاك، لالتقاط المعدات الضرورية صباح الغد، كما عليه التواصل مع "محمد" شرطي "سواكن" الذي يعمل لصالح المخابرات الروسية.

أخرج هاتفه "الثريا" وضغط على أزراره.
"أسمعني؟"

كان زاك مُشْغَلًا بالمهمة الآن، ويبدو أنه لا يزال غاضبًا من كورت بسبب ما حدث في دارفور، إذ لم يُبَازِحِه أبدًا مثلما اعتاد في مُحَادِثَاتِهَا السَابِقَة.

"تأكيد الاتصال".

"ستقابل في إيكو، في الرابعة وخمس دقائق".

"عَلِمَ وَيُنْفَذَ".

"انتهى الاتصال".

كان "إيكو" هو الاسم الرمزي لمبنى أثرى مُتَهَدَّم في سواكن القديمة، وهي جزيرة مرجانية مُحَطَّمَة يربطها بالمدينة الجديدة التي تقع على شاطئ البر الرئيسي مُجَرَّد جسر. تجاهل كورت الجسر، وبدلاً من ذلك، وضع مسدسه وبنظونه وحذائه في حقيبته، وعلّقها حول عنقه، ثم سبح عبر مياه البحيرة في أضيّق نقطة منها، لم

يستغرقه عبورها أكثر من خمس دقائق. كانت قناة البحيرة على الجانب الآخر من الجزيرة أعمق وأوسع. وتمكّن من رؤيتها من بعيدٍ تحت ضوء سجنٍ كبير عتيق المظهر على الشاطئ البعيد. في الأفق رأى قوارب صيد خشبية صغيرة راسية بالقرب من الجسر؛ وعلى مسافةٍ أبعدَ يخوتًا ضخمة ساكنة في المياه السوداء، مولداتها تُضيء أنوارها وتصدح منها أغاني غريبة، إذ على ما يبدو كانت على عكس حال شوارع المدينة الفقيرة تتمتع باختراع الكهرباء الذي هو حكر على الأغنياء في بلدٍ كهذا.

بلغ كورت جزيرة سواكن، فوجدها في ذلك التوقيت من الليل مهجورةً تمامًا ومُظلمة إلا من بهاء القمر، قرأ أنها في زمن مجدها حين بُنيت في القرن الثاني عشر كانت أهم ميناء في إفريقيا، أما الآن فقد آل مصيرها لأكوام من التراب وسلام تقود إلى العدم، وأروقة وأعمدة ملكية نمت عليها شجيرات، وطرقات تُرابية وحجارة مكسورة. وسط كل هذا تعيش حفنة من البشر كحُرّاس في أكواخ خشبية على الجانب البعيد. واصل الرجل الرمادي طريقه خافضًا رأسه بشكل يقترّب في حركته من زحف الحيوانات، يتبعه عدد مهول من القطط لا يصدر عنها أي سلوك سوى المواء والخرخرة، لكنه فجأة سمع صوتًا أعنف، فسحب مُسدسه "جلوك 19" الكاتم للصوت من حقيبته، وحين استدار وجده جملاً يمضغ طعامًا بصوتٍ عالٍ ومُقرز.

انتظر وسط عشيرة القطط والجمال التي ترعى في المكان مُمسكًا بسلاحه، ومُراقبًا المبنى من بين عمودين مرجانيين كبيرين، وأذناه مُصغيتان لأي ضوضاء غير الموسيقى المُنبعثَة من القوارب من بعيد. حتى أتته الإشارة على هيئة ومضاتٍ من ضوء صغير من الطابق الثاني من المبنى، فنهض جنترى واقترّب من طريق تُرابي ضيق.

لم يكن المبنى أكثر من واجهةٍ مكوّنة من طابقين ودرج حلزوني في إحدى الزوايا وبضع مئات الأقدام من الأرضيات في الطابق الثاني. أما كل شيء آخر - السقف والجدران - فعبارة عن كومةٍ ضخمةٍ من الحجارة والأخشاب القديمة المُكدّسة. وفي أسفل الدَّرَج، شاهد كورت "الرقم 2"، الرجل الثاني بعد زاك. كان براد هو أكبر الرجال سنًا، بلحيةٍ كثيفة، وملابسٍ محلية، وعمامة بيضاء على رأسه، وكلاشينكوف بين أحضانه. أوماً الرقم 2 برأسه دون أي ردّ على الإطلاق وقال "اصعد".

بدأت السلالم الحجرية مُستقرّةً بما يكفي، لكن كورت رأى دليلًا في كل مكانٍ على أن هذا المبنى لم يُبنَ ليُدوم. صعد الدَّرَج بحذرٍ ووجد زاك هايتاور بالأعلى في الزاوية الجنوبية الغربية. وهي الزاوية الوحيدة التي تمتلك أرضيةً صلبة في الطابق الثاني. جلس زاك القُرفصاء في الظل، يرتدي ملابسٍ وتسليحًا يُشبهان الرقم 2، وقد نمت له لحية قصيرة في الأيام الثمانية الماضية.

جلس جنترى إلى جواره، تجوّلت القطط من حولهما، تراجع زاك أكثر إلى قلب الظلام وتبعه كورت حتى لم يُعد بإمكانها رؤية بعضها البعض. قال كورت "أنت غير مُبلّل".

"نعم لقد أخذنا زودياك من اليخت هنا، تركناه يرسو على بُعد خمسة عشر كيلومترًا إلى الشمال الشرقي".

"في المياه السودانية؟"

"نعم، كما مرت بنا دورية خفر سواحل وفتشونا نصف تفتيش. لكنهم اقتنعوا أننا موظفون أستراليون تابعون لشركة (دي إتش إل) ننقل طردًا لبورتسودان، أعطيناهم بيرة وسجائر، وكسبناهم كأصدقاء".

صعدت قطة سوداء على حجر كورت من ضمن قطيع القطط الذي تبعها إلى هنا فأنزلها بلطفٍ وتركها تنضي.

سأله زاك وهو يقترب منه على الأرضية المتهدئة للمبنى القديم، حتى يتمكن من التحدث بهدوءٍ أكثر، فالليل ينقل الصوت بشكلٍ مُحَادع "أزرت المدينة؟"

"لا، وأنت؟"

أوماً زاك برأسه "حفرة الجحيم الكبرى، وصدقتني حين أقول ذلك. إنها تتمتع بطابع الغرب القديم، لكن المولدات هي مصدر الطاقة الوحيد هنا. لا يوجد سوى طريقٍ مرصوف واحد في المدينة. أما جميع الشوارع والأزقة الأخرى فعبارة عن فضلات حمير وماعز وجمال صلبة في كل مكانٍ تخطو فيه. أما المباني فمصنوعة من الحجر الجيري المتصدع والمرجان، مثل هذا المبنى القذر. لا يوجد مبنى في المدينة لا يُمكنني هدمه بمطرقة في نصف ساعة. بل رُبما خمسة وسبعون بالمائة من المباني عبارة عن أكواخ صغيرة مصنوعة من الأخشاب الطافية والصفائح وبراميل صدئة سعة خمسة وخمسين جالونًا".

قال جنترى مُكَملاً وجهه نظر زاك التي فهمها فوراً "إذن، لن تحمل أي هزة قوية منّا".

هزَّ زاك كتفيه وقال "بالضبط، من شأن أي انفجارٍ أن يسقط المدينة على رعوس سُكَّانها، وصدقتني لن يكون هذا سيئاً، فربما سمح لهم بالقيام ببعض التجديد".

"وماذا عن وجود الشرطة؟"

"لا يكاد يُذكر، يمرّون في عرباتٍ قليلة بملابس مدنية وبنادق AK الصينية، ثلاث أو أربع شاحنات، وهناك مدفع واحد يعود عمره لمائة عامٍ أمام قسم الشرطة".

"مدفع؟"

"ديكور فقط".

أوماً كورت برأسه مُتفهماً، فتابع زاك حديثه قائلاً "لكن لا تنس أن الأمن هنا في السودان لا يزال يبحث عنك بسبب ما فعلته في شمال دارفور. وطبعاً يقول الجميع إن العميل 6 قد انحرف عن مسار المهمة، ومعهم حق! من ذا الذي يقوم بعمليته على بُعد أربع مائة ميل من هدفه. لقد اختفيت لمدة ثلاثة أيام، وعندما سمعتُ منك أخيراً، لم تُقدِّم تفسيراتٍ لتفجيراتٍ لتفجيراتٍ مواكب شاحنات المساعدات الإنسانية التي قمت بها على الطريق".

أنهى حديثه ونظر إلى جنترى باحثاً عن رد.

تنهَّد كورت مُعترفاً "نعم، لقد أصبح الأمر غريباً".

هزَّ زاك كتفيه قائلاً "البيت الأبيض بنفسه يستفسر من كارميكال عمّا حدث، ويشعرون بالقلق، وأنا أشاركهم نفس الشعور".

"لقد أخبرتك بما حدث".

"تلك المرأة الكندية من المحكمة الجنائية الدولية، أيمكنها التعرف على هويتك الحقيقية؟"

"لا، إنها لا تعرف من أكون".

"هل سترُك في حالك؟"

"في المستقبل رُبما! لكن في هذه العملية لا".

"أمتأكد مما تقول؟"

فكر كورت مجدداً ثم قال "نعم، أنا متأكد. هي تعتقد أنني مثال للشر، لكنها في الوقت ذاته مُتيقنة أن سبب وجودي هنا يتطابق مع مصالحها هي أيضاً ومصالح الجهة التابعة لها".

جلس زاك في الظلام لفترة ثم تنهد وقال "في السادسة من صباح الغد سيخرج الرئيس عبود من منزله للمسجد ليؤدي الصلاة، وهي مسيرة عشرة أميال إلى هناك وخمسة أميال إلى الساحة، في السادسة والنصف ستقحم قوات مُتمردي السودان الميدان، ومن المفترض أن نكون في ذلك التوقيت قد احتجزناه بالفعل أسفل مبنى البنك".

"لكن السؤال الأهم: هل قوات متمردى السودان سيلتزمون بالخطّة والتوقيتات؟"

"حسب التقارير التي جمعناها من الإعلام السوداني أظن أن الإجابة نعم".

"هل مكتبنا على اتصال مباشر بهم؟"

هزّ كتفيه قائلاً "لا لكننا على علم بكل تحركاتهم، فلدينا ضابط يُدير جيش تحرير السودان، المهم أنى أريدك في موقعك المُحدّد داخل مبنى البنك في التوقيت المثالي".

"مفهوم".

"حين تحتجز الهدف عليك أخذه على بُعد مبنى واحد جنوباً وثمانية شوارع غرباً من الجزء الخلفي للبنك، هناك ستجد سيارة سكودا أوكتافيا في موقف سيارات مصنع الطوب، وضعها جواسيسنا هناك وسيحرسونها حتى موعد وصولك، وها هي مفاتيحها".

أخذ كورت المفاتيح وسأله "أين ستكونون من الآن وحتى نهاية المهمة؟"

"سنبقى أنا وبراد وميلو ودان في اليخت "هانا" وسنكون في المكان المطلوب صباح الغد".

"ماذا عن العميل 5؟"

"سبنسر في المدينة بالفعل. يُقيم هو والضابط الذي أخبرتك بشأنه في فندقٍ يُدعى قصر سواكن، رغم أن سبنسر مُصمّم على أنه ليس قصرًا، لكنه طابق ثالث في مبنى قديم يطل على الميدان. سيُغادر الضابط الليلة لإفساح الطريق، لكن سبنسر سيبقى هناك ليكون عيناً لنا".

"هذا جيّد".

تفاجأ كورت بوجود مجموعةٍ أخرى في الموقع المُستهدَف صباحًا، ورغم أنه اندهش أيضًا من رغبة زاك في وجود أحد رجاله على مقربةٍ من الحدث، إلا أنه لم يضغط عليه بالمزيد من الأسئلة فيما يتعلّق بهذا الشأن. وبدلًا من ذلك، سأل هايتاور عن المُتمرّدين "أأنتم متأكدون أن متمردي السودان سيقومون بدورهم على أكمل وجه؟"

هزّ زاك كتفّيه وقال "من الأفضل لهم أن يكونوا كذلك، فقد تقاضوا أربعمائة ألف دولار لضمان مشاركتهم، هناك كتيبة مكونة من خمسة وثلاثين عنصرًا مسلحًا ستهاجم من الشمال تحت قيادتنا صباح الغد".

"خمسة وثلاثون!"

أوما زاك برأسه مؤكّدًا.

"أخبرتني أن القوة مكونة من 100 عنصر مسلح".

كان هايتاور قد وعده، عندما حاول إقناعه بالموافقة على العملية، بأن قوّة من الثوّار قوامها مائة فرد ستبقي أمن عبود والشّركة المحلية بعيدًا عن طريقه. لكنّ زاك لم يُظهر أي ندم في تفسير هذا التناقض، بل اكتفى بالتلويح بيده، وكأنها مسألة بسيطة لا تستحقّ الذكر، قبل أن يقول "ربما بالغتُ في كلامي، لكن سيكون هناك شاحنتان في الميدان، وأخريان في مركز الشّركة، وأخريان على الطريق المؤدي إلى المدينة. نحن نعلم أنه إذا تواجد حرس عبود قريبًا بما يكفي من البنك عند وقوع الغارة، فإنهم سيدفعونه إلى داخل البنك دفعًا، بغضّ النظر عن مدى قُربه من البنك من عدمه. نحن لا نحتاج لمعركةٍ ضخمة، ولا تقلق، خمسة وثلاثون عددًا كافٍ لإتمام العملية".

"آه، فهمت اللعبة، شخصٌ ما أقنعك بهذا وأنت الآن تحاول إقناعي به".

ابتسم زاك بشكل استغفّر كورت، وبعد لحظة رفع يديه مُستسلمًا وقال "حسنًا، كان اتفافي معهم على مائة ثم غيّرُوا كلامهم، حسب وجهة نظرهم هذا العدد كافٍ بالنسبة لمُحيط وقوع العملية وحيثياتها وأهدافها وتوقيتها، المُهم بالنسبة لي أن يقوموا هم بالأمر وتُبقي نحن أيدينا نظيفة".

أوما كورت برأسه قائلاً "حسنًا، فهمتُ، لكنك ما زلت تُريد المضي قدماً؟"

قال العميل 1 دون تردّد "بكل تأكيد".

"اتفقنا إذن".

تناهى لهم صوت أذان صلاة المغرب، وبدا من قوته أنه صادر من مئذنة مسجد قريب. إذا سار كل شيءٍ حسب الخطة، سيكون كورت على بُعد شارعين من نفس ذلك المسجد غدًا قبل شروق الشمس. نظر إلى زاك وسأله "أأحضرت لي المُعدات التي طلبتها منك؟"

وضع زاك معصمه أمام فمه، وتحدث ليكروفون صغيرٍ موصولٍ بساعة في أذنه "لنبدأ عملية الإرسال يا براد".

ظهر العميل 2 أعلى الدرَج بعد بضع ثوان. كانت حقيبة الظهر بالحجم الذي توقعه كورت، تقريباً بنفس حجم حقيبته الأخرى الموضوعه على حافة الماء على بُعد ثلاثمائة ياردة إلى شمال هذا الموقع. "أحتاج إلى هاتفٍ شيربا لعين".

"أنت تُدير عمليتين بشكلٍ رسمي؛ ولهذا تحتاج إلى مجموعتين من العتاد".
سَلَّمَه زاك صندوقاً بلاستيكيًا صغيراً، ما إن فتحه كورت حتى وجد نظام لاسلكي (C4OPS)، وهو نفس النظام التي سيستخدمه فريق "ويسكي سيراً" في صباح اليوم التالي. إنه واحد من أحدث التقنيات العالمية في مجال التجسس والتنصت؛ ويحتوي على كُلِّ شيءٍ تقريباً، أجهزة لاسلكي، وجي بي إس، وساعة رأس بميكروفون سري غير مرئي. كان زاك قد شرح له ذلك النظام في سانت بيت، ولكن لم يسمع عنه كورت قبلها قط.

"ما هي الموجة التي ستتواصل عليها، ماذا إن التقطونا؟"
"سأريك الآن كل شيء".

قلبَ الجهاز وضغطَ على زرِّ فيه، وتحدَّث بصوتٍ هامس "مساء الخير يا حليقي الرءوس، وأهلاً بكم جميعاً، اسمي زاك باول هايتاور، ورقم الضمان الاجتماعي الخاص بي هو (413-555-1287)، والرئيس عبود يُقيم علاقاتٍ جنسية مع الجِمال".

نظر العميل 2 إلى هايتاور وقال بغضب "لكن هذا هو رقمي الاجتماعي".
ابتسم زاك وهزَّ كتفيه قائلاً "حقاً؟ أعتقدُ أنني مدين لك باعتذارٍ إذن" ثم التفتَ إلى كورت وقال: "لا يُمكنك الاستماع إلى إرسالنا سوى على هذا فقط، لكنني لا أريدك أن تشوش الشبكة، ولا تُرسل لي إذا أردتَ التحدُّث إليّ، اتصل بي على هاتفٍ الثريا، سأشغله طوال الوقت وأبقيه موصولاً بسماعتي، حتى لو كنا على اتصالٍ مُباشر".

"لماذا ستكون على اتصالٍ مُباشر؟ ظننتُ أنكم ستبتعدون عن الطريق حتى نلتقي".
"المشكلات تحدث دومًا يا عزيزي. من يعرف ماذا سيحدث لنا لو ساءت الأمور؟ لستُ في حاجةٍ لإخبارك هذا، وإذا ساء الوضع ينبغي أن نكون مُستعدين، هناك سيارة مُجهَّزة في انتظارنا لتقلنا إلى المدينة في الصباح، بداخلها ملابس محلية، ومُعدات وأسلحة مُستعملة من ألمانيا وإسرائيل وروسيا، وأحذية من كرواتيا، وحقائب من الصين، ودروع واقية من أستراليا".

تفاجأ كورت من حجم هذه الاستعدادات الضخمة للعملية، ولكن مرَّ وقتٌ طويل منذ أن كان جزءاً من عمليةٍ كبيرة. ففي مهامه السابقة كان يعمل بمفرده ولا يزال يحمل نفس الروح المنفردة في تجهيز كل شيء. انحنى زاك إلى الأمام تحت ضوء القمر الخافت. مدَّ يده، وصافح كورت.
"حظاً موفقاً يا عزيزي، أراك غداً مع الأوريكس عندما ينتهي الأمر، كي نحتفل مثل نجوم الروك بمُجرَّد خروجنا من هنا".

"تبدو خطةٌ جيّدة، سأحتاج منكم أن تنقلوني داخل البحيرة".

"طبعًا".

فتش كورت في وجه هايتاور بحثًا عن أي علامات للخداع، لكنه لم يرَ سوى نفس أمارات القلق والاستعداد للعملية نفسها، شعر كورت بأنه لا سبب للشك في أي خداع. وطمأنته فكرة أنهم كلهم يعملون على قلب رجلٍ واحدٍ منها كانت التحديات.

في تمام العاشرة مساءً، وقف جنترى على ناصية أحد الشوارع، على بُعد بضعة مبانٍ إلى الغرب من المكان الذي أنزله فيه زاك بواسطة زودياك قابل للنفخ يتسع لستة أشخاص. وقف في الظلام، لكن بعض المارة من أهل المدينة راقبوه باستغراب، لا بخوف. وفقاً للمعلومات التي حصل عليها سيد عن المدينة علم أن الركاب وطاقيم المراكب الشراعية واليخوت الغربية الراسية في الميناء يُسمح لها في الغالب بتصاريح للتسوق أو تناول الطعام في المدينة، طالما أنهم يدفعون ثمن الامتياز ولا يحملون أي ختمٍ إسرائيلي في جوازات سفرهم. وبالتالي لم تكن بشرته البيضاء مُستهجّنة إلى حدّ كبير من قبل أهل البلد.

عند ناصية الشارع، توقفت سيارة مرسيدس بيضاء قديمة، وسعل قائدها في هواء الليل. إنه محمد، الضابط المحلي الذي يعمل لصالح مخابرات الروس. انتظر كورت في مكانه؛ ليتأكد أنه غير متبوع أو مُراقب من قبل أي سياراتٍ أخرى في الشارع. لكن لحسن الحظ لم تكن هناك سوى عربة كارو يجزها حمار وتحمل عددًا هائلاً من جالونات المياه، وحين تأكد أنه لا توجد أي عرباتٍ أخرى في الطريق بدأ في التحرك نحوها.

صعد الرجل الرمادي إلى جانب السائق، وانطلقت السيارة في الشوارع المُترّبة والمُظلمة. لم يجد وجه السائق يعكس أي ملامح، ليس بسبب الظلام داخل السيارة، فحتى لو سلطوا كشافات استنادٍ على وجهه سيبقى نفس الوضع كما هو عليه.

تحدّث الشرطي أولاً بالإنجليزية وبصوتٍ مُنخفضٍ أجش "أأنت روسي؟"
يعمل هذا الرجل لحساب الروس؛ لذا لم يكن هناك سبب لتشتيته.
"نعم".

"حسنًا أخبر جماعتك أنني أريد المزيد من المال".

"أنا لستُ وكيلك، أخبرهم بنفسك".

لم يُحرّك الرجل ساكنًا، شاهد كورت آلات بيع أكثر حيوية من هذا الضابط، قال بهدوء "اسمعي جيدًا قبل أن تردّ بهذا الردّ العنيف، حين قبلتُ عرض العمل معهم كان الموقف أقلّ خطورةً من الآن، لذا أريد المزيد من المال، وإلا لن أمضي قدمًا، وسأعتبر نفسي منسحبًا".

لم يقتنع كورت بذلك. فمن خلال خبرته التي حصدها من عمليات كثيرة احتك خلالها بأنماطٍ مُختلفة من السفلة والانتهازيين، فهم الرجل الرمادي أنها مجرد حيلة ابتزاز معروفة من الشرطي الخائن؛ الضغط في آخر لحظة لجني أكبر فائدةٍ ممكنة. ورغم شعوره بالقلق، إلا أنه لن يسمح لهذا العربي باستغلاله، لأنه لم يكن هو مَنْ وظّفه أصلًا من البداية، ثم إن مهمته الأساسية كانت نقله من الخرطوم لسواكن، وبما أنه لم يكن بحاجةٍ

إلى تلك الخدمة بالذات، فإنه لم يكن يهتم حقًا ما إن كان سيد أو جهاز الأمن الفيديرالي قد دفع للرجل أم لا. ومع ذلك، فقد جاء الليلة ليرى ما إن كان الشرطي ذا فائدة أم لا. وبدا بالفعل أن هذا الرجل لا يستحق العناء.

"للأسف ليس لدي أي مال، إذا كانت معك معلومات إضافية فارقه سأخبرهم أنك كنت مفيدًا".
كذب كورت، ربما لأنه لم يشعر برغبة في إنفاق أمواله المخبأة على هذا الوغد.

تسمّر الرجل ذو الوجه الصلب وأوقف السيارة جانبًا فأحاط الظلام الحالك بها من كل جانب، بينما أضاءت المصابيح الأمامية سحابة الغبار التي أحدثتها الإطارات. نظر محمد في عينيه، وتمنّى كورت لو يبدو خفيًا ومهددًا مثل هذا الأحمق، الذي قال له "هذا لا يكفي".

"حسنًا، أعتقد أننا انتهينا. سأخبرهم أنك غيرت رأيك، وأنا متأكد أنهم سيتواصلون معك في أقرب وقت ممكن".

بدا وكأنه على وشك الخروج من السيارة، لكنه عرف ما سيحدث بعد ذلك.
انتظر".

استقر كورت مرةً أخرى في مقعده الجلدي المتشقّق، وغرس مُسدّسه في فخذه الأيمن وهو يفعل ذلك.
"هناك تطورات جديدة في سواكن".

تأكّد كورت أن الرجل سيحاول رمي أي كارت جديد يكسب به أموالاً أكثر. تنهّد، لكن تعليق المُخبر التالي لفت انتباهه.

"معلوماتنا القديمة كانت أن الرئيس عبود سيصل وبصحبه حراسته المعتادة، حوالي 25 فردًا أو نحو ذلك. عادةً عندما يأتي، يكون هذا كل شيء. صحيح أن هناك دائمًا المزيد منهم في بورتسودان، يقون مع مروحيته، لكن عندما يأتي إلى سواكن، عادةً ما يكون هذا كل شيء".

"وما الذي اختلف هذه المرة؟"

"لقد وصل رجال الأمن الوطني السوداني بعد ظهر اليوم".

"رجال الشرطة السرية هنا؟"

"نعم".

نظر كورت إلى يديه، وقضم أظافره بقلق، وهو يسأله "كم عددهم؟"

قال الرجل المُستتر في الظلّ على سبيل الاستطراد تقريبًا "لم أر منهم سوى خمسة، لكن المدينة مكتظة بقوات الأمن، عليك أن تنتبه لنفسك".

"عددهم كبير؟"

"سرية على الأقل، من المشاة".

نظر جنترى إلى السائق مرةً أخرى مُتسائلًا "أتعرف السبب؟"

"هناك إشاعات أنهم يُطاردون مجموعة من المتمرّدين إلى مزرعة خارج المدينة".
عندها عرف كورت أن عملية وكالة الاستخبارات المركزية مُخترّقة، سأله "متمردون؟"
"نعم! إنه أمر غريب، لم يسبق لهم أن عملوا إلى هذا الحد في الشرق".
"هل لديك أي فكرة عن عدد رجال جيش تحرير السودان؟"

لَوْح بذراعِهِ، وهي أول حركة حقيقيّة يقوم بها "ليس الكثير، حوالي عشرة أو نحو ذلك".
آه من 100 إلى 35، والآن 10، يبدو أن هذا هو العدد النهائي الحقيقي. لم يكن هناك وقت للتواصل مع
ذاك للومِهِ أو محاسبته على أرقامه المتضاربة بشأن قوام المتمردين؛ بالتأكيد لو عرف العميل 1 أن
مُقاتليه الذين عيّنهم كانوا قوّة عاجزة إلى هذا الحد، لما تمادى في العملية بهذه الطريقة. كلاً، لقد رأى كورت
هذا النوع من الحسابات المتدهورة من قبل. ثم أنها ليست مسؤوليته في المقام الأول بل مسؤولية عملاء السي
آي إيه في السودان، بسبب التقصير في الوفاء بالوعد.
لكن المشكلة الحقيقية الآن أن هذه القوة الهزيلة وارد وسهل جدًّا سحقها من الجيش السوداني إذا قاموا
بأي أعمال شغب، وفي غضون دقائق.

وبالتالي يُصبح قتل الرئيس عبود لصالح "سيد" أمرًا سهلاً يمكن إنجازهِ على سبيل الاغتيال، أما اختطافه
لصالح السي آي إيه فهو أمر فاشل بكل المقاييس بدون هجوم المتمردين. وبدا جليًّا لجنترى الآن أن مهمة
ذاك على وشك أن تُجَهَض.

"بناءً على كل ما قُلته لك أحتاج مالا إضافيًّا لمساعدتك في عملية الغد".

شعر كورت بحاجةٍ للاتّصال بذاك، ليتأكد قبل أي شيءٍ إن كانت هناك عملية غداً من أساسه بعد
المستجدات التي دلّقتها عليه العميل مثل جردل ثلج، لكنه في الوقت ذاته يحتاج مساعدة محمد للخروج من
المنطقة. إن أُجهضت العملية، فربما تريده السي آي إيه أن يُنهي مُهمة سيد ويُخرّج كما خُطّط له عبر اتصالات
جهاز الأمن الفيدرالي.

"معني ألفا يورو".

"أريد عشرة".

لم يهتم كورت لأنها ليست أمواله، لكنه عاش في دول العالم الثالث فترةً أهلتَهُ لعمليات الفِصال في سعر
أي شيء.

أوماً برأسه قائلاً "ثلاثة الآن وثلاثة بعد التنفيذ".

أثناء مساومته تساءل الرجل الرمادي بينَهُ وبين نفسه حول المبالغ الطائلة التي يصنعها هذا الوغد في عام
واحد من الرشاوى والاتفاقات القذرة مقابل خيانةٍ وطنه، لقد تقاضى بالفعل مبلغاً مُشابهاً من الروس وهو
الآن يحاول ابتزاز كورت.

نظر محمد إلى جنترى لفترةٍ طويلة، وأخيراً أدارَ مفتاحه في كونتاكت السيارة وتحرك قائلاً "موافق".

انطلقت المرسيديس في شوارع المدينة، ومن خلف النوافذ المتسخة حاول كورت رصد أي تفاصيل بينها محمد يثرثر حول صفقته التي عقدها معه لتوه.

وأخيراً توقف بهما مجدداً في نفس النقطة التي التقطه منها قبل نصف ساعة، وقال "غداً ستجدني في المكان والميعاد المتفق عليهما، وسأخذك لبيت آمن في الخرطوم حيث يمكنك الانتظار حتى يصبح الوضع آمناً للذهاب إلى المطار".

أخرج كورت حزمة ملفوفة من اليوروهات ورماها له، بالطبع كانت أموال سيد، فوكالة الاستخبارات المركزية لم تمنحه يورو واحداً.

عاد كورت إلى مخبئه الليلي في الساعة الحادية عشرة. تفقد حقيبته حيث خبأها وراجع محتوياتها قبل سباحته فوجد كل شيء في مكانه، فتح زجاجة ماء فاتر وشربها، ثم أخرج هاتف الثريا وأجرى مكالمة. أجابه زاك ناعساً في الرنة الثالثة "مرحباً يا 6، كنت أنعم بقلولة لبعض الوقت؛ أتمنى أن يكون ما تُوقظني لأجله يستحق".

"أعتقد أنك في حاجة لإيقاف العملية، عدد المتمردين ليس كما تصورنا".

أفاق صوته هذه المرة وهو يسأله "من قال ذلك؟"

"عرفت هذه المعلومات من شرطي محلي يعمل مخبراً لصالح الروس، هناك فرق من الأمن الوطني وقوات الجيش السوداني وصلت للتعامل مع حفنة من المتمردين تم تعقبهم إلى هنا".

"حفنة!"

"نعم".

"متأكد من الرقم؟"

"تبدو معلوماته مؤكدة".

ساد صمت عبر الساعية، قبل أن يقول "اللعنة عليهم".

"إما أن وكالة المخابرات المركزية المحلية بالغت في تقدير قدرة جيش تحرير السودان على إدخال الرجال إلى مسرح العمليات أو...".

"أو أن جيش تحرير السودان كذبوا وتلاعبوا بالأرقام ليحصلوا على شيك راتب من العم سام، ومن ثم يذهبون لمساومة رابطة الأدغال!"

"أوغاد ملاعين".

قال العميل 1 وهو يضحك "أنفق معك، لم أتخيل في حياتي أن أقول هذا لكن ربما علينا أن نكون مُمتنين لوجود سيد ومُخبريه".

"نعم، صحيح! كنا سنواجه فوضى مريعة لولاهم".

"دعني أصعد الأمر وأرجع لك".
"أخبره أنك بحاجة إلى إلغاء العملية قبل فوات الأوان".
"لنرى ماذا سيقول".
"عاود الاتصال بي بأسرع ما يُمكن، لا يزال بإمكانني تنفيذ العملية؛ لن تمنعني المعارضة من ذلك".
كرّر ذلك قوله: "لنر ماذا سيقول".

بالنسبة لكورت كانت هذه البقعة الاستراتيجية على شاطئ المدينة وسط الصخور هي الأكثر أماناً في العالم لتخزين عتاده والاستلقاء فيه ليلاً. بعد فتح كلتا حقيبتيه الكبيرتين، وفزز عتاده، ووضع في مكانٍ مُناسب لسرعة الوصول إليه، وجد صخرة دافئة كبيرة ومسطحة بما يكفي للاستلقاء عليها. خلع حذاءه ومدد قدميه تاركاً إياهما لدغدغة المياه الدافئة، مسترخياً تماماً حتى غلبه النعاس.
انتظر أكثر من ساعة حتى أتاه اتصال من تليفونه الثريا الموصول بالقمر الصناعي.
كان قد ربط هاتف الثريا بنظام الاتصال الخاص به، لذا عندما رنت سماعه الأذن في أذنه، ضغط على زرّاً دقيقاً أوصل المكالمة بسماعة الرأس فوراً.

أجابه جنترى بسرعة "نعم"؟

"القيادات تأمر باستمرار العملية".

"حتى لو أُصيب عبود"؟

"لا، نريده سليماً".

"ماذا؟! كيف يُمكنني الخروج به سليماً وسط كل هذا الحصار؟!!"

"القيادات لا تصدق مصدرك، تعتقد أنها إما معلومات كاذبة يُزوّدك بها مصدرك، أو تزوّدنا أنت بها، وينحاز كارميكال للمحطة المحلية. من فضلك واصل مُهمتك يا 6، واستبعد مصدر معلوماتك هذا، لأن تحريات السي آي إيه تقول إن كل شيء يسير كما رتبنا له، هناك حوالي خمسة وثلاثين من المُتمردين على استعداد تام، لم يحدث أي تحرك من جهاز الأمن الوطني أو الجيش السوداني، المُتمردون عند كلمتهم سيوجهون ضربتهم في السادسة والنصف صباح الغد، ولا تُوجد أي مشاكل".
"هراء".

"اسمعي جيداً، أنا لا أضحي بك، لديّ الصلاحية الكاملة لإيقاف العملية متى شعرت بأننا سنُخفق".

"أستكون معي في البنك"؟

"لا، لكننا سنكون على مقربة منك ويُمكننا اقتحام المدينة ونسفها إذا أردنا".

تنفّس كورت هواء الليل الرطب مُتسائلاً "حقاً؟ هل ستبادلون إطلاق النار مع الجميع؟ لم أفحتموني من البداية في كل هذا الخراء طالما لديكم خطتكم الفعّالة".

"لقد وعد البيت الأبيض الأوروبيين بتقديم عبود لهم حياً لمحاكمته، ويجب أن يفني بوعده بأي وسيلة ممكنة. مستقبل الجهاز كله متوقف على العملية وعلى مهارتك".

"ومستقبلي أنا متوقف على هذا الخبل، لقد وعدتني بمائة من قوات المتمردين لمواجهة عدد قليل من حُرّاس عبود، انظر ما الموقف الآن، حُرّاس عبود مع قوات الجيش مع رجال الأمن الوطني مقابل حفنة من المتمردين، هل هي مواجهة منطقية بالنسبة لك؟"

"السي آي إيه لا ترى أي خطورة، وكما أخبرتك إذا حدث أي شيء سيتعاملون مع الموقف".
"هذه العملية فوضوية تمامًا يا زاك".

"كم عملية أتممتها بخطة محكمة يا 6 طوال حياتك المهنية؟"

فكّر كورت للحظة، ثم هزّ كتفيه قائلاً "لا أتذكر، لكن ...".

"بالضبط! هذه هي أفضل خطة يمكن أن تعتمد عليها، وإذا فشلنا في كل شيء، سنرتجّل شيئاً آخر سريعاً، كالعادة".

"لا يُعجبني ذلك".

قال زاك "سأدوّن اعتراضك وأضعه في ملفّ بعنوان "من ذا الذي يهتم برأي كورت" ثم ضحك على نُكته قبل أن يقول "ماذا قُلْتُ لك في الماضي؟ ليس عليك أن تُحب الأمر".

أكمل كورت جملته "ليس عليك أن تُحب الأمر، فقط نفذ".

كان غاضباً ومهزوماً لكنه سيقوم بعمله، وزاك يعرف ذلك.

"هل تريد العودة إلى الحظيرة؟ إذن التزم بجزئك من الخطة، وستجعل داني رجلاً سعيداً، ولا تقلق يا صاح، سنكون بجوارك لتقديم المساعدة".

بعد لحظة صمتٍ طويلة، تتم جنترى "مع السلامة".

استيقظ الرجل الرمادي ونظر في ساعته فوجد الوقت قد حان لبدءِ عمليته.

كانت الساعة الرابعة والنصف صباحًا، الهواء المحمول على نسيم المياه بارد، جلس كورت وملاً رثتيه به. لم يهناً بغفوتيه التي نامها على فتراتٍ متقطعة، إذ لم يتوقف ذهنه طوال الليل عن حساب المخاطر والافتراضات المُفترض حدوثها لهم ولمسار مُهمَّتهم، لم يكن هناك شيءٌ يمكن التأكد منه وسط هذه الفوضى، بدا الأمر أشبه بقطارٍ سريعٍ مُتجه نحو الهاوية وقد فات الأوان للقفز منه، وكان معتادًا على مثل هذه المشاعر الخانقة بالذات في اللحظات الأخيرة فلم يتركها تُشتته أو تسيطر على أعصابه.

من العبوة التي سلّمها له زاك في الليلة السابقة، استعداد شريط زبدة الفول السوداني "سولدر فيول"، وهو قالب طاقة مُدعم بالفيتامينات والبروتينات ابتكره خبراء التغذية في الجيش الأمريكي. تصلّب وجهه في كل دقيقةٍ مع اقتراب عملية اليوم، فغسله بالماء الموجود في زجاجته.

سار جنترى على الصخور ثم قضى حاجته في مياه البحيرة. تمنّى لو يُغيّر ثيابه إلى شيءٍ يُناسب العملية، لكنه قرّر عدم القيام بذلك. تمنّى لو لديه بنطلون بجيوب يضع فيه معداته، لكن ملابسه المحلية القذرة، التي نام وركب الكارو بها حتى اتّسخت واسودّت، كانت هي الأنسب للبيئة من حوله.

زحف إلى حقيبتة الروسية التي أمده بها سيد. حملها على ظهره ونزل المياه السوداء الباردة سابحًا فيها. كانت الحقيبة الثقيلة مُحكّمة الغلق ومُجهّزة بجيب هواءٍ يسمح لها بالطفو، لذا تمسّك بها وهو يسبح.

بعد عشرين دقيقة، وحين ظهر مجددًا كان قد بلغ مئذنة مسجد جزيرة سواكن القديمة. وصعد إلى رواق المبنى، في العُرفة المفتوحة في أعلى البرج. في الماضي، عندما ضجّت المدينة بالحياة، وكان المسجد مفتوحًا، منذ مائتي عام على الأقل، أذن المؤذن من هنا، وهو النداء للصلاة خمس مرّات يوميًا. أما الآن فالمكان يُجيم عليه الهدوء وقد صار استراحةً لأسراب الحمام التي أزعجها وصوله وطيرها، لكنه لم يكن مصدر الإزعاج الوحيد لها، إذ يبدو أن القطط أيضًا كانت تُشاكسها على مدار الليالي السابقة. زحف صاعدًا درجات سلّم المئذنة المُلطّخة بفضلات الحمام، لم يهتم بهذه التفاهات إذ كان ذهنه كله منصبًا على ذلك المبنى الأيل للانهار في أي لحظة، من يعرف كم من الزمن سيصمد بعد كل تلك الحقب الزمنية المتفاوتة بعواملها المناخية المختلفة! حين وصل أخيرًا للقمة جلس وأخرج من حقيبتة بندقية القنص المُطوّرة فركّب أجزاءها واتخذ مكانه المناسب.

كان كل هذا مُجرّد تضليل. لم ينو كورت استخدام بُندقيته، ولم يكن على استعدادٍ لقتل أي هدفٍ بها اليوم. عمل كل هذه المسرحية فقط ليقنع "سيد" أن قاتله الرئيسي قد اخترق بطريقةٍ ما، وقبض عليه أو قُتل على يد رجال السي آي إيه. وعندما يظهر عبود حيًّا، ومقيّدًا على شاشة التلفزيون من لاهاي، سيتساءل سيدورينكو

عمّا حدث للقاتل الذي أرسله ليُنجز المهمة. لكن كارميكال وعد أن يُعلن عن فريق عملياتٍ شبه عسكرية تمكّن في آخر لحظة من القبض على الرجل الرمادي وقتله حيثما وجدوه قبل إتمامه لعمليته الجديدة. لم يكن لدى كورت أي وسيلة لمعرفة إن كانت هذه الخدعة ستنجح أم لا. سيد ليس غيبياً، وكورت يعرف هذا، ومن ثم حاول ترك أكبر عددٍ ممكن من الأدلّة المنطقية وراءه في موقعه، والتي من شأنها التدليل على أنه كان هنا، وقد اتخذ كل خطواته اللازمة بالفعل لإتمام عملية الاغتيال. وبالتالي ستزيد احتمالية حصول سيدورينكو ورجاله على خبرٍ مفاده أن القصة المُسرّبة تتطابق مع الآثار المادية لآخر موقع معروف للرجل الرمادي.

استغرقه الأمر بعض الوقت، فضبط البندقية على حاملها الثنائي، وفكّ غطاء منظارها، وضبط العدسات بشكلٍ صحيح لإطلاق النار على مسافة (400) متر في ظلّ رياحٍ لا تُذكر، حتى يكون مسرح الجريمة مكتملاً لمن سيأتون ليُفتشوه من بعده.

وأخيراً عندما اقتنع كورت بخطّته، ألقى نظرةً أخيرة على سلاحه. كم كان من السهل عليه اغتيال الرئيس عبود، وشقّ طريقه إلى زورقٍ سريع على حافة الجزيرة البعيدة، ثم يُبحر فوق مياه البحر الأحمر اللطيفة إلى يخبّ كبير ينتظره يهرب به إلى المياه الدولية. من المؤكّد أن السودانيّين لديهم زوارق حربية، ربّما يُحالفه الحظ ويصطدم بواحدٍ أثناء هروبه، لكن احتمالات تجنّب البحرية السودانية كانت أفضل كثيراً مما هي عليه في حالة نجاح عملية السي آي إيه. هزّ كورت رأسه ببطء، متى كان القرار بيده! طمأن نفسه أنه طوال الساعات القادمة سينبغي عليه فعل أشياء كثيرة لا تتفق مع أهوائه.

غادر المكان دون ترك أي آثارٍ توضح أن هناك شخصاً بعينه وصل وخرج، عاد سابحاً في المياه الدافئة. كانت المياه هادئة مثل حمام السباحة، رغم أن رائحة الملح لم تدع مجالاً للشكّ في أنها لم تُنظّف كيميائياً. ومن مكانه في الماء، مُمسكاً بحقيبته العائمة بكِلتا يديه، نظر إلى الوراء نحو الجزيرة. يتخيّلهم بعد العملية وهم يفتشون فيجدون ما يؤكد أنه كان هنا للقيام بمهمته الأساسية واغتيال الرئيس. لكنه اختفى كأنه تبخّر في الهواء.

ابتسم الرجل الرمادي بحُزنٍ وهو يستدير ويركّل بقدميه برفقٍ، بادئاً بالطفو نحو الشاطئ على بُعد مائة متر.

سار الرجل الرمادي عبر شوارع سواكن الترابية وهي خالية في هذا الوقت المبكر من الصباح، نظر في ساعته فوجد أن موكب الرئيس عبود لن يمرّ هنا قبل 90 دقيقة من الآن، لكنّه كان في موقعه بالفعل، مُحْتَبّاً بين أحضان الظلال في سوق السمك الذي يحتلّ هنجراً من الصفيح. حمل على ظهره حقيبة السي آي إيه التي يبلغ وزنها خمسين رطلاً من العتاد، ناهيك عن هاتفه المتّصل بالقمر الصناعي. وضع الساعة في أذنيه، وثبّت الأنبوب المطاطي الرفيع على خدّه، وهو يصله إلى الأسفل نحو فمه، مما سمح للساعة بأكملها بالاختفاء تقريباً في شعر رأسه ولحيته.

واصل مشيّه حاملًا مُسدسه من طراز جلوك 19 ومعه 46 طلقة من عيار 9 ملم. صحيح أنها لا تكفي لمعركة، لكن يُفترَض أن تدور معركة هذا الصباح حوله، لا بواسطته.

ومع ذلك، فقد رغب بكل تأكيد في الحصول على المزيد من الذخيرة.

أخذ كورت بعض الوقت للتكيف مع بيئته. فتجول هنا وهناك متأملًا الإبل وهي تجول الشوارع، والحمير المقيّدة بأعمدة خشبيّة. بدت المدينة وكأنها بشكلها المعماري وحالتها البوهيمية منفصلة تمامًا عن زمننا الحالي، غارقة في حِقبة من الحقب التوراتية أو المسيحية الأولى، باستثناء أنه في زمن المسيح والأنبياء الأوائل لم تكن هناك مساجد، ولكن من المؤكّد أن هذا المنظر الذي يراه، من مكانه في كُشك بائع السمك في الهواء الطلق، لم يتغيّر قيد أنملة منذ القرن الثاني عشر. تخيل نفسه في تلك الأيام، وتساءل عمّا إذا كان جاسوسًا أو قاتل قد تسلل إلى هذا المكان بالذات في هذا الوقت من الصباح، بخطّطٍ شريرة لاستهداف هدفٍ في ذلك المسجد، أو ذلك المبنى القديم المظهر عبر الساحة.

وللغرابة كانت عربات الكارو التي تجرّها الحمير هنا تسير على عجالاتٍ مطاطية مثل السيارات، وليست عجالاتٍ خشبية مثلما اعتاد رؤية الكارو في بقية الدول العربية التي سبق له زيارتها، كما كانت مُعظم الأسقف المعدنية وجوانب الأكواخ عبارة عن براميل زيت صدئة أو حتى علب قهوة كبيرة من الصفيح. كما علّق دلو بلاستيكي أزرق مكسور بحبل خارج نافذة في الطابق الثاني.

دون سابق إنذار سمع صوتًا يتحدثُ بالقرب منه. أفزعه الصوت فأمسك بمُسدّسه ونهض، ارتطم رأسه برفّ خشبيّ فوقه في الكوخ، قبل أن يُدرك أنه صوت زاك، وأنه جاء عبر سماعة الرأس، فجلس مرّة أخرى غاضبًا من نفسه.

قال "صباح الخير يا رقم 6 أينما كنت. أنا والفريق سنكون جاهزين للخروج للشاطئ بمجرد أن نشرب القهوة ونستعد". صمت لحظة من أجل التأثير الدرامي، ثم تنهّد وأضاف "اللعنة! من المؤكد أن العمل بشكل شرعيّ أمر رائع، أفضل بكثيرٍ من أن تهرب وتجلس بمُفردك خائفًا في الظلام في مكانٍ ما، على أمل ألا يعضّك الفأر الذي يزحف على ساقك، لأنك لا تستطيع تحمّل التحرك والكشف عن موقعك".

نظر كورت إلى الأسفل، قبل أن يوبّخ نفسه لأنه نظر، إذ لم يكن هناك فأرٌ يزحف على ساقه.

"أعدك أنك في المستقبل القريب ستعود للعمل معنا مثل الأيام الخوالي. بالطبع ستظل منبوذًا، لكنني أعدك بالسماح لك بالانضمام إلينا لتناول فنجانٍ من القهوة من وقتٍ لآخر".

أوماً جنّيري برأسه، سيكون من الجيّد أن أكون جزءًا من فريقٍ مرّة أخرى، حتى لو كانت هناك بعض التحذيرات.

تابع هايتاور حديثه "لكن أولاً، وقبل كل شيء، دعنا نتجاوز هذا الصباح، مع السلامة".

همس كورت "علم وبنفد" لكن هايتاور لم يسمعه. نهض ببطء مُتفادياً الرف بالأعلى وعبر الزقاق الضيق نحو المدخل الجانبي للبنك. فتح القفل في أقل من ثلاثين ثانية؛ كانت مهمة بسيطة لا تتطلّب سوى أداتين ضيقتين، وبضع حركات لفتح القفل.

بالداخل، عام المكان في ظلام دامس؛ وتصاعد الغبار العتيق في ضوء القمر الذي يتلأأ من خلال النوافذ الدائرية المقوّسة. أخرج كورت مصباحه من جيبه وأضاءه، ثم وضعه في فمه، وسار عبر رواقٍ صغيرٍ يمتد على طول الجانب الشرقي من المبنى الكبير المفتوح. كان هذا المكان موجودًا منذ مئات السنين، كما أدرك جنترى، ولكن يبدو أن العمل المصّر في لم يعد يُشكّل أهميةً كبيرة في سواكن. كان معظمه فارغًا، مع عددٍ قليل من المكاتب والهواتف وخزائن الملفات الخشبية والسلالم المؤدية للطابق السفلي. واصل كورت طريقه إلى المدخل الرئيسي ووجده تمامًا كما رُسم في المخططات التي مدّه بها زاك. امتدّت السلالم على يمين ويسار الأبواب الأمامية المزدوجة، وأدّت إلى فناء ضيّق فوق الأبواب، حيث تطلّ النوافذ الكبيرة على الساحة. استغرق جنترى بضع دقائق لتجهيز معدّاته، فسارع صعودًا وهبوطًا على السلالم الحجرية الحلزونية ست مرّات لوضع المعدّات حيث سيحتاج إليها عندما يقتحم الهدف وفريقه الأمني الباب، مُعتقدين أنهم يُنقذون أنفسهم من هجوم في الساحة.

نظر كورت عبر إحدى النوافذ، ليُلقي نظرةً جيّدة على الميدان للمرّة الأولى. لم يكن يبدو مُربّعًا، وهو طراز اعتاد رؤيته في أسفاره لأوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية. كان بحجم ملعبين لكرة القدم، غير مُمهّد تمامًا، ولا يكسوه العُشب، بل مُجرّد مساحة كبيرة مسطّحة من الأرض الصلبة. وعلى الجانب الآخر كانت هناك مباني متهاكّة من طابقيّن، ذات طراز معماري استعماري أبيض، ولكنها قدرة، وقذارتها واضحة جلية حتى في ضوء القمر. إلى الشمال الشرقي، على الجانب الأيمن من الميدان، لم يكن هناك سوى أكواخ؛ خشب طافٍ يدوي الصُّنع، وخشب رقائقي، وصبّيح، وخُرْدَة جُمعت وربّطت معًا، أو تحيّل كورت ببعض المبالغة، أنها اتكأت ببساطة على بعضها البعض مع الدُّعاء إلى الله والأمل في الأفضل. امتدّت الأكواخ أسفل التل على بُعد عدّة كُتل إلى حافة المياه، والطريق المؤدي إلى جزيرة سواكن القديمة.

إلى يسار نقطة مُراقبة كورت، الجانب الغربي من الميدان، رأى أجمل المباني التي تُقدّمها سواكن. وقف الفُنْدُق هناك، قصر سواكن. نظر كورت إلى الطابق الثالث، وتساءل عمّا إذا كان العميل 5 يُراقب الموقف. وقف جنترى في قلب الظلام الدامس داخل البنك، لكنّه تصوّر أن سبنسر لديه نوع من مُعدّات الرؤية الليلية، لذا رفع يده بتردّد.

جاء الإرسال عبر الشبكة بعد ثانية "من العميل رقم 5، إلى العميل رقم 1".

ردّ زاك بصوته الخافت "معك العميل 1".

"العميل 6 في موقعه".

قال هايتاور "ليس لديّ شكّ في هذا".

خفض كورت يده. كان من الغريب أن يُراقبه أحد، وخاصّة في وقت كهذا. واصل مسح بقية المباني في الميدان فوجدها من الحجر الجيري الأبيض والمرجان، وتبدو قديمةً للغاية.

وقف الرجل الرمادي ينظر من النافذة منتظرًا ظهور أي فصيلٍ من المتمردين، ثم تساءل ماذا لو تراجعوا وأخفقت كل مُحطّطاتهم، سيهرع من الباب الجنوبي للبنك ويترك وراءه كل شيء. ليس هناك دليل واحد على أن وكالة الاستخبارات المركزية متورطة في الأمر، كل الأسلحة والمعدّات المستخدمة يمكن الإتيان بها من

خارج الولايات المتحدة الأمريكية، الشيء الوحيد الذي أفلقه هو معلومات مقر السي آي إيه في السودان الذي لا يمكنه الوثوق به حتى الآن.

اللعنة! تحسّر على أيامه الماضية حين كان يُدير عملياته بمفرده دون حاجة لأي فرق دعم أو تخطيطٍ من أعلى يُعيقه، بل ويُضللّه أحياناً.

كان كلُّ شيء أبسط بكثيرٍ عندما كان مُجرّد قاتلٍ مأجورٍ خاصٍ.

في تمام السادسة وعشر دقائق، انتهى كورت من تجهيزاته داخل البنك، ثم عاد إلى مكانه في الطابق الثاني، اتصل به زاك قائلاً "رجال الفرقة في أماكنهم. العميل رقم 3 على سطح مبنى في الزاوية الشمالية الغربية من الميدان؛ ورقم 5 في نافذة الطابق الثالث من قصر سواكن. أما البقية فتحركوا معاً، على بُعد ثلاث كتل شمال شرق الميدان. نحن في مركبة.. بيج.. ماذا تُدعى هذه القطعة من القرف؟ شاحنة فورد إيكونولاين بيج. سيُضرب جيش تحرير السودان من الغرب. يجب أن يتخذوا مواقعهم الآن. على أول من يرى أو يسمع أي علامة عليهم، أن يبلغ عنهم".

أكد رجلاً في الميدان على فهمهم لما قال "علم ويُنفذ".

ارتفعت شمس الشروق بعد حوالي عشر دقائق. انحدرت المدينة من الساحة إلى الماء، ومن مكانه في نقطة المراقبة بالطابق الثاني، وقف الرجل الرمادي يتأمل البحر البعيد الذي لفته ضوء الصباح وهو يلتقي بالمساء. سيظهر أوريكس على الجانب الآخر من الساحة في غضون دقائق، ومع ذلك لم ير أحد علامة على جيش تحرير السودان. يفترض بهم الآن على الأقل التواجد في مكان ما، مُستعدين للحركة، ويفترض به أن يسمعهم أو يشاهدتهم رجلاً "ويسكي سيراً" من مكانها غرب الساحة بحلول ذلك الوقت. لكن شيئاً لم يحدث.

فهم جنترى ما قصده زاك عندما قال إن المدينة تتمتع بأجواء الغرب القديم. فنظر من النافذة إلى التراب والمباني البسيطة وأعمدة الربط وأحواض المياه وعربات الحمير والمظلات الخشبية والبنادق الجاهزة لإطلاق النار، وأدرك كورت أنه قد يكون في عالم آخر وزمن آخر.

ارتشف جنترى الماء من مكانه، وفحص ترتيب العناصر في الحقيبة التي يحملها على ظهره للمرة الرابعة. انقبضت معدته، عندما سمع صوت زاك في الميكروفون يقول "من واحد إلى خمسة". أجابه سبنسر، عضو الفريق الأسود القوي، الذي كان رقيباً في القوات الخاصة للجيش قبل الانتقال إلى العمليات السرية لوكالة السي آي إيه "معك خمسة يا واحد، تحدث".

"ألا يزال القطاع ناحيتك خالياً؟"

"لا أرى أي شيء هنا بجوار الفندق".

"رقم 3، ما الوضع عندك؟"

"لا شيء مُقلق حتى الآن".

تردد هيتاور قليلاً، حتى إن كورت تساءل عما إذا كان على وشك إلغاء المهمة، قبل أن يقول "إذا بقي الوضع هكذا سننتقل للخطة برفو".

في الردهة المظلمة للبنك، عبس كورت جنترى بشدة وهو يتساءل في سره بحنق "برافو!! إن كانت هناك بالفعل خطة بديلة، فمن المؤكد أنه لم يكن على دراية بها.
قال العميل 3 "لنفعها يا سيدي، الأربي جي جاهز".
أربي جي! شعركورت بقطرات عرق باردة تسيل على جبهته.
أنزل إصبعه وهم بالضغط على زرّ تليفونه للاتصال براك لمعرفة ما الذي يحدث.
لكنه لم يكن في حاجة لهذا.

قال زاك بصوت مليء بالندم "حسنًا، يا سته، دعني أطلعك الآن على خطتنا البديلة قبل أن يحدث لك شيء. لقد تخوفنا أنا وديني من تراجع قوات المتمردين. وكما رأيت بنفسك كل حين يُبلغوننا بعددٍ أقل مما سبقه كأنهم يتلاعبون بنا بشكل مفضوح. من الواضح أن مصدرك الشرطي المحلي قد اخترق، ونقل المعلومات التي معه لجهاتٍ أخرى. لكننا لا نحتاج للمتمردين، وسنمضي قدمًا. لست بحاجةٍ إلي معركة، بل إلى تشتيت الانتباه فحسب، ويُمكننا بهجومٍ صغيرٍ إحداث القلق المطلوب في المدينة ودفع الرئيس عبود للاختباء في البنك هو وطاقم حراساته الخاصة، حسنًا يا 6، سيتولى رجالي هذا الهجوم الصغير، أليس كذلك يا 3؟"
"علم ويُنفذ يا رقم 1".

"سيقوم العميلان 3 و5 بإطلاق بعض النيران المباشرة، فقط بما يكفي لدفع أوريكس وحراسه الشخصيين إلى باب البنك. ثم سنضرب بقية الرجال في المربع الشمالي الشرقي، فقط بما يكفي لإبقاء رءوسهم منخفضة لمدة دقيقة أو دقيقتين. وبعد ذلك سيكون الأمر طوع بنانك". صمت للحظة طويلة قبل أن يقول "هذه خطة ديني بالمناسبة. لم أكن أريد إخبارك قبل الآن، لأن.. حسنًا، كنت آمل أن يظهر المتمرّدون. أرجو ألا تستشيط غضبًا".

لم يكن كورت غاضبًا، بل هو غاضب للغاية. وودّ لو يصدم رأسه في الحائط من فرط غبائهم، كانت الخطة في البداية أن يتم تشتيت حراس عبود بواسطة قوات المتمردين، أما الآن فانتقلت تلك المسؤولية لخمسة من رجال زاك، وفوق كل هذا سيتعين عليه أن يعتقل الرئيس ويسحبه تحت الأرض بمسافة حوالي عشر بنايات حتى يلتقطوهما ويخرجهما من المدينة.

ورغم أنه أمرَ بعدم البث على هذا الإرسال، إلا أنه لم يهتم. ضغط على زر التحدث في حزامه، وصاح "يا لك من ابن عاهرة! لا يُمكنني إخراجك في الوقت المناسب...".

أغلق الأخير الاتصال، وحوّله للموجة الخاصة بينهما وقال أمرًا "توقّف عن الإرسال يا رقم 6!! بصفتك قائدًا للفريق، ضبّط جهازه لتجاوز إرسال جميع الآخرين، تابع حديثه قائلاً "أوريكس وفريقه في الأفق. إنهم يدخلون الساحة، من الزاوية الشمالية الشرقية. استعد لضرب المؤخرة يا 3".
قال دان بصوتٍ مُنخفضٍ "يرى 3 أهدافه في الأفق".

نظر كورت من الشرفة فرأى موكب الرئيس يدخل الشارع بالفعل وحوله حرسه الخاص. نظر إلى أسفل، نحو السلم، وفكّر في الجري، رغم أنه لم يكن يعرف حقًا إلى أين سيذهب. لقد فات الأوان لمواصلة عملية سيد الآن؛ ولم يكن هناك أي طريقة يُمكنه من خلالها العودة إلى بندقيته المزوّدة بليزر، وإطلاق النار على عبود، وإن لم يُنجز مهمته، لن يُساعده سيدورينكو في الخروج من البلاد. وعلى العكس من ذلك، إن لم يُنفذ عملية السي آي إيه، فلن يُساعده زاك والوكالة على الخروج من البلاد أيضًا.

إنه عالق، بعد نقطة اللاعودة، وكان هذا هو السبب في أن هايتاور لم يُخبره بتغيير المهمة. سيتعين عليه الاستمرار في مهمة السي آي إيه الآن. قال العميل 5 "ماتتا ياردة إلى البنك، سأضربهم عندما يمرّون أمام الباب". "عَلِمَ وَيُنْفَذَ".

نظر جنترى نظرة أخيرة على مُعدّاته المتناثرة حوله؛ ووجد كل شيء في مكانه. هدأ من روعه. كان هذا مُختلفًا عن مُعظم عملياته الأخرى، لكنهم قبضوا على بعض الإرهابيين أيام عمله مع الفريق، لذا لم يكن كورت غريبًا على هذا النوع من العمل. ومع ذلك، لم يكن الأمر هينًا. كانت هذه أكبر مهمة، وأكثرها تعقيدًا وحساسية، تفوح منها رائحة اليأس من جانب وكالة المخابرات المركزية.

تذكّر قول موريس، مُعلّمه في جهاز السي آي إيه، حين نصحه قائلاً "العملية التي لا يوجد بها مخرج طوارئ ارفُضها من البداية". قال العميل 5 "مائة وخمسون ياردة".

قال موريس مقولة أخرى، ظهرت في ذهن كورت بغتة "كل الخطط ما هي إلا قائمة كبيرة من الخطوات التي لن تحدث". ووجد كورت أن هذا هو الثابت الوحيد في مهمّاته وفي حياته. كانت الخطط جيّدة، وضرورية، ولكن في النهاية، مُعظمها هراء.

"من العميل 3 إلى العميل 1، هل تسمعني؟"
"أسمعك بوضوح".

"هناك عربة عسكرية في مرمى بصري".

سمع كورت الأمل في صوت هايتاور وهو يقول "المُتمردون؟ انتظر، لحظة". سادت لحظة من الصمت قبل أن يقول "لا، إنها قوات تابعة للجيش السوداني".

"من العميل 5 إلى العميل 1.. لديّ قوات هنا أيضًا. على بُعد شارعين غربي، مُتجهة نحو الميدان".
قال زاك "اللعة!"

فكّر كورت، اللعة! كانت قوات الجيش السوداني قريبة، لكن قوّات المُتمردين لم تُكن كذلك. من الذي يبحث عنه الجيش السوداني؟

حدّق بعينيّه عبر الميدان. وعلى يمينه، بدأت الشمس تُشرق فوق الماء مثل بثرة حمراء. أعطى ضوء الفجر توهُّجًا غريبًا للمباني البيضاء على يساره. اقتربت حاشية عبود، حوالي عشرين رجلًا أو يزيد قليلًا، من موقعه.

"من العميل 3 إلى العميل 1، ماذا سنفعل يا سيّدي؟"
عجّت سماعة أذن كورت بفوضى من أفراد الفريق، رغم أنه أمرَ بعدم الإرسال بنفسه.
همس كورت لنفسه في الردهة الباردة المظلمة، داعيًا الله من كل قلبه "يتوجب عليك إلغاء العملية، فورًا".
وقف بجوار النافذة، فكّر في الهروب من الباب الخلفي للمبنى، ليس إلى سيارة بل إلى أي مركبٍ من المراكب الشراعية الراسية على الشاطئ، لكنه إذا ضرب بخطّ زاك وسيد عرض الحائط، مَنْ سيساعده بعدها على الخروج من هذا الجحيم.

صدح صوت هايتاور عبر السماعة، أدرك كورت الضغط المخفي بين كلماته "كم عددهم؟"
"ربما حوالي ثلاثين، وهناك منصّة طويلة، وأسلحة صغيرة، وقاذفات آر بي جي موجّهة. كما أنهم يحملون على عرباتهم مدافع (بي كم إم) الروسية".
قال زاك ببرود "علم ويُفد".

"من العميل 5 إلى العميل 1 لديّ نفس العدد تقريبًا هنا. إنهم يقومون بدوريات في صفوف، ولا تبدو عليهم أمارات التوتر".
عندما لم يقلّ زاك أي شيءٍ آخر لبضع ثوانٍ، عاد الإرسال للحياة مرّةً أخرى "من العميل 3 إلى العميل 1،
يمكنني الاشتباك الآن، لا أعتقد أنني سأتمكّن منهم إذا انتظرنا أكثر".
قال زاك "مفهوم يا رقم 3، انتظر الأوامر".

همس جنترى لنفسه: عليك إلغاء العملية. كرّرها مرارًا وتكرارًا، قبل أن يُضيف التزم بهدوئك يا كورت..
التزم بهدوئك يا كورت.. التزم بهدوئك يا كورت..
عرف الرجل الرمادي كل شيء، وحرفيًا.. رُبما تعتمد حياته على الإرسال التالي للعميل 1؛ خروج آمن
وهادئ، ثم تحقيق في كيفية فشل العملية.
أو الخطة البديلة.. حرب عالمية ثالثة.

التزم بالهدوء يا كورت..
صدح صوت زاك "من العميل 1، إلى جميع العناصر".
التزم بالهدوء يا كورت..
تردّد للحظة ثم قال "دعونا نتوقّف، واهدءوا جميعًا. حافظوا على مواقعكم حتى يصل الموكب للمسجد،
ثم أريد انسحابًا كاملًا هادئًا لكل العناصر من مواقعها...".
تنفّس كورت الصعداء.

أما رجال زاك فكانوا مؤهلين لمثل هذه المواقف الصعبة المؤثرة، لا تربطهم أي عواطف إيجابية أو سلبية تجاه عملياتهم، نفذ نفذ! انسحب انسحب! لا جدال في الميري إنها قاعدة معروفة.

راقب كورت من موضعه موكب الرئيس عبود وحاشيته وهم يدخلون المسجد، كانوا قريبين جداً لدرجة جعلته يركز على أسنانه من إلغاء العملية في آخر لحظة، لكنه كان مُحترفاً أيضاً. لقد مرَّ بهذا من قبل، قبل ثانية أو اثنتين من نقطة اللاعودة، ولكنه لم يكن قادراً أو راغباً في المضي قدماً. لم يُضَيِّع أي وقت، ابتعد عن النافذة، وعاد إلى مدخل الباب الأمامي للبنك. وعند الباب الخلفي للبنك أتاه صوت زاك مُجدداً عبر سَماعة الأذن الخفية.

وضع زاك هايتاور بُندقية بين رُكبتيه، ثم أسند رأسه بإحباطٍ على مسند كُرسیه، بينما جعل براد، العميل 2، الشاحنة القذرة في وضع التشغيل. وخلفها جلس "ميل"، العميل 4، وهو يوقف بيأس سلاحه الرشاش بين رُكبتيه في مؤخرة السيارة. كان المدفع الرشاش الذي يُحمَل على الكتف من نفس الخراطيش القوية التي تحملها بنادق الصيد والقنص، لكنه يُطلقها بشكل أسرع، ومن مخزنٍ يحتوي على مائة طلقة، إذ كان هو المسئول وسط عناصر الفريق في كل عملية ينفذونها عن تشييت الأعداء برصاصه وإبقائهم بعيدين عن ذيل الفرقة في حالة أي انسحاب، أما الآن فكان هو أكثرهم غضباً من إيقاف العملية فجأة دون شروحات ولا مُبررات.

كانت السيارة قابعة وسط الظلال في نهاية زقاقٍ مهجور من أي حركة مرور، بعيداً عن المكان الذي أُبلغ عن وجود مُشاة الحكومة السودانية فيه. تفقدوا في المرايا كل الاتجاهات حولهم فلم يجدوا شيئاً مُقلقاً باستثناء قُطعانٍ من الماعز والأغنام المطلوقة بلا راع، ولحُسن حظهم كان الفريق كله في نقطة بعيدة عن المناطق التي بدأت تنتشر فيها قوات الجيش السوداني. تحرَّكوا في اتجاه الميدان، لذا انعطف براد يساراً، مما سيُقربه من الميناء، ويسمح له بتجنب قوَّة حراسة عبود.

لكن الممر تحوّل إلى طريقٍ مسدود عند حظيرة الجمال. إذ كان عبارة عن هيكل دائري كبير مصنوع من الأخشاب الطافية والحُرْدَة المعدنية، مع عددٍ قليل من الحيوانات الضخمة راکعة أرضاً، ولم يكن هناك طريقة للالتفاف حوله.

بدأ براد يعود للخلف، ونظر هو والعميل 1 في مرايا الرؤية الخلفية.

رأى زاك الجنود أولاً، وصاح في الشاحنة، وعبر اللاسلكي الخاص به لبقية أفراد الفريق "هناك جنود"! ضغط العميل 2 على المكابح. وعلى بُعد عشرين متراً خلفهم، عند بداية الزقاق الذي دخلوه للتو، وقف نصف دزينة من الجنود يرتدون ملابس خضراء، وبنادقهم الصينية الصُنع من طراز (81) مصوَّبة نحو الشاحنة. صاح أحد الجنود بأمرٍ.

سأله براد من مقعد السائق "ماذا سنفعل يا سيدي"؟

تمهّل قليلاً، ثم أصدر تعليماته للفريق بأكمله "إلى جميع عناصر الفريق، نفذوا أمري الأخير، أكرّر مرّة أخرى، نفذوا أمري الأخير! ودعوا العرض يبدأ".

فتح ميلو باب السيارة الخلفي بركلة من حذائه، وأمطر برصاصه الكمين عند مدخل الزقاق. أسقط ثلاثة جنود من الستة الواقفين، أما الباقون فقد هبطوا أرضاً، وبدلوه إطلاق النار. وخلفه، فكّ زك حزام أمانه، واستدار بين المقاعد، ورفع بندقيته الآلية الإسرائيلية من الشباك، وفتح على قوات الجيش السوداني النار، لم يتوقف سائق الفان طوال هذه الملحمة بل واصل قيادته بسرعة عالية حتى اصطدم بحظيرة إبل أفزعتها الضربة وجعلتها تهرب من فوق السياج.

تنهّد الرّجل الرمادي في استسلام.

كان على وشك فتح الباب الخلفي للبنك. وعلى الجانب الآخر من الباب.. ينتظره زقاق مُظلم. وبعد ذلك يضع مُنعطفات هادئة، ثم سيكون في الميناء، في مياه البحيرة أو على متن قاربٍ صغير. وسيفرّ من قبضة الخطر في دقائق.

لكن إرسال زك، وإطلاق النار باتجاه الشمال، غيّر كل شيء.

والآن، صاح العميل 3 عبر الشبكة "سأبدأ العمل".

ثم دوى انفجار صاروخ آر بي جي، بالقرب من موقع جنّيري.

انضم سبنسر إلى الحفل، قال "العميل 5 هنا". انطلقت نيران الرشاشات من قصر سواكن.

لقد بدأ الأمر، وسيقتحم عبود المدخل خلف كورت في غضون ثوانٍ.

استدار الرّجل الرمادي، ومدّ يده ليُمسك بالمسدّس الجلوك (19) المُثبت على فخذه.

وفي الخارج، اشتعلت الساحة بنيران مُسدّسات رجال عبود. استنشقت كورت الهواء العفن في مبنى البنك

القديم، وفرد ظهره، وشدّ فكّه قبل أن يقول "ها نحن ذا".

ركض على الدرج، واتّخذ موقعه داخل البنك.

وبعد لحظات، انفتحت الأبواب في الردهة أسفله.

مرحباً بكم في الحرب العالمية الثالثة!

صرخ الرجال أسفل جنترى وصاحوا، ولكن ليس في دُعر، إذ كانوا حُرَّاسًا مُدَرَّبِينَ. عَرَفَ الرَّجُلُ الرَّمَادِي بسبب خبرته كيف سيتصرَّف حُرَّاس عبود بمجرد دخولهم البنك، سيصنعون دائرة حماية حصينة، ويضعون الرئيس في وسطها بحيث يؤمَّنونه من كل الجهات ضدَّ أي مخاطر مُحتملة، ثم سيقودونه نحو الجزء الأكثر أمنًا في المبنى، وهو على الأرجح القبو. كم سيكون عددهم؟ ربما خمسة أو عشرة أو عشرين، لا يهم لأنه جهَّز لهم بالفعل مفاجأة لا تعتمد على عددهم.

ضغط كورت على زرِّ في جهاز تحكُّم عن بُعد محمول باليد، كان قد تركه على حافة النافذة. وبذلك فعَّل المغناطيسات الكهربائية على قفلين كان قد ربطهما على كُلِّ جانبٍ من جانبي البابين في الأسفل، مما أدى إلى إطلاق الترابيس الحديدية التي يبلغ طولها ثلاث بوصات في المساحة بين البابين وتثبيتها. وقد ضمن ذلك عدم دخول أي شخصٍ آخر.

بعد ذلك رفع جهازًا يزن اثني عشر رطلًا عن أرضية الردهة من مقبض حمله، ووضع إبهامه تحت غطاء المفتاح، ثم ضغط على الزر. وبعد ثانية واحدة رفعه من فوق السور الجانبي. سقط نحو الردهة، لكنه رُبطَ بسلكٍ طوله ستة أقدام بالسور نفسه، وعندما وصل الصاعق الضوئي الأقل فتكًا إلى مستوى أعين جميع الرجال في الردهة، استغرقت ساعة العد التنازلي ثانيتين لتُصدِر موجات صوتية وسمعية صاعقة تشلُّ أبصار واذان جميع من في العرْف، وتكوِّم الرجل الرمادي على الأرض في وضعية الجنين حاميًا نفسه بعد أن أغلق عينيه بإحكام.

كان الجهاز عبارة عن نموذج أوَّلي اخترعته مديرية العلوم والتكنولوجيا التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وأشار زاك إليه باسم "الانفجار الأعظم". وقد صُمِّم ليُسبِّب تشويشًا فيزيولوجيًا ونفسيًا فيزيائيًا، مع أصوات وأضواء لا تُصدَّق. وحرص المسؤولون على تجميع المعدات الظاهرة في الجهاز من اليابان وفرنسا وألمانيا، حتى لا تظهر عبارة "صنع في أمريكا" على أي موضع منه.

لكنه حتى مع هذه الوضعية الحامية وساعات الأذن الكاتمة للصوت، انعكست دفقة الضوء الساطعة على الجدران من حوله لتُحرق عينيه، وهزَّ الانفجار الصوتي الذي دام لثانية واحدة كُلَّ شيء. كان تأثيرها البصري المُعلن أشبه بالتحديق في الشمس لمدة 110 ملي ثانية، أما على مستوى الصوت فقد ضرب طبلة الأذن وأصاب من هُم على بُعد عشرين قدمًا منه عند تفعيله في مكانٍ مُغلق. شعر كورت بحشجة أسنانه في فكِّه، وتساقطت أشياء كثيرة حوله، لكنه لم يكن لديه الكثير من الوقت للبقاء لمدةٍ أطول على الأرض، لذا قفز على قدميه فورًا.

وبينما ركض كورت نازلًا درجات السُلَّم للطابق الأرضي من البنك، رفع سلاحه أمامه وهو غير مُتأكَّد مما سيحدثه. دخل جنترى الردهة بسرَّعة، ووجدهم جميعًا في حالة عجز بدرجةٍ أو بأخرى. ستة رجال، ومن

المؤكد أن الرئيس عبود بينهم. جثا أحدهم على رُكبتيه، وتحسَّس السجادة بكلتا يديه بحثًا عن سلاحه. أطلق كورت النار على مؤخرة رأسه فأسقطته قتيلاً على الأرض بجوار المُسدَّس الذي بحث عنه. ثم خطا فوق حارسين فاقدَين للوعي للوصول إلى رجل مُسنَّ سقط مُستلقياً على وجهه، كان هذا هو هدفه ووجدَه مُغمى عليه، وبجواره وقع فرداً حمائيةً أصغر سنّاً مشوشين تماماً. استلقياً على ظهرهما، وتلويًا في بركةٍ من قيئهما. وعلى الفور، مزق جنترى قميص الرئيس الأبيض السميك الذي ارتداه وسحب ربطة عُنقه. تقدّم للأمام وجثا على رُكبتيه، ومدَّ يده تحت إبطيه، ثم رفعه حتى اتكأ صدرهما على بعضهما البعض. انحنى كورت إلى الأسفل، وترك الثقل الميت يستقر على كتفه الأيمن، مُستخدماً ساقه ليقف، رافعاً أوريكس معه مثل رجال الإطفاء. سار الأمريكي بالرجل السوداني الضخم مُتخطياً ساقَي فرد حراسةٍ آخر إلى خارج الغرفة. وعند الباب الخلفي الموصل بالأقوال، وضعه برفق على الأرض، وسحب مُسدَّسه مرّةً أخرى.

أسرع عائداً نحو الردهة. ورغم رنين أذنيه من صفارة الإنذار التي أطلقها للتو، إلا أنه سمع صوت إطلاق نارٍ كثيف في الخارج، وشعر بالامتنان لأن كل هذا القتال العنيف حدث في الشمال والغرب، وبالتالي لن يتعارض مع طريق هروبه.

داخل الردهة، وجد أربعةً من الحُرَّاس الشخصيين للرئيس فأطلق النار على كواحلهم مُسقِطاً إياهم بطلقاتٍ لا تُميت. تلفَّت حوله باحثاً عن بندقيّةٍ أو رشاش هنا أو هناك، لكنه لم ير شيئاً سوى بضع مُسدَّسات لا تنفعه.

بالخارج، طرقت الرجال الأبواب الأمامية، وصرخوا طالين السماح لهم بالدخول. ترك جنترى الردهة والرجال المُصابين خلفه. سيتعاون قريباً، ربما في أقل من دقيقة، لكن رءوسهم ستعطلهم لساعاتٍ أو أيام، وكواحلهم لفترةٍ أطول. وبذلك يكون قد ضرب عصفورين بحجر، أفلت منهم وعطل بهم قوات الدعم التي حين تأتي ستشغل حتماً بإسعافهم، وبالتالي يكون ألهامهم عن مُطاردة الجاني الفعليّ.

ولأنه كان من المُستحيل مواجهة كل هؤلاء الحُرَّاس وتبادل النيران معهم وهو يحمل السوداني العجوز على كتفه، فقد عاد إلى الباب الخلفي وهو يُعيد تلقيم مُسدَّسه، فتح طاولةً نقالةً أعطاها له زاك مُصمّمة بحيث تُمدد وتُغلق بمرونة وتتحرك على عجلاتها بسرعة مثل ترولي المستشفيات، وضع الرجل على العجلتين، واستغرق لحظةً في ثني الذراعين داخل الحبل المطاطي المُتصل، ثم توقّف لحظةً لالتقاط أنفاسه.

استمرَّ إطلاق النار في الخارج في دفعاتٍ قصيرة، بدا صوتها مشوشاً ومُنتشراً.

بدا الأمر وكأنه مُشكلة، لكنه مع ذلك لم يسمع شيئاً عند الجانب المُلاصق له من المبنى.

فكَّ كورت مزلاج الباب الخلفي وفتحه، نظر أولاً إلى اليسار صوب الميدان فوجد المكان خالياً.

ثم نظر يميناً ليجد مدنيين يقفان في الطريق الترابي. كانا يُشبهان صيادين من شعب "البجا" لكنهما غير مُسلّحين. وما إن وجّه نحوهما مُسدسه حتى رفعاً أيديهما مستسلمين. أمرهما بالعربية أن يرحلا من أمامه، لكنهما وقفا بلا حراك. لَوَّح بالمُسدَّس في حركةٍ تُحاكي خروجهم من الشارع وبدا أنهما قد فهما الأمر، لأنهما في غضون ثوانٍ اختفوا في الأزقة المحيطة بالميدان.

بعد دقيقة، هروا جنترى في الظل وهو يدفع النقالة التي يحتلها الرئيس أمامه. قطع شارعين إلى الجنوب، دون أن يرى شيئاً سوى المدنيين المرتبكين اللذين لم يفعلوا شيئاً ليعيقا تقدمه. ثم ركض متجاوزاً جداراً عريضاً منخفضاً وانعطف داخل بوابة مفتوحة إلى مسكن خاص. وفي الفناء الترابي الصغير، أنزل عجلتي الترولي أرضاً وركع بجانبها. كان على بُعد مائة ياردة من الباب الأمامي للبنك الآن. بعد أن انعطف يميناً ثم يساراً في عدة ممرات ضيقة، وكان شبه واثق من أنه لم يُرصد ولم يترك أي أثر بقدميه أو نقالته. استمرّ دوي إطلاق النار من الميدان.

كان الرئيس قد بدأ يُفوق من الصدمة التي سببتها القنبلة الضوئية-السمعية، تدارك كورت ما يحدث فأخرج من جيوبه أصفاده المعدنية وكبل بها رهيته في وضع الجلوس، صفعه عدة مرات على وجهه، ثم أخرج زجاجة مياهٍ من جيبٍ جانبي في حقيبتيه، ورش منها على رأس العجوز السوداني الضخمة. استعاد أوريكس وعيه بالكامل، لكنه كان لا يزال مشوشاً وحدقتا عينيه متسعيتين. أجبره جنترى على شرب المياه فانصاع، ثم صفعه مرة أخرى. بصق الرجل الماء على الفور، وكبّ معظمه في وجه كورت. ثم حاول عبود مدّ يده لإبعاد الأضواء الساطعة الوهمية أمام عينيه.

صرخ جنترى لسمع عبود بأذنيه المرهقتين "استيقظ! افتح عينيك! افتح عينيك وانظر إليّ!" حظي بانتباه الرجل الكامل الآن. اتسعت عيناه بشدة، ولكن من الواضح أنها قد ابيضت في المنتصف من الضوء الساطع للانفجار الكبير. أخذ يستوعب المشهد ومنظر الرجل الواقف أمامه بنظرة جانبية. وكان من الواضح أنه مصدوم، ولكنه يتعافى مما بدا له قبل ثوانٍ قليلة أكثر من مجرد حلم. هزّ أوريكس رأسه محاولاً التخلص من الارتباك، والأضواء الساطعة المتراقصة، والرنين المتواصل في أذنيه.

كان كورت قد تعرّض لذلك الوميض عدة مرات في التدريب. لكن الأداة التي استخدمها على أوريكس وحراسه كانت جديدة، وقوية، ولكم سعد جنترى بذلك لأنه لم يسبق له أن تعرّض لصاعقٍ صوتي بصري بهذا الحجم.

صرخ أوريكس بالعربية "من أنت؟ وماذا يحدث؟" ردّ الرجل الرمادي بالإنجليزية "اسمعي جيداً، لقد أرسلتُ لقتلك، لكن شخصاً آخر يُريدك حياً لذا خطفتك، هل تفهمني؟"

بدأت على الرئيس حيرته إن كان في كابوسٍ أو إن كان محدّثه يعث به، ثم فجأة جحظت عيناه حين أدرك أن ما يحدث حقيقي وأنه مخطوف فعلاً، وهكذا أوماً برأسه ببطء.

واصل كورت بنفس نبرته الباردة "أمامي خطتان بخصوصك، وأنت من ستحدّد أيهما سأتابع حسب مدى تجاوزك وذكائك، خطة (ب) هي التي أنا أنفذها الآن وكما ترى لقد أسالت الكثير من الدماء وسببت فوضى

بسبب كونك حيًا، أما خطة (أ) فهي أسهل بكثير ولا تتطلب سوى وضع رصاصة بين عينيك، وبعدها أعود لبيتي وأقبض أتعابي، هل فهمتني؟"

هزَّ الرئيس رأسه دون أن يزول عنه فزعه، لكن الإذعان سَكَنَ أمارات وجهه، لقد فهم.
"لذا مسئوليتك من الآن وحتى نخرج من هذه المدينة، ألا تدفعني للخطة (أ)، مفهوم؟ يجب أن تتعاون معي، حتى يسير كل شيء بسلاسة، حسنًا؟"
"أنت أمريكياني؟"

قال كورت بفخر "بالطبع" لقد مضى وقتٌ طويل منذ أن عمل لصالح الولايات المتحدة.
"جيدٌ، وما هي رُبتك؟"
"ليس لي رتبة".
"ألست ضابطًا؟"

ضحك كورت وهو يدفع النقالة وعليها الرئيس الضخم العجوز بعيدًا عن أعين المدنيين في الشارع وقال
"كان عليَّ الاختيار بين هذا وتقشير البطاطس، ويبدو أنني اخترتُ الأسوأ".
لم يفهم أوريكس المزحة، وازدادت حيرته من أجوبة خاطفه الأمريكياني، هزَّ رأسه مرّةً أخرى "أريدك أن تسلمني لقائدك الأعلى".

ضحك جنثري بسخرية قائلاً "للأسف الشديد أنا اختياريك الوحيد الآن".

قال عبود بنبرةٍ مُحبطة "حسنًا، فهمت، ولكن رأسي...".
ومن قبل إكمال جملته مدَّ له كورت يده بقرصين "تناول هذين".
أخذهما الرئيس، لكنه تردّد قبل ابتلاعهما.
"لا تقلق، إنه مجرد مُسكّن ستشكرني عليه بعد دقيقة بالضبط".
أوهمه بأخذهما لكنه أبقاها في فمه.

"الآن، أيمكنك الركض؟"

"الركض؟ بالكاد يُمكنني الرؤية".

"قُل لا، وسأنفذ الخطة (أ)، لأننا سنُضطر للتحرك بسرعة لإخراجك من هنا".

أوما أوريكس برأسه وقال "حسنًا، يُمكنني الركض".

"جيد. والآن، سأساعدك على الوقوف".

عندئذٍ بدأ الرئيس يُدرك إطلاق النار من حوله، والحرب الدائرة منذ نصف ساعة تقريبًا "من الذي يُطلق

النار؟ وماذا يحدث بالضبط؟"

أدرك كورت أن سجينه لم يكن قد استوعب ما يحدث بعد، ولم تكن هذه مفاجأة.

"لا تقلق، أصدقائي يُبقون رجالك مشغولين، ساعدني حتى نصل لهذا البيت ومن هناك سنمشي للشاطئ حيث سيقلنا مركب. والآن، هل أنت مُستعد؟"

هزَّ الرئيس رأسه وبكل خضوع التزم بتعليقات كورت. ورغم أنه كان لا يزال مشوشًا إلا أنه عَرَفَ أن ذلك الأمريكي لن يتردّد في أي لحظة للانتقال للخطة (أ) إذا شعر منه بعدم تجاوب. قال كورت: "للتحرّك" ودفع أوريكس بقوة نحو البيت الحجري الصغير.

ارتدّ العملاء 1 و2 و4 من داخل الشاحنة وهي تنحدِر إلى الأسفل، ثم عادت إلى الهواء، وبدأت تصعد تلة صغيرة. فُتِحَت الأبواب الخلفية على مصاريعها، لكن العميل 4 كان قد ربط نفسه بحزام بالمقاعد الوسطى المثبتة بمسامير وإبزيم سريع الفك. ورغم دراسة زك ورجاله لإحداثيات وخريطة البلدة من قبل العملية بفترة طويلة جمعوا فيها كل المعلومات اللازمة عنها، إلا أنهم شعروا بتيه داخل أزقتها المتشابهة ببيوتها وأكوأخها، حتى إن براد امتلك خريطة لسواكن مُلصقة على عجلة القيادة أمامه. حتى إن البحر اللامتناهي من الخيش المُتسخ والأكوأخ الخشبية المُتهالكة بدا مُتشابهًا. كما بدا أن كل علامات الطريق قد استُخدمت منذ فترة طويلة كموادّ للتسقيف أو كحطب.

انهمك الرجال الثلاثة طوال الدقائق الثلاث الماضية وهم يتعثرون في اشتباكات صغيرة مع قوَّات الحكومة السودانية. بدت وحدات القوَّات المُسلَّحة الشعبية السودانية في المدينة غير مُنظمة على الإطلاق. وفي كثير من الأحيان، كان براد ينعطف بشاحنته على الطريق ليجد نفسه خلف رتلٍ من الرجال. ناهيك عن مواجهتهم لشاحنات الجيش مرّتين، وفي كلتاها، لم تُطلق رصاصة واحدة إذ تراجعت المركبات للخلف للابتعاد عن الخطر.

كان هذا كمينًا مشوشًا، وما افتقرت إليه القوَّات الحكومية في التنظيم، عوّضته بأعدادها الهائلة. وبينما اندفعت شاحنة "ويسكي سييرا" داخل شوارع صغيرة لا تنتهي أكوأخها في الجانب الشمالي من المدينة، بدا أن المزيد والمزيد من القوَّات السودانية قد بدأت تخرُج من بين صفوفها. كان العميل 4 قد أفرغ مخزونًا كاملًا من سلاحه على تهديدات العدو حتى تلك اللحظة، والآن، أعاد تعبئة سلاحه بسرعة، مُتأكدًا أن المزيد من القتال قادم لا محالة.

جاء صوت العميل 5 عبر الشبكة بين رشقات النيران الآلية على بُعد رُبع ميل من الشاحنة "أيها العميل 1، أنا بحاجة لبعض المساعدة هنا، لقد ابتعد الهدف عن مجال رؤيتي، وقد غيَّرتُ موقعي إلى نافذة في الطابق الثاني، ولكن لن يطول الأمر قبل أن يعودوا لتفجير الفندق".

أجاب زك "عُلم ويُنفذ يا سبنسر، نحن قادمون لاصطحابك في أسرع وقتٍ مُمكن، نحن مشغولون قليلًا هنا".

"اتبعوا صوت إطلاق النار فحسب. لديّ دزينة أو نحو ذلك من حُرَّاس أوريكس يُطلقون النار على مَنْ بالساحة. يجب أن تكونوا قادرين على توجيه أنفسكم نحو ذلك".

أجابه زاك "نحن نحاول" بينما استدار العميل 2 بسرعة إلى اليسار، وانحرف يمينًا خلف سيارة جيب عسكرية مثبتت على صندوقها الخلفي مدفع رشاش روسي.
انعطف براد يمينًا على الفور.

"من العميل 1 إلى العميل 3، أعطني تقريرًا عن موقعك".
لم يتوقف دان عن إطلاق النار وهو يقول "إنهم يضربونني من زقاقين" شوّهت طلقتان من بُندقيته الإرسال في سماعه زاك، قبل أن يسمعه يقول "لا يبدو الأمر خطيرًا حقًا، لكن من المؤكّد أنهم كثيرون. وإذا دخلوا.. فسأكون في عداد الأموات. هل تسمعني؟"
ردّ هايتاور: "أسمعك بوضوح، نحن في الطريق".

صرخ ميلو من خلف زاك "اشتبكوا من الخلف"! في المساحة المعدنيّة الصغيرة في الشاحنة، كان صوت مدفعه الرشاش يُشبه مطرقة ثقب الصخور مُضخّمة بمكبّر صوت فرقة موسيقيّة من فرق موسيقى الميتال.
دار زاك حول نفسه ليستبك معهم ببندقيته، لكن براد انعطف انعطافًا أبعدتهم عن خط النار.
"إلى العميل 1، هنا العميل 3 هناك مروحية تقترب من جهة الشمال".

"مروحية؟ عسكرية أم مدنية؟"
"لحظة واحدة.. يا إلهي، إنها طائرة عسكرية من طراز Mi 17 على بُعد سبعة أو ثمانية كيلومترات، على ارتفاع مُنخفض، وتنطلق بسرعة".

"السودانيون لا يستخدمون هذا النوع، إنها طائرة روسية يستخدمها حلف الناتو".
"عذرًا سيدي لكنني متأكّد مما أراه".

قال زاك: "علم، اللعنة!" لم يكن بوسعهِ فعل الكثير حيال هجوم جوي الآن.
"من العميل 5 إلى العميل 1".
"معك العميل 1، ما الأمر".

هناك إطلاق نيران خفيف في الغرب، ليس في موقعي. إن العميل 6 ليس في الغرب، أليس كذلك؟
"لا يفترض به ذلك. إلى العميل 6، إن كنت قادرًا على الإرسال، أخبرني إن كان هذا أنت".
صاح صوت كورت عبر الشبكة، وقال بثقة واقتضاب "من العميل 6 إلى العميل 1، لا، لديّ الهدف، ونحن جنوب شرق الميدان، ونحاول الوصول إلى الميناء".

فكّر زاك في الأمر بينما الشاحنة تنعطف بحدة مجددًا، هذه المرّة إلى اليسار، قبل أن يقول "المتوردون هنا. أن تأتي متأخرًا أفضل من ألا تأتي أبدًا. سأخذ كل ما يُمكنني الحصول عليه في الوقت الحالي. هل يبدو إطلاق النار كثيرًا يا 5؟"

"ليس بمثل كثافة النيران عندي!"

قاطعهُ العميل 2 من خلف مقود الشاحنة "انتظر لحظة، أعتقد أن هذا هو الزقاق الذي يمتدُّ إلى الزاوية الشمالية الشرقية من الميدان".

سأله زاك "هل أنت متأكد؟" لم يكن لديه أي فكرة. بدا الزقاق الذي مرُّوا به يُشبه عشرات الأزقة التي سلكوها.

"نعم خذ هذا الطريق، سنصل الزقاق بعد ثلاثين دقيقة، هل تريد أن نفعل ذلك؟"

فكَّر زاك في الأمر للحظة، قبل أن يقول "ما المانع، لا نريد أن ننتيه مُجدِّداً، كما أن سبنسر ودان سيكونان في خبر كان إن لم نلتقطهما".

قال العميل 2 وهو يقود الشاحنة "أنا متأكد من أن المكان هناك سيبيح بحراسات عبود الخاصة وبقية قوات الجيش".

أوما هابتاور برأسه فقط، وبدأ في الإرسال "إلى العميلين 3 و5، سنقتحم الميدان خلال عشرين ثانية، ونخترقه بوابلٍ من النيران، ثم سنلتف خلف البنك، ونلتقطكما من خارج مواقعكما في الزقاق الواقع على بُعد مربعٍ سكني واحد غرب الميدان".

قال كلاهما "علم ويُنفذ".

صرخ زاك إلى ميلو "يا 4، يبدو أن الأمر سيُصبح جنونياً".

قال الرجل من خلفه "هاتوا ما عندكم!"

كان جنترى على بُعد أقل من خمس مُربعات سكنية من الميدان عندما مرَّت شاحنة ويسكي سييرا بجواره. سَمِع صرير الإطارات، ثم تراشقا بنيران البنادق والمسدسات التي استمرَّت بلا هوادة.

كما سَمِع أيضاً صوت إطلاقٍ في مكانٍ أبعد إلى الغرب، رُبما خارج سواكن، ورشقات نارية من بنادق كلاشينكوف في الداخل والخارج، وهذا ما اعتبره معركة غير متوازنة بين قوَّات الحكومة السودانية، والمتمردين الذين تمكَّنت وكالة الاستخبارات المركزية من إجبارهم على الظهور. بدَّوا وكأنهم يتلقَّون الضربات القاضية. من المُحتمل أن يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تُقنِع محطة السودان المُتمردين بالقيام بالمزيد من القتال تحت الطلب.

ومع كلِّ ما حدث في البلدة في الصباح الباكر، إلا أن قطاعه كان خالياً. جثا هو وأوريكس على رُكبتيهما تحت سقفٍ مخبِزٍ قديم قريباً من الشاطئ استظلاً واحتميا به، كانا على بُعد خمسين ياردة فقط من القوارب. وكان بإمكانه رؤية القوارب الخشبية الصغيرة على مياه الخليج الساكنة، بينما هياكلها الحمراء تتأرجح ذهاباً وإياباً. لم تكن المسافة كبيرة، لكنها إذا خرجا سيكونان هدفين واضحين على طول الشاطئ أو الجسر المؤدي إلى جزيرة سواكن القديمة، كما قلق أيضاً بشأن تلك المروحية، وحتى لو تمكَّن هو وهدفه من التسلل إلى القارب، فسيظلَّان هدفين مكشوفين تماماً لتلك المروحية.

فكّر في الأمر لبضع ثوانٍ أخرى، قبل أن يقول بصوتٍ عالٍ "انس المركب، لديّ سيارة بالقرب من هنا! على بُعد ثماني بنايات جنوب غرب الميدان. هذا هو المكان الذي سنذهب إليه. الآن!" قالها ثم سحب معه رهيئته وواصل ركضهما.

عند مُفترق طُرق حاول الرئيس عبود أن يتملّص، لكن الرجل الرمادي طارده، ومدّ يده ليُمسك به من رقبته ويُبقيه تحت سيطرته. وفجأة فرقة من خمسة جنود من قوَّات الأمن العام خرجوا من الباب الخلفي لمبنى صغير، على بُعد أقل من خمس عشرة قدمًا من رئيسهم. رفعوا أسلحتهم في ارتباك. واستغرقهم الأمر لحظةً لتقدير الموقف الذي عثروا عليه للتو. استغل كورت هذا التأخير، ووضع نفسه بين الجنود وأوريكس، دافعًا الرئيس بعيدًا عن الطريق بقوة، ورافعًا سلاحه في الوقت نفسه. أطلق رصاصتين من مُسدسه في صدر الرجل الأول في الفرقة، ثم وضع يده الحُرَّة حول ربطة عنق أوريكس، وسحبه إلى خارج الزقاق الصغير بينما أسقط جنديًا آخر برُصاصةٍ في جبهته.

تدافع بقية الجنود للاحتواء في المبنى الذي خرجوا منه للتو، وترك كورت أوريكس، مُندفعًا نحو البندقية الملقاة بجانب جُثة أحد الجنود القتلى. لكن دفقةً طويلة من بندقية لم ير حاملها انطلقت على بُعد أقدام أمام جنترى، فاستدار وتراجع إلى الخلف حول الزاوية. أمسك بأسيره مرّةً أخرى، وهرب بأسرع ما يُمكن واضعًا إحدى يديه على سلاحه، والأخرى على رقبة الرئيس السوداني.

امتلات سواكن بالرشايدة والبجا في الغالب، ولكن بما أنها كانت سوقاً ومدينةً ساحليةً، فقد توافد إليها الكثيرون من جميع أنحاء البلاد. الدينكا، والفور، والنوبة، والمساليت، والنوير، ومُعظم القبائل جاءت إلى هنا للتجارة والعيش. ناهيك عن بعض النوبيين، وهم من ذوي البشرة السمراء الذين تجمّعوا بشكلٍ أساسيٍّ حول نهر النيل غربًا.

عاشت إحدى العائلات النوبية في كوخ من الخيش والخشب والصفيح في جنوب غرب الميدان. ومثل الكوخ أيضًا محلّ عملهم، حيث صنع عائلُ الأسرة الصنادل المصنوعة من جلد الماعز، وباعها في الزقاق الترابي أمام كوخهم.

كان ابن الرجل صاحب الكوخ متوفياً فربّي هو أحفاده، ثلاثة منهم بنات وصبي اسمه عدنان. جلس الجد متكئاً على البنات، ونادى على حفيده عدنان البالغ من العمر اثني عشر عامًا ليأتي إلى جانبه ويرقد في الظلام مع بقية أفراد العائلة، لكنه رفض وعلى عكس نصيحة جده، فتح صندوق والده المتوفّي وأخذ أعلى ما ملكه والده المتوفّي، قوس رماية كبيراً وثلاثة سهام. ثم انطلق نحو درجات التل، وفي جريه مرّ بجده الكسيح الذي صرخ فيه كي يعود لكوخه لكنه لم يستجب لنصيحته.

كان كوخه على تلة، ومن الباب الأمامي استطاع رؤية الدُّخان ووميض الضوء باتجاه الميدان. دوى المزيد من إطلاق النار خلفه إلى الغرب، لكنه كان بعيداً. ركض عدنان إلى مجموعة من السلام المُتهالكة التي أدّت إلى أسفل التل. قفز عليها وآلمته ساقاه الغضّتان المُتسمتان بالليونة والسواد من فرط المجهود. ومع إطلاق النار في الجوار، خفض رأسه أثناء ركضه.

مرّ بعجوزٍ على عكّازين خشبيّين يقف أمام كوخه. صرخ الكسيح في وجه الطفل، أمراً إياه بالعودة إلى منزله، لكن عدنان أبي أن يستمع إليه.

ذهب عدنان لإنقاذ عائلته وبلدته من تهديدات الأعداء.

النوبيون بطبعهم شعب مُقاتل من أيام الفراعنة، ومعنى كلمة النوبة أصلاً "أرض القوس"، لذا لطالما كان القوس هو سلاحهم المُفضّل. وخدم الرّماة النوبيون كقتلة مرتزقين في دولٍ قديمة مثل دولة الفرس البعيدة. انحدرت عائلة عدنان من عشرات الأجيال من صانعي الأقواس، لكن هذه الصناعة لا تدرّ ربحاً مثل البنادق الصينية، التي علّقت على أكتاف كل الرجال تقريباً. لأنها أقوى وأسهل استخداماً من القوس، ويُمكن القول إن البندقية أكثر تعقيداً من الناحية التكنولوجية كذلك. لذا اتّجه جدّ عدنان لصناعة الصنادل، بينما تعلّم هو منه أصول الحرفة حاملاً في أعماقه شغف صناعة القوس كسلاحٍ تُراثيٍّ مرتبط بهوية شعبه، كما تعلّم كيفية استخدام القوس الكبير المصنوع من الخيزران، والمُغلّف بالجلد عند مقبضه، والمُطعم بالعظام والقرون عند الأطراف.

جرى عدنان مندفعًا عبر بوابة صغيرة من الأخشاب المهترئة والأسلاك البالية إلى زقاقٍ آخرٍ مُغَبَّرٍ. تردَّدت أصدااء إطلاق النيران من الميدان على الجدران، وانتقلت إليه. طوى رقبتَه بإحكام، واستدار مُسرِّعًا نحوها، وسلاح وإلده في يمينه، وسهامه في يسراه.

رأى نساء ورجال القبائل المجاورة يُهرعون ليختبئوا، لكنّه تجاوزهم وهو يركض مُسرِّعًا نحو الحدث. تجاوز زقاقًا ضيقًا، وتعثر حتى توقف. وعلى بُعد ثلاثين مترًا أمامه، عند مدخل هذا الزقاق، تسلَّل رجل أسود يرتدي بدلةً سوداء من الزاوية، كما لو أنه دُفِعَ من الخلف. قِيَدَت يداه أمامه، وانزلق مُتعثِّرًا إلى الأمام على حذاءٍ لم يرَ عدنان مثله في حياته. انحنى الفتى السوداني الصغير بِسُرْعَةٍ إلى مدخل غير مُستخدَم خلف محل جزارة مهجور جاعلاً ظهره إلى الحائط، ثم مُنحنيًا إلى وضعيّة القرفصاء. أطل برأسه من الزاوية فرأى رجلًا أسود عجوزًا بدينًا يطارده خواجه أبيض مُلتحٍ كافر.

لاحظ عدنان من الزاوية التي اختبأ فيها أن الخواجه الأبيض يُمسك مسدسًا بفوهة طويلة في يمينه، ولا يكفُّ عن النطق بكلمة واحدة "تحرك.. تحرك". وربما بدت كلمة عادية لكن النبوة التي نطقها بها أفهمته أنه يأمر الرجل السوداني ويُجبره على كل أفعاله مثل كلبٍ ذليل. لم تسبق لعدنان رؤية رئيس بلاده، لذا لم تكن لديه فكرة عن هوية الرجل الضخم المقيّد، وبدا له عبود مجرد مواطن سوداني عاديّ.

كانت هذه هي اللحظة المُنتظرة. ففي ثوانٍ معدودات سيُمرّان، ولم يكن لديه أدنى شك في أن بإمكانه إطلاق سهمٍ برأسٍ فولاذيٍّ في رأس الكافر. لم يكن عليه سوى الانتظار لبضع ثوانٍ ثم الإطاحة به من الخلف.

عندما اقتربت خطوات الأقدام والصراخ الأجنبي الغاضب من موقعه، غيَّر عدنان تركيزه إلى الجانب الآخر من المدخل، وعلى بُعد مترٍ واحد من أطراف قدميه الحافيتين، رأى ديكًا ميتًا ريشه منتوف مُغطّي بالديدان. ضاقت عيناه، وداهمت رأسه فكرة جهنمية فاقترَب.

غمس رأس سهمه في جثة الطير العفنة حتى غمرت سلاحه طبقات البكتيريا، وهنا علت وجهه ابتسامة حازمة شريرة.

رقيبها الصبي الأسمر وهما يسيران، الرجل السوداني الضخم ذو البدلة المتسخة ووراءه الأبيض الكافر بنبرته المُحتدَّة وحركاته العنيفة وسلاحه الطويل، يتبعه مثل ظله.

نهض عدنان، وتقدَّم إلى الزقاق خلف هدفه، ورفع قوسه، وسحب وتره بإحكام، وصوّب سهمه نحو الأجنبي الأبيض الذي يقترب من المنعطف إلى خلف المبنى. ارتدى الرجل حقيبةً ظهر، لذا عدل عدنان تصويبه بحيث يُصيب السهم أعلى عُنق الهدف.

انتظر حتى حانت اللحظة المناسبة، ثم صاح بعلوِّ صوته مع نبرة جهادية كلها حماس "الله أكبر" ومثل أجداده النوبيين المهرة المقاتلين أطلق سهمه على هدفه.

"تحرك يسارًا.. تحرك يسارًا".

صرخ كورت أمرًا الرئيس السوداني. تعثر الرجل العجوز إذ اختل توازنه بفعل قيوده. ولا شك أيضًا، كما ظن كورت، أن عبود كان ماهرًا بما فيه الكفاية ليُعرقل هروبها عمدًا. فرغ الرجل الرمادي ذراعه اليمنى عاليًا ليضرب رهيئته في مؤخرة عنقه لإقناعه بخطورة الموقف.

وفي اللحظة التي ارتطمت فيها مؤخرة مُسدّسه برأس الرئيس المُتصبّب عرقًا، شعر كورت بألم مُبرح في كتفه اليسرى، أعلى حقيبتيه، على بُعد ثلاث بوصات فحسب من عموده الفقري. أوقعه الارتطام إلى الأمام، وتدحرج قليلًا دون أن يسقط، فتعثّر أمام الرئيس؛ لكنّه تمالك نفسه بعد ذلك وهو يتبع الرجل عند الزاوية. قال "آه" لكن اللدغة الحارقة أبت أن تتبدّد وهو يتباطأ وينظر إلى الوراء من فوق كتفه، وعندئذ رأى سهمًا طويلًا بُنيّ اللون يخترق كتفه.

تباطأ ركضه وهو يُحدّق فيه. واجه عقله صعوبة في استيعاب ما تراه عيناه للحظة طويلة. نظر إلى صدره ليتأكد من أنه لم يخترق جسده بالكامل. لحسن الحظ لم يحدث هذا. ثم حاول الوصول إليه؛ لكنّه فشل. وأخيرًا، هروا للأمام مرّة أخرى، وهو لا يزال ينظر إلى السهم. وهدوءٍ تتم "مُستحيل".

توقفت السيارة "الفان" البيج أمام المدخل الجانبي للفندق المكوّن من ثلاثة طوابق، وهو مبنيّ على الطراز الاستعماري؛ لا بُدّ وأنه كان جوهره معمارية قبل مائة عام. بدا الفندق بتصميمه الغربي، وشرفاته الخشبية، وأغطية نوافذه، ومصاريعه البيضاء، وأعمدته المزخرفة أنه كان في زمنٍ ما فندقًا، ليس في بلدٍ إفريقي وإنما في نيو أورليانز مثلاً. نظر زاك من خلال الزجاج الأمامي مُتفحّصًا أهدافه، لكنّه لم يستطع إلا ملاحظة الحالة المُتهالكة لهذا المبنى. انحنى سبنسر إلى الباب الجانبي للمركبة، التي اندفعت إلى الأمام مرّة أخرى. أطلق ميلو رُصاصتين في الشارع ليُجبر الموجودين على الانخفاض، لكن يبدو أن هجوم المُتمرّدين قد جذب الكثير من القوّات بعيدًا عن هذا المكان.

تجوّل سبنسر في سواكن مُتخفيًا مُدّة يومين، لذا ارتدى الملابس المحلية ولم يحمل سوى رشاشٍ صغير. سرعان ما أمسك بسترّة واقية من الرصاص، انتظرته داخل الشاحنة، كافح لارتدائها في الخلف بينما ارتدّت السيارة على الطريق الوعر.

انعطفت سيارة ويسكي سييرا شمالًا، وانطلقت مُسرعة على طريقٍ واسع غير مُمهّد. رفعوا أعينهم للشبابيك والشرفات والطرق الممتدّة أمامهم، فرأوا السكان يراقبون المشهد مذعورين يتعدون عن الطُّرقات بأنفسهم. وهو أمر جيّد لهم ولزّاك. إذ إن تصرفات الجيش السوداني أوحّت لهم بأنهم لا يهتمون مطلقًا بأرواح الأبرياء العزل، رغم أنه هو ورجاله بذلوا قصارى جُهدهم لتجنّب أذاهم.

بعد أقل من ثلاثين ثانية من استلام العميل 5 في الفندق، وقفت الشاحنة مرّة أخرى، هذه المرّة عند مدخل مبنى مكوّن من طابقين. وفتح سبنسر الباب.

توقفوا قبل أن يقول زاك "لن نجلس هنا طوال اليوم اللعين من أجلك يا 3...".
دوى صوت شيء يصطدم بسقف الشاحنة، وهزها الارتطام بشدة، وبدا أشبه بصدمة خافتة لطبلة أذن
الركاب. قفز دان من سطح المبنى وانزلق من جانب السيارة إلى بابها المفتوح، أغلق العميل 3 الباب خلفه
بُعْف، ثم ضغط العميل 2 مرّة أخرى على دواسة البنزين.
صاح زاك في سماعته من أجل كورت "من العميل 1 للعميل 6، رجالي معي وسنُغادر، أنت بمُفردك
الآن، حظاً موفّقاً، وانتبه لتلك المروحية اللعينة!"

لم يكونوا قد قطعوا مسافةً تزيد عن خمسين ياردة في الشارع المرصوف، عندما صعد ثلاثة من رجال
الشُرطة بزيتهم الرسمي الداكن إلى حافة سطح محل حدّاد صغير. رفع كلُّ منهم كُتلتين أسمتيتين كبيرتين من
على السطح. ظهر الأسمت الثقيل في الهواء فجأة أمام الشاحنة، مما أجبر براد على رفع العجلة يميناً، وكاد
يكشط الطلاء من الجانب الأيمن أثناء مروره بسيارة سيدان قديمة متوقّفة، ثم انحرف يساراً مُتفادياً توكتوك
على جانب الطريق.

اعتلت مجموعة أخرى من الشكّان المحليين سطح مبنى آخر، حملوا كُتلاً أسمتية وإطارات كبيرة
مُستعدّين لإلقائها على الشاحنة. عرّف هايتاور أنه سيكون من الخطر محاولة القيادة من تحتهم.

صرخ زاك من مقعده "انعطف يساراً من هنا يا براد، انعطف بسرعة!"

انعطفت الشاحنة بقوة إلى زقاق أضيق من الطريق الذي غادره للتو.

وقبل أن يتمكن حتى من إنهاء انعطافه صرخ براد بركاب شاحنته "خذوا حذرکم!"

انفجر الزجاج الأمامي للشاحنة وتصدّع، لكنّه لم يتحطّم بالكامل، ثقوب الرصاصات ذات الحواف
البيضاء ملأته من اليمين إلى اليسار، ومن الأسفل إلى الأعلى.

شعر زاك بألم عنيف في ساعده، ولسعات في وجهه وعنقه. رفع بُندقية فوق لوحة العدادات، وأطلق النار
من خلال الزجاج الأمامي، مُفَرِّغاً مخزن ذخيرته المكوّنة من ثلاثين طلقة على أهداف في الطريق أمامه،
ساحقاً الزجاج الأمامي إلى قطع من الرمال البيضاء.

انحرفت الشاحنة بقوة إلى اليسار. عرّف زاك أنه لم يكن هناك مجال للخطأ بهذه السرعة في مثل هذا الزقاق
الضيق. استعدّ للاصطدام، ضربة قويّة إلى اليسار، ثم ارتدّت الشاحنة بقوة إلى اليمين. وهذه المرّة، عرّف
هايتاور أن الاصطدام الوشيك سيكون عنيفاً ومباشراً إلى جانبه. سحب ساقه لأعلى في الوقت الذي
اصطدمت فيه الشاحنة الكبيرة بمبنى أبيض على اليمين، تباطأت، وتوقفت على بُعد أربع أقدام من الجدار
المكسور.

تصاعد البخار في الهواء أمام النافذة المكسورة.

وتوقّفت الشاحنة.

صرخ زاك دون تردّد: "هيا! هيا! هيا!"

خرج زاك من الباب الأمامي وارتمى على الأسفلت بعد أن أمر بقية رجاله باتّباعه، تدحرج أرضاً، وسقط على كتفه وفخذه، ووجد نفسه يواجه الاتجاه الذي جاء منه إطلاق النار. نظر خلفه من فوق كتفه. أُلقيت قبلة دخان أبيض بالقرب منهم لحجب الرؤية. كان المبنى الحجري المرجاني المُتهالك، ولكن المأهول بالسُّكّان على بُعد أقدام قليلة من رأسه، ورأى نافذة على ارتفاع الخصر بجانبه مباشرة. لم يُضَيِّع زاك وقتاً في النهوض، وانطلق من الشارع إلى الهواء، تكوّر على شكل كُرة مُرتطمًا بالزجاج، قبل أن يصطدم بقوة بسجاد الطابق الأرضي من المبنى. كان مكتبًا مُظلمًا من نوع ما، يبدو حكوميًّا، وليس هناك أحد في الداخل في مثل هذا الوقت المُبكر، ولم تعمل مولّدات الإضاءة كذلك. تدحرج زاك بسرعة على رُكبتيه وبدأ في إعادة تعبئة بندقيته. لم يسعه إلا ملاحظة الدماء؛ فقد لطّخت ذراعيه وقفازيه والزجاج المُحطّم والأرضية التي سقط عليها وكذلك بندقيته السوداء. لكنّه مضى في عمله ولم يتوقّف لحظةً ليتحقّق من خطورة إصابته.

استمر إطلاق النار في الخارج بلا توقّف، وبينما وضع رصاصةً جديدة في خزنة سلاحه، وبدأ ينهض، طار العميل 2 من النافذة نفسها. ارتطم جسدهما بشدّة، وسقط براد أرضاً، وانزلت بندقيته من يده على بُعد عدّة ياردات.

جاء النداء من خلال سماعه زاك؛ كان صوت دان، الذي لا يزال بالخارج في الشارع المليء بالرصاص المتطاير "لقد أصيب 4!"

صرخ زاك عبر سماعة الرأس "سأضرب جهة الشمال؛ سيفتح 2 الباب بجانب الشاحنة، أحضر ميلو إلى هنا!" انحنى هايتاور ببندقيته خارج النافذة، وأطلق رشقات نارية قصيرة في الزقاق. ودون أن ينظر، عرف يقيناً أن براد هُرع بالفعل إلى الباب الخلفي للمبنى لمساعدة الآخرين.

بذل زاك قصارى جهده للحفاظ على ذخيرته، لكنها سرعان ما نفذت. طلب الحماية، لكن زملاءه كانوا لا يزالون مُنخرطين بالكامل في إنقاذ زميلهم المُصاب. ألقى هايتاور ببندقيته الفارغة، وسحب مُسدّسه الشخصي من جرابه المُعلّق بساقه، مُطلقاً النار من النافذة إلى أعلى الشارع بيُمناه، واضطر إلى الخروج برأسه، كاشفاً عن الجزء العلوي من جذعه للقيام بذلك، وهو يتحسّس يسراه قبلةً يدوية مُتَشظية في جرابٍ مُعلّق إلى صدره.

وعندما فرغت خزينة مُسدّسه رفع العميل 5 يسراه، وأطلق النار من مُسدسه الصغير. ألقى زاك القبلة اليدوية إلى أبعده ما يُمكن في الشارع، ثم عاد إلى الداخل لإعادة تعبئة الذخيرة وتقييم الوضع.

جلس العميل 4 على الأرض، وحمل سلاحه الرشاش في يده، وغطّى الباب الذي دخل منه هو واثنان آخران إلى المبنى. تَلَطَّح الجزء السفلي من ساقه اليمنى بالدماء، وفحصها العميل 3 بسرعة. بينما عبر العميل 2 الغرفة الكبيرة بالفعل، ودفع المكاتب والكراسي بعيداً عن الطريق أثناء قيامه بذلك، ونظر من نافذة في الجانب الجنوبي، محاولاً إيجاد مخرج سريع لتحريك الفريق مرّةً أخرى. ولاحظ هايتاور أن العميل 2 كان يعرّج أثناء تحرّكه.

أعاد زاك تعبئة ذخيرته؛ فقد كان لديه ستّة مخازنٍ بندقية مُتبقية. لم تبدُ ذخيرته المتبقية كثيرةً بالنظر إلى أنه استهلك بالفعل تسعين طلقةً في معركةٍ مُتقطّعة لم يمضِ عليها أقل من خمس دقائق.

وبينما تحرك عبر العرّفة للالتحام مع براد، ألقى نظرةً على جراحه. زَيْن ثقب رصاصةً نظيف ومُستدير تقريباً ساعده الأيمن. سألت منه الدماء، وبلّلت قميصه البُنِّي وعتاده، لكنّ بدا أن يده وذراعه تعملان بشكل جيّد. ثم وجد جرح خروج الرصاصة فوق مرفقه مباشرة. غطّت كلتا ذراعيه ويديه الدماء، لكنّه لم يجد أيّ إصاباتٍ أخرى غير بعض السحجات من الزُّجاج المكسور على وجنتيه، تحت نظارته الواقية مباشرةً.

سأله زاك عندما وقف بجواره "هل يستطيع العميل 3 السير"؟

"نعم، أعتقد أن عظم الشظية لديه مكسور، كما أنه ينزف. سيحتاج إلى علاجٍ في أسرع وقتٍ مُمكن، لكنّه يستطيع السير لبضع دقائقٍ أخرى على أي حال".

"جيّد، الجميع معي، وسنخرج من هنا الآن. لن نسمح لهؤلاء الحمقى بمُحاصرتنا".

سمع كورت رسالة زاك إليه وهو لا يزال يركض مع أوريكس، ثم بعد نصف دقيقة سمع صوت التحطم من بعيد. أخبره الإرسال المتواصل على جهازه اللاسلكي أن ويسكي سيرا قد نجح في الخروج إلى الشارع، لكن من الواضح أن الأمور قد ساءت بشدة.

توجّب على كورت مواجهة مشاكله الخاصّة. فقد لجأ هو والرئيس السوداني لكوخ مليء بالسكّان المحليين للاختباء من فصيلة القوّات التي ركضت نحو الميدان. كانت غُرْفَة مفتوحة ومُظلمة وقذرة، لا يدخلها ضوء سوى ذلك المتسلّل من ثقب في الجدران حيث لا يتناسق الصفيح المموج مع الخشب الطافي. صوّب جنترى مُسدّسه الجلوك إلى رأس الرئيس، لهث من المجهود المبذول في الركض والأدريالين المنطلق في جسده، وتأوّه من الألم مع كل نفس يأخذه خاصّة مع إحساسه بالعضلات وهي تتقلص وتشنج حول السهم المغروز. وبينما يفعل ذلك، حدّق في الأسرة المكوّنة من تسعة أفراد، وكان أطفالها بوجوههم السمراء يُمْلِقون في الرجل الرمادي بأعينٍ واسعة بيضاء أوضحت لجنترى أنه أغرب منظر رآته أعينهم على الإطلاق.

نظر كورت للأطفال يتأمّل نظراتهم، رأى في أعينهم شيئاً من الخوف وقليلًا من الدهشة، لكنّه لاحظ أيضًا الكثير من الغضب، بالنسبة لهم لم يكن ذلك الخوافة الأبيض سوى مُعتدٍ غاشم اقتحم بيتهم بلا أي داعٍ بسلاح ورهينة تحمل نفس لونهم. وفي حياتهم الخاصّة كانوا يُعانون من مشاكل كثيرة من بينها الجوع والتشّيف وغياب العدالة والحرية، وبالتالي كان وجود ذلك المواطن الأبيض المسلّح في كوخهم مسهّرًا في نعش حياتهم المزرية.

ولعل الساخري في الأمر ملاحظتهم أن هذا الرجل الأبيض لم يصوّب مُسدّسه إلى أحد سوى الرجل ذي البدلة.

لم يتعرّفوا على رئيسهم، هم فقط أدركوا أن شخصًا منهم يتعرّض لإهانةٍ فجّة لم يقبلوها، ولم يكن في أيديهم سوى أن يكثرثوا بالأحرى حياتهم هم أولًا.

تجاهل كورت السهم في ظهره، وكأن بإمكانه تجاهل مثل هذا الشيء. عرّف من الألم أنه مغروس عميقًا في عظام كتفه، لكنّه تمكّن من تحريك ذراعه وكتفه. وأدرك أنه كان محظوظًا لأنه لم يُصنّب بشكل أقوى. لم يكن عميقًا لكنه لو استمر لأصاب قلبه، من حُسن حظّه أنه ضُرب عن بُعدٍ أو أن مُطلقه امرأة أو صبي. لولا هذا لكان ميتًا الآن بلحمٍ وأحشاء ممزقة.

استمر الألم مثل لسعاتٍ تحرقه وتهدأ، ثم سرعان ما تُعاود وخنزه مجددًا، لكن دون قتله. رغم تأكده من أنه لن يمُر وقتٌ طويل حتى يصطدم السهم بالحائط دون قصد ليُفسد الألم صباحه حقًا. حاول مُجددًا مدّ يده

للإمساك بالسهم، لكنه لم يتمكن من ذلك. فكّر في طلب المساعدة من أهالي القرية المحليين لكنه لم يثق فيهم للدرجة الكافية، وإذا ترك نفسه بهذا الوضع الحرج ربما ستنتهي حياته في أقرب لحظة على مدار اليوم. سرعان ما اختفى الجنود في الطريق.

شكر كورت ربّ الأسرة التي احتوى لديها بإيائةٍ من رأسه، مُمتنّاً لعدم إثارة المتاعب، ومُتأسفاً على الإزعاج، ثم غادر الكوخ ومعه رهيئته الرئيس عبود. مُقتاداً إياه للسيارة حيث أخبره زاك أنه سيجدها مركونة. أدخل عبود إليها دون عناء، ثم ركض إلى مقعد السائق. كان من الصعب الجلوس على المقعد والسهم في ظهره، وحقيبته لا تزال في مكانها، اضطرّ للانحناء إلى الأمام مُنزلاً مسند الظهر للأسفل ومُدبراً ظهره قليلاً إلى اليسار. وأخيراً أدار المفتاح، فاشتغل مُحركها مُنصاعاً له. شعر بقميصه المبلل بالدماء يلتصق بظهره.

حلقت المروحية فوق رأسيهما مُباشرة على ارتفاع لا يزيد عن مائة قدم. صدح صوت الضجيج عالياً للغاية، وارتفع أزيز المروحية، حتى إن كورت انخفض في مقعده. تحركت المروحية مُباشرةً نحو إطلاق النار الصادر مع معركة ويسكي سيرا على بُعد نصف ميل إلى الشمال.

حرّر حذاه وضغط دواسة البنزين فاندفعت السيارة إلى الأمام، وتسببت الحركة في ارتطام السهم بقوة في المقعد خلفه.

صرخ "اللعة" وسرت موجة من الألم في ظهره، صاعدة إلى ذراعه وعُنقه. تأوّه ناظرًا إلى الرئيس المدعور. صرخ كورت في وجهه، ثملاً بالأدرينالين والغضب "ما هذا بحق الجحيم؟ أي بلد هذا الذي ترأسه ويصيب فيه الناس آخرين بأسهم لعينة؟" ترك عجلة القيادة وقبض أصابعه لاكمّ عبود في وجهه. وأثناء قيامه بذلك، صدم السهم مجدداً بالمقعد فصرخ مرّة أخرى متألماً.

نجح زاك ورجاله أخيراً في الخروج من المبنى إلى الزقاق شرقاً. ثم قفزوا كفريق واحد عبر حيّ من الخيام والأكواخ والخيش والقماش أو المعدن المموج وقطع غيار السيارات الصدئة التي تحوّلت إلى مساكن. غيرَ زاك ورجاله اتجاههم كُلما واتّهم الفرصة نحو الشمال الشرقي، وذلك لإبعاد مُطارديهم، وكذلك شقّ طريقهم ببطء نحو الماء. حلقت المروحية فوق رءوسهم، لكنهم انحنوا وتماسكوا أمام جدران الهياكل وواصلوا ركضهم. إذا كانت المروحية من طراز "هيب" — لم يتمكن زاك من تبيّنها — فهذا يعني أنها مزوّدة بصواريخ جو-أرض. وحتى لو لم تكن كذلك، فلا يزال بإمكانها حمل عشرين جندياً مُجهّزين بالعتاد القتالي، وهذا أكثر من كافٍ لإثارة المتاعب لويسكي سيرا.

تباطأ ركضهم في الحي الفقير بشكل كبير بسبب ميلو، الذي تلطّخت ساقه اليمنى بالدماء، ولم تُساعده على الركض. كان يعرّج، ويضعف كل دقيقة، وذلك مُجرّد شيء آخر لا يستطيع العميل 1 فعل شيء حياله.

فقدَ زاكَ الدماءَ بدوره، لكن جرح يده لم يكن حتى في قائمة أولوياته في الوقت الحالي. ومع ذلك، كان من اللافت للنظر مدى السهولة التي فرّوا بها من قوات الحكومة السودانية. إن تصميم مدينة الأكواخ التي لا يزيد عرضها عن خمسة أقدام، جعل منها مكاناً رائعاً، لا للاختباء فحسب، بل أيضاً للتحرك دون أن يراهم أحد من بعيد.

كان من الممكن أن يكون زاك وفريقه بعيدين عن آخر نقطة تماسّ لهم مع العدو لولا حركة المرور في الأزقة والممرات. انتشر المدنيون في كل مكان الآن، وركض الرجال والنساء والأطفال يمنةً ويسرة، وكانت العربات التي يركبونها تكاد تكون بعرض الطرقات التي يسلكونها، مكتظةً بسكّان محليين لم يستطيعوا الابتعاد عن طريق الخواجات الذين صرخوا وحملوا البنادق. ضرب هايتاور بكعب بندقيته مرتين في جانب كوخ صغير ليدفع زاويته، بما في ذلك الجدران والسقف، بما يكفي ليتمكّن هو ورجاله من العبور من خلاله، ولوّحوا ببنادقهم في وجه أي شيء يتحرّك في طريقهم، لكن هؤلاء المدنيين لم يرغبوا في المشاركة في هذا القتال، لذا لم يضطر زاك ورجاله إلى إطلاق النار على أيّ من السكّان المحليين حتى الآن.

وصل الفريق إلى نهاية حي الأكواخ والخيام ووجدوا أنفسهم على حافة تلةٍ شديدة الانحدار، وخالية تماماً من النباتات تنحدر خمسين ياردة إلى طريق، وعلى الجانب الآخر منها يقع السوق. تناثرت أكشاك الخيام، والأكشاك الخشبية، والأكشاك العارية التي وُضعت مُنتجاتها ببساطة على قطعة قماشٍ على الأرض، ولكن وقف هناك أيضاً مبنى أسمنتي يمتدّ على ثلاث بناياتٍ في المدينة، ويضمّ متاجر دائمة ومرافق تخزين ومستودعات صغيرة.

أثناء دراسة الفريق للبلدة، أطلقوا على هذا المبنى اسم "مول ألفا". على الجانب الآخر من هذه المباني، هناك صف آخر من المباني الدائمة التي أطلقوا عليها اسم "مول برافو"، وإلى شرق هذا المبنى هناك خط المياه.

وبينما فكّر العميل 1 في إصدار الأوامر لرجاله بنزول التلّ، صرخ العميل 5 في مؤخرة الفريق المكوّن من خمسة رجال "اشتبكوا مع المؤخرة!" وأطلق رشقةً من بندقيته قبل أن يضيف "إنهم قادمون!" لقد وجدّتهم قوات الحكومة السودانية.

عرف زاك في لحظةٍ أنهم سيضطرون إلى كشف أنفسهم على التلة؛ فعليهم الوصول إلى المباني ليتمتّعوا بأي فرصةٍ لصدّ القوّات التي تلاحقهم.

حلقت المروحية على بُعد ربع ميلٍ غرباً، وعلى ارتفاعٍ مُنخفض، من شأنه أن يُعيدها إلى موقع زاك في غضون عشرين ثانية، صرخ في رجاله "هلمّوا! ساعد العميل 4 يا رقم 3!"

انفلت ميلو المصاب من قبضة دان، واندفع عائداً إلى العدو المُقترّب من الزقاق، ثم جثا على رُكبتيه صارخاً "اذهبوا أنتم يا رفاق! سأبقى في الخلف لأردعهم!"

أمسك به هايتاور من حزامه، وسحبه للخلف صارخاً "اخرس بحقّ الجحيم يا بطل، ونفّذ الأمر! نحن لسنا في فيلمٍ بحق اللعنة!"

"ولكن يا سيدي ...".

دفعه زاك بخشونة إلى دان، الذي أمسكه من خصره، وانطلقوا جميعاً إلى أسفل التلة. وفي غضون ثوانٍ فقد هابتاور توازنه على المنحدر. كانت الأرض صلبةً كالحجر، ومُغطاةً بمسحوق سميك من الغبار الجاف. لم يكن لحذائه أي فرصة للتماسك، لذا سقط للأمام وهو يركض، وتدحرج مُنزلقاً إلى أسفل التل. كان قد وصل للتو إلى القاع، وقف على قدميه، واستدار عائداً عندما انزلق براد وسبنسر إلى الأسفل بجانبه مباشرة. قفز سبنسر ناهضاً، واستدار، لكن براد علق في حبال بندقيته، واستغرق وقتاً أطول ليقف.

تدحرج دان وميلو إلى أسفل التل، وأسلحتهما مرفوعة أمامهما لتحقيق التوازن، وللحفاظ على فوهات البنادق من التلوث بالتراب، عندما رأى زاك القوّات السودانية تظهر أعلى التل. شدّ أجزاء بندقيته وراح يُطلق الرصاص على أي عدو يقترب منها، أسقط واحداً منهم مما دفع ببقية جنود الكتائب السودانية للاحتماة في أعلى التل.

صرخ هابتاور طالباً التغطية، وسبنسر يُطلق رشقة نيرانٍ طويلة، وأمر براد بمُساعدة دان في إدخال ميلو إلى الباب الأول في المحل الأول من محلات مول ألفا. كان ضابط العمليات الجريح البالغ من العمر تسعة وعشرين عاماً قد خرج من المعركة في الوقت الراهن، ولم يكن بإمكانه الوقوف على قدميه دون مُساعدة. تحرّكوا، بعد أن فرغت بندقية سبنسر.

نادى العميل 5 "أريد تغطية".

أجابه زاك "أنا لها! ثم جثا على ركبتيه، وأطلق رصاصةً واحدة على رأسٍ ظهر في أعلى التل. اخترقت رصاصته التراب الصلب، وأحدثت انهباً صغيراً من الغبار والصخور.

أعاد سبنسر تعبئة بندقيته، وعاد إلى القتال مع هابتاور في الوقت الذي حلقت فيه المروحية فوق التل. تأكد زاك من طرازها الآن، وعرف أنها روسية الصنع، لكنه لم يتخيّل زاك أن الجيش السوداني يمتلك واحدة كهذه، على أي حال لم يستغرق في أفكاره لمدةٍ طويلة إذ فتحت عليها نيران مدافعها. صرخ زاك في زميله "اركض!" واستدار كلا الرجلين للهرب والنجاة بحياتهما.

انطلق الرجل الرمادي بالسيارة السكودا الأوكتافيا وسط أزقة القرية الضيقة حتى وصل حسب العنوان لبيت ريفي يبعد عشرة كيلومترات شمال غرب سواكن. ارتفع السور البني ثنائي أقدام من جميع الجهات، ومن منظر البوابة الأمنية توقع جنترى رؤية مسكن كبير في الداخل، ولكن بمجرد دخول البوابة لم يجد سوى مبنى صغير من طابق واحد بنوافذ بلا زجاج، وقطعان ماعز حوله مطلوقة ترعى وتمضغ الأعشاب. مسح المكان بعينه فلاحظ سيارة محمد المرسيديس البيضاء القذرة مركونة هناك في الفناء.

كانت هذه البقعة أكثر هدوءاً من بقية البلدة إذ غابت عنها أصوات الرصاص والانفجارات وأزيز الهليكوبتر التي تحلق في كل مكان فوق رؤوسهم، كما كان جهاز اللاسلكي المتصل بساعة الرأس خارج نطاق أي إرسال. لذا لم تكن لديه أي فكرة عما يحدث مع زاك وفريقه هناك. كما لم يتمكن من رؤية المروحية لأنها حلقت على ارتفاع منخفض للغاية بحيث لا يمكن رؤيتها من هنا على أي حال.

تصرف أوريكس على طبيعته. عشرون ملليجراماً من الأوكسيكوتين كانت كفيلاً بذلك. فقد ظل واعياً - ويقظاً بشكل أو بآخر - لكنه لم يبدُ مهتماً بما يحدث. جلس بهدوء في مقعده، مثبتاً بحزام الأمان، ويدها مربوطتان معاً أمامه، ينظر من النافذة إلى المناظر الطبيعية في الطريق، وكأنه زائر يأتي لأول مرة إلى البلد الذي يحكمه. مرّوا بالعديد من عربات الكارو التي خرجت من المدينة في محاولة يائسة لتجنب أي جنون يحتل شوارعهم الهادئة عادة، ناهيك عن حركة المرور الصباحية المعتادة أيضاً. وحتى في هذا المكان البعيد عن المدينة، ازدحمت الشاحنات والحافلات والجِمال وعربات الكارو على الطريق، حتى أمام هذا المنزل. أخذ الرئيس يستوعب كل ذلك دون أن يتيسم أو تبدو عليه أمارات الخوف، بل أخذ يُراقب الجميع أثناء مرورهم.

كان كما أراه جنترى تماماً.

من ناحية أخرى، تملك اليأس من كورت بسبب الألم الحاد في ظهره، والذي ازدادت قوته مع مطبات الطريق، علماً بأنها كثيرة. تصبب العرق في عينيه، وضايقته حشرة تُشبه ذبابة الخيل، ودارت حوله مثل طائر صغير.

ترجل كورت من السيارة ولأول مرة بعد إصابته بالسهم تمكن من فرد ظهره، نظر إلى الرئيس، وتأكد من أنه لن يذهب إلى أي مكان. أخرج مسدسه "الجلوك" ووضعها في جانبه. لم ير أي أثر لمحمد، افترض كورت أنه ينتظرهما في سيارته، فراح يتفحصها من وراء زجاجها الفاميه الأسود، متأكداً من وجود محمد في مكان ما هنا حتى لو داخل منزله.

عندما اقترب، انفتح باب المرسيديس، ونزل محمد دون سلاح فأخفى الرجل الرمادي مسدسه. بدا الرجل مضطرباً، وهو الأمر الذي لم يُفاجئ كورت على الإطلاق.

سار محمد نحو كورت، الذي توقف بالقرب من سيارته. وبدا جلياً أنه لم يلاحظ الرجل الأسود هناك، ولا السهم في ظهر كورت كذلك. ظنَّ كورت أن هذا غريب، لكن عقل الرجل ركَّز على ما يحدث في هذه اللحظة.

"ما الذي يحدث بالضبط، سمعتُ على إذاعة الراديو أبناء عن إطلاق نيران!"
"نعم، الوضع جنوني هناك".

"أأطلقوا عليك الرصاص؟ أقصد الجيش؟"
"نعم، بعضهم".

سأله محمد "لكنك أتممت مهمتك".
هزَّ كورت كتفيه قائلاً "بالضبط، فعلتُ ما جئتُ من أجله".
"إذن على مَنْ يُطلقون النار الآن، أقصد بها أنك هنا؟"
حركَّ كورت عينيه من محمد للسيارة وهنا فقط لاحظ الشرطي المحلي الأسير المربوط داخلها.
"من هذا؟"

قال كورت "مجرد رجل قابلته في الطريق".

بحذرٍ، دار محمد حول السيارة وحين انتبه من يكون الراكب فيها تصلَّب جسمه وارتفع حاجباه "إنه سيادة الرئيس، أنا لا أفهم. اعتقدتُ أنه يُفترض بك...".
لم يُكمل مُجملته وفي آخر لحظة انتبه لكاتم الصوت الموجه لرأسه.
وبالتالي لم يسمع صوت الرصاصة التي اخترقت جمجمته.

سأل عبود وكورت يُساعده في الخروج من السيارة "من هذا الرجل؟"
التقط الأمريكي مفاتيح سيارة القتل من التراب، ولفَّ رأسه الدامي في بطانية، ثم ابتعد عن الرئيس، وبدأ يجرَّ محمد من ذراعيه إلى صندوق سيارته، أجابه "شرطي محلي، كان يعمل لحساب هؤلاء الذين استأجروني لاغتيالك".
"ماذا؟ إنه خائن".

بصعوبة بسبب إصابته تمكَّن الرجل الرمادي من وضع الجثة في شنطة السيارة المرسيديس وحين انتهى استدار للرئيس وسأله "أخبرني عن حالتك الآن؟ كيف هو قلبك وتنفسك؟" ثم أخرج زجاجة ماء بلاستيكية شفافة.

سأله عبود وهو غير مُتأكد من فهمه للسؤال "قلبي؟ أشعر بشعورٍ غريب في رأسي، لكن قلبي بخير..
لماذا؟"

"هل صحتك بخير؟ ضغط دمك؟ تنفسك؟"

اقترب عبود أكثر ووقف خلف السيارة إلى جانب الرجل الأبيض المصاب بسهم في أعلى ظهره صاحب الأسئلة الغريبة. ألقي الرجل زجاجة الماء في صندوق السيارة مع الجثة. استغرب عبود سلوك ذلك الأمريكي وأسلته المريبة، إذ لا تفسير لكل ما يفعله إلا إذا كان شيطاناً.

"أنا بصحة جيدة لكنني لا أفهم المغزى من أسئلتك! ولماذا تُعطي رجلاً ميتاً زجاجة ماء؟"
نزع عنه كورت ربطة عنقه وقميصه، وسحبه من بنطاله الأسود، وتركه يتدلى فضفاضاً، كاشفاً عن قميصٍ أبيض تحته، ثم أجابه "ليس له، اقفز!"
"أين؟"

"في صندوق السيارة، الآن."

"مع ال...".

جذب الرجل الأبيض عبود من مؤخرة رأسه، ودفعه إلى صندوق السيارة، ثم استخدم سكيناً قابلاً للطيّ لقطع سلك تحرير الصندوق الداخلي للسيارة. دفع السوداني الجثة بعيداً امتثالاً لتعليماته، لأنه لا يريد إغضاب هذا الرجل، كما أنه لا يريد مساعدة مَنْ حاول اختطافه، ولا الصعود إلى السيارة السيدان المظلمة مع جثة مواطنه الخائن.

والأهم من كل ذلك عدم إجبار الأمريكي على اللجوء للخطة (أ).

على بُعد عشرة كيلومترات جنوب شرق موقع جنثري، تمكّن زاك هايتاور من إدخال جميع رجاله إلى أول مبنيين طويلين متماثلين ومكوّنين من طابقيين. كان للمول التجاري مظهر بارد، وتناثرت الأكشاك الخشبية المصنوعة يدوياً ذات الأفاريز المتدلّية المنخفضة حوله في عشوائية. بدا أشبه بسوقٍ حضري رديء أكثر من كونه مولاً تجارياً على الطراز الأمريكي. امتلأت الأرضية بالداخل بالأوساخ، وكأن جريان المياه من التلال قد لوّثها. بالإضافة إلى البضائع داخل الأكشاك، بينما انتشرت القمامة في كل مكان. لم تكن هذه مفاجأة كبيرة، نظراً لأن هذه المباني كانت أكثر أمناً بكثيرٍ من غالبية منازل سواكن وما حولها. افترض هايتاور وجود أي أفراد جيشٍ أو شرطة، لكن بدا أن الأمن قد أخلى المكان عندما ظهر خمسة رجال بيض متوحّشين مُلطّخين بالدماء، يرتدون ملابس الجنود، ويُطلقون النار من الأسلحة على المروحيات والقوّات الحكومية من أعلى التل.

كان صف المباني مبنياً بشكلٍ متينٍ لكنه بالتأكيد ليس منيعاً. فقد كانت هناك نوافذ بارتفاع الخصر دون زجاج، ومداخل بدون أبواب، وخلف مركز التسوّق هذا وقف مبنى آخر من طابقيين مُتشابهين من المحلات التجارية، وعشرات النوافذ حرقياً، وسطح طويل يُمكن لأي شخصٍ أن يحصل منه على خط رؤية مفتوح. حامت المروحية اللعينة فوقهم الآن.

فقد العميل 4 الكثير من الدماء، وحمّن زاك أنه نرف أكثر من لترٍ بالفعل. لم يكن معظم الرجال ليقفوا على أقدامهم، ناهيك عن أنهم ما زالوا في أرض المعركة، لكن ميلو كان جندياً سابقاً في البحرية الأمريكية؛

وَصُمِّمَ لِتَحْمُلِ أَكْثَرَ مِنْ (99.99٪) مِنْ بَقِيَةِ الْأَمْرِيكَانِ، لِذَا تَمَكَّنَ مِنْ تَجَاهُلِ جَرِحِهِ لِبُضْعِ دَقَائِقِ أُخْرَى. لَكِنْ زَاكَ عَرَفَ أَنَّهُ لَوْ نَزَفَ أَكْثَرَ مِنْ لَتْرَيْنِ، فَسَيَسْقُطُ فَاقِدًا لِلْوَعْيِ. كَانَ يَأْتِي لِحَيَاةِ رَجَالِهِ، وَلِطَبَالِجَةِ جِرَاحِ الْعَمِيلِ 4، وَلِإِيْجَادِ بَعْضِ الذَّخِيرَةِ، وَلِالتَّقَاتِ أَنْفَاسِهِمُ اللَّعِينَةَ.

نَظَرَ زَاكَ لِخَرِيْطَتِهِ فَوَجَدَ أَنَّ الْبَحْرَ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِ بِنَايَاتٍ فَقَط. كَانَ الْعَمِيلُ 2 قَدْ اسْتَعْمَلَ فَأَسًا لِیُحْدِثَ ثَقْبًا فِي جِدَارِ مَتَجَرِّ سَلَالٍ صَغِيرٍ. يَحْتَاجُ أَنْ يَنْتَقِلَ بِرَجَالِهِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ، لَمْ تَكُنِ السَّاعَةُ قَدْ جَاوَزَتْ السَّابِعَةَ بَعْدُ وَكَانَ الْمِنْبَى خَالِيًا تَمَامًا لَكِنَّهُمْ سَمِعُوا أَصْوَاتًا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ مِنَ الْبَابِ. تَحَرَّكَ الْفَرِيقُ إِلَى دَاخِلِ الْعُرْفَةِ، مُنْخَفِضًا خَلْفَ الْمَنْضِدَةِ. ذَهَبَ الْعَمِيلُ 5 إِلَى الْبَابِ الْأَمَامِيِّ، فَفَتَحَهُ ثُمَّ أَغْلَقَهُ بِسُرْعَةٍ. التَفَتَ إِلَى الْعَمِيلِ 1، الَّذِي وَضَعَ نَفْسَهُ لِتَعْطِيَةِ الْفَتْحَةِ فِي الْجِدَارِ الَّذِي زَحَفُوا مِنْ خِلَالِهِ لِلتَّو.

"الْحِظْ لَيْسَ فِي صَالِحِنَا يَا زَاكَ، إِنَّهُمْ يَتَرَاجَعُونَ وَيُفَكِّرُونَ فِي الْأَمْرِ، لَكِنْ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ هُنَا، فَسَيَنْتَهِي أَمْرُنَا".

قَالَ هَايْتَاوَرُ "عَلِّمْ وَيُنْفِذْ".

عَرَفَ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ الْمَوْجَّهَةَ ضِدَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ غَبِيَّةً طَالَمَا يَطْلِقُونَ النَّارَ عَلَى مَجْمُوعَةٍ تَحْتَجِزُ رَئِيسَ بَلَدِهِمْ. إِذْ يُفْتَرَضُ بِذَلِكَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ يُفَكِّرُونَ مَرَّتَيْنِ قَبْلَ الْإِشْتِبَاكِ. لَكِنْ الْوَضْعُ كَانَ فَوْضُويًا وَمَشُوشًا، وَعَرَفَ زَاكَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ الْوَثُوقُ فِي تَدْرِيبِ عَدُوِّهِ وَمَنْطِقِهِ بِخُصُوصِ التَّحْقِيقِ مِنْ مَرْمَى نِيرَانِهِمْ.

أَوَّامًا بِرَأْسِهِ إِلَى دَرَجٍ مَعْدِنِي دَائِرِي يَرْتَفِعُ نَحْوَ فَتْحَةٍ مُظْلِمَةٍ فَوْقَهُمْ. بَدَأَ وَكَأَنَّهَا مَسَاحَةٌ تَحْزِينٍ صَغِيرَةٌ أَكْثَرَ مِنْ كَوْنِهَا طَابِقًا ثَانِيًا، قَالَ "الْعَمِيلُ 3، اخْرُجُوا وَحَاوَلُوا الْوَصُولَ إِلَى السُّطْحِ، لَكِنْ خَذُوا حِذْرَكُمْ مِنْ تَلِكِ الْمَرْوَحِيَّةِ. نَرِيدُ مَوَاصِلَةَ التَّحَرُّكِ نَحْوَ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ، بِاتِّجَاهِ الْمِينَاءِ".

امْتَثَلَ دَانَ، ضَابِطُ الْعَمَلِيَّاتِ شَبَهَ الْعَسْكَرِيَّةَ ذُو اللَّحِيَّةِ الدَّاكِنَةِ، لِلْأَمْرِ. وَتَحَرَّكَ بِسُرْعَةٍ حَامِلًا بِنْدَقِيَّتَهُ الْحُكُومِيَّةَ الْفَرَنْسِيَّةَ الصُّنْعِ عَالِيًا نَحْوَ الظَّلَامِ. وَعِنْدَمَا اخْتَفَى، نَظَرَ زَاكَ إِلَى الْعَمِيلِ 2، ثُمَّ أَوَّامًا بِرَأْسِهِ إِلَى الْعَمِيلِ 4 قَائِلًا "عَلَيْنَا إِيقَافُ نَزِيْفِهِ، وَإِلَّا سَيَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَعْقُبِنَا".

بَدَأَ الْعَمِيلُ 2 يَعْزُجُ نَحْوَ الْعَمِيلِ 4 قَبْلَ أَنْ يُنْهِيَ زَاكَ جُمْلَتَهُ. حَرَسَ الْعَمِيلُ 4 الثُّقْبَ فِي الْجِدَارِ بِمَدْفَعِهِ الرَّشَاشِ بَيْنَمَا سَقَطَ زَمِيلُهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ بِجَانِبِهِ، وَبَدَأَ يُخْرِجُ الْإِمْدَادَاتِ الطَّبِيَّةَةَ مِنْ كَيْسِهِ الصَّغِيرِ.

وَبَعْدَ دَقِيقَةٍ، حَلَقَتْ الْمَرْوَحِيَّةُ عَلَى ارْتِفَاعٍ مُنْخَفِضٍ وَبَطِيءٍ، فِي مَحَاوِلَةٍ لِإِلْقَاءِ نَظَرَةٍ دَاخِلِ نَوَافِذِ الطَّابِقِ الثَّانِي.

اسْتَعْمَلَ زَاكَ جِهَازَهُ اللَّاسَلِكِيَّ لِاتِّصَالِ بِالْعَمِيلِ 3 عَلَى السُّطْحِ "دَانَ".

"نَعَمْ يَا سَيِّدِي؟"

"أَحْتَاجُ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْوَحِيَّةِ فَوْرًا".

سَادَتْ لِحْظَةٌ صَمْتٍ، ثُمَّ أَجَابَهُ "يَا لَيْتَ يَا سَيِّدِي، لَكِنِّي تَرَكْتُ الصَّارُوخَ فِي جَيْبِ بِنْتَظَالِي الْآخَرَ". ضَحِكَ بَرَادٌ وَمِيلُو. كَانَ سَبَنْسَرُ أَسْفَلَ الرُّوَاقِ الْمُؤَدِّيَ إِلَى غُرْفَةٍ مَفْتُوحَةٍ، بِأَذِلًّا قِصَارَى جُهْدِهِ لِتَعْطِيَةِ نِصْفِ دَرِيْنَةٍ مِنْ نِقَاطِ الدَّخُولِ بِنَفْسِهِ، صَاحَ زَاكَ "يَجِبُ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ تَلِكِ الْمَرْوَحِيَّةِ، لَا تُهْمِنِي الطَّرِيقَةُ،

لكن لا تنزلوا قبل أن تهبط تلك المروحية، هل تفهمونني؟
تردّد لحظة، قبل أن يجيبه بحزم "أفهمك جيدًا يا زاك".

قال زاك "سنمدك سلاح أفضل من سلاحك" ثم نظر إلى العميل 4 الذي لم يبدُ سعيدًا بالتخلّص من سلاحه، رغم أنه كان مُستلقيًا مُستندًا بظهره إلى الحائط، ومُغطّي بالدماء من رُكبته اليُمْنى إلى أسفله. سلّم سلاحه إلى براد الذي بدوره مرّره إلى الرُجل الجريح. ركض براد إلى أعلى الدرج حاملًا المُسدّس. وبعد ثوانٍ قليلة، نزل حاملًا سلاح دان حول رقبتة، وعاد لعلاج ساقه الدامية.

تحدّث هايتاور في سَماعته "من المُستحيل أن تتمكّن من الخروج من هذه المدينة في ظلّ وجود هذه الطائفة فوق رءوسنا، بمُجرّد أن نكون على الطريق المفتوح، لن نجد مكانًا للاختباء. سنظلّ في هذا المبنى حتى نتخلّص منها. وإذا تمكّن دان من ذلك، سننّجه شرقًا، إلى الماء، وسنسبح للخروج من هنا. هل يسمعني الجميع؟"

قال العميل 2 "العميل 4 لا يستطيع السباحة يا سيدي".

نظر زاك إلى العميل 4 الذي شحب وجهه من فقدان الدم، قبل أن يقول الجريح "تبًا لهذا الهراء، سأسبح إن أمرتُ بذلك".

نظر زاك إلى العميل 2، الذي هزّ رأسه برفضٍ قاطع. بدأ ميلو في الاحتجاج، لكن هايتاور رفع يده قائلاً "توقّف عن هذا الهراء، لأن أحدًا لم يُصدّق إشاعاتٍ عنك". ثم وجّه حديثه إلى الفريق قائلاً "حسنًا، سنتوجّه إلى الماء على أي حال. لنجعلهم يُطارِدوننا، ثم نختفي. سنعود أدراجنا على الأرض التي غطيّناها بالفعل. وإذا حالقنا الحظ، سيعتقدون أننا ذهبنا للسباحة. سنحتاج إلى حيلةٍ صغيرة".

أومئوا برءوسهم كرجلٍ واحد. لقد فهموا المخاطر. وعرفوا أنهم وحدهم هنا، لا سبيل لأي دعم أو إغاثة.

باستثناء الرُجل الرمادي.

حوّل زاك اتصال اللاسلكي للرجل الرمادي، لاحظ ذراعه النازفة، وتساءل كم من الوقت ستعمل إن لم يتوقّف النزيف. دفع القلق من ذهنه جانبًا والرُجل الرمادي يجيبه.

سأله العميل 1 "هل الأمور سيّئة عندك مثلما هي سيّئة عندنا؟"

"نحن بأمان، يبدو أنكم مشغولون للغاية".

"وما زلنا كذلك".

سأله جنترى بسخرية عن الخطة برفو التي لم تيسر على ما يُرام "هل لديك خطة يا تشارلي؟"

"أنت تعرف ذلك".

"بل أشك في ذلك".

"نحن على بُعد خمسة عشر كيلومترًا شمال غرب المدينة، لقد بدلت العربة التي غادرت بها المدينة، ولم يتبعنا أحد".

"حسنًا، اللعنة عليك، يبدو أنك أفضل حالًا منّا. نحن مُحاصرون، ولدينا مُصابون، بلا ذخيرة، لقد تراجع الجيش الآن. ونأمل أن تتمكّن من هذه المروحية (الهيب) التي تُحلّق فوق رؤوسنا حتى لا تقتلنا. إما أنهم لا يعرفون وجود رئيسهم رهينةً معنا، أو أنهم لا يهتمون".
"هيب؟ لم أكن أعرف أنهم يملكون مثل هذه المروحيات".
"أنا متأكد منها".

سأله كورت "من هم المُصابون لديك؟"
"أصيب ميلو برصاصةٍ في ساقه، لكننا سيطرنا على النزيف، إنه في حالةٍ حرجة".
"ماذا عن الآخر؟"
"بخير حال".
"ماذا عنك؟"

"أصبتُ بضررٍ بسيطٍ في ساعدي، لكنه ليس أمرًا يُذكر".
"اللعنة، لدينا مُصاب هنا أيضًا".
"من؟"

"من برأيك يا زاك؟ هل هناك غيري أصلًا؟"
"أعرف ذلك يا أحمق، اعتقدتُ أنك تتحدّث عن أوريكس".
"أوريكس بخير".
"هل أصبتَ بجرح؟"
"شيء من هذا القبيل".
"أين؟"

"أعلى ظهري، أصبتُ بسهم!"
"ماذا؟"

"أصبتُ بسهم لعين، لم أخرجه بعد، لكنني أعمل على ذلك".
"سهم! في ظهرك؟ حقًا؟"
"نعم، سهم في كتفي".

"ما هذا بحق الجحيم؟ لا أحد يُطلق السهام هنا!"
"حسنًا، لا أعرف يا زاك، لم أر مُطلقه. أفضل تلقي رُصاصة من أحد الرشاشات التي يُطلقها الجيش هنا".

"سهم!"

"اسمعي يا زاك، يُمكنني الوصول إليكم، يُمكنني الخروج من مخبئي الآن، يُمكنني ربط أوريكس بقوة وإحضاره إليك. لديّ مسدس وخزينة ذخيرة، رُبما يُمكنني ...".

"مرفوض، ابق في موقعك واحم هدفك. لا أريدك أن تُهاجم وتفقد الرئيس أثناء هجومك. سنستمر في التملص من هذا الهراء بمُفردنا".

"مفهوم".

"كيف ستتخلص من سهمك؟"

"سأجعل عبود يساعدي".

صفرّ زاك قبل أن يقول "ربما سيرفض ذلك".

"حسنًا، سأضطر لإقناعه".

"حسنًا، حظًا موفقًا في ذلك. على أي حال أنا أحسدك، فبينما تُحارب رعاة البقر وتتلقّى سهامهم أمطرونا هنا برصاص حيّ. لذا أمّن نفسك، ورتّب أغراضك، وعدّ للاطمئنان عليّ مرّة أخرى".

"علم ويُنفذ".

ما إن أنهى زاك الاتصال مع كورت حتى سمع إطلاق نار من مدفع رشّاش ثقيل إلى الجانب الشمالي من المبنى، مما أدى لتناثر الجصّ والخرسانة في الهواء مثل الدُّخان. سقط الرجال الثلاثة أرضًا، وردّوا بإطلاق

النار نحو الحائِط. صرخ زاك "هيا يا دان! إنه الأمر!"

لكن الضجيج العالي طغى على كلماته.

بحلول الساعة الثامنة صباحًا، كان فريق زاك لا يزال مُحْتَجِزًا داخل مبنى المول التجاري المتواضع بينما المروحية تطوّقهم وتنهال عليهم برصاصها المتواصل من مدفعها الرشاش. تراجع سبنسر إلى العُرفة بصُحبة رفاقه، بعد أن تلقى ثلاث رصاصاتٍ في القميص الواقى الذي يُغَطِّي صدره، وينزف من عدّة شظايا في عنقه ووجهه.

كان دان لا يزال على السطح، بعد أن وَجَد بعض المخابئ من المروحية، وحاول إيجاد فرصةٍ لإسقاطها، لكن توجّب عليه التعرّض للخطر أثناء القيام بذلك، وحامت الطائرة قريبًا منه أثناء كُل هذا. بينما استلقى أعضاء الفريق الأربعة الآخرون على أرض الطابق الأول، يُحاولون الهروب من طلقات المدفع الرشاش الموجود في الجزء الخلفي من سيارة الجيب التي كاد براد يصطدم بها من الخلف في وقتٍ سابق، وهي تسحق مكان اختباء أعضاء الفريق، الذين لم يستطيعوا حتى رفع رءوسهم للردّ على النيران، فقد كان هجوم العدو شديدًا للغاية.

"هل يُمكنك الوصول إلى جانب السطح لإطلاق النار على هذا المدفع الرشاش يا دان؟"
"مستحيل يا سيدي، الطائرة تحوم أمام موقعي مُباشرةً. وإذا أخرجت رأسي، فسأفقد حياتي. لا يُمكنني الاشتباك معها حتى تبعد".

صاح ضجيج المروحية عبر سماعات الرأس مع إرسال العميل 3.
"عَلِم".

صرخ براد ليعلو صوته فوق ضوضاء الطلقات "سيُحاصروننا هنا في غضون ثانية!"
وافقه زاك قائلاً "أنفق معك" لأن مهمته، بصفته قائد الفريق، تضمّنت التفكير في طريقة للخروج من هذا المأزق الذي يبدو مُستحيلًا.

نظر إلى الرواق، بخلاف النوافذ والباب الأمامي، كان هذا هو المخرج الوحيد للعُرفة، قال "هل تظن أنهم استولوا على العُرفة المجاورة يا سبنسر؟"
"لا شك في ذلك، هناك الكثير من المداخل من الشارع".

أوماً هايتاور برأسه قائلاً "حسنًا، إلى كُل العناصر، إليكم ما سنفعله. هذا ليس جميلًا، لكن هذا كُل ما لديّ يا براد، عند إشارتي، ستُلقي بكلّ قنابل الدُخان بحوزتك خارج النافذة باتجاه الغرب، حاول أن تُلقِيها في الطريق بيننا وبين المدفع الرشاش. أما دان، فليبق مكانه، لكن عليه أن يُلقِي قنابل الدُخان من السطح في نفس الاتجاه بقدر ما يستطيع".

"عَلِم وَيُنْفذ".

"ارم قنابلك إلى الشرق يا سبنسر، بين المراكز التجارية، هل تسمعني؟"
"أسمعك، وبوضوح".

"وسألقي قنابلي مع سبنسر، ثم.. وعند إشارتي، سيخرج سبنسر من النافذة إلى الشرق، وستحاول أنت إسقاط المروحية، وبمجرد أن يفعل ذلك...".

أنهى دان الإرسال قائلاً "سأطلق عليها ثمانين طلقة من سلاحي".

"جيد، ثم يتجه سبنسر إلى مول برافو. ويحاول إجبارهم على الاعتقاد بأننا انتقلنا إلى هناك، بينما سيواصل بقيتنا التوجه جنوباً في هذا المجمع عبر الطابق الثاني".

قال سبنسر "علم ويُنفذ".

كان الخروج إلى العراء بهذه الطريقة بمثابة حُكم الإعدام، لكن الرجل لم يُظهر لحظة تردُّدًا أو خوفًا.
قال زاك "وستتجمع في أقرب وقتٍ مُمكن".

قال العميل 5 "يبدو ذلك جيداً" لكنه لم يُظهر أي مؤشّر على إدراكه لاحتمالية موته.
"ميلو مسئوليتك يا براد".

"سأتولى أمره، لكننا سنضطر لترك مُعدّاته حتى يتمكن من الاستمرار في الحركة".
"لا مانع".

توقف براد حتى ينزع سترته، وحقبة ظهره، وحزامه عن مريضه المُصاب، قبل أن يقول "حسنًا يا رفاق، لنفعلها. هيا بنا".

بعد ثوانٍ كان قد تم رمي أكثر من قنبلة من النوافذ والسطح باتجاه الشارع، ثم انطلق عناصر الفرقة تحت النيران مُغادرين المول لمركزٍ تجاريٍ آخر مجاور، وحتى ميلو المُصاب لم يتكاسل عن استخدام بندقيته الآلية بينما زاك يحمل على كتفه ليتحرك به، وهو يُطلق النار من سلاحه، ويُلقي قنبلةً ناحية الغرب.

"لقد ألقينا القنابل!"

في غضون ثوانٍ، تصاعد الدُخان الأحمر والأبيض المُعتم من العبوات في الشارع على جانبي المبنى.
كان سبنسر قد أزال أغلب العتاد من على ظهره وفخذيّه، ولم يحمل سوى سلاح من طراز أوزي، ومُسدّس، وبضع مخازن ذخيرة فحسب. قفز من نافذة المتجر، وركض وسط أربعين مترًا من أكشاك السوق والأرض المفتوحة محاولاً الوصول إلى المول الآخر. حجبه الدُخان الأبيض والأحمر إلى حدٍّ ما، لكن فوقه وخلفه استدارت المروحية، واندفعت تُطارده في الهواء.

تباطأ العميل الأسود الضخم، واستدار ليُطلق النار عليه، ورفع سلاحه ليُطلق رشقة طويلة، لكن المروحية أطلقت النار أولاً. مزّقت المدافع الرشاشة الأكشاك الخشبية على يساره ويمينه، واستدار سبنسر راکضاً مرّةً أخرى.

اقتربت الطائرة، تاركةً مسافةً بينها وبين سطح المبنى خلفها. خرج دان، العميل 3، من مخبئه ورفع الرشاش إلى مستوى كتفه.

صوّب بندقيته الكبيرة على مروحة ذيل الطائرة الكبيرة. فتح نيرانه برشقات سريعة مضبوطة لمقاومة الارتداد، ولم يتوقّف، أطلق ثمانين طلقةً من فوّهة سلاحه.

ظهرت سحابة صغيرة من الدخان الأسود في ثوانٍ. ارتجفت الطائرة وانحرفت بزواوية إلى اليمين، وتوقفت عن مُطاردته للرجل في السوق. انحرفت أكثر. واعتقد دان أنها تُحاول التحليق مُجددًا للالتفاف والاشتباك معه، لكنّه انفجار في المروحة، أكبر بكثيرٍ من سحابة الدخان الأصلية، جعل الطائرة تدور حول نفسها.

ارتفعت الطائرة 80 قدمًا في الهواء، وفقدت السيطرة على نفسها تمامًا، وانحنى دان عائداً إلى الدرج مُحدراً العميل 5 "إنها تهوي بقوة يا سبنسر! ابتعد عن السوق!"

اصطدم ذيل الطائرة بالطابق الثاني من المركز التجاري الذي احتلّه زاك وغالبية أفراد فريقه. وانخفضت الطائرة إلى الأمام، واصطدمت بالأرض أولاً. ورغم أن السقوط حدث على ارتفاع ثلاثين قدمًا أو نحو ذلك، إلا أن المروحية الكبيرة تحرّكت بسرعة، وضمن الانفجار الناتج وكرة النار عدم وجود أي ناجين.

عرف هايتاور بالضبط ما حدث للمروحية، رغم أنه لم يُشاهد طلقات دان تُصيبها، ولم يُشاهدها وهي تندفع نحو الأرض بين المولّين. لكنّه سمع كل الضوضاء والإرسال من رُجله على السطح، وعندما اشتعلت النيران في المروحية، خرج هو والرجلان اللذان معه من سُلم الطابق الثاني، وفروا من النافذة، ولم يترك اللهب والحرارة المُنبعثين من ناحية موقع الحطام أي شكّ في مصير الطائرة، ومن كانوا على متنها.

واصل الرجال الثلاثة سيرهم في ممرّ قصير، حيث التقوا بدان أثناء نزوله على السُّلم. أمسك دان وبراد بميلو، بينما قاد زاك الطريق، محاولين ترك مسافةً بينهم وبين آخر نقطة تماسّ مع العدو.

نادى زاك في سماعته وهو يتحرّك بحذر عبر مخزن طويل يبدو أنه تعرّض لنيران الرشاشات الثقيلة "من العميل 1 إلى العميل 5" وفي طريقهم اصطدمت أقدامهم ببقايا أوراق وسلالٍ وأوانٍ فخارية مُتفحّمة.

"من العميل 1 إلى العميل 5، هل تسمعني؟"

لا شيء.

"من العميل 1 إلى العميل 5، هل تسمعني يا سبنسر؟"

لا شيء سوى الصمت.

مستخدمًا مسدسه الجلوك اقتحم الرجل الرمادي مسكنًا متواضعًا مصنوعًا مثل بقية بيوت القرية من الخيش والقماش والخشب، وعلى عكس ما توقّع لم يجد بداخله أيًا من ساكنيه، لم يجد سوى برميل سعة خمسة وخمسين جالونًا قد دُقَّ بشكلٍ مسطح لاستخدامه كباب. كما استُخدمت خيوط الإطارات مع الخشب ومواد أخرى من النفايات لزيادة الخيش على الجدران.

كان المكان من الداخل مُظلمًا وشديد الحرارة، والهواء ساكنًا وكثيفًا، واضح من حالته أن سُكَّانه قد غادروه مع بدء إطلاق النار، إذ تُرك الطعام على موقدٍ بسيط يعمل بالجاز، أزاح كورت بقَدَمه خيوط العنكبوت الكثيفة مُهيئًا لنفسه موضعًا للجلوس ثم بسكينه أحدث ثقبًا في قماش المنزل ليسمح بدخول قدر من الضوء والتهوية للكوخ.

حالفه الحظ عندما عثر على هذا المكان أثناء تجواله باحثًا عن أقرب نقطةٍ من زاك وفريقه في حالة أنهم احتاجوا لأي دعم، لذلك توقّف عن الطريق الرئيسي، وتجوّل بلا هدفٍ في مسارٍ تُرابي موحش، مارًا ببضع عربات كارو وقرية صغيرة، باحثًا عن أي مكان يركن فيه السيارة ويجد فيه بضع دقائق من الهدوء. استراتيجيًا كان ممتازًا فهو مُحاط بأرضٍ زراعية ترتفع فيها الأعشاب بدرجة تُخفيه عن الطريق، وإن كانت هذه الأعشاب من ناحية واقعية وبنسبةٍ كبيرة وكرا لأنواعٍ سامة من الثعابين والحشرات والعناكب. وضع جنترى سلاحه في جرابه، وتعقّب خطواته عائدًا إلى السيارة ليُخرج رهينته من صندوقها. كان أوريكس مُستيقظًا وواعيًا. وامتلاّت عيناه الواسعتان بأمارات الارتياح والازدراء وبعض الرضا الناجم عن المُخدّر. كان قد شرب زجاجة الماء بأكملها وبطريقةٍ ما تمكّن من نزع قميصه الداخلي عن جسده بعدما التصق به بفعل العرق. وبدأت رائحة الموت تفوح من صندوق السيارة.

صرخ أوريكس وهو يُقاد نحو المسكن "أنت لا تعمل لصالح الحكومة الأمريكية، طريقتك في إعدام ذاك الخائن، والطريقة التي أسرتني بها ورميتني في الصندوق، وحديثك عن المال والاعتقال، هذه ليست أفعال ضابط أمريكي".

"لا".

توقف الرئيس واستدار قائلاً "إذن أنت مرتزق".

دفعه جنترى إلى الأمام قائلاً "نوعًا ما".

"أنا أعرف من الذي أرسلك لقتلي".

"حقًا؟"

"بالطبع، إنه شيء واضح وضوح الشمس. من ذا الذي يملك المواد اللازمة للدفع لك والتخطيط لهذه العملية، ناهيك عن أنه يكرهني بما يكفي لفعل ذلك؟ إنهم نجوم هوليوود الذين يُهاجموني كل يوم على التلفزيون، ويمتلكون أطنانًا من المال. لقد رأيتهم على شاشات التلفزيون لسنواتٍ وهم يتهموني أمام الكونجرس أي مجرم حرب، بل إنهم يُتججون من نفقاتهم الخاصة أفلامًا تسجيلية كاذبة ليوثقوا جرائمهم التي يزعمونها. كنتُ أعرف أن هؤلاء الكفرة سيحاولون اغتيالي يومًا ما".

لم يكن كورت في مزاج يسمح له بالدردشة. فالسهم يتسبّب في تشنُّج عضلاته، وهذا يُصيبه بالألم؛ حتى المشي صار صعبًا الآن. وعندما اقتربا من المدخل المفتوح، أجابه قائلاً "تحليل ممتاز، أنا فعلاً قاتل مأجور

لصالح هوليود، وسأصبح نجمًا لعينًا وكُل هذا الهراء".

قال الرئيس عبود "كما أنني أعرف أيضًا من دفع لك لتخطفني" خفتَ صوته في النهاية كأنه فقط الآن بدأ ينتبه للكوخ الممتد الذي دخلاه، ثم سأله "أين نحن؟ ما هذا المكان؟"

"واصل السير!"

"ماذا ستفعل؟"

ضربه كورت بقوة على جانب رأسه بعقب البندقية. فترَّح الرجل الضخم واستدار إلى الكوخ، وبدأ يمشي إلى الأمام دون مزيدٍ من الأسئلة. وبمجرد دخوله، واصل سيره إلى وسط الغرفة ذات الإضاءة الخافتة، ثم استدار. كان بإمكان جنترى رؤية ارتبائه.

"هل تعمل لصالح البدو؟"

"اصمت!"

نفض عبود عنه ارتبائه وبدأ يستفيق. لم يكن كورت يتوقَّع أقل من ذلك، قال "إذا كنت تعمل لأجل المال يُمكنني أن أدفع لك أكثر، صدَّقني".

"اصمت!"

"المال ليس هنا. لديَّ حسابات بنكية في جميع أنحاء العالم. كما لديَّ أصدقاء في آسيا وأوروبا. قد يُحقِّق لك هذا ربحًا أكبر مما تتخيَّل، يُمكنني حتى مضاعفة ما ستتقاضاه".

قال كورت موجهاً فوهة مُسدَّسه لوجه أسيره "قُلْتُ لك اخرس واسمعي". ظهر الألم على وجهه وهو يمدُّ يده، خالغًا حقيقته بحذر، ثم قميصه البني، فتخللت حركاته همهمات وأوجاع. وبعد عدَّة شدَّات تحرَّر القميص، ووقف عاري الصدر في مُتصف الكوخ المعتم، قائلاً "أحتاج مساعدتك في هذا".

"السهم؟"

"لا، أقصد بقعة القهوة التي تلوَّث قميصي! أجل، طبعًا، السهم!"

ارتفع حاجبا الرئيس الكثيفان وهو يسأله "ماذا إن رفضتُ مساعدتك؟"

"سأقتلك".

أدرك كورت أن عبود يستفيق، ويُدرك بمكرٍ أن خاطفه يحتاج إلى شيءٍ منه، ويُحاول إيجاد طريقةٍ لاستغلال ذلك لصالحه.

"وما المقابل إن ساعدتك؟"

"لن أقتلك".

سأله عبود "ماذا عليَّ فعله بالضبط؟"

"سأستلقي أرضًا على وجهي، وما عليك إلا أن تُثبَّت قدمك في منتصف ظهري وتسحبه بكل قوتك".

وهنا لمع في عيني الرئيس عبود وميض حماس عرف كورت منبعه، فأضاف "أنا أعرف ما تُفكر فيه، ستريد غرس السهم في قلبي أو عنقي، لكن تأكد أولاً من الموضوع الذي يُصيّني في مقتل، لأنني إذا نهضتُ لك بعدها حياً سأفرغ فيك 16 طلقة".

"لم 16 طلقة تحديداً؟"

"لأنهم كل ما في خزنة مُسدسي. تذكر، لقد أعطيتك الكثير من المُخدر هُناك في سواكن. أنت أبطأ وأضعف مما تعتقد، كما أنك لست بنصف الذكاء الذي تعتقده. ألم تلاحظ كيف كنت بطيئاً طوال الطريق، ردود أفعالك أغبى وأبطأ مما تتصور في خيالك، أقسم لك أنك لو ارتكبت أي فعلٍ أحمق سأجعل الدم ينزف من كل مسام جلدك".

خيّم الصمت بينهما بصُحبة الحرارة الخانقة، ولاح على وجه الرئيس دُعره الذي سكن قلبه.

أخيراً، سأل كورت "والآن، أنت جاهز لفعالها؟"

صمت عبود لوهلة، قبل أن يقول "ستؤلمك بشدة".

"ما الذي يهّمك في ألمي!"

"ربما تظن أني أحاول قتلك، بينما لا أحاول سوى مُساعدتك".

"من المتوقع أن يؤلمني ظهري، حيث يوجد السهم. إذا شعرت بالألم في أي مكانٍ آخر، سأضربك في مكانٍ

حساس، وهذا يعني أنه لن يُوجد ولي العهد السوداني، هل تفهمني؟"

أوما عبود برأسه. سحب كورت مُسدسه، وجثا على رُكبتيه، ثم على بطنه. كان السهم في لوح الكتف، ولم يكن ليخُرج بسهولة، عرف كورت أنه سينزف بشدة عندما سيخُرج. لم يكن معه سوى عدّة ضمّادات صغيرة، وليست هُناك طريقة لتضميد الجرح الذي لم يستطع رؤيته أو الوصول إليه، وبدا من الغريب للغاية أن يُضمّده الرئيس السوداني.

وفي حين أن خمول الرجل وتناقص قدراته الناجمين عن المُخدر كان في صالح كورت كمُختطف، إلا أنه لم يكن في صالحه كمريض. فكل ما عرفه هو أن بكري عبود يُمكن أن يسقط فوق السهم بدلاً من سحبه، وبالتالي سيعلق كورت على أرضية هذا الكوخ القذر وسط الحشرات.

بدأ الرئيس عبود يتبع إرشادات الرجل الرمادي في سحب السهم من جلده، تدفق الدم مع كل حركةٍ سواء خاطئة أو صحيحة، شعر كورت أنه في حاجة لابتلاع علبه كاملة من أقراص المسكنات الموجودة في حقيبته ثم انتبه أن الوقت قد فات.

أمسك كورت بمُسدسه في يمينه. ولم يسمع أو يشعر بشيءٍ لفترةٍ من الوقت. تساءل عمّا إذا كان أوريكس سيحاول التسلل من الباب. وأخيراً صاح الرئيس بصوته الجمهوري من الأعلى "أيمكنك أن تُفلت يدي كي أعمل بشكلٍ مضبوط؟"

"بالطبع لا، أمسكه واسحبه فحسب".

شعر بضغظ نعل الرئيس بين لوحَي كتفه، وبضغظ السهم المؤلم في عضلاته وعظامه عندما أمسك به، ثم بالجدب الذي جعل عينيه تمتلئان بالدموع. صرخ بألم لا يتوقف. وبصورة غريزية، انقلب كورت على ظهره، وصوب مُسدسه إلى وجه الرجل، وهو يضع إصبعه على الزناد.

وقف أوريكس فوقه، ويدها مُقيدتان معاً، بينما سقط السهم الدامي من بين أصابعه على صدر جن تري. لقد فعلها، لم يُحاول أوريكس الغدر، وأدرك كورت أنه كان قريباً للغاية من قتله رغم ذلك. لم يهدأ الألم في كتفه، لكنه نهض على قدميه، ووجد نفسه أكثر قدرة وحرية، فقط لأنه لم يعد مُضطرباً للتحرك بحذرٍ لتجنب الاصطدام بالسهم الطويل.

"أخيراً، قمت بعمل رائع".

"والآن ما اسمك؟"

"نادي العميل 6".

"حسناً، ويُمكنك مُناداتي بالرئيس عبود".

"سأناديك بما أريد أيها الأحمق، والآن أحتاج لعمل تليفون ضروري، اجلس في هذا الركن وكن مطيعاً".

بعدها نجح زاك وثلاثة من رجاله في الخروج من منطقة القتل الأخيرة، وإسقاط المروحية التي لم تكف عن ملاحقتهم والدوران حول مبناهم محاولةً العثور على أي ثغرة تقصفهم منها، بدأ أن قوات العمليات الخاصة تراجع خوفًا ومحاولةً لإعادة تنظيم صفوفها. صعدوا إلى الطابق الثاني من المول حيث توجد محلات السجاد والمخابز والمغاسل وغُرف التخزين. وهناك اعترضهم عنصران من قوات الجيش السوداني لكنهم قضوا عليهما بصميتٍ باستخدام الخناجر. فتشوا في بذلتيهما العسكريتين وأخذوا خِزَن الرصاص إذ نفذت كل ذخيرتهم. مرَّ براد بنديته إلى ميلو ليستخدِمها كعكازٍ مؤقت، وهو الأمر الذي زاد من قدرته على السير بشكل كبير. في نهاية المول، عادوا إلى الطابق السُّفلي، ألقى زاك نظرةً من النافذة فوجد أن القوات السودانية بعدما انسحبت عادت تجمع نفسها مرةً أخرى لمواجهةهم. أمرهم زاك بكسر الغطاء والتوجُّه عبر السوق، على بُعد مبنَى واحدٍ من الماء، إلى مول برافو.

وكان سقوط الطائرة مثل كتلة نارٍ في السوق قد أنشَب حريقًا هائلًا بسبب اشتباك اللهب بالوقود والملابس والأخشاب مما حوّل الأمر لمحرقه تعاطم دُخانها للسماء مُساعدًا على إخفاء الفريق المُنهك أثناء عبورهم الأرض المفتوحة. لم يتلقَّوا أي نيران من قوَّات الأمن المُنسحبة، وبدأ من المُرجح أن إعادة تموضعهم لم تُكتشف بعد. كان الأمل كبيرًا للغاية، إذ لم يرَ أي دليل على معرفة العدو بمكانهم.

ومن خبرة زاك بهذه الملاحم على مدار تاريخه العملياتي أدرك أن أهم عنصر في هذه المهمة هو تشتيت الجيش السوداني، والإيحاء لهم أنهم يواجهون كتيةً كاملة بينما هم في حقيقتهم مجرد خمسة عناصر بالعدد. لو عرفوا أن التهديد الوحيد الذي يواجهونه يقبع في المباني بجوار السوق بالقرب من المياه، لركَّزوا كل قواتهم هنا ببساطة، وנסفوا المراكز التجارية، وقتلوا كل روح بداخلها.

لا يُمكن لخمسة رجال، مهما كان تدريبهم جيدًا، فعل شيءٍ ضد هذا النوع من الهجوم. لكنهم الآن صاروا أربعة. لم يظهر سبب منذ اختفائه من النافذة لتحويل انتباه المروحية قبل عشر دقائق. وكان من المُحتمل أن يكون قد فقد جهازه اللاسلكي، أو أن الإشارة بين المباني قد انقطعت. لكن العميل 1 آمن أن العميل 5 نجح في عبور السوق، فقط ليُقابل قوَّةً من قوَّات الأمن العام.

ومع ذلك، انتشروا يبحثون عنه عبر المول برافو، في محاولةٍ للعثور على رفيقهم. اهتزَّ هاتف هايتاور المُتصل بالأقمار الصناعية. أجاب المُكالمة عبر سماعه رأسه. "كيف تجري الأمور عندك يا 6؟ هل أنت مُسترخٍ على الشاطئ مع مشروبك؟" أجابه جنترى "نحن بأمانٍ، ماذا عنكم؟"

"نواجه فوضى عارمة هنا، على بُعد خمسين ياردة من الماء، وثلاث بنايات شمال الجسر، ما زلتُ لا أستطيع التخلُّص منهم. كيف حال ظهرك؟ ماذا فعلت في سهمك؟"

"سأعيش، هل تحتاجني عندك؟"

"أأنت متأكد من قدرتك على ترويض الأوريكس؟"

"نعم، سأقيده وأخدره. ولن يذهب إلى أي مكان."

"حسنًا، اركب جوادك وتعال إلى هنا بأسرع ما يُمكن. تُريدك أن تُحضِر لنا سيّارة، وبعض المعلومات عن مركز القوّات في الشوارع. تعال من الغرب، ووفر لنا توصيلة."

"اللعنة يا زاك، ألا تريد وجبة هابي ميل بالمرّة؟"

ضحك زاك ضحكةً مكتومة وهو يجثو على رُكبتيه في متجرٍ لصُنْع وبيع الأواني والمقالي الصفيح. بينما وقف براد في المُقدّمة يُراقب مدخلًا ببندقيته. وقف دان خلف ميلو "من أين أتيت بخفة الدم هذه؟" كان سؤالًا بلاغيًا، لذا لم ينتظر زاك إجابة وهو يقول "لو لم تأت لإنقاذنا، فستحوّل جميعًا إلى برجر مشوي".
سمع زاك كورت يتنهد، لكنّه عرف أيضًا أن رجُلَه السابق لن يمثّل إلا بعد قليل من التذمُّر، ثم وجده يقول بخنوع مفاجئ "عُلم ويُنفذ، أنا في الطريق. سأعاود الاتصال بك عندما أصِل".

"فتى جيّد. وفي طريقك إلى هنا، أريدك أن تتصل بهانا، وأخبرهم بالمكان الذي خبّأت فيه الرئيس. فقط في حال لم يُخرج أحد منّا حيًّا، يُمكنهم الذهاب لالتقاطه."
"عُلم ويُنفذ".

استغرق جنترى نصف ساعة في تهيئة مكان للرئيس عبود، وتغيير قميصه الملطخ بالدم، ووضع عمامة محلية على رأسه ليتنكر بها، استقر على استخدام المرسيدس بعد تفكيرٍ طويل، ففي الحقيقة كانت السيدان أكثر تحمُّلاً خاصةً بعد ما خاضه بها من مطارداتٍ وتصادماتٍ لكنها تهشمت في أكثر من موضع، ملاً خزّان وقود المرسيدس من بنزينيّة هجرها عمّالها مع بدء أصوات إطلاق النيران، ثم انطلق في الشوارع وسط متاريس الشرطة والجيش والمدنيين المدعورين بعدما خبأ عبود في مكانٍ آمن.

في السماء كانت هناك طائرتان أمريكيتا الصنع يخلق بهما رجال الطيران السوداني. بدا مشهدًا هزليًا أن يُضرب الأمريكان بأسلحة بلادهم على أرضٍ عربية، لكن من خط سيرهما اتضح له أن من يُخلّقون بهما ليسوا متمرسين بالدرجة الكافية.

لم يكن يبدو أن هناك الكثير من التماسك في تحرّكات القوّات العسكرية، وهو ما اعتبره جنترى علامةً جيّدة، إذ لم يكن لدى السودانيين أي فكرة عن حجم قوّات المعارضة التي يُواجهونها. فمع تحرّكات جنترى إلى الجنوب الشرقي من الميدان، والعملاء في المباني الموجودة حوله، والشاحنة التي شقت طريقها حول البلدة بأكملها، والاشتباك القصير مع المُتمردين في الغرب، لا بُد أن ذلك رسم صورة تكتيكية مشوّشة بشكلٍ لا يُصدّق للقادة العسكريين في الحكومة السودانية. فمع حجم إطلاق النار الهائل، وصيحات

اللاسلكي التي ترددت على مسامعهم عن اتصالات بالعدو في جميع الأماكن، رُبما ظنوا أن الرئيس قد اختطفته قوة محلية قوامها مائة رجل.

وبينما اجتاز كورت بسيارته المرسيديس الممرات الضيقة بين صفين من الأكواخ، انطلقت سيارة جيب تابعة للجيش من يمينه، ومرّت أمامه مباشرة وهي تواصل سيرها نحو الشمال. وعند الطريق الممهّد، توقفت شاحنة تزن طنين مليئة بالجنود في حركة المرور بجواره، وكادت شاحنة مُمائلة مُتجهة شرقاً أن تصدمه أثناء ذلك.

لم يكن هناك إطلاق نار في المدينة، واختفت المروحية. دوّت صفارات الإنذار، وانجرف عمودٌ رفيع من الدخان الداكن فوق الميناء والبحيرة شرقاً. بدا الأمر وكأن معركة قد دارت هنا، لكنها انتهت الآن.

أوقف جنترى سيارته في ملعب كرة قدم ترابي سياجه مفتوح على بُعد أربع بنايات غرب الميدان. وحين نزل اقترب منه بيّاعو "لفت" محلّ، ولم يعرف من يمكنه اليوم أن يهتم بشراء لفتٍ لأكله على العشاء، ومن في القرية ستكون له نفس يطبخ الليلة بعد كل ما شهدته من أحداث دامية! صرفهم بإشارة من يده، محاولاً إبقاء لحيته ونظارته وعمامته كي تُغطّي أكبر قدرٍ ممكّن من وجهه ورأسه أثناء حركته. عثر على دكان ملابس اشترى منه جلباباً محلياً يتلاءم مع عمامته، وبهذا حَبَكَ منظره الزائف وأخفى تماماً بلحيته هويته الأجنبية، ودخل إلى أحد الأزقة ليرتدي ثوبه الجديد.

حين خرج من الزقاق وجد المنطقة تعجّ بعناصر الشرطة السودانية. اعتقد أن مُعظمهم قد جاءوا من بورتسودان، على بُعد أربعين ميلاً إلى الشمال. لكن إن كان الأمر كذلك، فلا بد أنهم قد وصلوا للتوّ في فوضى وارتباك عارمين، وسيحاولون جمع المعلومات، غير مُتأكّدين من السلطة القضائية، وسيُزاحمون الشرطة المحلية والجيش وجهاز الأمن الوطني هنا. وسيكون هذا هو آخر وقتٍ ممكّن لإنجاز أي شيء في سواكن لبقية اليوم، وعرف كورت أنه بحاجة إلى الإسراع. لمح في الأمام نقطة تفتيش غير مُنظمة تابعة للشرطة، بجوار هيكل ضخم من الخشب والصفائح، يوقفون المارة يفحصون بطاقاتهم وأوراقهم وخط سيرهم مُحاولين جمع تحرياتهم عن الفوضى التي قلبت المدينة منذ ساعات فبحث لنفسه عن طريق مغاير.

ولأن الطرق هنا كلها ترايبية هيّجت العاصفة الخفيفة الأرض وخلقت شبورة صفراء في الجو جعلته لا يرى أمامه إلا على بُعد خمسين قدماً، وتمنّى بدوره أن تلحق نفس المشكلة بأعين المدنيين الفضوليين وعناصر الجيش والشرطة السودانية، حتى يتمكّن من الاقتراب من هدفه بثقة أكبر.

ولتجنّب نقطة التفتيش، انعطف يساراً في أحد الأزقة. وفي ثوانٍ ضلّ طريقه. كان هناك عدد قليل للغاية من الطرق الرئيسيّة في هذه البلدة، وكان من السهل أن تشعر بأنك عالق في متاهة من الممرات العشوائية بين الأكواخ الممتدة لأميال. فقد وقعت البلدة على مُنحدرٍ لطيفٍ نحو الميناء، هدف جنترى. لذا استمرّ كورت في التحرك إلى أسفل المُنحدر وبعيداً عن الناس، وسرعان ما قاده ذلك إلى الميدان.

وفي وضح النهار بدت الساحة أصغر حجماً وأكثر قذاراً وازدحاماً. وامتلاّت بالرجال والبهائم والمركبات. اختلطت الإبل والماعز والحُمير مع السيّارات العسكرية، وسيارات السيدان الحكومية والأمنية،

والسيّارات التويوتا المزوّدة برشاشات مُثبّتة في الخلف والمليئة بالرجال. بينما قبعّت مروحتان للنقل في الميدان بلا حراك، وقد خرجت قوّاتهما لمطاردة خاطفي الرئيس. دوت صافرات سيّارات الإسعاف من جميع أطراف المنطقة، وصرخ الرجال وصاحوا بعضهم في وجوه بعض. ناهيك عن أكوام من جنود قتلى ألقيت بجانبهم بنادقهم، عيادات ميدانية مكتظة بعسكريين ومدنيين جرحى، عرف بحدسه أن هذه الخيام الإسعافية سيكون بداخلها أطفال ولأنه لن يتحمّل مناظرهم المأساوية انطلق كأنه يهرب.

همس لنفسه "كان علينا تدمير القرية فقط لإنقاذها".
رنّ هاتفه الثريا، وصدح صوته من خلال سماعاته السريّة، أجابه فوراً "أوشكت على الوصول إليكم، أحتاج إلى خمس دقائق أخرى".

"جيد، لقد انتظرناك كثيراً حتى إن مالك المول بدأ يُطالبنا بدفع الإيجار، كيف حال البلدة؟"
"أنا في الساحة الرئيسيّة، الوضع هنا كارثي، وسيكون هناك الكثير من المشاكل القضائيّة التي يجب على كلّ هذه المنظمات تسويتها. ناهيك عن القتلى والجرحى في كلّ مكان، وهذا هو أمثل وقت للخروج، علينا استغلال هذه الفوضى".

"لا، لا يُمكننا الخروج الآن".

توقّف فجأة كورت في منتصف الطريق "لم لا؟"

"العميل 5 مفقود، أريد الاطمئنان عليه أولاً".

"علّم ويُنفذ. سأجد وسيلة نقل لنا".

نشر زاك رجاله الثلاثة للتحرك بعد ثوانٍ من إغلاق كورت الخط. كانوا قد قضوا نصف الساعة الماضية على السطح في الطرف الشمالي من مول برافو على بُعد أقلّ من أربعين متراً شرق المكان الذي تحطّمت فيه المروحية في السوق بين المولكين. ومع ذلك، لم يمنحهم موقعهم على السطح أي رؤية. وجدوا قماشاً مشمّعاً أخضر ممزقاً ومُتعمّناً مُثبّتاً بأخشاب وأسلاك طافية، خزّن أحدهم تحته الحطب وخزّانات المياه الفارغة، اختبئوا تحته بسرعة. جلسوا، وانتظروا، ونزفوا، وتصبّبوا عرقاً، وأبعدوا العقارب عن بعضهم البعض.

ضمّدوا جراح مُصابيهم قدر الإمكان. ضمّد زاك ساعده، وأوقف نزيفه بشكل فعال، واستهلك الماء والأملاح من مؤنّته لتعويض ما فقدّه في تعرّقه الغزير، وجمع كلّ ما تبقى من مخازن الذخيرة في مخزن واحد من ثلاثين طلقة في بندقيته، بالإضافة إلى مخزن ذخيرة معبأ جزئياً في حافظة صدره. بينما حمل براد بندقيته المحشوّة بالكامل، وكان قد أصيب في ظهره ورُكبته أثناء اصطدامه بالشاحنة. واعتقد أنه رُبما أصيب بكسر في ضلع أو اثنين في جانبه الأيمن لكنّه لم يُبلّغ العميل 1 عن إصابته. وحمل دان بندقية مكسورة بدوره، علماً بأنه العضو الوحيد غير المُصاب في الفريق.

استقرّت حالة ميلو في الوقت الحالي. كان دان قد استخدم كميات هائلة من الشريط اللاصق لتثبيت جبيرة البندقية على ساق براد، وأعاد ربط ساق الشاب الأمريكي الكرواتي المُحطّمة. لكن العميل 4 كان

بدون بندقية، ولا يحمل سوى مسدّس عيار 9 ملم، بعد أن ترك جميع دروعه وعتاده حتى يتمكن من مواصلة الحركة. احتج بشدّة على كُل ما قاموا به من أجله، وأصرَّ على أنه كان على ما يُرام، لكن تبجّحه أزعج بقية عناصر الفريق الأكبر سنًّا والأكثر خبرة. لقد فهموا حالته أفضل منه، وعاملوه باحترافية، حتى لو وبّخوه كُلما أخبرهم أنه بخير.

غادر الرجال الأربعة السطح مُشكّلين قطارًا تكتيكيًّا، نزلوا طابقيْن عبر سُلم خلفي لمبنى المول، حتى انتهى بهم المطاف في زقاقٍ يتّجه من الشرق إلى الغرب. تعثّر ميلو مرّتين على الدرج، قبل أن يأمره زاك بإبقاء مُسدّسه في يُمناه، والاستناد على كتف دان في يُسراه. وساعده ذلك في توازنه.

قادهم الزقاق باتجاه الميدان، لذا سلكوه ببطء. سُمعت أصوات الرجال على الجانب الآخر من الباب الخشبي، ودار الفريق من حوله، لكن الأصوات خفتت. اختلّطت صُفارات الإنذار من بعيدٍ مع هدير الإبل. بذل الفريق قصارى جُهدهم لتجاهل جميع الأصوات التي لم تُكُن ذات أهمية تكتيكية. وسرعان ما وصلوا إلى بداية الزقاق، ورأوا الميناء بأَمّ عينيهم.

كان دان أول من خرج من الزقاق إلى الشارع المفتوح أمام الماء.

وتحرّك الآخرون خلفه.

لكنهم توقّفوا مشدوهين وشعروا أنهم مُضطرون فورًا للتواصل بمركز قيادة جهاز السي آي إيه في السودان.

على بعد خمسين ياردة أمام الزقاق، وفوق المياه الخضراء البلورية أمام جزيرة سواكن القديمة، تماوج زورق دورية ساحلية تابع للقوات البحرية السودانية. بلغ طوله مائة قدم؛ واعتلاه ضباط وجنود خلف مدفع رشاش، ما إن رأوا الرجال البيض الخارجين من الشوارع نحو الشاطئ حتى صوبوا فوهته ناحيتهم.

توقف زاك إلى جانب دان، وصرخ قائلاً "تفرّقوا!" فاندفع رجاله يميناً ويساراً. أمسك هايتاور بالعميل 4 المصاب، ودفعه إلى اليمين، وسقط معه إلى داخل دُكَّان لنسج شباك الصيد وبيعها. انتهى زمن التحركات المنسقة جيّداً. لم يعد هناك المزيد من التغطية، والقفز من بقعة اختباء إلى أخرى. بدأ الرجال الأربعة يركضون ويزحفون ويقفزون فوق العوائق بأسرع ما يمكن.

كان دوي المدفع الرشاش صاخباً بشكل لا يُصدّق. اخترقت طلقاته المبنى فوق رأس زاك، الذي أمسك بميلو، ووجد أن المحل يحتوي على غرفة خلفية، بها باب معدني مثنى، ركله هايتاور، وفتحه بالاستناد على ظهره أرضاً، دافعاً إياه بكعبيّ حذائه. عبر الباب كان هناك متجر آخر، ثم رواق يتجه جنوباً. زحف زاك على يديه ورُكبتيه، وسحب ميلو معه.

ارتفع هدير مدفع زورق الدورية مرّة أخرى، ممزقاً الخشب والمعدن والحجر والنسيج فوق رؤوسهم. انقسم إيريّق من مادة تشحيم سوداء إلى قسمين على رفّ فوقهما، وانسكب الشحم الدافئ على معدّاتهما وملابسهما.

انطلقت دفعة ثالثة من نيران المدفع، ثم ساد الهدوء للحظة. همس زاك في سماعته "إلى فريق ويسكي، أوضحوا حالاتكم!"

"العميل 3 جاهز للذهاب، وبصُحبتَي العميل 2، الذي تعطلت سماعة رأسه، لكنّه بخير". تنفّس زاك الصعداء سريعاً، وقال "العميلان 1 و4 بخير، لكن هذا سيجلّب علينا وبال الجيش سريعاً. يجب أن نخرُج من هنا. هل تسمعنا أيها العميل 6؟"

أجابه كورت "نعم أيها العميل 1".

"جيّد، عندما تأتي إلينا، لا تذهب شرق مول برافو، فالقارب ليس جاهزاً".

"علّم، هل من أثرٍ للعميل 5؟"

"لا، لا يبدو أنه وصل إلى الماء، ستتحرك شمالاً لبضع بناياتٍ لنرى ما يُمكننا فعله، وعلى جميع العناصر توخّي الحذر الشديد".

أمضى كورت الدقائق الخمس عشرة التالية في إنهاء العمل على شيءٍ كان قد بدأه للتو، حين فتحت القوات البحرية نيرانها على زاك وفرقته على بُعد رُبع ميل إلى الشرق. صادف الرجل الرمادي فرقةً مكونةً من أربعة مُشاة شباب من قوَّات الأمن العام يجرسون طريقاً تُرابياً يقود إلى الشمال الغربي من الميدان. انتهى المسار عند الطريق الوحيد المُعبَّد الذي أدَّى إلى خارج سواكن غرباً، حيث يتَّصل بالطريق السريع بين الشمال والجنوب الذي يمتدُّ حتى بورتسودان وصولاً إلى بقية البلاد. ثم وصل لمحطة بنزين عند التقاطع، ورغم تدهور حال البلدة، إلا أن هذه البنزينة كانت مجهزةً بإمكانياتٍ حديثة نسبياً، وأرجع الرجل الرمادي هذه المفارقة إلى اهتمام الحكومة هنا بإنشاءات الطرق وخدماتها لكثرة الرحلات بالحافلات بين المدن.

وجد كورت سيارة جيب عسكرية في مؤخرتها مدفع رشاش روسي خفيف تحت غطاء بلاستيكي أسود متوقفةً في ساحةٍ غير مُمهدة، تجمَّع حولها مديون فرّوا من سواكن. اقترب كورت منها، حريصاً على إبقاء عمامته تُغطي وجهه بالكامل تقريباً، وألقى نظرةً إلى الداخل. لم تكن المفاتيح في الكونتاك، فراح يبحث بصمتٍ عن السائق وسط الجنود. بينما فكرةٌ جهنميةٌ تختمر في رأسه، لكنه اكتفى بالسكون منتظراً زاك.

عجَّ المركزان التجاريان والأكواخ والدكاكين التي أقيمت حولهما بالنشاط الآن. تحرَّك الجنود في كلِّ مكانٍ رافعين أسلحتهم فأرجعوا المدنيين وصرخوا فيهم لبيتعدوا عن الطريق، بادلهم المدنيون الصراخ. وسدَّت الدواب الأزقة، وأعدقت فرقة من الرجال النحفاء جرادل المياه على آخر ما تبقى من حطام الطائرة المشتعلة في السوق. دفع الجنود هؤلاء الرجال بعيداً بدورهم، لكن السُّكَّان المحليين أعادوا تشكيل صفوفهم، وعادوا إلى عملهم، فقد كانوا بحاجةً ماسَّةً إلى الحفاظ على دخلهم الذي لا يكفيهم، وذلك بمنع وصول الدُّخان الأسود المُنبعث من المروحية إلى محلاتهم وبضائعهم.

لكن زاك ودان وبران وميلو لم يتحرَّكوا، ولم يهربوا، ولم يفرُّوا إلى برِّ الأمان. وبدلاً من ذلك، استلقوا أرضاً على بُعد خمسين ياردة شمال المركزين التجاريين، في الطابق الثاني من مبنى من طابقيين من الطوب اللبن مُحاط بجدارٍ مُنخفض. نظروا جميعاً إلى الممر المقوَّس المؤدي إلى الشُّرفة، ومنها إلى فوق الجدار، ثم إلى الطريق، عبر مُنخفضٍ رملي يؤدي إلى الشرق نحو الميناء. وعلى الجانب الآخر من المُنخفض، على بُعد حوالي مائتي متر، قبعَت محطة الحافلات. وجارحها، جلس رجل أسود مفتول العضلات، مُستنداً إلى الحائط، مُحاطاً بأكثر من عشرين جندياً، وكان من الواضح أنه جريح، لكنّه لا يزال على قيد الحياة.

إنه العميل 5.

من خلال بندقية هايتاور ذات الأربع قوى، وهو السلاح الوحيد المزوَّد بمنظارٍ في الفريق، استطاع رؤية أن سبنسر رقد هناك دون قميص، ونزف من وجهه وعنقه وكتفيه، ولطَّخت الدماء سرواله البني. تغطَّى جذعه ببريق العرق مع لمعان دمه الداكن، كما كُبَّلت يده خلف ظهره، وكان في وعيه، بينما رقع رجل مدني أمامه، وأخذ يتحدث إليه مستجوباً إيَّاه وهو يُدير وجهه له ويصفعه بقوة. أدرك زاك أن سبنسر لن يردَّ على

أي سؤالٍ يُوجّه له لأن تركيبة شخصيته عنيدة، وبالتالي هذه الصفعات سرعان ما ستتحوّل لتعذيبٍ وتحقيقٍ على يد الجيش السوداني.

لم يكنْ هناك ما يُمكن فعله لإنقاذه.

"من 1 إلى 6، هل تسمعني؟"

"نعم، أسمعك بوضوح."

"أأنت جاهز لمحاولة الخروج؟"

"نعم، أحتاج فقط لمعرفة موقعك. حالما تجد العميل 5، لأن كل ثانية ننتظرها نُخاطر فيها بحياتنا."

مدّه زاك بإحداثياتهم بالضبط، ثم قال "لقد أسروا 5 ونحن نراقبهم الآن. إنه على قيد الحياة، ولكن لا يُمكننا الوصول إليه."

ساد الصمت عبر الساعات لعدة ثوانٍ. وأخيراً ردّ كورت "حسنًا، أفهم من ذلك أنك تراه بوضوح؟" أوّماً زاك برأسه في الغرفة المُظلمة. هبّ نسيم حار ليُحرّك ستارة بيضاء رديئة، حجبت الرؤية عنه للحظات. عرف زاك ما يطلبه كورت، الذي كان مُحترّفًا وبشدة، وبالطبع فهم ما يجب القيام به.

قلب هايتاور زرّ الأمان في مُسدّسه، وقال "نعم، أراه بوضوح، إنه في محطة الحافلات على شمالنا". صمت كورت للحظة، ثم قال "حسنًا سأتولى إنقاذه. سأتوجّه إلى أسفل التل، لكن اثبت مكانك من فضلك".

لم يقل الرجال الثلاثة الآخرون في الغرفة مع زاك أي شيء، لكن هايتاور عرف أنهم جميعًا فهموا ما سيحدث، لكن جنّري وحده هو من عرض القيام بذلك.

يا له من رجلٍ رائع.

"عذرًا يا صديقي، لكن هذا عملي، وهذا ما يدفعون لي من أجله."

"هل أنت متأكد؟"

"بالطبع، أخبرني فقط أنك مُستعدُّ لنقلنا."

"لقد جهزتُ تمويهاً هنا، سأحتاج إلى حوالي ثلاثين ثانية لأكون في الطريق."

"عُلم، استعدوا، ستتحرّك مع إشارتي."

كان دان أقربهم إلى زاك، حيث وقف على بُعد قدمين فقط من كتفه الأيسر. مدّ يده وربّت على ذراع رئيسه، وضغط عليه بتعاطف.

تجاهل هايتاور لفتته.

عرف جميع أفراد الفريق ما كان على وشك الحدوث، لأنهم لعبوا وفقاً لمجموعةٍ من القواعد التي تتضمّن هذا الاحتمال.

قال زاك بهدوء "اللعنة"! رأى ضابطاً انضمَّ للمشهد ليضرب سبنسر ضرباً مُبرحاً، فكَّر في الضغط على الزناد لكن قتل ضابطٍ من قوات الأمن السوداني لا يستحقُّ كشف مكانهم.

في هذه المرحلة، شيء واحد فقط هو ما يستحق كشف مواقعهم؛ ألا وهو منع سبنسر من إفشاء أسرار العملية برمتها لأي شخصٍ محلي. لم يكن ليفعل ذلك عن طيب خاطر، لكنه سيفعلها، ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لإيقافه.

حدَّق هايتاور في منظاره. حيث حدثت مُشاجرة من نوع ما على الجانب الآخر من الشرطي السري. ركض الجنود إلى الأمام، وسقط أحدُهم على التراب، وثالثٌ على رُكبتيه. دُفِعَ ضابط الأمن القومي الذي حجب رؤية العميل 1 جانباً، ثم ظهر العميل 5 عاري الصدر، والدماء تسيل منه، ويدها مُكبَّلتان خلفه. قال زاك "يجب أن تُنفذ خلال خمس ثوانٍ يا 6".

جاء الرد المُقتضب "علم".

ركض سبنسر مُتحرراً من بين مجموعة من الرجال. كاشفاً عن توازنٍ ولياقة بدنية مذهلة للقيام بذلك. ونطح جُندياً آخر برأسه، مُقترباً عشر يارداتٍ أخرى من موقع هايتاور. قال ميلو وهو يُراقب ما يحدث من منظار بندقيته "إنه يُحاول الهرب". قال زاك بهدوء "لا" ثم أغمض عينيه، وأضاف "إنه يُهَيِّئ لبنادقنا مجالاً".

إلى الغرب، سمعوا صوت طلقاتٍ مُسدَّسٍ ودوي انفجار، إنه تمويه كورت، ورأى زاك عبر منظاره سبنسر وهو يسقط على رُكبتيه، ورأى فمه المُلطَّخ بالدماء يتحرَّك، وبعد لحظةٍ وصل الصوت البعيد إلى موقع هايتاور.

"لنفعلها!"

"لنفعلها!"

ضغط العميل 1 على زناد سلاحه، مُرسلاً طلقةً عبر الممرِّ المقوَّس وعبر المُنخفض، ثم إلى جبهة الرُّجل. رأوا رأس سبنسر وهو يرتج ويتطاير الدم من ثقبٍ في مؤخرتها، علق جسمه في الهواء لثوانٍ ثم سقط مستقرّاً بوزنه الثقيل في التراب بعينين مفتوحتين وملامح جامدة. وفي غضون ثوانٍ. بدأ إطلاق نار قريبٍ يخترق جدران العُرفة، ارتفعت الستارة البيضاء قبل أن تتمزَّق، وتطاير الغبار فحوَّل الهواء حولهم إلى اللون البُني.

"أنا في الطريق إليكم، الوقت المُقدَّر للوصول من أربع إلى خمس ثوانٍ!"

سمعه زاك، وقال "العميل 6 في الطريق إلينا، عُلِّم ويُنفَّذ!"

خرج الرجل الرمادي من البنزينة بالسيارة الجيب المكشوفة، بينما نيران انفجار وحدات ملء الوقود خلفه تُخلق للسما على ارتفاع سبعين قدمًا من أنبوب وقودٍ مُحترق يدور ويرتد على الخرسانة، ويتأرجح بعُنف في جميع الاتجاهات من مضخة الوقود.

كان قد أُردي جُنديين برصاصه واثنين آخرين طعناً، مما سبب حالة فزع وسط المدنيين في الساحة، وجعلهم يهرعون في كل اتجاهٍ للنجاة بحياتهم، وركضوا بعيداً عن قاذف اللهب الذي أشعل كل شيءٍ في الأفق. اصطدمت الحافلات الصغيرة بعضها ببعض في محاولاتٍ للابتعاد عن المحطّة. وجد السُكّان المحليون في الشارع، الذين كانوا في مأمنٍ من ألسنة اللهب، أنفسهم مُجبرين على الابتعاد عن طريق تلك السيارة العسكرية التي اندفعت بجنونٍ لتستدير مُتجهّةً إلى أسفل التل الآن، يقودها الخواجة الأبيض المجنون المُلثم الذي بدأ هذه الكارثة.

انطلق كورت شرقاً بأسرع ما يُمكن للجيب العسكرية المكشوفة أن تسير. كان الغطاء قد انفصل عن المدفع الرشاش المُثبّت على قاعدتها الخلفيّة، وتمكّن من رؤية السلاح وهو يرتد مع تموجات الطريق الترابيّة غير المُمهّدة.

عبرت أمامه مجموعة من الإبل العرجاء، فأدار عجلة القيادة إلى اليمين، واصطدم بكُشكٍ خشبي لبيع الفاكهة، مُرسلاً عشراتٍ من عناقيد الموز المُتدلّية من الحبال في الهواء. استمرّ في الارتطام إلى الجانب الآخر من الكُشك، ووجد نفسه على بُعد مربعٍ سكني جنوب الطريق الذي سيقوده إلى موقع الفريق. وعندها فقط، توقفت سيارتا جيب عسكريتان عند التقاطع أمامه.

اللعة!

تجاوزهما كورت بأزيزٍ صاخب، فاستداروا خلفه، وبدءوا في مُطاردته.

"إنهم خلفي مباشرةً يا زاك!"

"عُلِّم!"

"أيمكنكم الاتجاه إلى البناية المُجاورة ناحية الجنوب؟ أم عليّ القدوم إليكم يا رفاق؟"

"سئلتي بك في الزقاق، عند المنعطف الأيسر خلف الفندق. عندما نلتقي بك، سيقود براد السيارة، لا يُمكنك القيادة مثله!"

أمّن كورت مُعترفاً بما قاله هايتاور "عُلِّم!"

عرف الرجل الرمادي كيف تمتلئ الطرقات بالحيوانات والمركبات أكثر من البشر، بالإضافة للعوائق التي تعترض طريقه وهو يهرب من السيارة العسكرية التي تطارده. اتكأ ضاغظاً على بوق السيارة أثناء قيادته. اعترضته عربة كارو بحمارٍ تحمل برميل ماء سعة خمسة وخمسين جالوناً، فأدار عجلة القيادة يميناً مرةً أخرى، ثم انعطف يساراً مجدداً. وهنا اضطرَّ للضغط على المكابح لتجنّب حشدٍ صغير من الأطفال والأغنام في الشارع، وهو يعلم أن السيارتين اللتين تُطارِدانه خلفه مباشرة. توقف بالجيب، وقفز في صندوقها الخلفي، ألمته إصابة كتفه حتى مع تأثيرات مُسكّنات الألم التي تتدفق في عروقه بسبب كمية الأدرينالين الهائلة التي يضخها جسمه. انعطفت سيارتا الجيب خلفه، وتوقفتا بدورهما، وتكوّنت سحابة غبار ضخمة عالقة بفعل ذلك. ثم أدار فوهة مدفعها الرشاش تجاه مُطارديه. كان قريباً بما يكفي ليرى عيني سائق السيارة الجيب الأقرب تتسعان في فزع، ضغط الجندي الأسود ناقل حركة سيارته بشكلٍ محمومٍ إلى الخلف. صوّب كورت مدفعه، وضغط الزناد.

اللعنة!

وجد المدفع مُعطّلاً!

أخرج بسرعة بديته مُسدسه الجلوك من حزامه وفرغَ فيها خزنتين وهما تتراجعان إلى الخلف عند الزاوية، اصطدمتا ببعضهما ببعض أكثر من مرة في محاولة يائسة للفرار من نيران مُسدّسه. صحيح أنه لم يكن بقوة نسف المدفع لكنه الأكثر فاعليةً الآن في هذا الموقف السخيف.

وحين اختفتا تماماً، قفز عائداً إلى المقعد الأمامي، وانطلق مرةً أخرى بالسيارة الجيب نحو نقطة الالتقاء. لكن السيارة سُرعان ما توقفت.

انفجر الزجاج الأمامي المُجاور لرأسه عندما أصابته طلقةً بندقية.

قال: "اللعنة!" وأعاد تشغيل مُحركه مُنطلقاً إلى الأمام.

بعد ثلاثين ثانية، وصل الرجل الرمادي لنقطة التجمّع، ووجد الأعضاء الأربعة الناجين من الفريق مُنخرطين في معركة نارية شرسة، وأسلحتهم تتكسر وتتصدع أثناء تبادلهم إطلاق النيران نحو صفٍّ من المباني في نهاية الزقاق إلى الشرق. انفجرت القنابل اليدوية للعدو قبل وصولها إلى أهدافها بقليل، وانطلقت نيران مُضادة. وضع كورت سيارته في وضع التوقف، وارتدَّ إلى الخلف، ومُجدداً ألمته كتفه لفعل ذلك.

انطلق على الفور مُعبئاً ذخيرة المدفع الرشاش، بينما صعد العميل 2 إلى مقعد السائق، حمل براد مُسدّسه فقط الآن، وأطلق النار من فوق الزجاج الأمامي.

وبعد ثوانٍ، قفز هياتاور إلى مقعد الراكب، واتخذ وضعية إطلاق النار، بينما انحنى العميل 2 خلف المقود ليُعيد تعبئة سلاحه، ويضع السيارة في وضع الاستعداد. خرج العميل 3 بعد ذلك من خلف صفٍّ من البراميل بجانب مولد كبير؛ يحمل على ظهره العميل 4، وفي يمينه مُسدسٌ سوداني الصُّنع، افترض كورت أنه قد انتزعه من أحد الأعداء الذين سقطوا. ألقى دان زميله الجريح في صندوق السيارة بجانب كورت، ثم قفز فوقه.

ضغط براد على دواسة البنزين، وأدار الجيب إلى اليسار، مما جعل كورت يترنح للخلف، ولم يبق شيء منه في وضع مُستقيم سوى قبضة يده على المدفع الرشاش. أعاد كورت الضغط على زناد سلاحه، مُطلقاً رصاصة أثناء مُضييهم. اشتعل الوقود بداخل أحد البراميل على الفور، وأحدث انفجاراً هائلاً عبر الزقاق، وحجب الدُخان الأسود انسحاب الأمريكان.

وفي أقل من دقيقة، انطلقوا على الطريق المرصوف المؤدّي إلى خارج المدينة. مرّوا مرّتين بقوَّات مُشاة أثناء عبورهم متاهة الأزقة بين الأكواخ، لكن سرعة وارتباك المواجهات السريعة أبقت اللقائين دون دماء. بقي العميل 3 عند قدمي جنترى، ومُسدّسه وعيناه مُصوّبتان فوق السيّارة. لم يكن مُسدّسه قادراً على فعل ما يُمكن أن يُحدثه الرشاش، ولكن إن رأى أيّ مصدر تهديدات، يُمكنه توجيه الرُجل الرمادي للاشتباك معهم بسلاحه الثقيل.

كان العميل 4 أيضاً في الخلف، لكنه فقد وعيه الآن بسبب النزيف.

انحنى كورت بالقرب من رأس زاك، وصرخ بصوت عالٍ قائلاً "مهلاً! انعطف يساراً من هنا، وسيُمكنني توفير سيّارة جديدة من أجلنا!"

فكر زاك في الأمر لأقل من ثانية، قبل أن يقول "النفعلها!"

ثم أمر براد باتباع تعليمات كورت. انعطفوا إلى الجنوب عند قمة تل، وتوجّهوا مباشرةً إلى نقطة تفتيش عسكرية. كان هناك ما يقرب من اثني عشر جندياً من مُشاة قوَّات الأمن العام في مُنتصف طريق تصطف على جانبيه جدران طينية لمنازل خاصّة. صوّب كورت مدفعه، وأطلق النيران على شاحنة صغيرة متوقفة ففجّرهما، مُلقياً بالرجال على بُعد عشرين ياردة. أطلقت قوَّات أخرى النيران على الأمريكان وهم ينطلقون بسرعة خمسين ميلاً في الساعة. انطلق براد بسرعة وسط الدُخان، وخرج إلى يسار سيارة الجيب، نهض جندي مشاة جريح مُستلقٍ على ظهره بسرعة، ورفع سلاحه، مُطلقاً نيرانه من مسافة خمسة عشر قدماً على العربة المكشوفة. تبادل كورت إطلاق النار في الاتجاه المُعاكس، وبالتالي رأى التهديد مُتأخراً، لكنه أدار فوهة المدفع نحوه، مُلقياً الجُنديّ إلى الخلف على حائط بُني اللون وسط بُقع من الدماء، ثم نظر إلى أسفل جسده، باحثاً عن أي إصابات.

لكنه لم يجد أي إصابة، إنها مُعجزة!

صرخ براد "تشبّثوا!" وجثا كورت على رُكبتيه، واضعاً يديه على المدفع الرشاش، والسيّارة تطير في الهواء، قبل أن تدور حول نفسها، وتنخفض مُبتعدةً عن المنطقة.

قعد لثوانٍ قليلة، تحسّس براد صدره، مُحْتضناً نفسه بذراعه اليمنى وهو يقود السيّارة يُسراه، قائلاً "اللعنة!"

سأله زاك "ما الأمر؟"

"أعتقد أنني كسرتُ ضلعاً عندما اصطدمنا هناك."

سأله هايتاور "هل أنت بخير؟"

"نعم، أنا بخير، فقط...".

نظر العميل 1 إلى زميله، الذي استمرَّ في الإمساك بالمقود بيده اليسرى، لكنَّ يُمناه أمام وجهه مباشرةً. تغطَّت أصابعه بدم كثيف، همس "ابن ال...".

تهاوت يده ببطاء، وتمايل رأسه إلى الباب، قبل أن يسقط إلى الأمام باتجاه عجلة القيادة.

صرخ زاك "أمسك عجلة القيادة يا 3!"

ثم سحب براد نحوه، ليجد الجزء الأيسر بأكمله من جذعه غارقاً في الدماء، فقد اخترقت رصاصة من العدو جانبه بين ذراعه وظهره.

زحف دان على المقعد الخلفي وجلس خلف عجلة القيادة، والسيارة الجيب تنحرف إلى اليسار. ضغط على دواسة البنزين وانعطف في الوقت المناسب لتجنب الاصطدام بتل حصي مرتفع على جانب الطريق.

جثا جن تري على زكبيته فوق دان بعد ثوانٍ، وصرخ قائلاً "مهلاً يا رجل، أعتقد أنك مُصاب. هُناك دماء جديدة في كلِّ مكانٍ هنا في الخلف، ولا يُمكنني العثور على أي جرح!"

وبينما يقود السيارة تحسَّس دان جسده، وبعد عدَّة ثوانٍ انحنى جن تري مُجدداً وقال "الكتف اليسرى!" نظر دان فوجد أنه أصيب بطلقٍ نارياً في أعلى مُقدمة كتفه اليسرى، على بُعد أقلَّ من بوصتَيْن من الوريد الوداجي في عنقه. نزع مثل الخنزير، لكنَّه استمرَّ في القيادة.

سرعان ما وصلوا للفناء الذي قابل فيه الرجل الرمادي محمد في وقتٍ سابقٍ من اليوم. كانت السيارة السيدان لا تزال في مكانها، أخرج كورت مفاتيحها من وسط التراب. وخلال ذلك، أخذ دان الجريح البندقية الوحيدة المتبقية مع الفريق، وبدأ يجرُّس البوابة الأمامية، بينما قام زاك بالإنعاش الرئوي لبراد على الأرض بجوار السيارة الجيب.

"بحقك يا برادلي! لا تفعل ذلك!"

صرخ في وجه الرجل الذي بدا جلياً أنه ميّت، حتى من بعيد، كما كان بوسع كورت أن يُدرك. لكن زاك أبى أن يرى ذلك بنفسه.

لم يستسلم زاك لمدَّة خمس دقائق تقريباً. بحلول ذلك الوقت، وضع جن تري العميل 4 المصاب في الجزء الخلفي من السكودا، بينما ضمَّد دان جراحه بضمَّادات غير مُتقنة وجلس بجواره. وساعد هايتاور في وضع جثة العميل 2 في الصندوق. ثم انتقل كورت إلى مقعد الراكب وتولَّى القيادة، وانطلق الرجال الأربعة يجوبون المدينة خلف زجاج السيارة الأسود الحاجب لهويَّتهم في أرض الحرب.

بعد عشرين دقيقة، قطعت السيارة السكودا الطريق السريع تحت سربٍ من أربع مروحيات تابعة للقوات الجوية السودانية، تمسّط المسافة الواقعة بين بورتسودان وحتى سواكن، ظلت المروحيات تروح يميناً ويساراً حتى اختفت في المرآة الأمامية للسيارة.

لم ينبس هايتاور ببنتِ شفة، وبدا مُنهكاً تماماً ومُكتئباً وفاقدًا للوعي تقريباً. كان العميل 4 فاقداً للوعي في المقعد الخلفي، بينما بدا العميل 3 وكأن نزيفه المُستور من جرح كتفه، بالإضافة إلى ما أصابه من كدماتٍ وسحجاتٍ أخرى، قد أزهقوه تماماً.

بعد فترة، دفع زاك نفسه من مقعده بصعوبة. واضطرَّ للانحناء إلى الأمام على عجلة القيادة، وسحب العميل 1 قميصه عن كتفه ليفحص جرحه.
"رائحة الجرح نبتة للغاية".

قال كورت وهو يتفحص السماء بحثاً عن مروحيةٍ أخرى "نعم".
لم يكن هذا الفريق الصغير من الرجال الجرحى غير المُسلّحين في حالةٍ تسمح له بخوض أي قتال، وتضوّر جنترى يأساً لإبعادهم عن أي تهديدٍ يزيد عن نزلة برد خفيفة.
"أعلم أن هذا المكان قذر، لكن كيف يُمكن لجرحٍ أن يُصاب بهذا النوع من التعفن في أربع ساعات فقط؟"

"لا أدري، هل معكم أي مضاد حيوي؟"
"للأسف لا، كان معنا بعض الإسعافات الأولية البسيطة واستنفدناها كلها، أليس كذلك يا داني؟"
"نعم يا سيدي".

خلع رقم 3 جزءاً من رباطه الضامد وأعطاه لزاك.
وكذلك التقط هايتاور بعض الأشرطة اللاصقة من حقيبته الطبية ووضَع الشاش الذي أعطاه له العميل 3، وضمّد بها جرح كورت الذي كان عبارةً عن ثقبٍ غائرٍ في ظهره. كان عملاً روتينياً، ولكنه أفضل من لا شيء. طمأنه قائلاً "ستنجو، حين نصل لليخت ستكون بخير، وسنُراعيك بشكلٍ أفضل".
قال كورت "رائع" لم يكن الرجل الرمادي قلقاً من إصابته بالرغم من تألمه.

فجأة رنّ هاتف هايتاور المتّصل بالأقمار الصناعية المُثبّت في صدره، والذي رغم اتساخه بالتراب والسخام والدم كان لا يزال يعمل، كان العميل 1 قد خلع سَماعته أثناء محاولته إنعاش زميله، لذا ضغط على زرّ مُكبّر الصوت.

"العميل 1 يتحدّث".

ارتفع صوت "داني كارميكال" دون أي كلماتٍ ترحيبية من قبيل "مرحبًا" أو "كيف حالك"، بل قال: "لقد اتصلوا بي للتو من البيت الأبيض، يتساءل سفيرنا في السودان إن كانت السي آي إيه متورطة فيما يحدث، وإن كانت مأساة (بلاك هوك داون) تُعاد مرة أخرى بحذافيرها، أنت طبعًا تفهم ما يقصده، لكننا حتى الآن للأسف ليس لدينا ردُّ واحد منطقي نردُّ به على هؤلاء الأوغاد".

أغمض زاك عينيه، وعلت وجهه المسودَّ بالتراب وهبو الحرائق والمحمرَّ بفعل الدم ابتسامة يائسة، قبل أن يقول "حسنًا يا سيدي، لو كُنْتُ مكانك لَقُلْتُ لهم إن تحريات وزارة الخارجية الأمريكية سيئة بنفس سوء محطات تقوية الاتصالات في السودان، على أي حالٍ نحن على بُعد أربعين ميلًا جنوب بورتسودان".

"ليس هذا هو المغزى، أليس كذلك؟ هل تورَّطنا بأي شكلٍ من الأشكال في عملية تُشبه (بلاك هوك داون)؟"

"بالطبع لا، لم تزودونا بأي مروحياتٍ طوال هذه العملية".

"الموقف لا يحتمل حِسَّك الساخر الآن يا هايتاور، أريد أن أطمئنَّ على الهدف الأساسي، الرهينة".

"إنه حيّ".

"هل نقلتموه إلى هانا؟"

"ليس بعد، لكن هذه هي الخطوة التالية في عمليتنا".

"هل هو مع العميل 6؟"

"لا، العميل 6 معنا، وبالمناسبة لقد فقدتُ اثنتين من فريقي بسبب نيران العدو، شكرًا لسؤالك عن حالتها".

التفت كورت لينظرُ إلى هايتاور، إنه أمر صادم، حتى بعد كُل ما حدث في الساعات القليلة الماضية، أن يُهاجمَ زاك رئيسه بهذه الطريقة.

"حقًا، لكن لماذا الرهينة ليس معكم؟"

هنا تدخل كورت بنبرةٍ جافة أثناء القيادة "الرهينة بأمان، ولن يذهب إلى أي مكان".

"لكن لماذا لستَ معه في نفس المكان اللعين؟"

"لقد تعرَّض الفريق لهجومٍ صعب، واضطرتُّ لتخبئة الهدف في مكانٍ ما وإلا فقدتُه وفقدتُ زاك ورجاله".

"وماذا لو قُتلتَ؟!"

"لقد أرسلت موقع أوريكس بالفعل إلى هانا قبل أن أتركه".

تنهَّد داني وبدا في صوته الإحباط والغضب "لكن إخراج أوريكس من السودان ليس مُهمة الرجال على متن هانا. إنهم ليسوا بمثل كفاءتكم، لقد خيبتَ آمالي فيك يا 6، كان من الذكاء أن تُخرج الهدف أولاً قبل العودة لهم".

كاد كورت يُجيبه، لكن زاك خطف جهاز اللاسلكي بحركة عنيفةٍ وتدخل بعصبية "إننا جميعاً مُصابون بلا استثناء! ولدنا قتيلاً! وأمضينا ما يقرب من أربع ساعات في قتالٍ كتيبةٍ كاملة من مُشاة وطيّران الجيش السوداني دون أي دعم منكم".

"معلوماتي تقول إن الدعم وصل متأخراً قليلاً".

"أي دعم! هل دفعتم 400 ألف دولار لإرسال عربة كارو بحمار، لتُطلق بضع رصاصاتٍ في زقاقٍ قريب قبل أن تهرب؟ لأنه باستثناء ذلك، لم نحصل على أي مُساعدة لعينة".

سادت لحظة من الصمت، وتوقع كورت أن يُبدي رئيسهم بعض الندم، لكنه قال "مع ذلك، لم يتوجّب عليكم أن تُعرّضوا المهمة للخطر، ولا حتى الذهاب في مهمة لتخليصكم من فوضى خلقتموها" تنهّد بقوة، قبل أن يُضيف "والآن، تابعوا القيام بمهمّتكم، وسأبذل قصارى جُهدِي للتفاوض بشأن التدايعات السياسيّة هنا. هذا كل شيء".

انتهت المُكالمة.

أغلق زاك الاتصال فسقط الجهاز من يده.

من شدّة إنهاكه لم ينحن حتى ليلتقطه.

نظر له كورت وبتهمّم لاذع قال "إن رئيسك أغبى مخلوقات الله".

"أتظن أني سأعارضك في رأيك!"

بعد ساعة، وصلوا بالسيارة السكودا عند الكوخ الذي ترك فيه كورت الرئيس عبود بعدما حقنه بحقنة مُحدر نوّمته تماماً، ترجّل من سيّارته ومُسدّسه مرفوع أمامه، كان الكوخ المُظلم كما تركه تماماً، باستثناء أنه أكثر سخونةً وخشونة. وحين دخل وجد الأسير في مكانه مربوطاً مُنكفئاً برأسه، وكان إناء الماء كما هو لم يُمسّ، ففهم الرجل الرمادي أن رهيبته لم يستيقظ منذ تركه هنا.

وقبل ذلك بثلاثين دقيقة، أنزل كورت أعضاء الفريق الناجين وأحد قتلاهم في نُقطة الالتقاء بجانب المحيط، على بُعد أربعة عشر ميلاً شمال سواكن. أخفى الرجال أنفسهم وزميلهم القليل في مُستنقع كثيفٍ من الأشجار. مدّ زاك يده بجهاز اتصال لكورت ليلتقط إرسالاً من على متن السفينة هانا، حتى يتمكّن من معرفة مكان القارب في جميع الأوقات، حتى لو تعطلّت أجهزة الاتصال لسببٍ ما.

كانت الخطة الأصلية أن ينقلهم زودياك هناك، لكن لم تكن هناك أي طريقة لمُحاولة القيام بذلك في وضح النهار. أما الخطة البديلة، أن تصلهم غوّاصة صغيرة من قطعةٍ قريبة تابعة للبحرية الأمريكية لتلتقطهم واحداً تلو الآخر. بالطبع ستستغرق هذه العملية وقتاً أطول بكثير، لكنهم وجدوها أكثر أماناً من وجودهم في العراء على متن زورقٍ مطاطي ضعيف مُعرّض لأي هجومٍ في أي وقتٍ بحرّاً أو جواً خصوصاً أنهم مُصابون.

تلقي كورت تعليمات بالعودة إلى مخبئه وتجهيز أوريكس للتحرك في أي لحظة. سيتأخر الوقت قبل أن يتمكن أحدهم من العودة في آخر رحلتين لالتقاط الرئيس السوداني والرجل الرمادي، لكن إن أصبح موقع الالتقاط معرضاً للخطر بطريقة ما، فسيؤجّب على جنترى الاستعداد لاستكشاف موقع جديد بمفرده تمامًا.

فكّ كورت رهينته، ووضعه على ظهره، ثم فتح كيس زيبب كان في حقيبته أمام الرهينة ووضع بجانبه قارورة مياه.

أمره قائلاً "كُل" لكن أوريكس لم يتحرك.

"أنت لستَ فاقداً للوعي أيها الأحمق، لقد زال مفعول المنوم الذي أعطيتك إياه".

استمرّ الرئيس السوداني في الاستلقاء ساكناً.

"لستُ في مزاج يسمح لي باللعب الآن".

لم يتحرك الرجل.

جثا كورت على رُكبتيه فوقه، ورفع ذراعه اليسرى السميكة في الهواء من معصمه، وكأنه ينوي قياس النبض، لكنه وضعها فوق وجه الرجل وتركها تسقط. لو كان فاقداً للوعي، لضربته اليد في أنفه، لكنها بدلاً من ذلك انخفضت ببطء، قبل أن تنقلب بشكلٍ دراماتيكي إلى الجانب.

صاح كورت بغضب "انهض".

لم يصدر أي ردّ فعلٍ عن الرجل.

أخرج كورت من جيبه أداة معدنية حادة متعددة الأسلحة، ووضع أحد أصابع الرئيس بين شفراتها المعدنية الباردة.

وعندئذٍ فتحَ السوداني العجوز عينيه، وابتسم ابتساماً خجولة، فأطّلت من ثنايا وجهه أسنان ناصعة البياض تتعارض بشكلٍ صارخ مع وجهه الأسود الداكن "خدعة ذكيّة، أن تضع ذراع المريض فوق وجهه هكذا، ثم تتركه".

"يسرني أنها أعجبتك، انهض الآن وإلا قطعُ إصبعك، لأنك لو لم تنهض ستذهب للمحكمة الجنائية الدولية بتسعة أصابع".

جلس أوريكس، رشف من الماء حتى شرب نصفه، قبل أن يُعيد الزجاج إلى الأسفل، قال "أشعر بالغثيان".

"طبيعي، هذا مفعول الأدوية، وستزول قريباً. يُحتمل أن يكون لديك ارتجاج خفيف من الانفجار الكبير هذا الصباح".

أوما أوريكس برأسه، ثم سأله "وأنت كيف حال جرحك؟"

"أعتقد أن أحدهم أطلق عليّ سهمًا مسمومًا".

"هل أنقذت رجالك من رجالي؟"

نظر كورت في عينيه قائلاً "بعضهم".

أوما أوريكس برأسه ببطء "أشعر بأسى لأجل كل الضحايا على جانبي المعركة اليوم".

"شكراً لإنسانيتك أيها الأحمق".

ملأت تعابير الإهانة الحقيقية وجه عبود. وبقي كذلك عندما سأل "والآن ما العمل في الساعات المقبلة؟"

"سننتظر".

"حتى متى؟"

"لا أعرف".

"لا تعرف؟"

"لم يُخبرني أي أحد بأي جديد، والآن كُل طعامك وتوقف عن طرح أي أسئلة".

قالها كورت وهو يُخرج بقية أدوات المهّات من شنطته، أما الرئيس عبود فهزّ رأسه وراح يعبث بكيس الزبيب بحركاتٍ أكثر هدوءاً مما توقّعه الرجل الرمادي بالنسبة لرجل مأسور، لكنه فجأة خرق صمته وهو يحدّق في مُحْتِجِزِه بنظراتٍ فاحِصة "الذي سؤال لك يا 6، أنت عنيف تجاهي رغم أني لم أُسبّب لك أي متاعب حتى الآن".

بدأ كورت بخلع قميصه، وهو الأمر الذي جعله الألم الحارق أكثر صعوبة، أجابه "أعتقد أني حتى الآن اعتنيتُ بك بما فيه الكفاية منذ لحظة أسرك، علماً بأنني أتيتُ لتفجير رأسك".

"أنا أقصد طريقة كلامك وضربك لي في سواكن، أنت لا تمثّل الصورة النمطية عن المحارب الأمريكي الشريف التي تحاول دولتك بيعها للعالم كله".

"أنا لستُ بطلاً أمريكياً شريفاً".

"إذن من تكون؟"

"أنا الرجل الذي يُرسلونه حيث يوجد أوغاد لا يستحقّون أن يُعاملوا باحترام".

مضغ أوريكس الزبيب ببطء، ثمّ نظر عبر الظلام إلى أسره قائلاً "بالضبط هذا ما أقصده، نبرتك توحى أن لديك مشكلة شخصية معي وليس مع بلدي أو سياستي أو طريقة قيادتي لمؤسساتها، أنا أعرف أنك قد أرسلت في مهمة رسمية ومن وجهة نظري عليك أن تُبقي، بناء على هذا، علاقتنا في حيّز رسمي دون أي مجالٍ للعواطف أو الضغائن الشخصية".

بدلاً من الردّ عليه، أخرج كورت عبوة مطهرٍ من شنطته وسكبها على جرحه.

تابع أوريكس حديثه "حين ضربتني في السيارة، شعرتُ بعنفك الخارج عن سيطرتك تجاهي، كأن هناك معركة قديمة بيني وبينك، غضبك أكبر من كونك آتٍ لتقتادني لمحاكمتي على جرائم الحرب في دارفور".

تألّم جنّتري عندما لمس المطهر الجرح المتورّم في ظهره، لكنّه نظر للرئيس عبود، وقال "أتظنّ أنّي شخص غير قادر على التحكّم في نفسه"؟

"بالطبع، رأيتُ ذلك في عينيك. لقد كُنْتَ خائِفاً وغازباً، وتحكّمتُ بك عواطفك. لقد انفعلتَ ...".

"انظر في عينيّ الآن، ماذا ترى"؟

"نعم، في هذه اللحظة أنت كذلك، لكن ...".

عندئذٍ لكَمّه الرجل الرمادي في وجهه لكمّةً أرجعته للوراء. ارتدّ رأس الرُجل البدين إلى الورااء ثم إلى الأمام، واحمّرت شفتاه على الفور.

غطّى أوريكس وجهه وصرخ "ماذا دهاك"؟

أعاد جنّتري علبة المُطهّر الفارغة إلى الحقيبة "لا تقلق".

"أنت حقاً شخص مخبول".

"جيد، لا تنسَ ذلك".

لمدة حوالي 90 دقيقة، حاول كورت أن يُسكِت الرئيس عبود وهو يتلوّى من ألم ظهره القاسي الذي بدا مثل أنياب مغرزة فيه، وقد زادت الحرارة والرطوبة غير العادية من بؤس فترة ما بعد الظهر. فكّر مرتين في اللجوء لأقراص "الهيدروكودون" المخدّرة، لكنه حجّم نفسه في آخر لحظة. كان جسده بحاجة ماسة إلى لحظة راحة من العذاب، لكنه عرّف أن عليه الصمود حتى تأتية الأوامر الجديدة.

لم يتّصل زاك إلا في الرابعة عصرًا، أخبره أنهم عادوا لليخت هو وميلو؛ وأن دان سيصل في غواصة صغيرة خلال ساعة. قيل لكورت إنه من المحتمل أن يستخدموا نفس نقطة التسلّل في المُستنقِع، حيث لم تُحترق بعد. وأن وقت الالتقاط سيكون في مُنتصف الليل، ما يعني أنه يجب على جنترى الانتظار لمدة سبع ساعات أو نحو ذلك قبل أن يصل بأوريكس إلى الماء.

أغلق الرجل الرمادي الاتصال، ونظر للرئيس، فوجد رأسه الأسود الأصلع يتصبّب عرقًا غزيرًا لمعت حباته تحت خيوط الشمس الدالفة من ثقب الكوخ. كانت يده غير مُقيّدتين.

نظر كورت بعد ذلك إلى حقيبة ظهره. سبع ساعات، دون فعل أي شيء سوى الجلوس هنا والمعاناة.. فكّر في الألم والتشنج في العضلات حول موضع الألم، وحقيقة أنه سيحتاج إلى أن يكون جسده وعضلاته رشيقة قدر الإمكان لأي احتمال حين يتحرّك مرّة أخرى. وقال لنفسه إن الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الغاية هي الحصول على بعض الراحة من الألم الآن.

لم يكن بحاجة إلى الكثير من الإقناع.

بعد ستين ثانية، ربط معصم الرئيس الأيمن بسحاب إلى العارضة المركزية للكوخ. بحيث يتمكن باليسرى الحزّة من الأكل والشرب، أو حتى التبوّل في التراب إن أراد ذلك. تأكّد جنترى من عدم وجود أي شيء في متناول يده يُمكنه استخدامه كسلاح أو أداة. أخبر كورت نفسه أن أوريكس بأمان، وأن بإمكانه الاعتناء بنفسه لفترة من الوقت.

ثم فتح الأمريكي حقيبة ظهره، وتجاوز أقراص المُسكّن، وأخرج أقوى حقنة مورفين أمدّته بها السي آي إيه، مزق الإبرة المُعبأة مُسبقًا من عبوتها المُعقّمة، ونزع طرفها البلاستيكي كاشفًا عن طرفها.

تراجع الرئيس عبود مدعورًا.

قال جنترى "لا تقلق، هذه الحقنة من أجلي".

حقن نفسه بحوالي 20 ملليغرام من المُخدّر الثقيل في ذراعه اليسرى. جلس على الفور، مُستندًا على جدار الكوخ، بعيدًا عن مُتناول أسيره.

وفي غضون دقيقة ونصف، بدأت جفونه ترفرف، وصغرت حدقتا عينيه، وبدأ الألم يخفّ.

رأى أوريكس بوضوح تأثير الحقنة على الأمريكياني، فقال "ما هذا الجنون، أول مرة في حياتي أرى ضابطاً أمريكياً يتعاطى مخدرات أثناء أدائه عملته".

قال جنترى "اخرس" سيطر ضبابٌ لطيف على أجواء الغرفة، ثم أضاف بشكلٍ دفاعي أكثر من اللازم: "سيبطني الألم لاحقاً إن لم أتخلص منه الآن".
"والهيروين ألن يُبطنك؟"

أجابه كورت بغضب "إنه ليس هيرويناً يا أحمق" لكنه عرّف أن المخدّر مُشابه في تأثيره له، رغم أنه لا يُتبع نشوته لمدة طويلة.

قال عبود بصراحة "أنت مُدمِن".

"وأنت طاغية ومُجرم حرب. والآن، اغرُب عن وجهي!"

تبخر أي شعور بجلد الذات كان جنترى قد شعر به لتعاطيه المخدّر الثقيل أثناء العملية في ثوانٍ معدودة، حيث أفسح اندفاع التأثير الأوّل للمخدّر الطريق لشعورٍ مُبالغ فيه بالراحة. وفي غضون عشر دقائق من حقن نفسه، غرق كورت في حديثٍ مع عبود، بعد أن تغيّر سلوكه السابق تماماً.
لكن الرجل الرمادي لم يكن عاجزاً تماماً. فخلال مُحادثتهما المهدّبة على مدار النصف ساعة التالية، سأله أوريكس عن اسمه الحقيقي ومحل سكنه، وطلب استعارة هاتفه، بل حتى سأله عمّا إن كان بإمكانه إلقاء نظرة مُتفحّصة على مُسدّسه الدقيق للغاية. كان الرجل الرمادي واقِعاً تحت تأثير مادةٍ مخدّرة مُعدّلة للمزاج، لكنه لم يكن مجنوناً. وفي كُل مرّة أجابه بابتسامةٍ صادقة. حتى إنه ضحك عندما طلب منه المُسدّس، وأخبره أنها مُحاولَة جيّدة.

بحلول الساعة الخامسة إلا ربع، كان كورت قد فقد وعيه واطرانه بنسبة كبيرة في الكوخ المُظلم. كان سلاماً كيميائياً، في وقتٍ غير مُناسب بكل تأكيد لمُحاربٍ مثل جنترى. وبينما تجاذب أطراف الحديث مع عبود، سرح في عملته وتاريخه، وشعر بالفخر لأجل ما قام به هو ورجال زاك، ولثقة الأسطورة داني كارميكال به. ترخّم على روح العميلين الفقيدين، ولام في سرّه رؤساءهم على تركهم دون دعم.

أغمض عينيه في هدوءٍ وسكينة، وبدأ يغفو في نوم عميق، بينما أزال التخدير الثقيل عنه فقدان الشيط الذي جعله يستغرق في حديثٍ عميقٍ مع أسيره. وبينما مال رأسه جانباً، رنّ هاتفه.

حدّق فيه كورت بعينين واسعتين، ثم نظر إلى أوريكس مُبتسماً، وقال "اللعنة، يبدو أني في ورطة".

أجاب على الهاتف قائلاً "مرحباً؟"

قال هايتاور "حسناً، هناك تغيير في الموعد ومكان الالتقاط".

"يا إلهي، لا أعلم بشأن ذلك. هل كُل شيءٍ على ما يُرام على متن القارب؟"

"بخير، ولكنني سأحتاج منك استطلاع موقع آخر للالتقاط. أعتقد أن الجانب الشمالي من المُستنقع سيكون أفضل عند انخفاض المد، اذهب إلى هناك، وتأكد من خلو المكان. أعتقد أن هناك بعض البدو في هذه المنطقة".

"الآن!"

"لا، في وقت فراغك اللعين! بالطبع أعني الآن".
"حسنًا، لا تغضب. لكنني أحتاج بعض الوقت هنا".

"وقت، لم؟"

"لا أعرف".

نظر كورت إلى السقف، تأمل الحياكة المعقدة للقش؛ وحتى في الظلام، بدا الأمر وكأن لكل خصلة من القش السميك شخصيتها المستقلة، وغرضها الخاص، ومسارها من خلال الخيوط الأخرى التي حولها.
"لماذا؟"

قال كورت "بحقك يا زاك، لا تغضب. أنا فقط بحاجة إلى ...".

صمت دون أن يكمل جملته.

"ما خطبك بحق الجحيم؟"

"لا شيء، يجب عليك أن تكون معي الآن داخل هذا الكوخ لتأمل سقفه المجدول، إنه جميل للغاية. إنهم يُجفّفون القصب، ويربطونه في حزم صغيرة معًا لصنع ضفائر أكبر، ثم ...".

"يا إلهي يا كورت! أنت منتش من أدويتك المخدرة؟"

ضحك كورت عبر الهاتف.

"أين أوريكس؟"

"إنه جالس أمامي، أتريد التحدث معه؟"

"اللعنة! لا، لا أريد التحدث مع أي أحد الآن سواك".

"إنه على الخط معك".

نهض كورت، والتقط عبود جهاز اللاسلكي بيده الخرة قائلاً "معك الرئيس بكري علي عبود، من معي؟"

تردد هياتاور لحظة، ثم أجاب ببطء وتردد "ماذا حدث لرؤسنا؟"

"لقد حقن نفسه بشيء ما، مُحدر على ما أظن".

"أتعني عن طريق الخطأ؟"

نظر الرئيس لكورت، فوجده قد أسند رأسه للحائط. كانت عيناه مفتوحتين، وشاخصتين للأعلى، يتأمل سقف الكوخ.

"لا، بل عن عمد في الواقع".

بدا جليًا أن زاك هياتاور لم يعرف كيف يردّ على ذلك، وفي النهاية قال "حسنًا، اسمعني جيدًا، لدينا الكثير

من العملاء في المنطقة، وإذا حاولت الاستفادة من هذا الموقف ...".

"لا تقلق يا رجل السي آي إيه، قبل أن يحقن رجلك نفسه قيدي، ربما ستأخر عمليتكم بسبب ما فعله، لكنني لن أهرب".

"أعطه الهاتف من فضلك".

نظر الرئيس عبود للتليفون مبتسمًا، ثم ضغط على زرٍّ أحمر في جهاز الشريا مُنهيًا المكالمة. كان العميل 6 لا يزال شاخصًا ببصره إلى السقف، بينما تدلَّى جفناه إلى الأسفل. فكَّر يائسًا في الاستنجاد برقم هاتف مكتبه، أو رقم هاتفه الأمني.. أي شخص، مثل سكرتيره في قصره الرئاسي بالخرطوم؛ قفز الرقم إلى رأسه. لكنه لا يعرف موقعهما المحتجز فيه على وجه التحديد، بأمرٍ واحد أو رسالة استغاثة يمكنه أن يحرك قوات جيش السودان نحو شمال سواكن، جنوب بورتسودان، أو شرق تلال البحر الأحمر كي يُمشطوا المنطقة بأكملها حتى يجدوا الرئيس وخاطفه الأمريكي. حسبَ في ذهنه مدى خطورة مجازفته ورد فعل الأجنبي المتوقع متى شعر بخيانتته، فقط إذا بقي فاقداً للوعي بهذا الشكل المزري يُمكنه أن يُنفذ خطته.

أنزل عينيه بخُبثٍ يتأمل أرقام الهاتف.

وحين رفعها وجد ماسورة كاتم صوت المُسدس مُثبتة على جبينه.

"أعتقد أن هذا هاتفي".

"نعم".

"محاولة جيدة سيادة الرئيس، لا تضطرنني أرجوك لاستخدامه".

نام جنثري لمدة ساعتين، واستيقظ عند الغسق. كان لا يزال تحت تأثير المورفين القوي، ولا يزال يشعر بتحرُّرٍ نسبي من الألم في ظهره، رغم أن نشوته قد تبددت بشكل لا يظل معه محترسًا من مكالمته التالية لهايتاور. حرَّك أوريكس رأسه مُقاومًا الحر، واستغلَّ كورت اللحظة الهادئة ليرتشف الماء المُعبأ في زجاجات، ويأكل بعض الطعام. أمسك الهاتف بهدوء وهو يمضغ طعامه، ورأى أن العميل 1 قد اتصل ستَّ مرَّات خلال الساعتين الماضيتين.

وضع كورت الهاتف أرضًا مرَّةً أخرى، وأنهى عشاءه. ثم أشعل نارًا صغيرة، مُستخدمًا بعض الأعشاب والأغصان، وقطعًا كبيرةً من الأخشاب الطافية المُلقاة حوله. لم يكن في حاجةٍ للدفع، لكن الظلام خيم بالفعل، وانتشرت في الأجواء برودته.

تأمَّله أوريكس من وسط الغرفة، وسأله "كيف حالك الآن؟"

نظر جنثري إلى الأعلى ليراه واقفًا يحاول الشعور ببعض الراحة.

"أشعر بتحسُّن في ظهري، وبشعورٍ رائعٍ في بقية جسدي".

"جيد، لم يتوقف هاتفك عن الرنين".

قال كورت "نعم، ينبغي عليَّ التواصل معهم بعد قليل، وفي غضون ساعتين، سأنقلك إلى الساحل، وفي غضون يومٍ أو اثنين، ستُحاكم أمام الرأي العام الدولي" ابتسم قبل أن يسأله "فيمَ كنت تفكر وأنت ترتكب

كل هذه الجرائم بحقّ المدنيين يا سيدي؟

"إذا راجعتَ نفسك ستجد أنك قتلتَ اليوم أكثر مما قتلنا يا صديقي".

"لسنا أصدقاء!"

جلس أوريكس مرّة أخرى، ومسح العرق عن وجهه وجبهته. تراقص ضوء النار المشتعلة على ملامحه الأبنوسية "أعتقد أننا أكثر من مجرد أصدقاء، نحن إخوة".

"ربما عليك أن تنظر في أي مرآة وتلاحظ فارق لون البشرة".

"أقصد أن أحاسيسنا مُشابهة، وكذلك مسار عملنا الحالي.. القتل. كما قرّر كلانا أنه لا بأس بذلك".

"أنا لم أمحُ شعبًا بأكمله يا رجل. وأنا وأنت لسنا...".

"إذن ليس القتل ما يُزعجك، بل هو مقدار الإبادة وعدد الضحايا! ولكن يُمكنني القول إنني أقتل لأجل دوافع سياسية وليس لأسباب شخصية، أما أنت فتقتل وجهًا لوجه، وهذا أكثر وحشيةً وشراسة. أنت الرجل الأكثر خطورةً هنا. فكّر في عدد الأشخاص الذين ستقتلهم إن أدت دولةً كاملة أو جهاز مُخابرات، كُنت ستذبح كل من يُعارضك".

انحنى بكري علي عبود، رئيس السودان، قريبًا منه، ومن الحطب المُشتعل، وتابع حديثه قائلاً "صدّقني أنت تُشبهني في عدم إنسانيتنا وتدميرنا لبشريتنا. أنا وأنت، أيها العميل 6، مُتشابهان للغاية". ترك أوريكس عبارته مُعلّقة في الظلام للحظة، قبل أن يقول "الفارق الوحيد هو أنني أفضل منك في ذلك، لذلك يعتبرونني الأكثر شرًا. من المُثير للاهتمام كيف يتحكّم منظور المرء في مفهومه للصواب والخطأ".

نظر كورت للنار وحركها بعضًا، مُدركًا أن الأفيون الذي بداخله هو الذي يدفعه لمواصلة الحديث "كنت أفضل مني، لكن انتهى وقت المرح، والآن ستقضي بقية عُمرِكَ في السجن".

ابتسم له الرئيس مرّة أخرى.

نظر إليه كورت عبر ضوء النار، وقال "لا تبدولي قلقًا من فكرة السجن".

"لو كان هذا مصيري حقًا، لخفّت وانزعجتُ بشدّة، لكنني أقسم لك أنه لن يحدث".

"ليس إن غيّرتُ رأيي وأطلقت عليك النار هنا والآن مثلًا".

ضحك الرئيس عبود ضحكة خافتة، وقال "لستُ متأكدًا إن كان بإمكانك استخدام سلاحك في حالتك هذه".

"جرّبني!"

لوح أوريكس بيده "لا، ليس لهذه الدرجة، على أي حال أنا سعيد أنك ستُرافقني لأوروبا".

قال كورت "بل للسجن!"

"البضعة أشهر، أنا مُتأكد من أنك على حق. لكن عروضًا قدّمت لي، رفضتها حتى الآن، تسمح لي بالبحث عن منفى في أي دولةٍ من دول العالم الثالث. ساحل العاج قريبة من موطني، ولكنني في الوقت الحالي أميل

للذهاب إلى إحدى جزر الكاريبي. فأنا أستمع بتدخين السيجار من حينٍ لآخر، رغم أنني أدعو ألا تُخبروا زوجاتي".

اعتدل كورت في جلسته، مُستندًا إلى جدار الكوخ، وقال "هراء".
ابتسم بكري علي عبود قائلاً "بل دبلوماسية".
"أتظن أن الأوروبيين سيتركونك تُفلت من محاكمهم".
هزَّ رأسه وابتسامته تتسع "ليس الأوروبيون فقط، بل الأمريكان أيضًا".
شعر جنثري بالذهول، وعرف أنه في حالةٍ من الجنون لا تسمح له بتقييم التعبيرات الدقيقة لسيادة الرئيس، بحثًا عن أمارات الخداع. لكن الوغد بدا واثقًا من نفسه بلا شك.
حافظ عبود على ابتسامته، قبل أن يقول بلهجةٍ أمريكيةٍ مُبالغٍ فيها "كما قُلت من قبل، إنهم لا يُخبرونك كلَّ شيء، أليس كذلك يا 6؟"

تهدج صوت جنثري وهو يسأله "لماذا؟"

ضحك مرّةٍ أخرى، وقال "من أجل مصلحة العالم. دعني أخبرك بشيء، لنفترض أن المتمردين اغتالوني في مسقط رأسي، تخيل السيناريو معي والنتائج؛ ستقع حرب أهلية أكبر عشرات المرات مما لدينا الآن، وهذا أسوأ. الصين تريد بترؤها الموجود تحت أرضنا، لذا ستدعم خليفتي. أما روسيا فستقلب علينا جيراننا في تشاد كي يغزوا أراضينا ويسرقوا لهم البترول، ستكثر معسكرات النازحين وستُجبر قوات الأمم المتحدة على الخروج من بلادنا لأن اتفاقهم من البداية كان معي وليس مع غيري. الصين ستدفع خليفتي للدخول في حربٍ شاملة ضد تشاد لاستعادة الأراضي المنهوبة، لكنه رجل ضعيف، وسيخضع لإرادتهم بطرقٍ لن أوافق عليها. ويمكن للصين شراءه بالسلاح والقوة والمال. وفي خلال عام واحد من رحيلي، ستكون السودان أكبر بؤرة في إفريقيا لتصارع كلَّ التيارات الإقليمية والدولية، وسيقتل عشرات الآلاف، وسيُهجر أكثر من مليون إنسانٍ من ديارهم، أتراه سيناريو معقولاً؟"

"لكن أَلن يكون لاختطافك نفس التأثير؟"

"بالطبع ستحدث فوضى على المدى القصير، لكنني سأوافق أخيرًا على الشروط التي طرحت عليَّ سرًّا لسنوات ورفضتها. إذا كشفت عن تفاصيل الأعمال غير القانونية التي تقوم بها روسيا هنا في السودان، وإذا قُلت لأتباعي أن الروس مُستعدون لإشعال نيران الحرب ضدنا، فلن يكون هناك تأثير روسي على المواطنين، وبالتالي لن تدور رحى حرب أهلية. وإن لم تقع حرب أهلية، فلن تغزونا تشاد. بل ويمكنني حتى أن أزعج أن الصين هي من دبّرت خطفي، وهو ما سيضر بالمصالح الصينية في المنطقة، وسيعيد ثروات السودان للسودانيين".

"لا علاقة للصين بما يحدث".

هزَّ عبود كتفيه وقال "أنا سأقول هذا، وسيُصدّقني شعبي وأتباعي، وهناك أدلة تؤيد قولي. الصين وروسيا على نزاع في أرضنا بسبب البترول، والقوات الصينية الخاصة حظيتُ بفرصة تدريب ضباطنا بالفعل في

بورتسودان وهم يعرفون معظم أسرارنا العسكرية، سأقنع الناس أنني اختلفت معهم فأزاحوني من الصورة".

قال كورت "هذا عبقرى" وساءه قول ذلك.

تابع عبود كلامه "اشكر زملاءك في العمل، كان هذا كله جزءاً ضمن مؤامرة من وكالة المخابرات المركزية، لإجباري على تسليم نفسي طواعيةً إلى المحكمة الجنائية الدولية. وكما قلت، لقد رفضت عرضهم". هزّ كتفيه بلطف، وقال "لذا ها أنت هنا، لتنفيذ العرض".

"ما تريد قوله أن بقاءك على قيد الحياة أكثر فائدةً من قتلك".

هزّ عبود كتفيه قائلاً "بالضبط، أخرجني من هنا حياً، وسأقوم بدوري. كما قلت في الصباح في سواكن، نحن أصدقاء، لكنك مُصرٌّ ألا تفهم". وهنارن هاتف الشريا.

"ذاك!"

"أعدت من تيهك أم تراك ما زلت مُنتشياً؟"

"أنا أفضل الآن، آسف بشأن ما حدث من قبل. لكن الألم كان بشعاً، واضطرتُّ لأخذ جرعة مُحدِّد
مركَزة غيَّبتني لوقتٍ عن الوعي".

"انسَ ما حدث، لدينا مُشكلة، لقد فشلت هذه المُهمّة تماماً".

"ماذا حدث؟"

"القيادة تقول إننا قد اصطدنا بعض الدجاج".

"ماذا؟"

"لقد قتلنا بعض الصينيين".

تذكّر كورت كلام الرئيس عبود فسأل بكلّ اندفاع "عسكريون؟"

"بلا شك! لكن يبدو أن هذا لا يزال محظوراً".

عرفت كورت هويتهم، فقال "القوات الخاصة لتدريب السودانين في بورتسودان".

"نعم، هذا ما يعتقدُه أيضاً داني، رُبما من وحدة التتّين الطائر، لم تعرّف حتى محطة السودان أنهم كانوا في
البلاد".

"تبّاً يا ذاك، ما مدى سوء الأمر؟"

"ليس جيداً، إن داني الآن في اتصالٍ مفتوح مع البيت الأبيض مباشرةً، يبدو أنهم لم يوقّعوا على اتفاقٍ مع
أي قوّة عظمى".

مسح كورت العرق عن حاجبيه، وكان قد بدأ يشعر بتحصّن في جرح ظهره، رغم أنه لا يزال يؤلمه، سأله

"كم من الصينيين اتهموك بقتلهم؟"

"حوالي ثلاثين. نعتقد أن المروحية التي أسقطها "دان" كانت مليئةً بالجنود وطاقم الطائرة، ومن شأن هذا
تفسير هذا العدد من القتلى، لكن هذا ادّعاء مُثير للسخرية! تعداد الشعب الصيني نفسه حوالي مليارين لا
أعتقد أنهم سيفتقدونهم".

"يبدو أن دان لم يفتقد أيّاً منهم".

"معك حق".

"والآن ما العمل؟"

"علمي علمك، سأعيد الاتصال بداني بعد ثلاثين دقيقة. لكن أسوأ الاحتمالات، سيتركونا هنا".
"ماذا عن عبود؟"
"لنتظر التعليمات".
"عَلِم".

عاود زاك الاتصال بعد التاسعة مساءً. كان كورت قد أمضى خمسة وأربعين دقيقة في التفاوض مع الرئيس عبود حول العروض التي تلقاها من الغرب، بينما كل مسعاه أن يُفلت من السجن ويذهب لكوبا رَجُلًا حُرًّا.

كان الأمر مُقززًا، لكن كورت فهم أن ذلك بلا شك أفضل ما في قائمة طويلة من النتائج السيئة.
قال زاك "أريدك أن تبعد عن الرئيس بما فيه الكفاية بحيث لا يسمع محادثتنا".
"عَلِم، لحظة واحدة".

نظر كورت إلى أوريكس الذي كان لا يزال مُكبَّلاً بالأغلال إلى عمود الكوخ، ثم استدار مُتجهًا للخارج. وفي المساء البارد، نزل على رُكبتيه، وجلس على المصدِّ الخلفي للسيارة السكودا، ثم قال "حسنًا أنا بمفردي الآن".

"هناك تغيير كبير يخص أوامر عملياتك، أنت مُستعد؟"
"نعم، أخبرني".

صمت زاك للحظة، قبل أن يقول "الصينيون يقولون إننا قتلنا ستَّة وعشرين مستشارًا مدنيًا في اشتباكٍ هذا الصباح في سواكن".
"هراء، لم يكونوا من المدنيين".
"طبعًا، إنهم يكذبون، لكن بمقدورهم فعل هذا، والمشكلة أن العالم سيصدِّقهم".
"تابع حديثك".

"البيت الأبيض يبدو الآن مشغولًا في صفقةٍ معهم، ولا يريدون أي شيءٍ آخر يتعلَّق بهذه العملية. يبدو أنهم كانوا يعملون سرًّا على صفقةٍ تجارية كبيرة مع الصينيين، خططوا للإعلان عنها الشهر المُقبل في بكين".
"والمطلوب؟"

"أمر البيت الأبيض مدير الاستخبارات الوطنية بالخروج فورًا، لذا اترك كُل شيءٍ وارحل. إنهم لا يريدون بصمات السي آي إيه في أي مكانٍ في السودان، خوفًا من أن يُعرض ذلك صفقتهم للخطر".
"ماذا عني؟"

"سألتقطك بالغواصة، يُمكنني أن أكون في الموقع المُتفق عليه بحلول مُنتصف الليل. هل يمكنك الوصول إلى هناك في ذلك الوقت؟ أم أنك ستكون تحت تأثير جرعةٍ أخرى من مُحدراتك اللعينة؟"

"نعم، لكنني قصدتُ ماذا سأفعل بالرهينة؟"

"انس العملية والرهينة، كأننا لم نكن هنا أساسًا، لقد انتهى الأمر. نحتاج فقط الآن للتركيز على الخروج من القطر السوداني، والذهاب إلى إريتريا، وعدم التعرُّض للخطر. سيُلقي السودان باللوم على المتمردين".

تأمل كورت الأعشاب التي تتمايل مع النسيم المسائي، ثم سأله "ماذا عن عبود؟"
قال زاك بشكل قاطع "احقن ذلك اللعين بأي مخدرٍ يُعيبه عن الوعي".

تردّد كورت "لكنه.. لكنه الشخص الوحيد الذي يُمكنه إقناع شعبه بحقيقة ما يُخطط له الروس".
"لا يُفترض بنا أن نكون هنا. من المُستحيل أن نُسلّمه للمحكمة الجنائية الدولية، لأننا إن فعلنا سينسحب الشيوعيون الصينيون من هذه الصفقة".

"لكن بقاء عبود حيًّا أكثر فاعليَّةً للبيت الأبيض من موته، أليس هذا كلامهم؟"

"صحيح، لكن قواعد اللعبة تعيَّرت بعد إسقاط المروحية".

هزّ كورت رأسه في غير تصديق، وقال "إنها اتفاقيةٌ تجارية، ما تأثيرها على مُخطط الأشياء؟"
"إنها السياسة يا عزيزي".

"أسيوقف هذا التغيير الإبادة الجماعية الإفريقية؟"

"ليس بالمخاطرة بنشوب حربٍ عظمى! فالشخص العادي في الولايات المتحدة الأمريكية لا يريد سماع أخبار عن تبادل إطلاق النيران بيننا وبين الصين لمصلحة بعض الهمج من سُكان الأكوخ الطينية".
"لن يخوض الصينيون حربًا بسبب هذا الأمر".

"هل أصبحتَ دكتورًا في العلوم السياسية الآن؟ أنت مجرد عميل، وليس دبلوماسيًّا! قُمْ بوظيفتك، واقتل هذا اللعين! إنه أمر!"

لكن جنترني لم يكن ليدع الأمر يمر هكذا، تابع حديثه قائلاً "قتله لن يفيد في شيء، الحلّ الوحيد هو وقوف عبود أمام الكاميرات ليفضح أفاعيل الروس والصينيين وتدخلهم في شئون بلاده. كان هذا هو الدافع الأصلي وراء مُهمَّتنا، لأنه الشيء الوحيد الذي سينجح. لا يُمكن القيام بذلك بأي طريقةٍ أخرى".
"وللأسف هذا السيناريو لن يحدث، لذا عليك تنفيذ أوامري بحذافيرها كي تُخرُج من هنا. ما خطبك بحق الجحيم؟ ظننتك ستسعد بتخدير هذا اللعين".

"بحقك يا زاك، يُمكننا إيقاف الحرب إذا أخرجنا عبود من هنا، ونقلناه إلى لاهاي".

"ليست وظيفتنا إيقاف الحرب، تخلص منه واترك جُثته على قارعة الطريق، ولنُخرج من هنا".

زَمَّ كورت شفّتيه، وأحنى رأسه للخلف، وقال "سأفكر في الأمر".

"تُفكر في الأمر! ماذا دهالك بحق الجحيم؟ أنت هنا لتنفذ...".

"سأكملك بعد قليل".

أغلق كورت الخط وأحاط رأسه بيديه.

اللجنة. عرف كورت أن بمقدوره النهوض الآن، والذهاب للكوخ، ووضع رصاصة في رأس رئيس جمهورية السودان اللعين، دون ذرة واحدة من الندم، بالطبع الرجل وحش حقيقي وخطير، ويستحق الإعدام على جرائمه بحق شعبه.

اذهب واقتله.. انهض واذهب واقتله.

لكنه فهم المنطق القائل بأن قوّة أوريكس يمكن أن تنقلب الآن ضد الفظائع وتُستخدَم للخير. أجل، إنه محض هراء، لأنه سيضحك أخيرًا في هافانا، وهو مُحاط بالعاهرات، بعد عُمرٍ كامل من القتل والفساد. اللجنة! هذه ليست المشكلة الآن. يُمكن لجنتري الذهاب إلى كوبا على حسابه، وتصفية ذلك الحساب. سيقتل عبود بسبب ما اقترفته يده من جرائم، ولكن ليس قبل أن يُقلل من الفوضى الوشيكة لسودان ما بعد عبود.

لقد تلاعب الروس بكورت، حتى إنه كاد يُشعل حربًا هنا. والآن، أدرك أن قتل أوريكس سيعني تلاعب الإدارة به ليقوم بنفس الشيء.

لا، لن يقتل عبود. لا يُمكنه القيام بذلك. سيقدّمه إلى المحكمة الجنائية الدولية لوقف حربٍ ومنع أخرى. لا شك أن ذلك سيؤدي إلى إعادة العمل بعقوبة إطلاق النار عند رؤيته، لكنّه كان الأمل الوحيد لآلاف السودانيين الأبرياء. دفن رأسه بين رُكبتيه، وغطّاه بيديه. أدرك أنه يُريد العودة إلى الكوخ، لا ليُنهي حياته بل ليحقن نفسه بمزيدٍ من المورفين.

زال مفعوله سريعًا، مع تلاشي الصراع من أجل التركيز بسبب ما حدث في الدقائق العشر الماضية. التقط تليفون الثريا واتصل بزاك.

أجاب هابتاور من فوره. عَرَف كورت أنه غاضب، لكنّه أخفى ذلك وهو يقول "هل عدتَ لرُشدك؟" قال بعد لحظةٍ من الصمت "لا يُمكنني يا زاك".

شعر كورت بتوتر هابتاور على الجانب الآخر من الخط، لم يسبق له تحدّي زاك من قبل، ولا مرّة واحدة خلال السنوات الخمس التي خدما فيها معًا. أخيرًا تحدّث زاك بصوتٍ خافت، لكن التهديد سكن صوته "اسمعني يا فتى، لقد فقدتُ بالفعل اثنين من خيرة رجالي، ولا أريد خسارتك أنت أيضًا. خُذها مني نصيحة دعنا نُنهي هذه العملية السخيفة، نقتل عبود، ونعود لوطننا لنستمتع بما تبقى في حياتنا".

"بقدر ما يبدو ذلك رائعًا يا زاك، إلا أنه لن يحدث. سأذهب بمُفردتي إن اضطررتُ لذلك، وسأوصل عبود للمحكمة الجنائية الدولية على قيد الحياة".

تصاعد الغضب في صوت زاك، وهو يقول بإحباط "وكيف ستفعلها بحق الجحيم؟ أليدك قارب، أو طائرة، أو جيش؟"

قال الرُجل الرمادي بعد صمتٍ طويلٍ "لا".

"بالطبع لا، سأخبرك أنا بما لديك، هناك تُقب ملوَّث في ظهركَ تفوح منه رائحة نتنة، لا يمكن أن تصدُر إلا من حيوانٍ ميت، أنت تحتاج إلى طبيب، ثم ماذا تظن نفسك؟ محاربًا صليبيًا في أرض الأعداء، جاء ليُنقذ أكثر رجل مكره على وجه الأرض. أعلم أنك تظن نفسك المُقاتل اللعين الوحيد، لكنّها مهمة حمقاء من وجهة نظري. ولكي تنفَذ خطّتك الحمقاء هذه تحتاج لأربعة أشياء، رجال وأسلحة وعتاد وشجاعة. أعتَرِف لك أنك تتمتّع بالشجاعة، لكنك تفتقر للباقي. السودان كلها تبحث عمّن خطف الرئيس؛ الأمن الوطني والمخابرات والجيش، كلهم يُطاردونك ولو رأوك سيحرقونك حيًّا".

"وأنت أيضًا أستطاردني؟"

قال هايتاور دون تردّد "نعم، سأفعل. أقسم لك أنك إن لم تقتل أوريكس حاليًا، فسأبلغ داني بذلك، وكلانا يعلم جيدًا أنك إذا لم تنصع لأوامري سأكتب فيك تقريرًا لرئيسي وسيُرسلني خلفك أنا وفرقتي. ولا أحد منّا يريد حدوث ذلك يا كورت".

ردّ بعد لحظة صمت "وداعًا يا زاك، أراك لاحقًا".

قال هايتاور: "لا يا جنترى، سأراك أنا عبر منظار بندقية قنصي، قبل أن أفجر رأسك. لقد حاولنا مرارًا أن نُعيدك لفريقنا لكنك لا تستطيع العمل ضمن فريق، لطالما أحببت دور الوغد المتمرد على الجميع وسيُرسلك هذا لحتفك قريبًا".

أنهى زاك المُكالمة.

نهض كورت من مكانه الذي جلس فيه طوال الساعة الماضية، مُستندًا إلى مصدّ السيارة. سار ببطءٍ إلى الكوخ، حيث وقف أوريكس في مُنتصف العُرفة المُظلمة. بدا جليًا أنه سمع تفاصيل المُحادثة الهاتفية، لكنه تخنّ مسارها ومضمونها من نبرة الرجل الرمادي.

"ماذا يحدث؟"

"لا شيء، نحتاج أن نتحرك فورًا".

كان كورت قد أعطى إحدائيات موقعهما بالفعل إلى عملاء وكالة السي آي إيه على هانا. وعرف أنه يجب أن يُخرُج من هنا قبل حضور زاك أو أي شخصٍ آخر.

"أنا أكلمك يا 6! ماذا يحدث؟"

قطع كورت رباطه بسكينٍ صغيرةٍ قابلةٍ للطي. لم يقل الرجل شيئًا قبل أن يغلق كورت النصل ويضعه في جيبه.

قال عبود باضطرابٍ شديد "ماذا يحدث؟"

أدرك أنه كان ليكون مُضطربًا بدوره لولا بقايا المورفين في جسده. تساءل عن مدى تأثيرها عليه. هل سيكون قادرًا على القيادة؟ هل سيتمكّن من العثور على مخبأٍ جديد دون أن يجده من يبحثون عنه؟

"لماذا لا تردّ عليّ؟"

سأله أوريكس مُجددًا عن المكالمة الهاتفية. توقف كورت وأخرج أصفادًا معدنية من شنطته ليربط بها يدي الرئيس أمامه، وقبل أن يفعل ذلك، هزَّ كتفيه وقال "لقد أمروني بقتلك".

سأله الرجل الأسود الضخم "انجوم هوليوود"؟ ثم سحب يديه إلى الوراء، وبعيدًا.

"لا، بل السي آي إيه. يبدو أنه قرار بالإجماع، أعطني يديك".

بُهِت الرجل وظل صامتًا وكأنه قد سُكِبَ عليه ماء بارد من دلوٍ مُثلج، وقال "لا! كان بيننا اتفاق، إنهم يُريدونني حيًّا، الأوروبيون...".

"اخرس! نحتاج أن نُركز على الخروج من هنا حتى أتمكّن من التفكير دون أن أقلق بشأنهم".

"يمكنني أن أساعدهم في...".

"اخرس! وأعطني يديك!"

"لا يمكنهم أن يغيروا اتفاقاتهم مع الرؤساء...".

أخرج كورت مُسدسه، أبطأته المُخدّرات، وارتعدت يده وهو يضعه على عنق عبود.

"قلت لك اصمت وأعطني يديك".

لكن يدي الرئيس بدلًا من الانصياع ارتفعتا نحو المُسدس نفسه.

كان الرئيس عبود أضخم وأطول وأعرض من كورت بفارقٍ كبير، ربما نقاط ضعفه أنه في السادسة والستين من عمره ولم يتلقَّ أي تدريباتٍ قتالية خاصة كالتي نالها الرجل الرمادي على مرِّ حياته. وليس من المفترض أن يكون ندًا له لولا المورفين.

نجح عبود في استخدام بُنيانه البدني في الإطاحة به بضربة واحدة أسقطت سلاحه من يده وأفقدته توازنه، لفَّ يده السمينة حول معصمَي الأمريكي، وسحب جسديهما معًا. استجاب العميل 6 ببطءٍ شديد، ولم يُدرِك حتى أنه يتعرَّض للهجوم في الثواني الأولى القليلة. اعتقد فقط أن أوريكس كان مذعورًا من إمكانية سحب دعم السي آي إيه من تحت قدميه، وقرَّر مقاومة كورت كطفلٍ مُحْبَط.

ولكن عندما ارتطم بالأرض، وآلمه ظهره الجريح تحت ثقل الرئيس السوداني الضخم، اتضح له مدى خطورة الموقف من خلال الواقع الباهت لحوائس المخدرة. لم يكن المخدَّر كافيًا للتغلب على الألم المبرح الذي تسلَّل إلى كتفه، ثم انتقل إلى دماغه. صرخ، وانهالت عليه سلسلة من اللكمات من الأعلى، غطَّى وجهه، مُرَكِّزًا ذهنه على ألم ظهره كي يوقظ مستوى الأدرينالين في جسمه.

وعلى ضوء النار الصغيرة، حدَّدت عينا كورت الضيقتان موقع اللكمة التالية، خطافية يُمنى في طريقها بالفعل من الأعلى. اختصر جنترى الهجوم من جانبه؛ وعند اللحظة المناسبة سدَّد له لكمة في أنفه. جاءت خطافية الرئيس بعد ربع ثانية، لكنَّها كانت ضعيفة وسيئة التصويب، وسُرَّعان ما سقط أرضًا وهو يُمسِك أنفه المُهشَّم.

دفعه جنترى من فوقه، وتدحرج وبدأ يزحف بحثًا عن المُسدَّس. وجده بجوار الحائط، واستعادته، ثم سحب أوريكس من ياقة قميصه، وجذبه إلى وضعية الوقوف. وفي غضون ثوانٍ، ربط يدي الرجل الذي أن مُتألمًا خلف ظهره، وبعد دقيقة، انطلقت سيارة السكودا في طريق عودتها إلى الطريق الرئيسي.

فكَّر جنترى في الخطط المتاحة، ولم يستغرق ذلك وقتًا طويلاً، حيث كانت خياراته قليلة للغاية. لم يكن لديه أي فكرة عن وجهته سوى العثور على نخباً جديد حتى يتمكن من التفكير بتأنٍ. راح عبود يحكُّ أنفه الذي ينزف في مؤخرة المقعد الأمامي، لأنه لم يستطع استخدام يديه المُكبَّلتين، وأخذ يتأوّه ويسبُّ بهدوءٍ بالعربية السودانية.

رنَّ هاتف الثريا، ولم يكن جنترى مُهتِّمًا بالاستماع إلى التماسٍ آخر من زاك لفعل ما أمر به، لكنه أجاب على الهاتف على أي حال، إذ كان الغضب والأدرينالين اللذان ارتفعا بعد آخر قتال مع الرئيس لا يزالان يُسيطران على مشاعره.

قال كورت "أهلاً يا زاك، اسمع يا أحق، لقد انتهى وقت النقاش بيننا، إذا كنت تريد أن تأتي لتقبض عليّ تعالَ أهلاً وسهلاً بك، لأنه كلما قتلْتُك أسرع كلما أنجزتُ بقية مهامِّي في وقتٍ أقلّ!"
لكن الصوت الذي أتاه على الثريا لم يكن لزاك بل داني كارميكال، الذي قال "أهلاً يا فتى، لقد شرح لي هايتاور ما حدث، وأنا أتصل بك لأرى ما يُمكنني فعله لإعادتك لرشدك".
امتزج بصوته قلق غير خفي من عصيان أحد رجاله. واستطاع كورت سماع ذلك بوضوح.
"أنا آسف جداً يا سيدي. لكن من وجهة نظري سيفاقم قتل عبود من حجم المشاكل الدولية التي نواجهها الآن في عمليتنا".

"أتفهّم قصدك تمامًا، لقد كنتَ واحداً من الذين أشرفوا على وضع خطة هذه العملية من البداية، وأنا مقتنع أن بقاء عبود على قيد الحياة أكثر فائدةً لنا، لكن للأسف لا يُمكننا ترك دليل واحد على وجود عناصر من السي آي إيه أو الجيش الأمريكي في السودان، من شأن هذا إذا انتشر أن يُسبب أزمةً دبلوماسية دولية ألعن مليون مرة من حدوث حربٍ أهلية في دولة من دول العالم الثالث".

"كلامك يعني أنك مُتفق معي حول احتمالية نشوب حرب؟ حرب أهلية بدعم من الصينيين والروس؟"
"بالطبع أوافقك، وهذا مُحتمل على المدى القصير. لكننا لا نرى القوى العظمى تلعب دوراً نشطاً".
"ربما لأنك في موضع مختلف".

"يُمكنني أن أوكد لك أن لدينا عملاءنا في أجهزة الأمن السودانية وهم مُقربون من مُتخذي القرار".
"أيمكنني أن أعرف نسبة قُرْبهم منهم؟"
"قريبون جداً".

"وما مدى علوّ رُتبهم؟"
"عالية جداً".

"عظيم، وأنا معي الرئيس اللعين بنفسه، في المقعد الخلفي لسيارتي. لذا عندما يكون معك شخصٌ أعلى رتبةً منه في الحكومة السودانية اتصل بي، وحاول إقناعي من جديد".
سادت لحظة طويلة من الصمت، قبل أن يُجيبه داني "هناك صفقةٌ تجارية مهمة قيد الإعداد".
لم يهتم جنترى بالأمر، وقال "نعم، هذا سيء، لكننا سنتجاوزه".
"هذا ليس من شأنك لتقرّره".

"في الواقع، إنه كذلك. فالرئيس في قبضتي. لن أتركه إلا في المحكمة الجنائية الدولية. سأفعل الشيء الصحيح هنا. هناك الكثير من الناس في هذا البلد يعتمدون عليه. لقد كانت عمليتكم هي العملية الصحيحة. صحيح أنها كانت فاشلة بشكلٍ ميثوسٍ منه، لكننا كُنّا قريبين للغاية من النجاح. يجب أن تُدركوا أن ما أفعله هنا هو الشيء الصحيح، وأن عليكم إعادة التفكير في...".

تحوّلت نبرة داني الهادئة المليئة بالانزعاج من كلّ محادثاتهم السابقة في لحظةٍ إلى صراخٍ عالٍ "ليس لديّ وقت للاستماع إلى موعظةٍ من شخصٍ تافهٍ مثلك! دعني أشرح لك شيئاً. كانت السنوات الأربع الماضية نزهةً بالنسبة لك. هناك أناس يعرفون كل نقاط ضعفك. وسأعترف لك أنك قُمتَ بعملٍ جيّدٍ لفترةٍ طويلةٍ مُقابلٍ بضع كلماتٍ شكرٍ، وهو ما أكسبك قدرًا كبيرًا من الاحترام في إدارة شؤون العاملين، حتى إننا قابلنا بعض الاعتراضات عندما قرّرنا إطلاق النار عليك. أما الآن، فلم يعد هناك من يقف بصفك. سأقوم بكلّ شيءٍ مُمكنٍ لإرسال فرقٍ مُنسّقةٍ من الصيادين القتلة وضباط العمليات شبه العسكرية لدينا خلفك، ناهيك عن مجموعات التطبيقات القتالية، وفرق من صائدي الجوائز. وأنا نفسي سأضع مطاردتك على رأس أولويات الجهاز. لن تجد مكانًا لتختبئ فيه، ولن يكون هناك أي عميلٍ أحقّ بما يكفي لمساعدتك، ولا دولةٍ جريئةٍ بما يكفي لتسمح لك بدخول حدودها. سيُطاردك زاك، وسيقتلك. ربما لا تزال تتنفس يا سيّد جنترى، لكنك في عداد الموتى".

لم يقلّ كارميكال كلمةً أخرى، ولا كورت أيضًا، الذي يُحب أن تكون له الكلمة الأخيرة.. لكن في هذه اللحظة بالذات، بدا وكأن الأمر قد انتهى. لا يُمكن لأي شيءٍ أن يُخفّف من حدّة صخب كارميكال. لم يكن هذا الرجل يُهدّده بأمرٍ لا يملك القدرة على تنفيذها.

صمت الاثنان للحظاتٍ خالطها التوتر على التليفون ثم قال كورت بثقة "لقد انتهى الأمر".

كان يوم الثلاثاء هو اليوم الأول لعودة إلين والش إلى مكتبها الصغير في "لاهاي" منذ مُغادرتها السودان قبل خمسة أسابيع. عَرَضَ عليها رؤساؤها في مكتب المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية أسبوعاً لتعتني بنفسها بعد عودتها من إفريقيا، لكن الكندية البالغة من العمر خمسة وثلاثين عاماً لم تأخذ يوماً واحداً فقط للذهاب إلى طبيب أمراض جلدية محليّ لفحص وجهها الذي لَفَحَتْهُ الشمس، وطبيب عام لإعطائها وصفةً طبيةً لعلاج الصداع النصفي الذي تُعاني منه منذ انفجار الشاحنة في الطريق إلى معسكر النازحين.

عندما انفتحت أبواب المصعد في طابق قسمها لتكشف عن حضورها، تهاَمَسَ المكتب كله من حولها بما حدث هناك في دارفور. كانت وسائل الإعلام الدولية قد غَطَّتْ الهجوم على قافلة سبيرانزا إنترناسيونالي، ومقتل ماريو بيانكي الشهير، واثنين من موظفيه المحليين على يد الميليشيا. لكن التقارير لم تذكر أن غربيين آخرين كانا في القافلة، لكن إلين تحدّثت إلى رؤساء مكتب المدعي العام، الذين نقلوا القصة بسرعة بالغة. وبعدها، نقل الخبر المُساعدون الإداريون لكبار الضباط الأصدقاء، وأصدقاء الأصدقاء الذين عملوا في جميع أنحاء المبنى. وقد أضفت حروق الشمس القاسية، والنظرة الحزينة التي سكنت عينيها مصداقيةً على تلك الشائعات، وعَرَفَتْ إلين أنه لن يمُرَّ وقت طويل قبل أن تُضطر إلى إرسال رسالة بريد إلكتروني تشكر فيها الجميع على اهتمامهم، وتطلب منهم في الوقت نفسه احترام خصوصيتها، وتفهم عدم استعدادها للحديث عمّا شهدته في دارفور.

على جهاز الكمبيوتر الخاص بها كان أمامها تقريران ينبغي أن تعكف عليهما، أحدهما عن حادثة اكتشافها للطائرة الروسية الخاصة بشركة تصدير الأسلحة، يتناول طاقمها وطيارها وخط سير رحلاتها، مع أي أسماء أو شهود إثبات ومعلومات مُتعلّقة بخطتها الأولية لدخول دارفور بأوراق اعتماد مزوّرة. حتى هذا الجزء كان من الصعب عليها كتابته. فقد حدثت أمور كثيرة منذ غادرت دارفور، فبدت الذكريات وكأنها قد تسرّبت من دماغها.

أما التقرير الآخر فكان عن مقتل اثنين من المسلّحين الجرحى والعُزّل على يد أمريكياني مجهول الهوية الذي طار إلى الفاشر مع الطائرة الروسية. كانت قد أنهت هذا التقرير. لكنها لم تستطع التوقّف عن التفكير فيه، لم تكن مُتأكّدة إن كانت كتبه في محاولة لتطهير أفكارها من هذه الفظاعة، أم أنها بالفعل سترفعه لرؤسائها وتفتح استجواباً مع هذا الرجل. وجدت نفسها مُشتتة بين التزامها الرسمي ومشاعرها تجاه هذا الغريب. لقد ساعدها وأقنعها بأنه ليس شريراً، لكنها شعرت بالقلق من أنه شخص يتأرجح على حافة الهاوية، رجل يجب إيقافه قبل ارتكاب المزيد من الفظائع.

وماذا تستنتج من خبر اختطاف رئيس السودان خلال معركة ضخمة مع المُتمرّدين على الساحل الشرقي للبلاد؟ هل يُمكن أن يكون للعميل 6 علاقة بذلك؟ كان التوقيت مُناسباً، ولكن لم يبدُ رجلاً يُمكنه السيطرة

على قوّة من المتمردين السودانيين.
فهو بالكاد يستطيع السيطرة على نفسه.
رنّ هاتف مكتبها وسمعت من يقول "هناك شخص يقول إن اسمه 6 على الهاتف، ويريد التحدّث معك
يا إلين".

أجابت "طبعًا حوليه عليّ" ثمّ "مرحبًا"؟
"لقد مرّت ثلاثة أيام، ظننت أنك ستقبضين عليّ حسب اتفاقنا".
"أين أنت"؟

بدلًا من الإجابة على سؤالها، قال "يجب أن نتحدّث".
"تلك الفوضى التي تجري في السودان الآن. لا يوجد الكثير من المعلومات.. أعلم أن معركة قد دارت،
وأن الرئيس مفقود أو مخطوف. لقد حدث ذلك في الوقت الذي قلت فيه إن شيئًا ما سيحدث، هل لك
علاقة بكل هذا"؟
"عبود معي هنا".

قالت بصوتٍ خافتٍ، لكنّ بحدة "يا إلهي"!
"هذا جنون، أليس كذلك"؟
تنفّست إلين بعصبيةٍ في السهاعة ونهضت عن كرسيها، وهي تُراقب باب مكتبها. أغلقت، وكادت تُسقط
الهاتف أثناء قيامها بذلك، سألته "ما الذي تقوله؟ ولماذا اتصلت بي أنا بالذات"؟
لم يجيبها في البداية، حتى إنها استطاعت سماع دقات قلبها.
"أتريدنه"؟
"ماذا"؟
"عبود، هو لك إذا أردته".
"أنا"؟

"نعم، ولمعلوماتك الشخصية، أنا لم أقتل أيّ صينيين، مثلما يُردّد في قنوات الأخبار".
"نعم، الكل يتحدّث عن هذا".
"هذا كذب، كل ما فعلته أني اختطفْتُ عبود، لكنني الآن لا أعرف حقًا ماذا يجب عليّ فعله به".
قالت إلين بهمسٍ عبر الهاتف "ألم.. ألم تفكّر في هذا مُسبقًا"؟
"الخطط تتغيّر دومًا، مثلما تفشل الصفقات. أنت تعرفين كيف تسير الأمور".
قالت "صحيح" لكنّ لم تكن لديها أي فكرة عمّا يتحدّث عنه.
"اسمعي، يقول إن لديه معلومات عن حرب ستشنّها الصين وروسيا على السودان، وهو فقط من
بمقدوره إيقافها".

"نعم، هناك إشاعات حول هذا".
"وما رأيك؟"

"حسنًا، لستُ خبيرة في السياسة؛ أنا أكثر انخراطًا في مجال السلاح".
"أنا مُتأكد من أنك أفضل شخصٍ يمكنني الاستعانة برأيه الآن على التلفزيون في الوقت الحالي، لذا أسألكِ عن رأيكِ".

"أعتقد أن الرئيس عبود مُحق في كل كلمةٍ قالها".
أطلعها كورت على كُلِّ ما عَرَفه. اعترفت له بمعرفتها بجزءٍ من القصة، لكنها انبهرت بحقيقة أن معلوماته جاءت مباشرةً من الرئيس السوداني نفسه.

"وقال إن هُناك اتفاقًا بالفعل لتسليم نفسه إلى المحكمة الجنائية الدولية".
تنحنت قبل أن تقول "هذا أعلى من قُدراتي".
"حسنًا، ما رأيك في أن تساعد مؤسستك في التقاطنا أنا وعبود من على ساحل البحر الأحمر، وإذا نجحتِ في إقناعهم سيزيد راتبك قليلًا".

استشاطت إلين غضبًا، وصاحت به "لا أبحث عن المال".
"حسنًا، تبرّعي به للجمعيات الخيرية؛ أنا لا أهتم. كل ما يُهمني الآن إيقاف هذه المهزلة قبل أن يسوء الوضع أكثر".

"أهذا هو دافعك الوحيد؟"
"نعم".

"لماذا عليّ تصديقك؟!"

"لأن رؤسائي أمروني بقتله ورفضتُ، من ذا الذي لا يريد قتله! لكنني أومن أن بقاءه حيًّا أكثر أهميةً وجدوى".

تخيّل جنترى أنها لا تزال في حالة صدمة مما حدث في دارفور. وعَرَف أنها على الأرجح لا تثق به، ومن المؤكّد أن هذه المُحادثة الهاتفية كانت حدثًا سيراليًّا آخر يواجه دماغها صعوبةً في استيعابه، لذا لم يُفاجأ بتدّدها لفترةٍ طويلة. وأخيرًا تنحنت قبل أن تقول "حسنًا، سأذهب الآن وأتكلم مع مديري، لنجد طريقةً لناي وناخذ عبود".

"عظيم".

"وأنت، أستاذتي معه إلى لاهاي؟"

"ونحرم المحكمة الجنائية الدولية من مُطاردةٍ أخرى غير مُثمرة؟"
ضحكت إلين ضحكةً خافتة، وكانت أول مرة يسمعها تضحك تلك الضحكة اللطيفة، وقالت "لم أبدأ إجراءاتي ضدك".

"تقصدين لم تبدئيها بعد؟"

سادت لحظة صمت. عَرَفَ جنترى من خلال الفواصل بين كلماتها أنها مُتَرَدِّدة للغاية، ثم قالت "في داخلك إنسان جيد يا 6، يُمكنني رؤية هذا حتى في ثنايا شخصيتك الجافة".

"أأنتِ دكتورة نفسية الآن؟"

"لا يتطلَّب الأمر أن تكون طبيباً نفسياً لترى دواخل الناس".

"أنتِ لا تعرفيني بقدرٍ كافٍ".

"كل ما أعرفه عنك أنك لست عميل سي آي إيه، لقد قمتُ بتحرياتى وأخبروني بعدم وجود أي عملاء سي آي إيه هناك".

"هذا نفس ما أخبرتُك به".

"لكن إن لم تكن منهم، فمن أنت؟"

"لا يُهم".

"بالطبع يهم، لن تُساعدك المحكمة الجنائية الدولية إن لم يعرفوا هويتك".

"أنا عميل خاص".

"إذن، جهة خاصة كلَّفتك بخطف الرئيس السوداني وتسليمه للمحكمة الجنائية الدولية؟"

"بالضبط".

"ثم أمروك بقتله".

"نعم".

صمتت للحظة، غير مُصدِّقة، قبل أن تقول "ومن هذه الجهة الخاصَّة؟"

"لا يمكنني إخبارك".

"لن أساعدك إن لم تُخبرني".

صمت الرجل الرمادي قليلاً، كان يعرف أنه سيصل في جداولهما العقيم لهذه النقطة المفصلية، قال "حسنًا، أنا أعمل لصالح مواطنين أمريكيين من القطاع الخاص، أشخاص يعملون في مجال الفنون وصناعة الترفيه بشكلٍ رئيسي".

عبود بنفسه هو من أوحى له بهذه الفكرة.

"أتعني أن نجومًا سينمائيين هم من كلَّفوك بقتل عبود؟"

"هذا ما قُلْتُهُ بالحرف".

"لا أصدِّقك".

كانت أُنْبه من أن تُصدِّق هذه القصة المزيّفة، لكنّها في الوقت نفسه أذكى من أن تضيّع من يدها فرصة تقديم عبود على طبقٍ من فضة للمؤسسة التي تعمل لصالحها، ستُجاريه.

أجابها "وأنا مُتمسِّك بهذه القصة".

قالتها بنبرةٍ تشي بقلقها من مرحلة إقناع من هم فوقها بنفس الحيلة التي استخدمها معها "حسنًا، سأعاود الاتصال بك، أنت في مكانٍ آمنٍ الآن؟"

زفر كورت قائلاً "حتى الآن نعم".

"سأسرع في اتخاذ قرار يُنقذ الموقف".

بإزاء ساحل البحر الأحمر وتلاله انطلق الرجل الرمادي بالسيارة السكودا ذات الزجاج "الفاميه" شمالاً على الطريق الساحلي السريع الذي يقود من بورتسودان إلى الحدود المصرية بأقصى سرعةٍ ممكنة. وكان الرئيس عبود بالخلف يُحملق في الطبيعة تحت ضوء القمر بملامح شاردة كأنه لم يخرج من قصره للشوارع العامة منذ مائة عام.

قبل ذلك بساعة، دار حول غرب بورتسودان تحت جُحج الظلام، والآن أصبح الطريق المُنبسط ملكًا للسكودا وحدها. شعر كورت بالقلق من نقاط التفتيش العسكرية، لكن في طريقهما لم يمرَّ بأيٍّ منها، كانت هناك مركبات جيش وشرطة بين حين والآخر على جانبي الطريق لكن زجاج السيارة أخفى هويتها بشكلٍ كامل.

انعطف الطريق الساحلي إلى الداخل لبضعة أميال، باتجاه التلال، ولكن ليس بعيداً إلى الشرق، قبل أن يعود إلى الشمال. وفي السابعة صباحاً، انعطف على الطريق السريع، واتبع طريقاً رملياً وترابياً ومرجانياً يتجه عائداً نحو الماء. كما مرَّ ببلداتٍ صغيرة على جانبي الطريق، اعتلت الطريق فوق هضاب صخرية.

استغرق الأمر يوماً كاملاً من فريق التدخل في المحكمة الجنائية الدولية لوضع خطةٍ لالتقاط أوريكس، ولم يُطلعوا كورت على كثيرٍ من التفاصيل. كل ما عرفه هو أن عليه قيادة سيارةٍ إلى منتجع غوصٍ على شاطئ البحر تُديره هولندا على بُعد عشرين ميلاً فقط من الحدود المصرية، وانتظار فريق مُحققين قادم من اليونان، لن تكون إلين والش معهم، وهو الأمر الذي وجده كورت مؤسفاً، لكنها ستتابع من مكتبها تحركاتهم حتى يخرجوا كلهم من السودان آمينين ومعهم الرئيس.

لم تكن لدى الرجل الرمادي نية كاملة في المغادرة مع فريق المحكمة الجنائية الدولية. كلاً، سيُسلمهم أوريكس في القارب السريع، أو المروحية، أو سيارة الدفع الرباعي، أو أيّاً كانت الطريقة التي سيُخرجون بها الرئيس، ثم يعود هو بالسيارة إلى الاتجاه الآخر. اعتقد أن بإمكانه الحصول على قارب غوصٍ صغير من المنتجع والتوجه شمالاً نحو مصر. سينفذ منه الوقود قبل وصوله إلى الحدود، لكن بإمكانه أيضاً أن يهبط ويتجه شمالاً، وعبر علاقاته مع البدو في الصحاري يرتب انتقاله لنقطةٍ آمنةٍ يَحْتبئ فيها من كل أعدائه الذين يتكاثرون مع كل دقيقة.

لم يكن ألم الجرح في ظهره قد زال تماماً، وقد فرغت شنتته من أي مضادات حيوية أو مُسكّنات للألم. سكب آخر ما تبقى من المطهر على جرحه قبل انطلاقه هو وأوريكس من مخبئها الثاني في الليلة السابقة، وألقى بالمُسكّنات في حفرةٍ بعد ربع ساعة من ذلك، مقاوماً رغبته الكبيرة في تناؤها. عليه أن يستريح من الألم، وقال لنفسه إن هذا سيجعله أكثر صلابةً وذكاءً واستعداداً لما سيأتي في المنعطف التالي.

لكن في الغالب جعله ذلك أكثر بؤساً.

وكان لا يزال يحتفظ بجهاز اللاسلكي الموصول بيخت القيادة، استغرق كورت وقتاً ليُنكك الجهاز بأدواته المتعددة ليتأكد أنه لا يحتوي في داخله على أي نقطة تتبّع ترصد إحدائيات موقعه وتنقلها لهيئتاور. أخبرته الإشارة الصادرة منه إلى أن قوات السبي آي إيه ما زالت في الجنوب الشرقي، في المياه الدولية. لم يتصل به زاك منذ يوم ونصف، وشعر كورت بالقلق من ذلك الصمت الطويل. من الممكن أن يكون قائده (السابق) في أي مكان، ربما على اليخت، أو في الولايات المتحدة، أو أمامه في الطريق مع قاذفة مضادة للدبابات.

فقد كان زاك مُرعباً أكثر من قوّات الأمن العام، أو الأمن القومي، وبالتأكيد أكثر رعباً من المحكمة الجنائية الدولية.

انعطف الطريق غير المُعبّد إلى الشمال، واستمرّ في طريقه، لكن في هيئة ممرّ يقود نحو المحيط والمنتجع. وفي ضوء الشمس المتزايد بسرعة، تمكّن جنترى من رؤية مبنى رئيسي متوسط الحجم، وعلى جانبيه أكواخ فردية صغيرة على الشاطئ، تُضيئها الشمس البرتقالية التي يُضيء ثلثها خط أفق البحر الأحمر. تدلّت سلسلة ثقيلة من الأعمدة الأسمنتية على كلا الجانبين. لم تبد هائلة بشكل خاص، لكن لم يكن هناك أي وسيلة لاختراقها بنجاح.

بعد مائتي متر، هناك كثبان رملية مُنخفضة على كلا الجانبين، وأعشاب بحرية بُنية تتحرك بلطف مع النسيم الدافئ. توجّب عليهم السير بقية الطريق.

أوقف كورت السيارة على جانب الطريق، وأمر عبود قائلاً "اخرج".

قال الرئيس "لم آتِ إلى هنا من قبل لكنني أعرف هذه المنطقة، يوجد هنا منتجع على ما أتذكّر يملكه زوجان أوروبيان، أمسكنا بهما يُقدّمان الكحول، لم نستطع مُعاقبتها، لكننا ضايقناهما بالضرائب". صمت للحظة، قبل أن يُضيف "الكفّار".

"قلت لك اخرج!"

أمره كورت ثم نزل من على مقعده، سحبه من قميصه وأجره على الوقوف.

"متى سيصلون؟"

"لا أعرف".

"كيف سيتجاوزون قوارب دوريات حرس الحدود؟"

دفعه كورت إلى الأمام نحو الأكواخ قائلاً "لا أعرف".

"إلى أين ستّجه السفينة عندما تُغادر من هنا؟ على طول الطريق إلى الميناء غرباً؟ أم سندهب إلى...".

"لا أعرف".

"مستر 6، أنت لا تملك أدنى فكرة عن أي خطوة، أليس كذلك؟ من فضلك، دعني أتواصل مع معارفي في

الغرب، يُمكنني القيام بترتيبات من شأنها أن تُرضي الجميع".

"لا".

"نحن يا صديقي في نفس الفريق معًا. أنت تفهم هذا الآن، أليس كذلك؟ سأتصل ببعض الأشخاص الذين تعاملت معهم لسنواتٍ عديدة. إنهم مُخلصون جدًّا لي".
قال كورت بذهول "هذا ما أخشاه".

دفع الرئيس إلى الأمام مرَّةً أخرى في الممرِّ المليء بالرمال، متجاوزًا لافتةً مُنخفضة مكتوبة بالعربية، لكنَّ عينيَّ اتجهتا إلى اليمين، إلى بعيد، نحو ظلال الصباح العميقة. على بُعد حوالي ستمائة متر تقريبًا من الساحل جنوبًا، ارتفعت التضاريس بحدَّةٍ عند الهضبة الصخرية. هُناك، في ظلال الصباح، انعكست أشعة الشمس على النوافذ والأسطح الصفيحية للمباني المربعة. لم يستطع كورت رؤية أي حركة، ولا أي علامةٍ على وجود أي شيءٍ على قيد الحياة، لكنَّه شعر، رغم ذلك، أنه مُراقَّب.
كان قد قطع أكثر من مُنتصف الطريق إلى الأكواخ دون أي احتجاج من عبود. ثم استدار الرئيس فجأة. كان كورت ينظر جنوبًا، قبل أن يتبَّه إلى أسيره.

"أريدك أن تقطع لي وعدًا. إن بقينا هنا حتى الغد، سيُشكَّل الأمر خطرًا على كلينا. بالنسبة لك على وجه الخصوص، لأنني، على عكسك، لا يزال لديَّ بعض الأصدقاء في الخارج يبحثون عني، ويريدون مُساعدتي. إذا بقينا هنا لمدة أربع وعشرين ساعة، يُمكنك التأكُّد من أن أحدهم، أقصد الموظَّفين، أو الملاك، أو حتى هؤلاء الذين رأوا السيارة هنا، سيُبلغ عن مكاننا. ثم سيأتون، والآن أقصد الجميع، الصديق والعدو على حدِّ سواء. لقد كنتُ قائدًا عسكريًّا لسنواتٍ طويلةٍ قبل أن أصبح رئيسًا، أودَّ إخبارك أن هذه البقعة التي اخترتها للانتظار استراتيجيًّا سيئةٌ وتُعرض كلينا لكل أشكال المخاطر الممكنة. فظهرها إلى المحيط، ووجهها إلى عشرات الآلاف من الكثبان الرملية".
"اخرس".

"أنت حتى لا تعرف متى ستُصل المساعدة، أو ما هو شكلها؟ أظن كان بإمكانك اختيار مكانٍ أفضل...".

قال كورت مُجددًا "اخرس!"

ثم دفع عبود إلى الأمام، ورغم غضبه الذي صبَّه عليه إلا أنه في داخله لم يُنكر أن الرجل كان بشكلٍ ما على حق، في كلِّ ما قاله. إنها فوضى، محاولة الاستخراج هذه التي قام بها رجلٌ واحد في منطقةٍ مرفوضةٍ من قبل قوَّة مجهولة.

دفع كورت الرئيس مُجددًا، وجعله هذا يشعر ببعض التحسُّن لتحويل بعض تركيزه على شخصٍ آخر غير نفسه.

رنَّ تليفونه، سبعون مترًا حتى يصل لوجهته.

أجاب، وتمنَّى أن تكون إلين هي المتصلة جالبةً معها أي تفاصيل جديدة تعدل مزاجه حول ما يحدث:
"مرحبًا".

اللعنة! إنه زاك، ولن تُفيد المحادثة معه في تحسين مزاج جنترى.

ومع ذلك، فكّر كورت أنه رُبما يتمكن من استخلاص بعض المعلومات منه. فما دام يتّصل به، فهو لا يُطارده.

"أهلاً كورت، كيف حالك الآن؟"

"ليس هناك أسوأ مما يحدث، شكرًا لسؤالك".
ستون مترًا للوصول.

"أعدتَ إلى رُشدك، وذبحتَ صاحبك الرئيس؟"
"نعم، لقد حدث بالفعل".

"لا أصدّقك".

"لديك كل الحقّ في ذلك".

"كيف انعدمت الثقة من العالم يا عزيزي بهذا الشكل! اسمع يا أخي، أردتُ فقط إعطاءك بعض الأخبار الجيدة لأنه، رغم غبائك، أظنّك تحتاج إليها".

توقف عبود، وحاول سؤال كورت عن هوية المتّصل، لكنّ جنتري دفعه بقوة إلى الأمام مجددًا.
"أخبار جيدة؟ حسنًا، هذا عظيم، أخبرني".

"يبدو يوم سعدك حقًا".

خمسون مترًا للوصول.

"حسنًا، لماذا يُعدُّ اليوم هو يوم سعدي يا زاك؟"

سادت لحظة طويلة من الصمت. ظنّ كورت أن بإمكانه سماع صوت زاك وهو يحك ذقنه، ولحيته الخشنة تخدش ميكروفونه. وأخيرًا، أجابه زاك "اليوم هو يوم سعدك، لأنك هديني الثانوي، وأنا متأكد من أنه لن يضيّق الوقت لإطلاق طلقة واحدة فقط".

أربعون مترًا للوصول.

توقف كورت. رفع رأسه إلى الجنوب، نحو المباني التي تبعد حوالي سبعمائة متر. لمح وميض ضوءٍ في ظل الصباح العميق من سطح أعلى مبنى في الهضبة.

وفي أقل من ثانية، أدار جنتري رأسه نحو الرئيس عبود، وانطلق فاردًا ذراعيه نحوه، تاركًا هاتفه يسقط أرضًا، وفي اللحظة نفسها، صرخ أيضًا "انبطح فورًا".

ارتفع كتفا الرئيس بكري علي عبود مُندهشًا من الصرخة القادمة من خلفه، لكن الرجل الرمادي تأخّر إذ تفجّر الدم من رقبتة وتناثرت أنسجته وقطّع من جلده ورذاذ دمه على كئبان الرمال، ظلت الجثة بعدها عالقة في الهواء للحظات قبل أن تهوي بكل وزنها على رمال الصحراء.

هبط كورت فوقه وهو ينزف، وأدرك أن الرجل قد مات، ثمّ تدحرج من فوق عبود ليستلقي على الممر.

"لااااا".

صرخ كورت وهو يتأمل القتيل، لم يكن همّه ضياع مهمته وخسارته لرهينته، بل عجزه النهائي الأبدى عن إيقاف حرب أهلية سيروح ضحيتها آلاف الأبرياء.

انبطح أرضاً، ونظر إلى أعلى نحو المباني. كان السطح الذي أتت منه الرصاصة خلف طرف كثيبٍ مُرتفع على جانب الطريق، لكن كورت عرف أن زاك سيعيد تموضعه بعد تلك الطلقة، وإذا تمكّن من الصعود إلى أعلى التل، فسيُمكنه رؤية جنترى بُمُنتهى الوضوح. لذا نهض كورت على رُكبتيه، وانطلق إلى الأمام، ودفع بهاتفه في طريقه إلى الكُثبان الرملية. واندفع إلى أخدودٍ صغيرٍ قبالة الممر، ثم تدحرج يميناً، إلى الشرق، عائداً نحو السيّارة، ثم انبطح مرّةً أخرى.

ضرب الرمال بقبضته المُبلّلة بالدماء مراراً وتكراراً في إحباطٍ شديد، بينما سال عرقه على ملابسه والرمال اللزجة والغبار يكسو جلده حيث لَطَّخته دماء عبود.

صاح صوت زاك عبر الهاتف في يد كورت "جهيل" وضعه جنترى على أذنه، وسَمِعَ زاك يُتابع حديثه "ستمائة وتسعون متراً، في ضوء خافت ورياح سُرعته نصف ميل في الساعة. كانت تلك الطلقة أشبه بطلقاتك، أليس كذلك؟"

ضغط كورت جبهته في التُّراب والرمال. وبدأ ينتحب ويرتجف، تحت وطأة ما يُعانيه من إرهاقٍ وعدوى وكُل شيءٍ امتصّ الحياة منه.

استمرّ صوت هايتاور المدوّي في التدفُّق من مكبّر الصوت الصغير "يا لك من وغدٍ سريع. لو لم تكن مريضاً للغاية بسبب ظهره المُتقيح هذا، أراهن أنك كنت ستعرض طريق تلك الطلقة وتفدي صديقك الرئيس. ما مدى روعة هذا يا كورت؟ في عيد الميلاد الماضي أصبت أنت الرئيس النيجيري السابق، والآن أصبت أنا الرئيس السوداني الحالي، لننظّف تلك القارة اللعينة، ما رأيك؟ لحظة، لحظة، نسيت أنك لن تعيش طويلاً بما فيه الكفاية لقتل أي شخصٍ آخر، فإما أن تقتلك العدوى، أو تنالك أيدي آلاف الحمقى الذين يُطاردونك من الأمن الوطني والجيش السوداني، أو سأقتلك أنا بيدي".

استلقى كورت هناك مُرتجفاً، وكأن الجو شديد البرودة، وهو شبه منهار جسدياً وعقلياً. تَلَطَّح جسده وملابسه بالرمال المغموسة بالدماء. تنفّس بعمق قبل أن يقول "لقد كانت لديك فرصة واحدة لتمنعني من قتلك. كُنْتُ في مرمالك، واتخذت قرارك. ويا له من قرارٍ سيئٍ يا زاك".

سادت لحظة من الصمت، حتى شعر كورت بالقلق، قبل أن يقول زاك "لا يهم يا صديقي، ليس أمامك سوى أن تبقى مثل فأرٍ في هذه الحفرة حتى تموت تحت الأرض، أما إذا حالفك الحظ وخرجت من السودان فقد اتفقت مع داني على تشكيل فرقةٍ تحت قيادتي لمطاردتك".

"سأوفّر عليكم بعض الوقت تعال إلى هنا الآن، أنا في انتظارك".

أجابته "أودُّ ذلك حقاً يا صديقي، ولكنني أعتقد أنني سأخرج من هناك قبل أن ينكشف أمر الرئيس الميّت الذي تُلطّخ دماؤه قميصك. لكنني لم أبتعد كثيراً. لأن ميلو ودان وبقية الرفاق هناك على اليخت، لقد خرجوا

من السودان، ولم يعد هنا سوى أنا.. وأنت". صمت لحظة، ثم ضحك ضحكةً مكتومة، وقال "نعم، نسيت، بالإضافة إلى خمسمائة ألف رجل من القوات المسلحة السودانية".

"سأحرقهم كلهم حتى أصل لك يا زاك، مع السلامة".

قال هايتاور وجنتري يُنهي المُكالمة "انتهى الكلام يا كورت، ومن هذه اللحظة أنت لست العميل 6، أنت مجرد عدو لنا". ثم أنهى المُكالمة.

كان كورت مريضًا كالكلب، نصف ميت في خندق، يفتقر إلى العتاد والأسلحة. لقد فشل.. استلقى على الرمال، والشمس تسطع بين الأكواخ على الماء. جثا على رُكبتيه ببطء، وبدأ يزحف نحو المُتجمع، ورأسه مُنكس في حال كان زاك لا يزال يُجدد من خلال منظار البندقية فوق الهضبة.

كان القمر قد اختفى، وانعكس على مياه البحر الأحمر ضوء مليون نجم، لكن ذلك لم يكن كافياً ليوفّر إضاءةً لجنترى، ليرى اليخت من بعيد. حدّق في اتجاه الجنوب الشرقي، مُتبعًا مؤشر الاتجاه في جهاز الجي بي إس في يده. كان على بُعد أقل من ميلٍ واحد، لذا أوقف مُحركَ الزودياك القابل للنفخ، والذي يتّسع لأربعة أشخاص.

أخبره جهاز الجي بي إس أنه على بُعد أربعة أميالٍ من الشاطئ الآن، لكنّه لم يستطع رؤية اليابسة في الظلام. وعندما أطفأ مُحركه، ساد الصمت التام، وسيطر الظلام الدامس في كلّ الاتجاهات باستثناء السماء.

لم يكن المحيط ساكنًا، بل ارتفع وهبط بصمت، دون أمواج مُتكرّرة أو بيضاء، بل مُجرّد اندفاعاتٍ لطيفة ترفع الرُّجل الرمادي وقاربه بضعة أمتار في الهواء، ثم تتركه يعود إلى الأسفل مرّةً أخرى. كان محسوسًا، لا يُرى في الظلام، لكن الانعكاس العرضي لسطح المحيط أظهر له تلالًا ووديانًا في كلّ مكان، فوق المياه السوداء التي تموجت مع التيارات السُّفلية للبحر الأحمر.

كان يومًا طويلًا. بعد أن شقّ طريقه إلى مُتجمع الغوص، وجده خاليًا إلا من مالكيه. كان جهاز الأمن الوطني قد جمع جميع النُزلاء الغربيين القلائل ونقلهم بالشاحنات إلى بورتسودان لإجراء مُقابلات مطوّلة معهم، بحثًا عن خاطفي السيّد الرئيس.

قدّم كورت أعظم خدمةٍ يُمكن أن يتخيّلها للزوجين الهولنديين. فقد صوّب مُسدّسه إلى رأسيهما، وقيدهما في عُرفة الطعام. عرف أن السودانيين سيجدون جُثة السيّد الرئيس بالقرب من المكان، وأنهم سيستجوبون هذين المواطنين العجوزين. وكل ما خافه أن يجعلهما بأي شكل من الأشكال شريكين في الجريمة بعد وقوعها، فربما يتعثران في روايتهما أو يقدّمان دليلًا ما يُدينهما. كما أنّه من المُحتمل جدًّا أن يكون جهاز الأمن القومي قد ركب أجهزة تصنّت في جميع أنحاء المُتجمع الغربي كمسألةٍ طبيعية.

لذا لعب جنترى دور المهووس المُلطّخ بالدماء إلى أقصى حد، وأخذ يصرّخ ويأمر الأوروبيين الخائفين. فأخذ منهم الطعام والماء والإمدادات الطبيّة وشاحنة صغيرة وقاربًا بمُحركٍ خارجي ومُعدّات غوص دون أن يُشير إليهم بإيماءةٍ شكر واحدة. قاد الشاحنة مسافة عشرة أميالٍ إلى الجنوب، وانتظر في المُستنقع حتى حلول الظلام، ثم انطلق إلى اليخت، مُتبعًا إحدائيات جهاز الجي بي إس.

عرف أن عضوي الفريق الناجيين، قد انسحبا من المنطقة مع كل أفراد الطاقم. وتمنى جنترى أن يكون هايتاور لا يزال في البر الرئيسي يبحث عنه. من المُحتمل أن يكون قد عاد إلى اليخت. فلديّه الغواصة الصغيرة، بعد كل شيء، لذا بإمكانه الذهاب بسهولةٍ كما يحلو له. أراد كورت الوصول إلى اليخت لاستخدامه في الفرار من السودان. فكرته السابقة حول عبور الحدود كانت محض خيال الآن. بمجرد العثور على جُثة السيّد الرئيس، تحوّل هذا الجزء من البلاد إلى مُعتقل بنسبة 100٪.

لذا بحث جنترى في المحيط المظلم عن اليخت؛ بنيت سرقة والإبحار بعيداً إلى بر الأمان، رغم أنه لم يكن يعرف شيئاً عن الإبحار باليخوت.

تحرك قارب كورت مع سطح البحر المتمايل بلطف. أشار جهاز الجي بي إس إلى أن القارب ليس بعيداً، لذا انتظر حتى يلحق باندفاع الأمواج التي جعلته أعلى وبالتالي أكثر قدرة على رؤية اليخت من بعيد. هناك، على بُعد ربع ميل، كان هناك خيال أكثر سواداً من البحر الرمادي الداكن. لا يوجد ضوء واحد مرئي على متنه. يبدو أنه فارغ!

ربط كورت حقيبة شبكية على خصره. كان بداخلها مُسدسه، وآخر سبع طلقاتٍ من الذخيرة، وسكين قابل للطي، وهاتفه المتصل بالأقمار الصناعية في كيس مُقاوم للماء. وبعد ذلك، وضع جهاز التحكم في الطفو على كتفيه، والذي كان قد ركب خزّان الغوص عليه بالفعل. ثم ارتدى قناعه، وأنبوب التنفس، والزعانف. أخذ بعض الأنفاس التجريبية في جهاز تنظيم الطفو، ثم انزلق بهدوءٍ في الماء الدافئ.

وبينما يسبح، ركّز على مهمته ليشغل ذهنه عن الألم المبرح في كتفه اليسرى، وهو ألم لظالما كان موجوداً، لكنه يتصدّر وعيه كلما مدّ يده إلى الأمام.

وسرعان ما انزلق ذهنه خارج المهمة، إلى واحدةٍ من مئات الحكايات التي جمعها عن مسرح العمليات هذا، سواء من خلال قراءة مواد سيد أو زاك. لم تكن هذه المعلومة بالذات تبدو بتلك الأهمية في ذلك الوقت، لكنها في الوقت الحاضر بدت حاسمة للغاية.

هناك أربعة أنواع من أسماك القرش في البحر الأحمر؛ الممرضة، وذات الطرف الأبيض، والمرجانية الرمادية، والمطرقة.

واصل كورت السباحة غاضباً، إذ لم يستطع إبعاد فكرة أن تلتهمه سمكة قرش جائعة عن ذهنه. بقي تحت سطح الماء مباشرة، وتفقد البوصلة الموجودة على سطح يده من وقتٍ لآخر ليتأكد من أنه يسبح في الاتجاه الصحيح. بعد عشر دقائق، صعد إلى السطح في صمت، وانتظر لحظة الحصول على نقطة مراقبة أفضل. وسرعان ما أتت إذ وجد اليخت هناك على بُعد حوالي سبعين ياردة.

وعندما بدأ ينخفص مع الموجة مرّة أخرى، لفتت نظره مقدّمة اليخت، فقد كتبت اسمه عليها إما بحروفٍ بيضاء أو صفراء.

حروف عربية؟ ما هذا بحق الجحيم؟

لم تسبق له رؤية هانا، لكنه كان متأكدًا من أنه ليس مُتنكراً في هيئة قارب عربي. أخبره زاك كيف أقنعوا السودانيين بأنهم أستراليون. وكان من الصعب القيام بذلك بيختٍ يحمل اسماً عربياً.

اقترب جنترى من اليخت، وحدّق في الظلام محولاً قراءة اسمه. وعلى بُعد أربعين ياردة، استطاع رؤية الحروف، لكن لغته العربية المكتوبة أضعف من المنطوقة.

نطق الحروف بصوتٍ عالٍ "فا - ط - مة". فاطمة، لا هانا.
لكن الإشارة تُبعث من ذلك اليخت، وهو ما يعني بوضوح أن هُناك من أخذ جهاز الإرسال من هانا،
ووضعه هُنا.

شخص ما؟ لا، ليس شخصًا ما، بل زاك هايتاور.
وأشار هذا أيضًا إلى شيءٍ آخر بالنسبة إلى كورت.
قال لنفسه: اللعنة، إنه فسخ لعين!

تلقتَ للوراء في الظلام، لكنّه لم يجد الزورق الذي تركه خلفه قبل عشر دقائق في المياه المفتوحة.
عليه أن يمضي قدمًا.

أنزل قناعه على عينيه وبدأ في الغوص مرّةً أخرى، لكنّه أوقف نفسه. ظنّ أنه سمع ضجيجًا، فنفض الماء
من أذنيه، وأطرق برأسه.
هُناك رجل يصرخ.

بووووم! وطلق ناري لا شكّ فيه عبر صمت الليل، غطس كورت خوفًا من أن يكون هُناك مَنْ رصده.
لكن لا! استمرّ إطلاق النار تحت الماء. المزيد من الرصاصات. مُسدّس يردّ على آخر، ثمّ ثالث، ووسط
هذه المُسدّسات، هُناك بندقية، يُمكن لأذن كورت المُتمرسّة أن تُميّزها، لكن هُناك مُسدّس أيضًا، سريع
ومضبوط.

صرخة أخرى. ظهر كورت في محاولة لفهم ما سمعه.

شعر بجسده يرتفع في الماء الدافئ، واندفع إلى الأعلى نحو النجوم، ثم رأى ومضات الضوء في السماء فوق
اليخت قبل دخوله مجال رؤيته.

ثم ها هو ذا. رأى اليخت، لكنّه فارغ، ليس هُناك أحد على سطحه.

دوى صوت وابل آخر من إطلاق النار والومضات. وبدا لجنّري أن القتال يدور في الطوابق السُفلية من
اليخت الذي يبلغ طوله ثمانين قدمًا.

هدأ كل شيءٍ للحظات، لكن هذا الهدوء انكسر بسبب صوت مُحركٍ خارجي صغير بدأ يعمل. وبعد ثوانٍ
ظهر زورق خشبي من خلف مؤخرة اليخت "فاطمة"، وكان على متنه رجل واحد يتحكّم في مُحركه، ودفعه
إلى أقصى حدّ مُنطلقًا في الظلام.

ماذا يحدث بحقّ الجحيم؟ تساءل كورت عمّا إن كان زاك على متن ذلك القارب، وفوجئ بمجموعةٍ من
الجنود.

سبح فوق الماء بقية الطريق، مُراقبًا بحذرٍ سطح اليخت وطوابقه العُليا. أجهد نفسه لسماع أي ضوضاء
غير صوت الأمواج الناتج عن الزورق المُغادر، لكن لم يكن هُناك شيءٍ سواه.

إلى أن وصل إلى سُلّم الصعود إلى مؤخرة اليخت. وفي ذلك الوقت، انطلقت طلقة مُسدّس من عيارٍ
صغير من أسفل السطح، وأجابتها على الفور تقريبًا طلقة من مُسدّس أكبر.

ساد الصمت مرّة أخرى، باستثناء صوت الأمواج المتلاطمة.

خلع كورت زعانفه، وفكّ معدات غوصه، وتركها تنجرف بعيداً. أمسك بالسُّلم، وصعدَه ببطءٍ وحذرٍ وهدوءٍ قدر استطاعته. تدرّج من فوق الدرابزين إلى سطح اليخت بقدميه العاريتين، وتوجَّع من ألم كتفه، وأمسك بمُسدّسه المغمور بالمياه، ولكن يُمكن الاعتماد عليه. انتقل بحذرٍ إلى الممر، لينزل إلى الطوابق السفلية لليخت المظلم.

رأى أول جثتين في أعلى الدرج. رجلان أسودان يرتديان زيّاً رسمياً، مُصابان بطلقات نارية في صدريهما. لم يبدُ وكأنهما من البحرية السودانية، ولم يكن ذلك مُفاجئاً. فقوّة البحرية السودانية صغيرة للغاية، ومهمتها تفقّد وإعادة كُل جسم عائم قبالة سواحلها، الكبيرة للغاية، ومن المُحتمل للغاية أن جيش وحكومة السودان قد استأجروا قواربٍ وزوارق لنقل الجنود إلى كل اليخوت والسفن للصعود إليها وتفتيشها. بجانب الجثث كانت بنادق الكلاشينكوف مُلقاة، فكّر الرجل الرمادي في التقاط واحدة منها ثم تراجع خوفاً من أن يُحدث ضوضاء إذا لجأ لاستخدامها.

لطّخت الدماء خشب الماهوجني على درجات الممر، الذي تبعه كورت إلى الأسفل مُشهرًا مُسدّسه. دخل إلى الطابق السفلي، ورأى المذبحة في الضوء الأخضر الخافت لتوهُّج حوض السمك على الحائط. رجلان أسودان آخران ميّتان، ورجل أبيض مُلقى على ظهره في مُتصف الأرض، وقدماه باتجاه جنثري والسُّلم.

كان أعزل، وصدّره مُضرباً بالدماء. لكنّه لم يكن ميّتا. فتح كورت الضوء العلوي للطابق، وأبقى سلاحه مصوباً على الرجل الجريح، وناداه من الجانب الآخر من العُرفة "زاك!"

سأله هايتاور، دون أن ينظر إليه، وبصوتٍ ضعيفٍ "أتعرف لماذا يُعتبر جرح الصدر هو الألعن؟" أوماً كورت برأسه ببطءٍ وقال "لأنه لا يُمكنك تحمُّل ألمه". أوماً زاك برأسه. ضمّدت ذراعه اليمنى بشدّة من أعلى وأسفل المرفق، من المكان الذي أصيب فيه قبل يومين.

سأله جنثري "ماذا حدث؟"

"إنه مُسدّس لعين. قد تظن أنني تعلمتُ الدرس بعد أن أصبّنتي بمُسدّس عام 2006" نظر كورت مرّةً أخرى إلى الرجلين عند أسفل الدرج. حمل كلاهما بندقيّةً بجانب جسديهما، لكن مُسدّساً ألياً صغيراً قبع هناك أيضاً بجانب يد أحدهما. بدا الرجل ميّتا بوضوح الآن، لكن كورت أطلق النار عليه في مؤخرة عنقه على أي حال، ثم أعاد مُسدّسه إلى جرابه، وسأله "لمن هذا القارب؟"

"لا أعرف، لقد صعّدت قوات البحرية السودانية اعتلت كل اليخوت والقِطع الراسية على الساحل، وسحبوا الكثير من الناس إلى بورتسودان، للبحث عن أي عناصر متورّطة في خطف الرئيس. ظننتُ أنني إن

صعدتُ على متن أحد اليخوت الفارغة، فلن يعودوا لنهبه. لم يكن هناك سبب لوجود هؤلاء الرجال هنا، لكن شاءت الأقدار أن نصطدم بعضنا ببعض".

"ماذا عن الغواصة الصغيرة؟"

نظر هايتاور إلى جنترى عبر جفنيه المُسدَّلين، وقال "لقد أغرقتها، أوامر داني، وكان من المفترض أن أستخدم هذا المركب في الوصول إلى إريتريا".

نظر كورت إلى قائد فريقه السابق لعدّة ثوانٍ ثم قال "يمكنني أن أوقف لك نزيك، وسأعمل على استقرار حالتك، ثم سنخرج من هنا".

"لا أريد مساعدتك".

"كما تشاء، ستموت إن لم تحضل عليها".

"سيكون هناك زورق حربي بحري خلال دقائق قليلة. على الأرجح أن زُبان المركب الشراعي الذي أحضر هؤلاء الرجال إلى هنا يتصل بالبحرية بالفعل".

"إذن من الأفضل أن أبدأ العمل. سأعالجك، لكن قبل ذلك، أحتاج منك بعض الإجابات".
"كفى يا كورت".

"لماذا صفتيموني؟ من الذي أطلق النار عليّ؟ ما الخطأ الذي ارتكبته بحق الجحيم؟"

"عندما يصل الزورق الحربي إلى هنا، لن يصعد رجاله على متن اليخت، بل سيُفجرونه بأكمله. لن يُساعدك كل هذا الهراء عن الماضي عندما يفتحون نيران مدافعهم علينا".

"ظننتك تُريدني ميتاً".

"مهلاً، ليست هذه رغبتِي، وإنما عملي وواجبي، إذا وضعت مسدساً في يدي الآن سأقتلك طبعاً، لكنك لن تفعل، وبالتالي أريد أن أسدي لك نصيحة، أفض الآن من هذا اليخت، لأنه من المؤكّد أنهم رصدوه وسيتم تفجيره في خلال دقائق".

لم يكن كورت يستمع، بل أراد بعض الإجابات "من الذي أمر بتصفتي؟ هل هو (مات هانلي)؟"
أدار زاك عينيه بإحباط، ثم قال "لا أعلم".

"هل كان لويد؟"

تجمّع حاجبا زاك، نظر للأعلى وقال "من يكون لويد بحق الجحيم؟"

"ذاك اسمعني، يُمكنني مُداواتك، فقط أجبني، من الذي أمر بتصفيتي؟ ولماذا؟"
 "اللعنة عليك يا 6، لن أذهب إلى أي مكان، ولن أنطق بكلمة".
 "ما مشكلتك يا ذاك؟"

"أنا مقاتل عسكري يا كورت، أنفذ الأوامر، واقتضت أوامري بتصفيتك، لا أن تُنقذني من الموت.
 اسمعني يا رجل، أنت صالح. وأنا أشجّعك هنا، لكنني لن أفعل شيئاً لمساعدتك. فهذا ضد أوامر
 عمليتي".
 "أنت مجنون لعين".

ابتسم ذاك. وتمكّن جنترى من رؤية الألم على وجهه "أنا فقط أؤدي وظيفتي، ويجب أن يقوم المزيد من
 الأوغاد بعملهم. لا أقصد الإهانة".

صرخ كورت بإحباط "اللعنة يا ذاك!" وقف هناك فوق رئيسه السابق، وفكّر للحظة طويلة، قبل أن يُغادر
 الطابق، ويركض إلى الأعلى نحو قمرة القيادة. ظل يفتش حتى وجد علبة الإسعافات الأولية ثم عاد بها في
 ثوانٍ ليُنقذ هايتاور.

أدار ذاك رأسه ببطء ليواجهه "ماذا تفعل بحق الجحيم؟"
 "أنت تعرف ما أفعله يا أحمق، وتعرف أنني لا يُمكنني الوقوف هنا وتركك تموت فحسب".
 مزّق جنترى قميص ذاك كاشفاً عن الجرح، الذي لم يكن كبيراً. عرف كورت أن الرصاصة قد اخترقت
 رتته. مدّ يده تحت ذاك ليتحسّس جرح الخروج.
 "حتى إذا أنقذتني من الموت سأطاردك وأقتلك".
 "لا، لن تفعل هذا".

نظر هايتاور إلى السقف بعينين نصف مفتوحتين، وهزّ رأسه في عدم تصديق، ثم قال "أنت شخص ساذج
 يا كورت في حُكمك على الأشياء والأشخاص".
 "أعرف نفسي أفضل من أي أحدٍ آخر".

بعد خمس دقائق، عمل جنترى على جعل حالة هايتاور مُستقرة، على الأقل في الوقت الحالي.
 فحص جسده فلم يجد جرحاً خارجياً، مما يعني أن الرصاصة أو شظاياها قد استقرت في تجويف صدره
 المتضّرر. أحضر ورق مجلات وشريطاً لاصقاً من مكتبة اليخت، واستخدمهم كإسعافات أولية في حجب

الثقب، بحيث يتنفس المصاب من أنفه وليس من جرحه، وبالتالي لا يدخل الهواء إلى تجويف الصدر. وكان هذا هو كل ما استطاع الرجل الرمادي صنعه بما توفر لديه في الوقت الحالي.

ثم ترك رئيسه السابق طريقًا على الأرض وذهب لغرفة القيادة، وفي غضون دقائق، كان قد شغل جميع الأنظمة، وتجاهل معظمها، باستثناء المحركات والبوصلة وعجلة القيادة والتوجيه الآلي. ركض إلى سطح اليخت، وتأكد من عدم إنزال المرساة. كان متأكدًا من وجود طريقة ما للتحقق من دفة القيادة، لكنه اعتقد أن النظر إليها سيكون أسرع من محاولة معرفة أي شاشة تعرض تلك المعلومة الصغيرة. امتنع عن إضاءة أي أنوار؛ فقد أراد التسلّل خلسةً إلى المياه الدولية بقدر ما يمكن ليخت فاخر بطول ثمانين قدمًا أن يتحرك. عرف أنه لن يصل إلى ممر ملاحى لبعض الوقت، لكن تمنى أن تكون أي حركة بحرية مدنية هناك في الظلام مزودة برادار على متن اليخت، لأن كورت لم يكن يعرف كيفية تشغيل تلك الوظيفة بالذات في شاشة العرض الكبيرة المتعددة الوظائف، ولم يرغب في الاصطدام بقارب آخر.

ضغط على دواسة الوقوف برفق، فاندفع القارب الكبير إلى الأمام. وعندما وصل إلى سرعة عشرين عقدة، ضبط نظام التوجيه الآلي ليحافظ على المسار الحالي، وركض عائدًا إلى الطابق السفلي.

دخل كورت إلى الطابق السفلي، ليجد زاك يزحف بصعوبة تحت طاولة مطوية من الحائط. تتبّع كورت عيني الرجل الجريح إلى مسدس على الأرض، وكان قرب قبضته. تأمله فوجده نفس السلاح الذي وجّهه له هايتاور وهو يُحقق معه حين اقتادوه من اللوكاندة المتواضعة لمقرهم.

كانت حركة المصاب مشلولة ولم يبذل الرجل الرمادي أي مجهود سوى ركل المسدس بقدمه بعيدًا عنه.

قال جن تري "أيوافك قلبك على هذا!"

أوماً زاك برأسه، وأغمض عينيه مُجددًا "قلبي مشغول بآلامه" تألم بشدة، قبل أن يُضيف "ضغط الهواء في تجويف صدري يوقف قلبي".

"إذا وعدتني بالتوقّف عن محاولة قتلي لدقيقة واحدة ربما سيمكنني عندئذ مساعدتك".

قال زاك "لا وقت لأي وعود الآن".

ثم انقلب على ظهره، صارخًا من الألم. كانت أنفاسه ضحلة وثقيلة. قلب كورت سكينه بسرعة، ووجد بقعة بين الضلعين الثاني والثالث على الجانب الأيمن من صدر زاك، أحدث ثقبًا سطحيًا في الجلد والعضلات. صرخ زاك. وعلى الفور هرب الهواء من الثقب بصوتٍ صفيّرٍ خفيف. ذهب إلى حوض السمك في الزاوية، وسحب بعض الأنابيب المطاطية، وفلترًا من الماء، قبل أن يعود إلى الرجل الجريح. دسّ الأنبوب في الجرح الحديث بالصدر، وثبت الفلتر في الطرف المفتوح، ثم وضعه أرضًا بجانب ذراع زاك، وقال "حين نخرج من هنا سيتعين علينا أن نستخدم كل المضادات الحيوية الموجودة في العالم الغربي".

سعل زاك، وظهر بعض الدم على شفّتيه، وقال "بجدية يا رجل، سيكون الزورق الحربي هنا في أي لحظة، إلى أين يتّجه بنا هذا اليخت؟"

جلس كورت بجوار زاك، مُنهكًا ومتقرحًا ومريضًا من عدوى ظهره. أخرج هاتفه المتصل بالقمر الصناعي من حقيبته، وقال "حان وقت اللجوء للحمقى الروس".

وصل كورت إلى سيد في المحاولة الثالثة "الرجل الرمادي معك يا سيد، لقد انتهى الأمر!"
"نعم، الخبر في كُل مكان. لقد مات الرئيس عبود، والجميع في موسكو مسرورون للغاية".
"هل عُثِرَ على الجثة؟"

"نعم، بالقرب من مُتجمع على بُعد ستين ميلًا شمال سواكن. غريب للغاية".
تنهَّد كورت بارتياح، وقال "أجل، سأشرح لك كُل شيءٍ عندما أراك. علينا الإسراع حقًا في عملية الخروج على الفور".
"حقًا؟"

"سأت الأمر كثيرًا، ولن يُمكنني الاختباء كما خططنا في الأصل".
"حقًا؟"

قالها سيد دون أي حماس، وشعر جنثري بقدم بعض المتاعب.
"نعم، أنا جريح".
"جريح؟"

"يمكننا تأجيل طرح الأسئلة لوقتٍ لاحق، أحتاج إلى بعض المساعدة".
"أخشى أن اتفاقك لا يشمل التأمين الصحي أيها الرجل الرمادي".
لم يُقل كورت شيئًا. وانقبض فكهُ بقوة.
واصل رجل المافيا الروسي حديثه "أعرف أن عبود قُتل، لكنك لم تقتله، بل قتله قنّاص أثناء محاولتك تسليمه على الحدود للمحكمة الجنائية الدولية، لقد كذبت عليّ واستخدمت عمليتي لتخدم أطرافًا أخرى".
اللعنة!

سأله "أين سمعتَ هذا الهراء؟"

وهنا صرخ فيه سيد بنبرته الروسية "إذا ظللتَ تظن أني أبله سأتركك تموت في مكانك بسبب خيانتك".
"سأقتلك يا سيد!"

"لقد أخبرتني لتوك أنك تحتاج مساعدتي كي تنجو، والآن ترميني بتهديداتك! لقد كنت رجلًا خطيرًا يا كورت، ولهذا جعلتُك من رجالي، لكنك الآن ضعيف وجريح، وبعد قليل لن يكون لك أي وجود".
ضحك سيد، وأغلق الخط.

قال كورت "اللعنة" ثم ألقى هاتفه أرضًا واستلقى. كانت العدوى تستنزف آخر احتياطي طاقته.

ظنَّ أن هابتاور فقدَ الوعي، لكن مريضه أدار رأسه ببطء، وسأله وعيناه لا تزالان مُغمضتين "ماذا قال سيد؟"

"استخدم الكثير من الكلمات ليقول لي تبًّا لك".

ابتسم زاك ابتسامةً ضعيفةً، وقال بصوتٍ خافت "اللعنة، إن رئيسك أبله فعلاً".
"نعم، أعرف".

"واجه الأمر، لن يأتي أحدٌ من أجلنا. يُمكنك العودة إلى الشاطئ، فغالبًا هذا هو خيارك الوحيد".
مدَّ كورت يده فوقه إلى حانةٍ صغيرة وأمسك بزجاجة ماء. صرخ ظهره من الألم وهو يفعل ذلك، فكَّ غطاءها وأخذ بضع رشقات. سكب بضع رشّات فوق رأسه، وهو يجلس على سطح اليخت المتمايل.
ساد صمتٌ للحظات، وشعر كورت بمرور الوقت. ظنَّ أنه شعر بميل القارب إلى اليمين قليلاً، لكنه تجاهل الأمر، لا بُد أن المسار صحيح.

قال بلا مُبالاة "حسنًا أنا أرحب بأي اقتراحات".

لكن زاك أطرق ساكتًا هو الآخر. فقدَ وعيه، رغم أنه كان يتنفس بشكل أفضل بعد إدخال الأنبوب لتحرير الهواء المتراكم. رغم ذلك لا يزال من المحتمل أن ينزف حتى الموت إذا لم يصل إلى المستشفى قريبًا.
مدَّ كورت يده إلى حقيبة الإسعافات الأولية ليرى ما هي الأدوية المُسكّنة للألم المحفوظة هناك.

ارتفع حاجباه إذ خطرت له فكرة مُفاجئة. لم لا بحقّ الجحيم؟

مدَّ يده إلى الهاتف مرّةً أخرى، وأحنى رأسه مُستندًا على جدران المقصورة الخشبيّة. طلب رقمًا، ووضع الهاتف على أذنه.

رنّ الهاتف رنةً.. رنة ثانية.. خامسة. ونظر كورت إلى ساعته.

أظهرت بطاريته أن طاقة الجهاز تنفذ بسرّعة.

أجابته امرأة "آلو، مركز الخدمات الأمنية في شلتنهام".

"أيمكنني التحدّث لدون فيتزوري؟"

"من المتصل؟"

"كورت".

"حسنًا، لحظة واحدة".

مرّت لحظة من الصمت، الهاتف مُعطّل تقريبًا، ولا بُد أن تليفون زاك هنا في مكانٍ ما، لكن كورت كان مُتعبًا جدًّا للبحث عنه.

"دون فيتزوري" هو الرئيس السابق لكورت في عالم الجوسسة، قبل جريجور سيدورنكو، وفي ديسمبر الماضي انقطعت العلاقة بينهما بعدما نشب خلاف بسيط تعهّدا بناء عليه أن يبقيا صديقين من بعيد.
لكن الأحداث اليائسة، تتطلّب اتخاذ تدابير يائسة.

جاء صوت فيتزوري الخفيض الحشن عبر الخط "مرحبًا، كيف حالك يا فتى؟"
"أمرٌ بظروفٍ من الصعب الحكى عنها".

"يؤسفني سماع ذلك، ماذا حدث؟"

"ألم تشاهد الأخبار؟"

ضحك ضحكةً مكتومة، ثم قال "الأخبار الوحيدة التي تهّم رجلاً مثلي، هي تلك التي تحدث على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، وآمل حقًا أنك لست متورطًا في كل هذا".

تنهّد كورت قائلاً "آسف، لكن ما تخشاه حقيقي".

سادت لحظة من الصمت، ثم سأله "سمعتُ أن لسي آي إيه يدًا في الموضوع، أعدت للعمل معهم؟"
"نعم، لكن بشكلٍ غير رسمي".

"بمعنى؟"

"حسنًا، في الواقع، إنهم يُحاولون قتلي الآن".

"تبدو علاقة حميمة دموية، يعني هذا أنك لا تعمل معهم؟"

"شيءٌ من هذا القبيل، نعم".

قال الرجل الإنجليزي على الفور "كيف يُمكنني المساعدة؟"

"بهذه البساطة؟ أنا في ورطة يا دون. أنت الشخص الوحيد الذي يمكنه مساعدتي، ويُمكنك أن تطلب أي شيء تريده".

"سنحلّ الأمر لاحقًا، لكن أعدك أنني سأبذل قصارى جهدي لإخراجك من هناك".

تردد كورت للحظة، ثم سأله "ألديك أي عناصر في المنطقة هنا؟"

"أحتاج لإجراء بعض المكالمات، لديّ أصدقاء في مصر وإريتريا، ربما غدًا بعد الظهر...".

"لا ليس لديّ وقت لهذا، أريد شيئًا أسرع".

ارتبك دون للحظة، هبطت معنويات كورت المرتفعة من جديد بمرور الوقت، أغمض عينيه، وأحنى رأسه للخلف، ثم فتحها.

"الديّ قارب، أنا أبحر بسرعة عشرين عقدة باتجاه المياه الدولية".

"قارب؟ حسنًا، هذه فكرة رائعة".

"لكن خفر السواحل السوداني لن يتركوني".

أعطى كورت إحدائياته لفيتزوري الذي كتبها على عجل.

"ينبغي أن تراوهم، لن أستطيع مساعدتك ما لم تخرج من المياه الإقليمية".

"لو كان لديّ ما ينفع؛ سفينة أو قارب أو حتى عوامة لعينة لأتشبّث بها، لشعرتُ بتحسّن كبير".

قال دون "لا بُد أن يكون هُنَاكَ جهاز إرشاد محمول باليد على متن القارب. اعثر عليه فورًا. سأُتصل بصديقٍ يعمل ضامنًا بحريًّا في شركة لويديز أوف لندن، وأحصل على قائمة بكل قاربٍ أو سفينةٍ أو يَختٍ في حدود ثلاث ساعات من مكانك. إن كُنْتُ لا أعرف مالك أو قبْطان إحدى هذه السُّفن، فسأجد مَنْ يعرفه. اتجه شرقًا، واخرج إلى البحر بأسرع ما يُمكن. وعندما تكون في المياه الدولية، وتبتعد عن السودانيين، أطلق إشارة استغاثة".

"تمام فهمت، شكرًا على أي حال".

"اشكرني لاحقًا، المهم الآن أن تتدبّر أمر خروجك من عندك".

أغلق كورت الهاتف، وعاد إلى قمرة القيادة لتسريع المحركات.

عشر الرجل الرمادي على جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص بالاستغاثة في قمرة القيادة، فوضعه في حقيبة صغيرة مربوطة بساقه، ثم عاد إلى مقصورة القيادة. دفع الخانق إلى الأمام. لم يتبق سوى أقل من ساعة على بزوغ ضوء النهار، وجه جنترى مُقدّمة اليخت إلى الشمس البرتقالية، على أمل أن يكون موجودًا لرؤيتها تُشرق.

فجأة.. غمر قمرة القيادة ضوء ساطع. انحنى كورت بشكل غريزي، وتلفت حوله بحثًا عن مصدر الضوء. وجدته في المؤخرة على الجانب الأيمن، ضوء كشاف لا يبعد أكثر من مائة ياردة.

وسرعان ما قفز كورت ليتفادها مختبئًا تحت الدفة، واستخدم الأرضية المشمعة لينزل كالأفعى نحو سلام الطابق السفلي. انزلق لتحت، وآلمته كتفه، لكن خوفه كان الوقود الذي حرّكه بسرعة.

على السطح الرئيسي، انتظر كورت توقّف إطلاق النار شبه المُستمر، وأمسك ببندقيتي القتيلين في الممر. كاننا قديمين وسيئي الصيانة. وعرف أن إطلاق النار على الزورق الحربي سيكون تهورًا غير عادي، لكن عدم إطلاقها عليه سيسمح له بالاقتراب منه كما يريد، وتوجيه رشاشاته حتى تتوقّف المحركات ويغرق اليخت في المياه السوداء.

وقرّر كورت ألا يجعل الأمر بهذه السهولة بالنسبة لهم.

زحف إلى مقدمة اليخت، متخفيًا عن الأنظار. بدا أن المدافع قد ركزت على الدفة والمؤخرة، على الأرجح لتدمير أجهزة التحكم والمراوح وإيقاف اندفاع اليخت إلى المياه الدولية، وكذلك لقتل أي شخص مُحتبئ تحت سطحه. لكن مُقدمة اليخت كانت لا تزال في الغالب محجوبة في الظلال الداكنة للصالون العلوي، وقمرة القيادة، واستغل جنترى ذلك لإخفاء حركته. قلب مفتاح السلاح إلى الوضع الأوتوماتيكي تمامًا، وصوب فوهته نحو مصدر الضوء، ووضع إصبعه فوق الزناد. في فترة التوقّف البسيطة التي استغرقها لتركيه حواسه قبل إطلاق النار، لاحظ أن سطح اليخت تحته لا يتحرك في خط مُستقيم. لا، لقد شعر بانجذاب ملحوظ وقوي للغاية إلى يمين المركبة التي يبلغ طولها ثمانين قدمًا. لم تكن لديه أي فكرة عن السبب، وخمن أن المدافع الرشاشة قد أتلفت الدفة بالفعل.

أخرج الأمر من ذهنه، وضغط على الزناد. انفجر الضوء في وميضٍ من الشرر. وفجأة غطى الظلام اليخت بأكمله، وكان الزورق الحربي هو النقطة الوحيدة المضيئة، حيث كشفت نوافذه، وإضاءته الكهربائية جميع الرجال على سطحه.

أطلق كورت ما تبقى من ذخيرة البندقية الأولى بالكامل نحو الرجال، فقتل اثنين منهم، وأرسل البقية مُنبطحين على سطح المركب. وعندما انتهت طلقاته، ألقى سلاحه جانبًا، وركض إلى الجانب الأيسر من اليخت. عرف أن الوميض الساطع للسلاح سيجذب الانتباه، وكان بحاجة إلى الابتعاد عن مقدمة اليخت

قَدْرَ الإمكان. عاد إلى سلام الطوابق السفلية في الوقت الذي بدأت فيه المدافع الرشاشة تضرب اليخت مرّة أخرى. رأى على السلام أن المركب كان قد ثَقِبَ وبدأت المياه تغمره، مائلاً للجانب الأيسر.

عاد إلى الصالون السفلي، وجثا على يديه ورُكِبَتِيه. كان تحت خط الماء، وبالتالي في مأمن من الرصاص. وجد زاك مُستلقياً في مكانه. وصدره العاري مُعْطَى بالضمّادات، والعرق. بينما فتح عينيه وأخذ يرمش.

قال بينما كورت يزحف إلى جواره "إنها البحرية السودانية اللعينة" أرسلت قذيفة عابرة من المدفع الرشاش شظايا زجاج وزخّات مياه في جميع أنحاء الصالون فوق رؤوسهم مباشرة. وبعد ثوانٍ توقفت المحرّكات وبدأ اليخت ينجرّف في صمت.

لكن إطلاق النار استمر، وتوجّب على كورت الصراخ لسمع زاك وهو يقول "سنصعد إلى سطح اليخت!"

"لا تنس واقبي الشمس إذن".

"نحن نغرق، سنضطر للذهاب إلى جانب الميناء. ربما يُمكننا الانتظار قليلاً، ونُرسل الاستغاثة على التردّدات اللاسلكية عند مُغادرتهم".

"لن ينجح هذا. لسنا قريبين من المياه الدولية، وسيسمع السودانيون الاستغاثة ويعودون لإنهاء مُهمتهم".
"سأغرق زورق البحرية، ليس لديّ أي بديلٍ آخر".

أسند زاك رأسه للخلف، وقال "حسناً لا تشغل بالك بي، قُمْ بما يتوجّب عليك فعله".
توقفت نيران الرشاشات فجأة. نظر كورت حوله، ولاحظ أن زجاجة المياه التي تركها أرضاً قد تدرجت جانباً. وفي غضون ثوانٍ، بدأت أغراض أخرى داخل العُرفة في الانزلاق على سطح اليخت الأملس.

قال كورت "نحن ميتون لا محالة، لا بُد أن عُرفة المحرّكات مُمتلئة، لكن لماذا لا يُطلقون النار؟"
لم يقل زاك شيئاً.

قال كورت "سأعود حالاً".

صعد الدرج زاحفاً على يديه ورُكِبَتِيه، كان القارب يغرق بسرعةٍ غريبة، ويميل بزاوية عشر درجات. استلقى على سطح اليخت، وزحف إلى سوره، ونظر بحذرٍ بحثاً عن الزورق الحربي. الذي تحرك سريعاً خارج المنطقة، بعيداً عن اليخت، ولم يفهم كورت سبب هذا الأمر. سرعان ما نظر إلى السماء، قلقاً من وجود طائرة مُقاتلة تحمل صاروخاً أو أي شيءٍ آخر يستدعي انسحاب الزورق. لكن السماء صافية.

كان على وشك العودة إلى الممر، عندما لاحظها، فوق الماء، أسفل موقعه مباشرة. كانت تلمع في الظلام، وتندلجُ هناك مثل ورم كبير مُبلّل.

رآها على شكل سيجار، سوداء كالعقيق اليمني، وطولها يبلغ عشرين قدماً، مزوّدة بمروحية ودفة مُغلقة في الخلف، ومظلة بلاستيكية شفّافة في الأعلى.

غواصة.. غواصة صغيرة.

هزَّ كورت رأسه في عدم تصديق، وابتسم مُتمتًا "أيها الوغد!"
أدرك كورت الآن سبب انحراف القارب إلى اليمين بسرعة.
أهمل هايتاور ذكر ذلك لأن مهمته الأساسية هي قتل الرجل الرمادي، أما مهمته الثانوية فهي إنقاذ حياته.
أكنَّ كورت احترامًا كبيرًا لتركيز العميل 1 على مهمته، حتى لو أغضبه ذلك.
الآن فقط فهم كورت سبب تراجع البحرية السودانية؛ من المؤكّد أنهم ظنّوا الغواصة طوربيدًا فخافوا
وانسحبوا خشيّة من أن يفجّروه بالخطأ بطلقة طائشة من مدفعهم الرشاش.

عاد إلى الصالون ليجد زاك لا يزال على ظهره.

"أكنت ستموت لو أخبرتني بأمر الغواصة؟"

"تمنيتُ أن تقتلك".

"ستُخبرني كيف يُمكنني قيادتها؟"

"ألم يسبق لك الغوص بوحدةٍ شبيهة لها؟"

"ومن في الدنيا كلها استخدم غواصة كهذه!"

ابتسم زاك، ولم يقل شيئًا.

"أفترض أن هناك كتيبًا إرشاديًا في أي مكان هنا".

لم يكن هناك رد.

"أشعر بالرغبة في تمزيق هذا الأنبوب الآن يا زاك".

لا ردّ أيضًا.

"أعدك أني سأقتلك بمجرد أن تنتهي المهمة".

قلبه الرجل الرمادي على جانبه الجريح فتأوّه زاك، لكن كورت لم يكثر لآلامه.

سحب كورت القمر الصغيرة، وأغلقها. من خلال الحركة الصعبة لآلية الإغلاق، وعدم وجود مقبض جيد على الجزء الداخلي من الزجاج، تولّد لديه انطباع بوجود زرٍّ أو مقبض من شأنه التسبب في الإغلاق والإحكام التلقائي، لكن كورت لم يستطع حتى رؤية العدادات والمقاييس أمامه في الظلام، لذا فإن سحبها بإحكام بأطراف أصابعه كان سيُفي بالغرض.

تمكّن من وضع هايتاور بالداخل بصعوبةٍ ودون أدنى مساعدة منه، وبحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى سطح السفينة، هبطت درجة الحرارة إلى خمسٍ وعشرين درجة. استخدمنا كُلّ القوّة التي تتمتع بها ذراع كورت السليمة في تحريك زاك. انزلنا معًا على بدن الغواصة المبلّل، وخرج هاتِف القمر الصناعي من جيب جنترى وسقط في المحيط. وجد كورت مزلاجًا على السطح الخارجي لها. وكافح للسيطرة على وزن هايتاور، قبل أن يربط حزام أمانه كما لو كان طفلًا في مقعد سيارة. استغرق بضع ثوانٍ ليستعيد عافيته، ثم نادى راكبه المتردّد قائلاً "بحقّك يا صاح! ألن تُخبرني كيف نمضي بها".

قال: "أودّ مُساعدتك حقًا، لكن للأسف التعليمات التي لديّ أن أتخلّص منك، ولن تنفعني مُساعدتك في هذا، ولكن...". ضعف صوته بشدّة.

"اللعنة عليك وعلى تعليماتك، يجب أن نرحل من هنا".
لم يُجِبْه زاك.

تحسّس كورت أدوات التحكم.

ملاً صوت أزيز مدوّ الهواء، ثم سقطت فجأة بجانب غواصتهم قذيفة جعلت البدن يرتجج بهم، وتناثرت رغوة الماء على زجاج الغواصة، وكأن إصعارةً صغيرةً مرّت فوقها. تتمم هايتاور من مقعده الخلفي "أظنّ أن فترة الاستراحة انتهت".

"اللعنة!"

نظر كورت لأجهزة قيادة الغواصة المبهمة بالنسبة له، كان البديل الوحيد هو الانتظار على متن القارب حتى يغرق بهما، بدأ يضغط على بعض الأزرار ويسحب الرافعة الأساسية، وحين اهتزّت الغواصة وبدأت تتحرك غمره إحساس بالسيطرة الكاملة على هذا الجهاز الغريب الذي يُشبه كبسولة كبيرة. انفصل جزء منها غير ضروري وبدأت عملية الغطس فغمرت المياه التي باللون الأخضر البدن من أسفله لأعلاه ثم توقفت مرة ثانية. اندفع جنترى إلى الأمام نحو أدوات التحكم.

كان قد أهمل ربط حزام أمانه، على عكس ما فعله مع هايتاور.

صرخ من الألم. وبكل قوته انحنى إلى الخلف، وتحسّس فوقه بحثاً عن ذراعٍ أخرى خلف تلك التي سحبها، وجذبها للأسفل.

انفصل الكبل الخلفي، وانزلت الغواصة الصغيرة من جانب اليخت، وهوت خمسة أقدام إلى أسفل المياه السوداء بمقدّماتها أولاً.

وعند ارتطامها بالبحر، استقامت للحظة. واستغل كورت الوقت ليعود إلى كرسي قمرة القيادة. كان من الصعب القيام بذلك، لكنّه فعلها على أي حال، ولم يكد يكمل الضغط على المشبك حتى شعر بثقل الجاذبية على جانبه الأيمن. أحاطت بالفقاعة الزجاجية مياه خضراء داكنة مُعتمة، لذا انتظر جنثري عودة الغواصة إلى السطح ليُحدّد اتجاهاته.

انتظر لمدة خمس ثوانٍ، وطوال الوقت شعر بسحب الغواصة أكثر إلى اليمين، وكأنها تتدحرج بطريقةٍ ما. وبعد عشرٍ ثوانٍ أدرك أنها تتدحرج، لكن يبدو أن السحب إلى اليمين قد توقّف. كانت لا تزال مغمورةً في الماء.

سحب السكين الصغيرة القابلة للطي من جيبه، وتركها تسقط. طارت إلى الأعلى، ولم تُصب ذقنه وأنفه بل ارتدّت وانزلت إلى الأمام. أدرك كورت بعد ذلك أنها مقلوبان رأساً على عقب ويغرقان. صرخ مُقاوماً نوبة دُعر "زاك! زاك!" لكن لم يكن لديه أي وعي ظرفي الآن على الإطلاق، حيث دُفن تماماً في مركبةٍ ميتة في قلب المياه المظلمة. لم يُجبه هايتاور.

سمع من فوقه صوت قذيفةٍ تُصيب اليخت، انفجار على مرحلتين، الأولى هي الرأس الحربي، والثانية، بلا شك، خزانات الوقود. ضربت موجة الصدمة قاع الغواصة. لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك. امتدّت يده أمامه، وراح بشكلٍ هستيري يضغط على كل الأزرار الموجودة على لوحة التحكم أمامه لكن بلا جدوى.

اللعنة على ذلك، لم يحدث شيء. فرقت أذناه، ودخل رأسه ضغطٌ مُستمر. لم تكن لديه فكرة عن مدى عمق المياه هنا، لكنّه لم يرغب في الاستمرار في السقوط، ولا في الارتطام بالقاع، خاصّةً بالقبة الزجاجية أولاً. ظلّ يضغط على زرّ تلوّ الآخر دون أن يتمهّل ليعرف وظيفة كلّ منهم إن كان يُطلق الحمولة أو يفتح الباب، الثالث، الرابع، الخامس..

فجأة غمرت إضاءة الأشعة تحت الحمراء الدافئة المقصورة. ألمه رأسه بشدّة، وسيطر الغثيان على جسده بالكامل.

ومع الضوء الجديد، ظهرت على اللوحة عدة أزرار، توقّفت إصبعه عند زرّ مكتوب عليه (إتش يو دي)، ضغطه دون تردّد. بدأ تشغيل الشاشة الأمامية التي تعمل بالليزر، وعرضت جميع أنواع البيانات على الزجاج الأمامي. تزايدت السرعة والعمق بمرور الوقت، بينما دار الأفق الاصطناعي ببطءٍ في اتجاه عقارب الساعة، وتغير اتجاه البوصلة بثباتٍ حول القرص.

أراد معرفة الوضع، وحصل على ذلك. والآن، بعد أن أخبره الحاسوب الموجود على متن الغواصة أنه يتجه نحو حتفه، أدرك أنه لم يكن يرغب في تلك المعلومات على أي حال.

تفاحم ألم رأسه. تقياً الماء والعصارة الصفراوية؛ وخرج بعضها من أنفه، وسال إلى عينيه. مسح الحرق بذراعه المتعرقّة، ووضع يده على عصا التحكم على يمينه، وحاول تصحيح مسار المركبة، لكن لم يكن لذلك أي تأثير على الإطلاق. دفع الرافعة التي اتخذها كصمام خانق بيده اليسرى. مرّة أخرى، لم يفعل شيئاً. داس بقدميه الحافيتين إلى الأسفل، ضاعطاً على دواسات الدقّة التي لم تكن موجودة. تجاوز العمق ستين قدمًا.

قاوم كورت موجةً أخرى من الغثيان، وزيادة أخرى في الدُعر. ثم توقف عن اللعب في أدوات التحكم، ونادى بصوتٍ هادئٍ دون أي أماراتٍ هلع أو تهديد "ذاك، أنت بخير؟"
"نعم يا صديقي، فقط أستمتع بالرحلة".

قالها بصوتٍ ضعيفٍ بشكلٍ لا يُصدّق. وأدرك كورت أن هايتاور يُظهر عكس ما يموج داخله من اضطرابٍ وقلق.
ذاك هايتاور لا يريد الموت بدوره.

قال جنثري "لا يُمكنني جعل هذا الشيء يعمل". ثم أخرج مُسدسه، ورفع ليراه الراكب في الخلف
"لكنني أعرف كيف أجعل هذا المُسدس يعمل".
"أتهدّني بإطلاق النار؟ هذا سخيف حقًا".

تجاهله كورت، وقال "لقد تدرّبت على أعلى مستوى كي أبقى تحت المياه مدةً كبيرة، دون أي أوكسجين، إذا فجرتُ هذه القُبة، وأغرقت الغواصة، ونجحت في الوصول للسطح، سأسبح حتى أطفو ومن ثم أجد قطعةً عائمة من بقايا القارب تحمّلني إلى الشاطئ بحلول الليل".

"وبعد ذلك؟"

"أخرج من السودان".

"بهذه السهولة!"

قال كورت "أنا الرجل الرمادي! أنسيت؟"

انعقد لسان ذاك.

"لن يُمكنني مُساعدتك لو حدث هذا، أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟"

لم يُجبه ذاك، واعتبر كورت ذلك علامة جيّدة. لم يكن هايتاور أبدًا في حيرةٍ من أمره.

"اسمعني جيّدًا، سأعيش بشكلٍ أو بآخر، أما أنت فإذا لم تُساعدني بخصوص هذه الغواصة اللعينة فستكون نهايتك في أعماق المياه، حتى داني كارميكال نفسه لو كان مكانك لفعل ما أخبرك به، لكنك للأسف الشديد لست بهذا الذكاء لتنفّذ هذه الاستراتيجية. لست ذكيًا بما يكفي لتُميّز الصفقة الجيدة عندما تراها".

لم يردّ زاك.

"هناك طريقة فعّالة وحيدة أعرفها وهي أن أضغط على زناد مُسدسي. أتمنّى لو بإمكانني ترك المُسدس لك لتُطلق النار على نفسك قبل أن تغرق، لكنني سأحتاجه على الشاطئ".
ظلّ الآخر صامتًا، أما كورت فشعر بأن رأسه سينفجر هو وجيوبه الأنفية بسبب الضغط والقيء الحمضي في أنفه.

قال الرجل الرمادي وهو يتنفس بسرعة لزيادة سعة رئتيه "تجاوز العمق مائة وعشر أقدام، لقد تشرفتُ بالعمل تحت قيادتك وسأخبرهم كيف كانت نهايتك مأساوية".
وجّه كورت مُسدسه ووضع يده على الزناد.
سعل زاك بضعف.

قال كورت لنفسه اللعنة! لن يفعلها حقًا.

قال جنترى "أراك لاحقًا" ماطل للحظةٍ أخرى، ثم حرّك إصبعه إلى الزناد، واستنشق نفسًا كاملًا وعميقًا من هواء الغواصة.
ها نحن ذا.

قال زاك بسرعة، وبصوتٍ ضعيف "حسنًا، تحت رُكبتيك اليمنى هناك زر، أدره بالكامل إلى اليسار، وبجواره ستجد زرًا مربعًا صغيرًا مكتوبًا عليه "بروكون" هذا هو التحكم بالدفع، اضغظه الآن".
أنزل جنترى المُسدس، وما إن ضغط عليه حتى دوى صفير داخل الغواصة وأضاءت الشاشة المواجهة له ببياناتٍ حول تشغيلها وملاحظتها، كما ظهر مُجسم ثنائي الأبعاد لها يوضح كافة أجزائها ومحركاتها فبدت كأنها طائرة مقاتلة بزعانف.

"أمسك بعصا التحكم! يُمكنك قيادتها مثل طائرة، مُجرّد لمسة بسيطة".

أدار كورت دواسة الوقود، وشعر بهدير مُحرك خفيف، وأحسّ بحركة إلى الأمام. ارتفعت قراءة الشاشة من صفر إلى خمسة بالمئة، ثم عشرة، وعشرين وهو يضغط على دواسة الوقود أكثر.
"الآن، استخدم عصا التحكم لرفع مستواها. تحكّم بالزاوية والانحراف والدوران بالعصا، مثل الطائرة".

"أنا لستُ ماهرًا في قيادة الطائرات أنت تعرف هذا، ألا تتذكّر حين أوقعتُ طائرة من قبل".

"نعم كان ذلك في كيبف، أليس كذلك؟"

"في تنزانيا يا زاك، لقد كنتُ هناك".

"أتذكّر لك واقعة أخرى في كيبف، أليس كذلك؟"

"لا تعليق".

سرعان ما سيطر على الهبوط، ثم استقرت الغواصة، وبعد بضع ثوانٍ أخرى، اتجهت البوصلة نحو الشرق.

أمر زاك "قم بتشغيل الأضواء الأمامية!"

"أين؟"

"ألم تسبق لك قيادة سيارة يا أحمق! نفس المكان".

بحث بيده فوجد أن أضرار إضاءة الفوانيس شبيهة تمامًا بالسيارات.

وشغلها قبل أن يقول في صدمة "يا للهول!"

تحركت الغواصة بسرعة على طول قاع المحيط الرملي، الذي لم يكن على عمق أكثر من عشر أقدام.

بدأ كورت يلهث قليلاً. سحب عصا التحكم إلى الخلف، ودفع الصمام الخائق إلى الأمام وصولاً إلى أربعين في المائة.

"اضغط على الزر الأخضر لو سمحت لتنقية الأكسجين، نحن نتنفس ثاني أكسيد الكربون طوال هذا الوقت".

"علم".

بعد أن أمر زاك بتشغيل نظام الأكسجين، وتفعيل مجسات تفادي الاصطدام بالليزر في الغواصة، قادها كورت شرقاً لدقيقةٍ أخرى ليشعر بالمركبة. وبمجرد أن وثق من إتقانه قيادتها، نادى على هايتاور مجدداً وسأله "كيف أبلي؟"

"أنت فاشل، لا يمكنك قيادة السيارات، ولا الطائرات، وغالباً ستدخل بنا في مؤخرة حوت خلال دقيقة".

تمكّن كورت من سماع الارتياح في صوت الرجل المصاب.

بعد ساعتين، شعر كورت بأنهم أصبحوا في المياه الدولية. سمع أنيباً خافتاً وأزيزاً مُتقطعاً من الرجل خلفه. بينما ثرثر زاك بلا توقف في إحدى المرات. عرف جنترى أنه لا يزال موته ممكناً من جرحه أو من العدوى، حتى لو وصل إلى الرعاية الطبية الفائقة في الساعات القادمة. سيكون على السير دونالد بذل قصارى جهده لإنقاذهما.

لم تغب المفارقة عن الرجل الرمادي. كان قد أنقذ السير دونالد قبل بضعة أشهر، وقال لنفسه إنه لن يثق به مرةً أخرى، والآن أصبح الفارس البدين هو آخر آمال كورت.

في حوالي الثامنة والنصف صباحاً ارتفعت الغواصة فوق سطح المياه، وبعدها بنصف ساعة وصل مركب كبير يشبه ناطحة سحاب، أنزل سلّم إلى الغواصة. فتح كورت القبة، ونادى طلباً للمساعدة، فنزل رجلان على سلامٍ منفصلة، وثبتا هايتاور في حزام، ورفعاه إلى الأعلى.

صعد كورت السُّلم بقوّته المتبقية، رغم أن كتفه ألمته بشدّة، وتقياً من شدة الحرارة بينما السفينة الضخمة ترتفع وتهبط وهو مُعلق إلى جانبها. كان على وشك الوصول إلى القمة عندما مرّ بالحروف الكبيرة على مُقدّمة السفينة، وتوجّب عليه الانحناء للخلف ليقراً اسم السفينة التي أنقذته.

لوران جروب شيربورج

قال: "ممتاز". كان قد تعامل مع المجموعة من قبل، تلك الشركة الضخمة مُتعدّدة الجنسيات، والساخر في القصة أنهم حاولوا قتله من سنة بالضبط. ولم يكن يعتقد أبداً أنه سيصعد طواعيةً على متن إحدى سفنهم، لكنها الظروف هي ما تُغيّر مواقف الناس.

واصل كورت صعود السُّلم، وسحبه فريق من الإندونيسيين إلى جانب السفينة. وضعوه على نقالة ودفعوه لغرفة تمريض طلب فيها أن يحقنوه بالمورفين، قبل أن يفقد وعيه تماماً. وحين استيقظ وجد نفسه على متن مركب شراعي كبير مملوك لرجل أعمال ويلزي وصديق مُقرب لدون فيتزوري. سأل كورت عن حالة الرجل الذي جُلب إلى متن الناقلة معه، لكن طاقم السفينة لم يكن لديهم أي معلومات.

وبعد أربعة أيام، رسوا في ميناء الإسكندرية. تسلّل كورت جنّري إلى الشاطئ وغادر، ولم يره أحد أثناء مُغادرته.

فقد استيقظوا ذات صباح، ولم يجدوا له أثراً.

خاتمة

من بين الثمانين دولة التي تتعامل معها شركته في توريد الأسلحة، كانت الدولة المفضلة للطيار "جينادي" هي فنزويلا، وسبب هذا ليس الحياة الليلية في "كاراكاس" ولا جمال المناظر الطبيعية للغابات وسط الضباب، ولا فتيات الليل الساحرات بجمالهن وإغوائهن، لأنه في فيتنام وبوليفيا وكوبا كان يحظى بعشرات النساء في مرة واحدة، بل كان سبب حبه لذلك البلد هو امرأة، امرأة واحدة، "تانيا" ملكة جمال فنزويلا البالغة من العمر 29 عامًا، والتي اعتادت استقبال طيارها الهمام في واحد من أكبر وأشهر الفنادق، وهذه المرة بينما كانا معًا في الجناح يستمتعان بوقتتهما انطلقت صديقتها ماريًا في سيارتها المرسيديس المكشوفة نحو هدفها.

بعد أسبوعين من رحلته إلى الفاشر وصل جينادي مطار "سيمون بوليفار" برفقة بقية الطيارين الروس، ودّعهم متفقدًا معهم على مقابلتهم في اليوم التالي، ثم نقلته سيارة أجرة وفق تعليمات محددة مسبقًا وفي غضون ساعة كان يطأ بجزمته الميري سجاد أحد الفنادق الفاخرة يجرّ حقيبته المضادة لعوامل الجو، وصل الطابق المنشود وحين اقترب من باب غرفة رقم 709 وجده مفتوحًا مما أثار توتره العصبي والجنسي.

دفعه بيده وما إن دلف حتى رأى بتلات الورد الأحمر مفروشة على الأرض تُمهّد له الطريق المحفوف بشموع مضاءة نحو غرفة النوم، بدا الجناح ناعسًا تحت وقع موسيقى لاتينية رومانسية هادئة وشذا عطرٍ أثير يعرفه جيدًا ولو عن بُعد، لأنه يخصها هي وحدها.. تانيا.

دخل جينادي فراها على السرير مُمدّدة مربوطة في السرير، لكن ليس على وضع إغرائي بل بشكل جبري، وتأكد من قسوة المنظر حين انتبه لقممها المكتمم بلباسها التحتي، وقبل أن يُقدّم على أي خطوة كانت قد التصقت بقفاه فوهة مسدس "ارفع يديك!"

دون أي مقاومة التزم بأوامر مُهدّده الذي لم يتعرف عليه بعد. حاولت تانيا أن تنطق بأي شيء لكن كل ما خرج منها كان دموعًا ممزوجة بكُحل عينيها ولُعابًا من فمها المسدود.

انكتمت الموسيقى اللاتينية الستيمنتالية التي كانت تصدح في الجناح منذ لحظات. رافعًا يديه قال جينادي بصوتٍ خافت مُستسلم "ها أنا أستدير" وحين التفّ رأى على ضوء البرق الآتي من النافذة، ظلّ المطر الساقط معكوسًا على وجهه نفس الرجل الأمريكي الذي أفسد له رحلته في السودان.

"ماذا جدّ؟"

سأله الطيار بالروسية.

"لا شيء".

"إذن لماذا جئت؟"

"كلمني بالإنجليزية من فضلك!"

أطاعه "حسنًا ماذا تريد؟"

"أريد أن أناقش معك بعض الأمور."

"لقد سببت لي ما يكفي من المتاعب."

"لكنني للأسف لم أنته، ألا تزال تعمل في نقل الأسلحة."

"وما المشكلة؟"

"بخلاف خرق العقوبات تقصد!"

"لا أشغل بالي بالسياسة، أنا مجرد طيار."

"لكلِّ منّا قدراته الخاصة التي يمكن أن يستخدمها بشكلٍ خيّرٍ أو قديرٍ."

عرفَ جينادي أنه يُحدِّث قاتلاً محترفاً لكنه أجبر نفسه ألا يُثير هذه النقطة، رمى ببصره على رفيقته "أفعلتَ

لها شيئاً؟"

"هذا يتوقّف على تعريفك لكلمة شيء، ثم أنك تهتم لأمرها كثيراً رغم أنها قادرة على الاعتناء بنفسها،

خاصةً وأنها من الأشباح!"

"ماذا!"

"ألم تعلم أنها تعمل لصالح المخابرات!"

بُهِتَ جينادي صامتاً بينما كورت يجرّك سلك سماعه تجسّس رفيعة مثل المكرونة السباجيتي أمام وجهه مثل

بندول.

"مستحيل.. أنت كذاب."

"أنا أقتل لكنني لا أكذب."

حملق جينادي في "تانيا" لا يشغل باله سوى القفز على تلك العاهرة وخنقها بيديه بعدما خدعته طوال

ذلك الوقت.

"أنت تعمل لصالح سيدورينكو أليس كذلك؟"

"لا تشغل بالك بي.. أتعلم زوجتك بمُرافقتك لهذه المومس؟"

"بهذه لا، لكنها ستفهم لأنها تعرف أنني محبوب من نساء كثيرات."

"بالأخصّ أولئك اللواتي يُدفع لهن مقابل النوم معك."

"أنا أحب زوجتي بالمناسبة وأحترمها."

"من قال إنني أهتم بأمر زواجك!"

"إذن ما هو وجه اهتمامك!"

"عليك مساءلة نفسك إن كنتِ صرّحتِ بأي سرٍّ وأنتِ في حضن هذه الجميلة الفنزويلية".

"أنا مجرد طيارٍ روسي فخور ببلده".

"أمتأكد أنك لم تقل شيئاً".

صمت جينادي حائرًا مُتشككًا في نفسه.

"سأدفع لك مالا كثيرا".

"مقابل ماذا؟"

"أن تحكي لي".

"عم؟"

"صفقات السلاح.. أريدك أن تقنع السودانين كيف قتل الروس رئيسهم".

"فيم سيفيد هذا؟"

"ستُضطر روسيا لإجلاء قواتها من السودان وسيمنع هذا حربًا كبيرة".

"وما الذي سيجعلني أقدم على تصرّفٍ متهور كهذا! ستتخلص مني وكالة الأمن الفيدرالية الروسية".

"سأحميك أنا".

"سيقضون على أسرتي، زوجتي وأولادي الثلاثة".

"الخمسة تقصد، ثلاثة من زوجتك مارينا في موسكو، وتلك الطفلة من العاملة التايلاندية، وذلك الطفل

من مُضيفة الطيران التونسية".

"صحيح" قالها جينادي بخوف بعدما اتضح له أن قاتله الأمريكي يعرف عنه أكثر مما ينبغي "لكن ما

يهمني الآن أسرتي في موسكو".

"يمكنني إيصال أسرتك بفريقٍ من المحكمة الجنائية الدولية ليقوموا بحمايتهم".

"لا لا إذا أطعتك سأكون قد قضيتُ عليهم بغبائي".

"إذا استجبت لي ستُنقذ أسرتك أما لو خالفتني فلن تعيش".

"أنت تُهدّدي!"

"أتمنى لو كان الأمر بهذه السهولة، لكن بقاءك على قيد الحياة مُهمّ نظرًا لما تملكه من معلومات".

"وماذا إن لم أعطك ما تريد؟"

"سأسلبك أعز ما تملك!"

سكت جينادي قليلاً ثم صرخ "أولادي!"

"أتمنى ألا تصل بنا الأمور لهذه المرحلة".

"سأقتلك إذا فكّرت مجرد تفكيرٍ في أذيتهم".
"لن تستطيع".

بالورقة والقلم كانت كفة الميزان في صالح الرجل الرمادي، فهو قاتل وجينادي طيار، وحين انتبه لهذه المعادلة وأنه خاسر فيها، بكى.

بعد عشرين دقيقة كان كورت يقف داخل كابينة تليفون بالقرب من الفندق، وبفعل برودة الجوّ ضبّب زفيره الزجاج من حوله وحجب الرؤية عنه، مع ذلك كان بمقدوره ملاحظة أشباح المارة وهم يهرعون أمام الكافيات والمبارات المحاوطة كأن المطر يجرفهم من عنقه، أما هو فراح بعينه يمسح كل جسم يتحرك في محيطه ليتأكد من عدم وجود أي تهديداتٍ أو مُتتبعين له.

"مرحبًا، إين والش معك".

"لقد نقلته لغرفة رقم 422، لا أعتقد أن تركه مع رفيقته فكرة سيّدة".

"سنلتقط أسرته في وقتٍ قصيرٍ جدًّا ثم نلتقي به بحلول الليلة".

"أنت هنا في كاراكاس!"

"وصلت منذ ساعة".

"أجئت من أجل جينادي أم من أجلي؟"

"من أجله".

"شكرًا".

"في الحقيقة أنا قلقة عليك يا 6، لا أعرف ما قلته لجينادي كي تُقنعه بتغيير شهادته أمام المحكمة الجنائية الدولية، لكنني متأكّدة أنني لم أكن لأوافق عليه".

"العبرة بالخواتيم".

"سبق وحذرتك من أن تتحول دون دراية منك للنموذج الذي تكرهه".

"لا تقلقي!"

"ما رأيك أن نتقابل في اللوبي ونشرب شيئًا معًا، لا تخف لست هنا لأضع الأصفاد في يديك".

ابتسم كورت، لم يكن سعيدًا وإنما غمرته إثارة حسّية.

"أرجوك لا ترفض عرضي".

"أحتاج عشر دقائق لإجراء مكالمة".

"ممتاز، ربما لن تتعرّف عليّ بسهولة لأنك ستراني وقد أخذت دوشًا وارتديت ملابس نظيفة".

"أنا أيضًا أخشى نفس الفكرة تجاه مظهري".

"أراك بعد عشر دقائق، باي".

كان بمقدوره قراءة الأصوات، هي سعيدة على نحوٍ عاطفيٍّ، لكن كأسًا واحدةً لن تضرّ.
"ألو دون فيتزوري، الخطة تسير حسبما رسمناها".

"أصدّق الأبله فعلاً أن رفيقته عميلة للمخابرات؟"
"نعم".

"كانت فكرة خبيثة، إخافته من وكالة الأمن الفيدرالية الروسية".
"لا أعتقد أنه صرّح أمامها بما يضغط عليه".

"هذا يعني أنك استخدمت أساليب أخرى لإفناعه؟"
"بالضبط!"

"لا تبدو سعيداً".

"لا لستُ سعيداً على الإطلاق، لقد هدّدته بأبناؤه".

صمتَ دون فيتزوري بشكل جعل كورت يشعر وكأن الرجل الآن يُحاكِمه في سرّه "الغاية تُبرّر الوسيلة،
لقد أوقفتَ حرباً أيّاً كانت طريقتك".

"نعم صحيح" قالها بنبرة بائسة.

تأمّل قطرات المطر المتساقطة على زجاج كابينة التليفون، فكّر في إلين، اعترّته رغبة عارمة أن يخرج الآن في
هذه اللحظة ويشرب معها، أراد هذا، بل الأدقّ أنه احتاجه.

"أحتاج لإجازة".

"أشعر بك، تحتاج لما هو أكثر من مجرد إجازة، العالم كله خلفك يا 6".
"مَنْ؟"

"كلهم.. الحكومة الروسية.. الحكومة الأمريكية، سيدورينكو وأعوانه، السي آي إيه سيُجنّدون كلّ مَنْ
تطوّلهم أيديهم للعثور عليك، نصيحتي لك أن تهرب أيّاً كان مكانك وأيّاً كان ما تفعله، حتى أنا لا تُخبرني
بخطّ سيرك لأنهم سيحاولون الوصول لك من خلالي.

"وماذا عن المحكمة الجنائية الدولية؟"

"لم أسمع شيئاً عن مطاردتهم لك".

"تمام".

"اهرب، ولا تحاول استخدام أيّ من بطاقاتك الائتمانية، تعامل كأنك ميتٌ، الوضع هذه المرة مختلف
كُلّيًا".

هزّ الرجل الرمادي رأسه.

"اختبئ لستة شهور، تسعة، لا تُحاول الاتصال بي، كلّم أحداً يعرفني، إذا احتجتَ عملاً سأوفّره لك، إذا
أردتَ مالا سأدبّره لك".

"أنا فعلاً شاكر لك".
"لم أسدّد ديني لك بالكامل حتى الآن".
"لكنك فعلت الكثير".
"اهرب يا فتى! اهرب ولا تنظر ورائك أبداً".
خرج الرجل الرمادي من كابينة التليفون، وبين زحام المرور وزخّات المطر المُتساقط تماهى، اختفى كأنه
مُكعّبٍ ثلجٍ ذاب.

تمت